

روایت

# نفرتال

بکر الشعراوی



الأديب والفنان التشكيلي  
أبوبكر أبو الفتوح محمد الشعراوى  
اسم الشهرة: بكر الشعراوى



تجلس الصغيرة نفرتال أعلى صخرة اعتادت الجلوس عليها، قاضية ليلتها ناضرة إلى ساحة المقبرة التى تقع أسفل الجبل، أمام مدخل المغارة التى تعيش فيها مع أهلها.

تلك المقبرة القديمة التى تبعد عن البلدة (خواريست) الواقعة شمال الدلتا والوادي بمصر، والتى احتوت عظام سكان البلدة على مر السنين واختلط ترابها بعظام سكانها الموتى، فسكان المقبرة كأهل مصر خليط من أجساد المسيحيين والمسلمين، وبها ركن آخر ليس بكبير على طرف المدخل إلى اليمين قاطنيه قلة من يهود مصر .

اختلط تراب المقبرة بعظام وأجساد قاطنيها غير رافضة أحد الأجساد لكون صاحبه ذا دين أو معتقد معين، فكلهم بشر .. يذوبون فى تراب الأرض كما عاشوا عليها أحياء، وبالرغم من أننا نميز بعضنا على بعض أو يحقر بعضنا بعضاً، بما ينتمى إليه صاحب الجسد فى حياته من معتقد أو عقيدة، وقد يسير الإسراف إلى حد مصادرة ملكية أوحياة صاحب معتقد دون آخر فى حياتنا اليومية، فإن كنت محظوظاً فلا تكن من الأقلية فى مجتمع ما، فثمن ولادتك واعتناقك معتقد الأقلية فادح، إلا أن تضحي به لتصبح بطلاً فى نظر المذهب السائد .

صغيرتي نفرتال تبلغ من العمر أربعة عشر عاماً تقريباً أو بعد ذلك بقليل،- ترثدى جلباباً يحمى جسدها النحيف الجميل، يحميها

من برد الليل، والجو فيه برودة ملحوظة، لون الجلباب يبدو للناظرين من الخلف - فى ضوء خافت يأتى من المغارة خلال بوابتها - مائلاً للون وردى خفيف، ولكن من زاوية وجهتها التى تقابل أشعة ضوء القمر الفضى يبدو لون جلبابها أبيض مائلاً للزرقة، كما يعكس ضوء القمر لون شعرها الأسود فيصبح أكثر سواداً كمصريات الوادى، تمتلك عينين واسعتين تتفذان إلى ما تنتظر، فتخترق الأشخاص والأشياء إلى جوهرها ولا تخترقك ... يحدها كحولة طبيعية بخطين خفيفين يظهران بياض عينيها فيصبح أكثر وضوحاً، فهى مصرية بكل معنى فى وجهها وقسماتها، والبشرة المائلة للسمره متناسقة مع طمى الوادى.

تبدو فى جلستها ملكة ناظرة إلى مملكتها ونعم ساحة المقبرة الممتدة أمامها، بما فيها من مقابر وأجساد وأشجار السنط المعمرة، والنخل الذى يحيط بالطرف الغربى من المقبرة، وتلك الشجرة العتيقة التى تتوسط ساحة المقبرة، شجرة التوت التى اعتادت أن تأكل منه وهى صغيرة .

وما زالت المغارة والتى تبدو فى الليل شجرة تغذت وشربت من أجساد الموتى، فطرحت أرواحاً جديدة تحمل ثمارها على فروعها الطويلة القوية، ويفترش الأرض إلى جانب الصغيرة كلبها الذى خلد إلى النوم تحت قدميها، ذلك الكلب الذى نشأ فى المقبرة وتغذى على ما يجد فيها، ويحمل وجهه كل شراسة وقوة، وبين فكيه أنياب مخيفة، ذو شعر أسود كثيف، عندما ينتبه تجد كل شعرة فى جسده تقف وتصبح كالسهم والحراب، ولكن مع صغيرتى يصبح حملاً وديعاً، فقد تلقته صغيراً وأسمته "تراب"،

تجده دائماً حولها مداعباً وحارساً، حتى أطلق عليه كلب نفرتال من خلال الصغيرات وقومها قاطنى المغارة، فكلب نفرتال هو بعينه وصف لكلب أسود هو الشيطان بعينه فى اعتقاد بعض الناس ولكن ...

ساحة المقبرة فى تلك الليلة من صيف ليلة من لىالى مصر التى دخلها الإسلام منذ عدة قرون ..، قصتنا لا تقع فى حقبة معينة من الزمن، ولكنها وقعت على أرض مصر فى زمن ما، بعد أن أعلنها العرب الغزاة ولاية إسلامية، ليدخل الإسلام مصر ويتغلغل فيها، مقتحماً ديارها وجبالها والوادی ونهرها، لينزوى الصليب الذى تربع على عرشها وقلوب أهلها القبط مدة طويلة، ليس ديناً جديداً أو عقيدة سماوية أخرى حديثة العهد فحسب كسابقتها، بل هو غزو فكر البدو لحضارة الأقباط، فالغزو الإسلامى يبدو واضحاً فى ساحة المقبرة، تلك المقبرة التى اعتاد أهل البلد دفن موتاهم منذ آلاف السنين، وقد أخذت شكلاً آخر جديداً عليها خلال المائة عام .

وأولاً وأخيراً مائة عام لا تمثل فى عمر المقبرة زمناً، ولكن تلك القبور الجديدة للمسلمين تصدرت المقبرة لتتصدر المشهد، ولتسقط وتموت شهود القبور المسيحية وتتكس الأصلبة والتماثيل الملائكية، فكما انزوت من قبل قبور كانت أكبر عدداً لبني إسرائيل فى مصر تنزوى الآن القبور المسيحية لتحل محلها شواهد المسلمين، وفى النهاية المقبرة خليط من أجساد الموتى أيا كانوا مسلمين أم مسيحيين أم يهوداً، كل دفن على عقيدته وطبقاً لشريعته التى تضمن لكل منهم الجنة لأنه المعتقد الحق .

الكل له شريعة وطريقة فى حياته، التى لا يساور أحد منهم الشك فى أنها الشريعة الحق وأن كلاً منهم أصحاب الدين الحق، دين

الخالق، وما دون هذه الشريعة باطل، أو بمعنى آخر فإن الشرائع الأخرى هي ضرب من ضروب البهتان والزور، وإن كان كل شيء ظاهره السلام الاجتماعى والمعايشة السلمية المعلنة بين هؤلاء المصريين، إلا أن الجميع على ساخن والكل يعد العدة يوما للخلاص والفتك بالآخر.

تبعد المقبرة عن البلدة حوالى مسيرة ساعة على القدم، تلك المدينة ذائعة الصيت فى الوجه البحرى، شمال الدلتا، هى مكونة من مجموعة من القرى الصغيرة والمتوسطة المساحة، وتعتبر من أغنى بلاد شمال النيل وهى ليست ببعيدة عن عاصمة البلاد هليوبوليس القديمة والفسطاط القائمة أو مدينة العاص، والتي تغير اسمها حتى وصلت إلى القاهرة اليوم، فهى تقع على النيل وهى مركز تجارى بين قبلى وبحرى مصر .

ورغم أنها بلدة مزدحمة وتجارية، إلا أن أهلها يخافون أن يذهبوا إلى المقبرة، إلا فى مناسبات دفن الموتى أو فى جماعة كبيرة للزيارة، فقد انتشرت الخرافات والأوهام بأنها أرض يسكنها الأموات والجن ولا يحبون أن يكون بها بشر، وكم من ضحية قتلت فى طريق المقبرة أو خرجت ولم تعد إلى أهلها أو بيتها، وخاصة عندما يهبط الليل على البلدة .

أما نفرتال وقومها فليسوا من البشر.. أم هم بشر؟، ليست بقضية الآن ، يسكن أهل نفرتال هذه المغارة التى تطل على المقبرة، تلك المغارة التى يتصدر فتحة مدخلها أعلى الجبل المطل على الساحة، وتلتف هذه المغارة حول أرض المقبرة ولها دروب ودهاليز، وقد اتخذت كل جماعة أو عائلة درباً من دروبها للسكن فيه، وتوجد للمغارة فتحة أخرى بذيلها، إنها فتحة صغيرة بين



الصخور لا ترى للعين، تطل على غدير صغير به مياه جارية وعذبة، يقطنه سمك القرموط الغذاء الرئيسى لقاطنى المغارة.

قوام أهل المغارة لا يتعدى عشرة رجال وضعفهم نساء وكثيراً من الأطفال، مجموعة من اللصوص احترفوا السرقة والقتل والنهب مند باع طويل، واستقر بهم المطاف إلى سكن هذه المغارة التى تضمن لهم السلام والاختفاء عن عين الشرطة والعسكر والأهالى.

وقد ساعد ما نسب إلى هذه المقبرة من حكايات وأساطير - جعلت أهالى البلدة تبعد عنها دائماً - على أن يكون ساكنوها فى راحة وأمان، وقد يقوم بعض أفراد المغارة من حين إلى آخر حيث تكون الفرصة بخطف وقتل كل من تسول له نفسه أن يقترب إلى المقبرة أو يتحرك فى طريقها، حتى زاد الاعتقاد بأنها أرض الجن والعفاريت، فليل المغارة هو وقت نزول اللصوص إلى البلدة للسرقة والنهب، وأما نساؤهم وأطفالهم ففى سبات من النوم، إلا نفرتال .. فقد اعتادت دائماً أن تجلس فى موقعها على باب المغارة تطل على مملكتها.

ويقع خلف المقبرة والمغارة معبد فرعون من معابد الأجداد العظماء الذين كانوا يقدرّون الموت قبل الحياة، ولكن المصريين حملوا ذات الصفة، فكم من معارك ودماء سفكت على قتل كهنة آمون وكهنة آتون الأتباع وهدمت الجدران باسم الدين، وهدمت هذه المعابد .

فالصراع الدينى بين آمون وآتون سمة مصر القديمة، حيث إنهم قد اقتسموا المعبد والسلطة بينهم سنين، حتى أدرك كل منهم عبادة السيادة والحكم، ليقتلوا بذلك المعتقد الآخر، فكأنها قصة قديمة

زرعت حلقاتها بين ثنايا فكر شعب مصر، حتى عندما انضم إلى الصراع دين الخوارج بنى إسرائيل الذين خربوا مصر بدخولهم مع يوسف بن يعقوب تحت حكم المستعمرين لمصر، فأصبح الدخلاء والأجانب حلقة تحكم مصر الفرعونية لفترة، حتى وقف ونهض رب العباد لنجدتهم، وما زالت أطلال المعبد الفرعوني شاهدة على الأجداد، وقد نهب المعبد كسائره على مر السنين، وما من بيت في البلدة إلا وتحت أساس بنائه حجر من أحجار جدران ذلك المعبد.

الصغيرة ترقب دائماً ما يحدث في أرض المقبرة التي نسجت حولها الأساطير المخيفة والحكايات المرعبة، التي جعلت من أرض المقبرة أرض الجان والشیطان التي لا يجرؤ أحد على دخولها نهاراً وحيداً أو جمعاً بعد غروب الشمس، فالصغيرة منذ نعومة أظافرها جزء من المقبرة، فهي ترى ما لا يراه أحد ليلاً، ففي ظلمة الليل أو مع ضوء القمر يدب في أرض المقبرة نوع من الحياة .

فقد رسم قاطنو المقبرة لوحة أطياف وأشباح، نور ونار، عواء وعويل لثعلب أو كلب نابشاً لقبر حديث الدفن، والصغيرة ترى هذه اللوحة بحس ورؤية مختلفة، ليس لأنها بنت زعيم العصابة التي تقطن المغارة فحسب، ولكن لزعامه خاصة بها، فهي تستطيع أن تدرك ما بين الموت والحياة، ما بين عالم الأموات وعالم الأحياء، فهي تستطيع أن تميز بين الأطياف التي تمر في أرض المقبرة ليلاً من لونها، فهالات الأطياف يحمل كل منها لوناً وكل لون له معنى، وكل ميت حديث العهد بالمقبرة وبالموت يملك هالة لها بريق قوى واضح، يخبو تدريجياً عندما ينخرط في عالم

الأموات يوماً بعد يوم .

وقد رسخ فى وجدان نفرتال أن لون الهالة دلالة على طبيعة روح ساكن الجسد المتخلى عنه والمدفون فى أرض المقبرة، وما كان عليه من سلوك حال حياته، فعامة أطفال الموتى يميلون إلى اللون الأخضر، ولا يخبو بريق لونهم مهما طال عليهم البقاء فى عالم الموتى داخل المقبرة.

ويقطع صمت رؤية الصغيرة لعالمها صوت أمها:

نفرتال ... نفرتال .... ادخلى المغارة وخذى حظك من النوم، تأخر الوقت، وأبوك والرجال على وشك المجيء، وهو لا يجب أن يراك هنا كما قال لك.. يا بنت كفاية بقى بحلقة فى المقبرة ...

وتستمر الأم فى النداء: يا صغيرتى نفرتال.

ولكن لاتزال نفرتال صامتة لا تتحرك، فأقبلت أمها من خلفها جالسة إلى جوارها، ووضعت يديها عليها حاضنة لها وأخذت تنتظر إليها قائلة : ما بك يا صغيرتى؟ أنت ما زلت جالسة ناظرة إلى ساحة المقبرة تحمقين فيها؟.. ماذا يعجبك فى هذا الصمت القاتل؟ وماذا ترين ؟ أبك جان أم عليك عفريت؟

فتتظر إليها نفرتال قائلة : كيف لا ترين كل هؤلاء الذين يتحركون هنا وهناك؟

ردت الأم : ماذا؟!... الله يرضى عليك... لازم نروح نشوف لك حل يا حبيبتي.

ثم وقفت آخذة بيد الصغيرة إلى داخل المغارة لتتال قسطاً من

النوم، وتابعهما تراب كأسد ينسحب من معركة، يجر أرجله.

وبعد أن نامت نفرتال فى حضن أمها فى أحد أركان المغارة، تساقطت دموع الأم على خديها حسرة على الصغيرة، فهي تحس وتعلم أن جسدها النحيف سكن لأحد عمار المكان، وأن المقبرة قد أرسلت أحد قوادها من الأرواح لتسكن جسدها الطاهر .

فنفرتال رغم جمالها وذكائها تتنابها حالات غريبة وشروء دائم، ونفرتال بالنسبة لأمها أغلى أولادها جميعا لأنها وحيدتها أى هى كل أولادها، وكذلك هى بالنسبة إلى أبيها، زعيم العصابة (صحراوى)، فرغم قسوته وجبروته ويديه الملطختين بدماء الأبرياء، ورغم القاتل المأجور والشارق المحترف داخله، إلا أنه يحب نفرتال حباً خاصاً، وصحراوى قوى البنية على دراية كبيرة بفنون القتال والاغتيال كما أنه تجاوز الخمسين من عمره، وله من الزوجات والمحظيات ما لم يعد يتذكر، وقد فاتحته زوجته (تمارا) دوماً فيما ينتاب نفرتال، وقد ذهبت بها إلى العديد من الشيوخ فى القرى المجاورة وعملت الأعمال وعلقت الأحجية، وتعددت زياراتها للدير ولمقام الشيخ فما أغنى عنها شيئاً.

وبينما تمارا فى هذا الشجن سمعت صوت زوجها صحراوى و دبب قدميه التى تتحرك فى اتجاهها، وكان فى يده كالعادة قارورة مستديرة الشكل بها الخمر التى امتزجت بدمائه منذ عمر طويل، ونظر إلى ناحية زوجته قائلاً: لماذا لم تنامى ؟ نعمت الزوجة أرادت أن تعطينى شيئاً من السعادة والحب فانتظرتنى.

وأخذ يضحك بصوت عال كالمعتاد، ولكن لم تجبه تمارا وقد

مسحت دموعها بيدها، وردت عليه: يا صحراوى كفاية خمرة ونسوان...

ومضى صحراوى إلى أحد زوايا المغارة ليجلس وليكمل شرب ما يحمله فى يده، وقال: هات ما عندك يا تمارا ؟ أنا أعرفك من عيونك.

ثم سكت، وكانت تمارا امرأة فى الثلاثين من عمرها، تمتلك القوام الفارع، قوية البنية متناسقة، تمتلك نهدين مستديرين غير مترهلين، فهى لم ترضع طفلاً من قبل، لأنها لم تحمل أو تلد، ولكن صحراوى يحبها ولا يحتاج إلى امرأة لتلد له، فله من الزوجات والأولاد فى كل مكان وطريق وبلد ما يكفى، وبدأت تتكلم قائلة: أنت عارف كم أحب نفرتال، رغم أنى لم ألدّها .وقلبى يرتجف عليها خوفاً، وأقسم برب العباد أنى أعلم أن بها جاناً يكبر معها، وأنا لا أريد أن أفقدها أو أرى بها مساً، وكل يوم أزداد خوفاً عليها، فرد عليها صحراوى: الليلة كانت صعبة يا حياتى وأنا عاوز أسكر..

فأكملت: بس أنت كمان بتحب نفرتال...من يوم ما قتلت أبوها وأمها، ولم تطاوعك يدك على قتلها، بل حملتها إلى لأربيتها وتملاً علي وحدتى فى هذه المغارة قصدى السجن.

ورد صحراوى: يعنى لازم نتكلم فى نفس الموضوع كل ليلة فقد ذهبت لجميع الشيوخ والقساوسسة ولم يعرفوا ما بها ..ايه المطلوب منى؟

- لازم تشوف لى حل يا صحراوى.

فقام صحراوى واحتضن زوجته بذراعيه، ولكن لم يسقط قارورته، وصاح: بكره نتكلم مع الصالح، هو الذى يملك الحل.

ووافقت تمارا على رأيه، ثم افترشت الأرض لصحراوى لتكمل ليلتها عبثا .. بل خطفت القارورة من يده، وأخذت تشرب هى الأخرى.

أشرق صباح اليوم التالى على المقبرة وأهلها، والصمت قائم على جوانبها وأركانها، إلا من أصوات تتطلق من داخل المغارة، فالنساء استيقظن، وبدأت الحركة فى إعداد طعام الصبح للأطفال، بينما رجال المغارة فى سبات من النوم إلا من تولى الحراسة منهم، فالعادة دائماً واحد من الرجال يرصد ما يدور حول المقبرة، فإن حدث شىء غير عادى أو هجوم، يوقظ الرجال حتى يأخذوا الاستعداد.

ولكن رجال الحراسة اليوم ازداد عددهم، فالمقبرة اليوم مزدحمة عن بكرة أبيها، فالיום عيد عند المسلمين.. العيد الأصغر عيد الفطر الذى يعلن انتهاء شهر رمضان وصيام المسلمين والتعاطف والرحمة بينهم، وكعادة مسلمى مصر أن يقضوا صباح ذلك اليوم الأول من العيد فى المقابر، فيتوافد على المقبرة عدد كبير من النسوة المرتدين زى السواد الذى ورث عن أقباط مصر، وكل تحمل فوق رأسها السلة المصرية المملوءة بخيرات الله من المخبوزات والفواكه وما لذ وطاب، ويتبعهن الأطفال بالملابس المزركشة التى ترتدى فى الأعياد، تلك الألوان ذات الفضيات والمذهبات، وبعض النسوة اللاتى اعتدن ارتداء ملابس السواد و

يصطحبن أولادهن من خلال الفتحة الخلفية، ويندسون فى أهل الزيارة فينالون الخيرات والصدقات التى تهدى لأرواح الموتى، وكل جماعة منهم تقرش جزءاً من أرض المقبرة أمام القبر الخاص بهم، وتنتشر أصوات قراءة القرآن لراحة الموتى المغفور لهم فى قبورهم، فجميع الموتى المسلمين مغفور لهم وسيحتلون الجنة لأنهم يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وتخافتت الأصوات فى المقبرة حتى انعدمت بدخول الليل.

إلا نفر تال فقد اندست خلف إحدى صخور الجبل فى صباح ذلك اليوم، ترى ما يدور فى مملكتها بالنهار دون أن يلمحها أحد، وإلى جوارها كلبها تراب، ويتوافد إلى المقبرة أعداد غفيرة، ويركض الرجال ليصافحوا بعضهم البعض، وذلك القبر قد زادت الأعداد المتوافدة عليه، فهو قبر لمتوفى حديث العهد ولذلك كثر الصبار حوله وامتدت الأعواد الخضراء رحمة بمن قبر، ونال أطفال المغارة ما لذ وطاب من خبز الرحمة، مندسين بين أهل البلدة كالعادة فى الأعياد، ثم أدارت ظهرها إلى المقبرة عائدة إلى المغارة ذاهبة لتجلس مع أمها التى يتهلل وجهها لرؤيتها .

وقد سألتها لماذا لم تذهب إلى المقبرة لتتال ما لذ وطاب كأطفال المغارة ؟ فأجابت الصغيرة : أنا و تراب نأكل معك، فضحكت تمارا وضمت الصغيرة إلى حضنها، وما إن أدارت وجهها إلى ركن المغارة حيث يرقد والدها نائماً، حتى تسللت إلى جواره فأحس بها وكانت رائحة الخمر لا تزال تقوح من فمه، فأدار وجهه إليها مبتسماً ثم سقط فى بحر النوم مرة أخرى.

وتوجهت تمارا ببعض الطعام الذى أعدته إلى الصالح حنا، ذلك

الرجل الذى تجاوز الستين من عمره، وقد انضم إلى المغارة منذ زمن طويل، ولكن لم يكن لصاً ولا يحترف السرقة، بل يحتمى هنا فى أهل المغارة.

حنا كان شماساً معروفاً بدير من أديرة جنوب مصر، التى انتشرت من خلال التبارك برحلة مريم البتول وابنها المسيح عندما هربوا إلى مصر من اليهود، وكان حنا من أكثر المسيحيين حبا وشغفا لفكرة مقاومة الغزو الإسلامى لمصر، وكان حانقاً على المسلمين لما أصاب المسيحيين من انزواء فى أرضهم أرض القبط كما يعتقد.

ورغم أنه نشأ بالدير منذ نعومة أظافره، إلا أنه كون مع بعض الشباب المسيحي من أهل الصعيد جماعة تقوم بالمقاومة، وقد هجر الدير وعاش بمناطق الجبال على ضفاف نيل صعيد مصر، حيث يسهل الاختباء والتنقل، كما كان من دعاة حمل السلاح مكونين جيئاً للمقاومة، وخاصة أن والده قد قتل قبل مولده فى شجار مع أحد مسلمى النجع، ورغم أن المشاجرة تمت بعيداً عن كون الرجلين مسلماً ومسيحياً، ولكن قد تحولت إلى مشاجرة، فقد قامت بين الرجلين على رى الأرض ثم تحولت إلى صراع بين مسلمي النجع والأكثر عدداً وذوى القوة والنفوذ، ومسيحيي النجع الذين أصبحوا قلة ولا صوت لهم، وما لبثت المشاجرة أن أدت إلى قتل والده وهروب المسلم إلى عشيرته وأهله ليحتمى بهم.

وقد قضت المشاجرة كسابقتها على المشروع المسلم المسيحي بالنجع، ومنذ ذلك اليوم فإن حنا رغم صغر سنه وعدم إدراكه للأمر، إلا أنه تذكر دم والده الذى أزكته القصص والأساطير التى توحى بأن المسلمين هم القتلة وأن الإسلام هو السبب، وقد أصبح



والده من شهداء المسيحيين في مجتمعه وكنيسته، كما ماتت والدته بعد ذلك حسرة على أبيه .

و قد تعددت حوادث القتل والنهب من جماعته وكان مطلوباً أمنياً، وفي أحد الأيام صدم في أحد أصدقائه من فريق المقاومة الذي انقلب عليهم وكان عين العسكر فيهم، مما أدى إلى القبض على جميع أفراد فريق المقاومة، إلا أنه استطاع الهروب وقرر الذهاب إلى بحرى الوادى حيث كان يقطن أحد أقاربه هناك بقريتنا خواريث.

وبالرغم من وجهه قريبه المتهلل وعلى السعة والترحيب، إلا أنه قد وشى به مرة أخرى، حيث إنه مساء يوم هوجم البيت فهرب في اتجاه المقبرة، وكان العسكر في ركابه، فجرى مهرولاً ودخلها وهو لا يعلم ما كان يدور حولها من القصص والأقاويل.

وقد لاحظ حارس المغارة من اللصوص في ذلك الوقت قرب العسكر وراء شخص يجرى، فما كان من أهل المغارة إلا أن اختفوا والتحفوا بالصخور حتى باغتوا العسكر من الخلف وقتلوه، وقد أصيب أحدهم، وقد وقف حنا مشاهداً لما يدور خلف المغارة، فقبضوا عليه هو الآخر ليقتلوه، فراوغهم قائلاً : دعونى أضمد جراحه فأنا أعلم بخفايا الطب، فاستجاب الجمع واصطحبوه إلى المغارة فأظهر تضميد جرح اللص لما له من خبرة في الطب، فأبقوا على حياته إلى حين، ولكن أظهر لهم منذ ذلك اليوم كل حب، وقص عليهم مأساته، وطلب حمايتهم والعيش معهم على ألا يخرج من المغارة، ومنذ ذلك اليوم يعيش معهم في حماية أهل المغارة دون أن يشاركهم في السطو أو القتل، حتى أصبح واحداً

منهم له المشاورة، وعظمت مكانته بينهم لكبر سنه وحكمته.

وقد شارك الصالح حنا تمارا الحديث مراراً وكذلك صحراوى عما بنفرتال من ضروب المس، وكان يحب نفرتال، وكانت هى الأخرى دائمة الجلوس معه يعلمها من علمه، وكان فى حاله يصيد فى صمت ويأكل من صيده خلف المغارة، وكان أكله قليلاً وصلاته كثيرة، ولا يشكل أى عبء على أهل المغارة، بل كان لهم مشورة وحكمة، ولكن دون دعوة إلى دين ولا غيره، وهذا هو عهده بهم وعهدهم له، فلا حاجة إلى دعوة إلى دين أو رب، ومن أراد فلنفسه وبنفسه، حتى يستمر قانون المغارة.

وقد عزمت تمارا منذ ليلة أمس على الكلام معه حتى يجدوا حلاً لمشكلة نفرتال، قدمت إليه الطعام وكان فى ذيلها تراب، وانهمرت دموعها شاكية له حال نفرتال، ورغم أنه قال مراراً أن نفرتال ليس بها مس ولكنها محل انتقال عالمى الموت والحياة، وذات طبيعة خاصة، إلا أن تمارا لا تقتنع بذلك وخاصة أن أهل المغارة يتحدثوا عن حالها دائماً، وكانت قيد الوصف أن بها مس أو جن، مما أصر طلب زواجها رغم جمالها.

وعاودت الأم شكواها مراراً له، وهو يعلم كم من شيخ أو مشعوذ أو قسيس كانت نفرتال بين يديه، ولكن مازال الأمر قيد وصف ولا تقدم، وكان يحمل بين يديه ما قدمت له الأم من صحن به بعض الطحين وقال لها : اسمعى يا تمارا رغم أنى عند رأيي ولا أرى بها مساً، ولكنى أعلم أنه يوجد قس يدعى وليم مشهور وذاع صيته فى إخراج الجن والعفاريت، وقد برىء الكثيرون على يديه، وهو يأتى إلى الدير الصغير بالقرية مرة كل أربعة أشهر وأعتقد أن موعده يحل بعد يومين، فحاولى أن تعرضيها عليه، وأنا واثق

لو كان بها شيء لأخرجه وأذله.

وتهلل وجه الأم بما سمعت، وأجابت: سأذهب بها ولا أتركها،  
فنفرتال طفلة لطيفة وذكية.

واستأذنته وصاحت : خلاص يا نفرتال الفرج جاى، القس وليم  
حيخرج ابن الكلب ده من جسمك.

وأما الصالح حنا فرغم أنه قد أخذ الطعام لأنه لا يستطيع أن  
يرفضه من أم نفرتال، إلا أنه لا يأكله وإنما يكون مصيره إلى أحد  
صغار المغارة الذين اعتادوا حبه والمرور عليه دائماً، أو يكون  
من نصيب الكلب تراب الذى لم يرجع فى ذيل أم نفرتال لينال  
نصيبه من ذلك الطعام كالمعتاد .

وصالح قد أكسبته الخلوة والعيش مع أهل المغارة الهدوء  
والسكينة، وأصبحت العبادة مادة حياته، فأخلص للمخلص، ومع  
الوقت تغير فكره الذى امتزج بالانتقام من قاتل والده والمسلمين  
إلى الحقيقة.

فقد كشفت الأيام ما بها من الحب الحقيقى، ففى مادة الحياة أو  
الموت حقيقة أن الأرض للخالق، والعبد عليه أن يسكنها دون  
الفساد فيها.

اقترب الوقت من الفجر، وكانت الحاجة فاطمة فى فراشها تطارد النوم، ولكن كان يدور برأسها الكثير والكثير، فهى دائماً فى ذاكرة الماضى الذى لا يفارق مخيلتها، وبالطبع لا تستطيع أن تخفى قلقها الدائم على نجلها الوحيد مصطفى البالغ من العمر ستة عشر عاماً، مصطفى ذلك الفتى الذى يدرس علوم الدين والشريعة فى مدينة العاص .

والسيدة فاطمة سيدة ثرية عن زوجها المرحوم رشدى، والذى مر على وفاته خمسة عشر عاماً، فهو من أعيان القرية وهى الزوجة الرابعة له وقد أنجب منها وحيدها مصطفى .

وفاطمة تتحدر من عائلة فقيرة جداً، وقد حالفها الحظ بزواجها من رشدى، ولكن لم تدم السعادة عليهما، فبالرغم من حب الراحل رشدى لها وكبر سنه، إلا أنه كان يسرف فى لفظ الطلاق عند غضبه من فاطمة حتى كانت الطامة الكبرى أن طلقها ثلاث مرات وفقدها إلى الأبد، وقد ضاعت العائلة بألفاظ ثلاث عقاباً على رعونته، مما أفقده توازنه، وكان حبه لفاطمة وابنه كبيراً، بالرغم من أن عنده من الزوجات ثلاثاً ومن الأولاد البنات عدداً كبيراً.

وقد أفقد الآن فصال رشدى متعة الحياة وحاول مراراً الرجوع أو إيجاد مخرج ولكن الدين والأهل والشرع بادروا باغتيال أحلامه

وآماله فى الرجوع مرة أخرى إلى بيته حتى وافته المنية .

أما فاطمة تلك الشابة الجميلة فقد منيت بخيبة الأمل منذ طلاقها، وزادت همومها، وخاصة أن زوجات رشى وحوش كاسرة، وبالرغم من أن رشى قد فعل كل ما فى وسعه حتى يضمن لفاطمة ومصطفى حياة آمنة، إلا أنه قد نال فاطمة وابنها كثير من الأذى، وعندما مات رشى وقعت المصيبة الفادحة على فاطمة وابنها وكانت فاطمة مطمعا لأهل القرية ويدها محل طلب الزواج، ولكنها قد قطعت عهداً على نفسها ألا تتزوج وأن تربي مصطفى، وأن تجعل منه رجل دين وعالماً كما تمننت هى والراحل رشى .

وبالرغم من أن فاطمة تبدو محل حسد ومحل أطماع أهل القرية لجمالها ومالها، حتى بالرغم من أنه قد باغتها المرض، إلا أنها كانت حريصة على تربية مصطفى بقدر الإمكان، وكان فى خدمتها تلك السيدة المسنة نبوية التى تقيم معها فى الدار منذ أن تزوجها رشى، فكانت مخلصه لها ومحبة لمصطفى وكان لوجودها نعم الأثر فى إحياء ذلك البيت .

بيتها فى أطراف البلدة تحيطه حديقة كبيرة من أشجار المانجو واليوسفى والبرتقال والليمون تعطى رائحة زكية معطرة للجو، ذلك البيت الكبير ذو الأعمدة التى تحيطه من جهة اليمين إلى المدخل، حيث توجد المقاعد الخشبية الكبيرة على الطراز الفرعونى القديم ، وعليه سجاد وأكلمة، وخلف تلك الأعمدة تمتد أفرع العنب الممتدة والملتفة حول الأعمدة وصاعدة إلى السطح وجذورها فى الأرض، ذلك البيت ذو السقف المرتفع والذى سطح

بأعمدة من الخشب الزان.

وما إن سمعت نبوية صوت أذان الفجر حتى قامت كعادتها للوضوء، مختربة الردهة إلى حجرة الحاجة فاطمة لتوقظها لصلاة الفجر، فإذا هي الأخرى مستيقظة جالسة على السرير، وقالت : كالعادة لم تنامي يا حاجة ؟... تبسمت فاطمة قائلة : الحمد لله، ثم أردفت قائلة : وحشنى مصطفى ..الولد ده عمره ما سأل على إلا إذا احتاج مال .. ثم أخذت نفساً عميقاً وأشاحت بوجهها عكس اتجاه نبوية وكانت عيناها تمثلتان بالدموع.

-كان نفسى أنه يكون حنين على وأنا مريضة، عمره ما كان طرفاً فى مسئولية، حتى أرضه تركها فى عب الحاج صالح وأولاده ياخذوا خيرها، هو فاكّر أنى سأعيش له إلى الأبد ؟

وانخرطت فى البكاء، فشاركتها نبوية البكاء ثم تحركت إلى الجهة الأخرى ضامة فاطمة قائلة : لسه صغير بكره يعرف ويبقى كويس إن شاء الله.

أما مصطفى .. فتى القرية المدلل، فقد نال قسطاً كبيراً من الحب والرعاية والتدليل، وخاصة أن فاطمة كانت لا تدعه يلعب مع الصغار أو أن يبعد عنها خوفاً من أهل زوجها الراحل، ونظراً لظروف مرضها، وأيضاً لأن مصطفى حقيقة لا يريد إلا اللهو واللعب، ولا يعير أبناء الحى شيئاً من الاهتمام أو مشاركة فى أفكارهم، ولم يحاول أن يشارك أو يتعلم من الحاج صالح أى من فنون الزراعة أو تسويق المحاصيل، وبمعنى آخر إن الحاج صالح هو الآخر كان سعيداً بسلوك الفتى، وكان يعاونه عليه حتى يظل له السيطرة على الأرض ويعود النفع عليه وحده.

و الحاج صالح ليس له من الصلاح إلا اسمه، فقد اعتاد على سرقة مصطفى وأمه طوال السنين، وبالرغم من علم فاطمة بكل ما يدور حولها، إلا أنه كان الخيار الوحيد لها، فهو قريب لها ونفس الوقت معروف في البلدة بالقوة والنفوذ وله كثير من الأولاد، فكان حماية لها من أهل مصطفى المتربصين بهما.

أشرقت شمس الصباح على المقبرة، وما إن أتمت صغيرات المقبرة الفطور، حتى قمن إلى نفرتال ليذهبن إلى المعبد الفرعوني أو أطلال المعبد الفرعوني الذى يقطن خلف المغارة، ويعتبر جزءاً من المغارة، حيث اعتدن اللعب هناك بعيداً عن الأعين، ذلك المعبد القديم الذى يحجبه الجبل عن الرؤية من جهة مدخل المقبرة، فالصغيرات اعتدن أن يلعبن ويرقصن بين جدران ذلك المعبد، فلا أحد من أهل البلدة يأتى إلى ذلك المعبد حيث إنه يقع خلف المقبرة ومن ورائه الصحراء الواسعة، ويعتبر من أرض المقبرة التى نسجت حولها الأساطير، ذلك المعبد الذى تعتريه كثير من الأشجار الكبيرة المبعثرة، وأطلال تمثال على جانب الطريق المؤدى إلى البوابة، التى ما زالت صامدة وتتحلى ببعض النقوش، ثم نرى أنقاضاً لحدود حجرات ذلك المعبد الذى سقطت جدرانه عبر الزمن والسنين، إلا أنه توجد حجرتان ما زالتا تحتفظان بجدرانهما دون السقف، والصغيرات قد اعتدن اللعب فى ساحة المعبد الأمامية.

إلا أن نفرتال قد صمت عن سماع الصغيرات، حيث تعلقت عيناها الصغيرتان بنقوش جدران المعبد كما اعتادت، كأنها تسمع وترى ما سطر على الجدار من حكايات الأجداد، حقيقة واقعة كأنها تعيش هذه الأحداث، وقد امتلأت جوانب المعبد بصرخات وعويل وهرج من أطياف تتحرك فى كل اتجاه.

وفجأة تتوقف الأحداث لتسمع نفرتال أصوات البنات، التى هى



بمثابة دعوة لها لتتوسط دائرة الرقص المعتادة، إلا أنها فى رحلة مع نقوش الجدران، حتى امتدت يدا إحدى الصغيرات إلى جسدها فأفاقت من غفوتها، وهرولت إلى وسط الدائرة حيث تحلقت البنات حولها لتبدأ الرقص والغناء، وما إن بدأن الرقص حتى تقع عيناها على جدران المعبد المقابلة لها فيبدأ المنظر يتلاشى تدريجيا ويحل محل الرسوم المنحوتة، رسوم جدران معبد آخر اكتمل بناؤه، وبدأت خيالات لصور حقيقية تتحرك وأصوات صراخ مرة أخرى، والصغيرة تدور وتدور دون وعى غائبة عن السمع، حتى اختفت الصغيرات من أمام أعينها وسقطت مغشيا عليها وسط صرخات الصغيرات، اللاتى أصابهن الفرع لسقوط نفرتال مغشيا عليها، ففررن إلى المغارة لإخبار والدة نفرتال بما حدث لها.

وما إن زالت أصوات أقدام الصغيرات وصراخهن من سماع نفرتال، بل من المعبد عامة، فإذا بالصغيرة تدب فيها الحياة مرة أخرى لترى نفسها فى ذات البقعة من المعبد، ولكن المعبد مكتمل البناء وفيه حياة وحركة، وقد سمعت أصوات استغاثة وهرج حول المعبد، حيث يندفع أشخاص يرتدون ملابس الكهنة يجرون إلى داخل المعبد فى حالة من الذعر، يصيحون ويستجدون بالكاهن الأعظم الذى توسط المعبد يصلي للإله آمون إله القمر، لإنقاذهم والبلاد من يد الكفار كهنة آتون إله الشمس فى مصر القديمة، الذين غلبوا فرعون عابد الإله آمون على عرشه ليحل محله فرعون جديد عابد الإله آتون، الإله الحالى لمصر لينكلوا بعبادة الإله آمون وكهنة معابده فى البلاد، حيث جرت العادة فى مصر القديمة على أن المعبود الأول للبلاد يتداول بين الإلهين آمون وآتون، فكلما غلب أحد الإلهين غلب معه أنصاره وعباده، وكم من

معبد دمر ونهب وقتل كهنته وأذل عباداه عندما يشمخ الإله الآخر.

ونفرتال تتوسط المشهد تسمع وترى، ولكن لا تستطيع الحركة ولا يحس بها أبطال المشهد، فكأنها شاهدة على الحدث فى وقته دون وجود مكان لها فيه، وكان الصوت واضحا قائلاً من أحد الكهنة إلى الكاهن الأعظم : لقد غلب كهنة آتون القصر وهم فى طريقهم إلى المعبد لنهبه وقتلنا جميعا. هنالك توقف الكاهن عن صلاته وتضرعه للإله آمون قائلاً: أحضروا لى السم القاتل وحركوا ذهب المعبد ومقتنياته إلى القبو الخلفى خلف المعبد، لقد بنى وأعد ذلك القبو منذ وقت بعيد تحسباً لمثل ذلك اليوم.

وأضاف: افتح التابوت فقد حان الوقت للرحيل والتخلص من الجسد الفانى.

وبدأ العويل والصياح، ولكن نفرتال تسمع وترى ولا تتحرك كأنها جزء من ذلك المشهد، والكاهن يصيح : أسرعوا خلصوا روحى من الجسد الفانى فلا قيمة له من أيدي كهنة النجاسة، كهنة آتون، ولتبقى روحى عالقة فى العالم السفلى دون العالم الأبدى حيث تعود عبادة آمون إلى مصر مرة أخرى ويأخذون بالتأثر.

وما إن أزيح غطاء التابوت الحبرى بأيدي كهنة المعبد، حتى قفز الكاهن الأعظم داخل التابوت حاملاً فى يده قنينة صغيرة تحمل السم القاتل الذى فتح غطاؤه وتجرحه فى سرعة مذهلة، ثم وضع الغطاء على التابوت مودعاً قائلاً: أسرعوا لتجوا بحياتكم.

وقاموا بوضع غطاء القبو الخلفى، بعد أن دفنت داخله ثروة المعبد

ووضع الأحجار والتراب على مكانه، وأصبح فى عدم، وانطلقت الكهنة إلى خارج المعبد.

وما إن اختفى الجميع من المعبد حتى كانت نفرتال هى الأخرى تجرى وتصرخ إلى خارج المعبد، فإذا هى تصطدم بأمها وأهل المغارة الذين هرولوا إلى المعبد لإنقاذها بعد أن ذاع الخبر فى المغارة من خلال الصغيرات، وتسقط الصغيرة مرة أخرى فاقدة الوعى، ولكن هذه المرة قد حملت على أيدى أهل المغارة حيث أدخلوها المغارة لترقد فى مكانها إلى جوار أمها، وتمارا تصرخ: نفرتال ....نفرتال .

صباح يوم الأحد، وقد امتلأت ساحة الكنيسة عن بكرة أبيها من النزلاء طالبي الشفاء أو حل العقد، وعادة تقام المراسيم والقداس داخل الكنيسة لعدد المسيحيين المتواضع في البلدة .

لكن اليوم يوم القس وليم، فنادراً ما يأتي القس وليم قاهر الجن والعفاريت إلى البلدة، لذلك امتلأت الساحة بطالبي الرحمة، ومعظمهم من المسلمين، كانوا ينتظرون خارج الكنيسة حتى ينتهى القداس، ثم يبدأ الأب وليم أعماله الخارقة، وبرغم أن شيخ الجامع قد حذرهم من الاستعانة بالكنيسة فى طلب الشفاء وسد الحاجات لأنهم هم صانعو الجن الذى يطلقونه على أجساد وعقول المسلمين، إلا أن العدد فى تزايد دائم عن قناعة .

واندست تمارا ونفرتال داخل الحشد المنتظر، مرتدية زى المصريات، الجلباب الأسود الذى ساد أرض مصر القبطية وتوارثته الأجيال، تنتظر خارج الكنيسة فتلتمس حديثاً مع امرأة أخرى، وتلك الكنيسة كانت داراً لراهب قديم ذاع صيته وكراماته وله مريدون، حيث يرقد بعظامه داخل المبنى الصغير، كما دفن حول الدير بعض الرهبان الصالحين.

امتلأت الكنيسة الصغيرة شامخة فى مكانها وكانت أكثر حظاً من الكنائس الأخرى فى مصر، حيث لم يُبنَ حولها أو أمامها أو خلفها أو فوقها مسجد لحجب الصليب عن الأنظار، كما يحدث حولنا فى كل شبر من أرض الكنانة .

وبدأ القداس، وظهر الأب وليم وجواره الراهبة ماري، حيث توجد أمامهما طاولة صغيرة خشبية عليها صندوق خشبي مغلق به ثقب لجمع التبرعات وخاصة من مسلمى الساحة.

الأب وليم الأب الثائر كما يطلق عليه، والمعروف عنه شدة العداء للغزو الإسلامى، يحمل كنيسة فى قلبه وعقله، ورغم أنه محبوب ومعروف باخلاصه وغازاة علمه، إلا أن مقاعد الكنيسة لا تحمل كثيراً من المسيحيين المصلين لخوفهم الشديد من خطب الأب وليم حيث اعتاد أن يتكلم ويعلن غضبه على المسلمين بطريقة مخيفة وشديدة اللهجة .

ونتطرق إلى قوله الذى بدأه بالصلاة إلى يسوع إلى كلماته :...  
اصبروا اصبروا تمسكوا بيسوع والصليب، يسوع المخلص، فإنه بلاء ماضيا .. حتما سيأتى المخلص ويخلصنا، فاجمعوا شتاتكم ووحدوا صفكم، حتى نخمد ذلك الشيطان أو يعود إلى حظيرة الرب، وتعود ونعود إلى مصرنا الحبيبة، أرض الأباء والأجداد موطىء قدمى المسيح وأرض الرحلة المقدسة.

وقد بدأت وجوه الحاضرين تتغير وترتسم علامات الخوف والرهبة، حتى أنه دار بخاطر الحاضرين : "لولا أن ينهى القداس ونذهب!!..."، فأحد الحاضرين والجالس بالمقعد الخلفى يميل على يمينه هامساً فى أذن أخيه قائلاً : ألا يعلم أبونا خطورة ما يقول علينا وعلى الكنيسة ؟ ألا يعلم كم عدد المسلمين حولنا بالساحة؟ أيعتقد بتلك الكلمات تحرر كلمة الرب وحتى يسوع الحى ؟ ...إذا استمر على ذلك المنوال لهدمت الكنيسة على رؤوسنا، فرد أحد

الجالسين قائلاً همسا : أقسم بالرب لن أتى إلى الكنيسة مرة أخرى إذا حضر يومه التالي، سأصلى في البيت، كم من المسلمين حولنا قد يشى بنا أحدهم ونهلك .

ويكمل وليم : قد دفع الآباء والأجداد الجزية ليكون العيش في سلام مع الغزاة، نعم فالجزية لا تمثل عبئاً مالياً حقيقياً ولكنها نوع من المهانة فقط ...

و قد لاحظ الأب وليم الهمس واللمز الذى يدور فى الصف الثانى ولكنه لا يعبأ مستمرا فى حديثه، حتى انبرى أحد الحاضرين مقاطعا الأب وصاح قائلاً: نحن نعيش مع المسلمين حياة هادئة، كلانا مشغول بأمور حياتنا، ولكن قد لا يحب بعضنا بعضاً ليس للدين ولكن لطبيعة شخصية أو تضارب مصالح ..إلا أن هناك احتراماً، فلماذا الكلام والخوض فى تلك الأقوال والمعانى بدلا من أن نعيش معا فى سلام ؟ ..

فرد الأب ثائرا : تقاعس الخراف فأصبحوا أكثر ضلالا...، ثم عجل فى ختم قداسه حتى يخرج إلى المألى ليثبت لقومه وجوده وسلطة الرب على المسلمين طالبي الشفاء والخلص من الرب يسوع.

وما إن أنطلق الأب إلى الخارج وخلفه مارى حاملة صندوق التبرعات بعدما أنعشه الحاضرون بالتبرعات، حتى صاح الأب بصوت عال : أعتقد أن العدد كبير اليوم ولكن باسم الرب يكون المطاف .. إنى أسالكم أن ينتظر كل دوره ولنبدأ بالصف الخلفى أو كبار السن ... ونرجو ألا تنسوا الأخوة المعدمين فيكون لكم

نصيب من رضاء الرب، بقليل من المال فى الصندوق، وكانت تمارا فى منتصف الساحة وعليها الانتظار وتمنت أن تكون نفرتال أول واحدة ولكن ...

وبدا الأب وسكت الجميع كأن على رؤوسهم الطير، وانطلقت كلمات الرب على لسان الأب مستعينا بيسوع ليطارد ويطرد الشر والأشرار من أجساد الغلابة أهل البلدة، وتسمع أصوات الجن والعفاريت يتحدث بها أصحاب الجسد المسكون رهيبة فى غيبة اللاوعى، وتتهال التبرعات بعد كل صلاة من أهل طالبى الخلاص . وها هو الصالح الأب وليم يطحن فى عظام الضحايا ويحرق فى الشياطين ويعطى النصائح حيث كان دور نفرتال، التى كانت أمها تجذبها من يديها حتى تطير لتكون أمام الأب وليم واثقة مما رأت أنها ستشفى على يد ذلك المبروك وليم.

وتتقدم نفرتال شاخصة ببصرها إلى الأب وليم، لم ترفع عينها عنه طوال الوقت، ناضرة بكل صلابة وقوة خارقة إلى عيني ذلك القسيس، عازمة على أن تخترق عيون الأب إلى عمقه، وخاصة منذ بداية انطلاق الحفل كانت عيناها فى عينيه، وقد لاحظ ذلك رغم بعد المسافة بينهما ولكن كل منهما له من الأسرار الداخلية والعلم الخفى ما يحاكى به قوة الآخر.

وما إن بدأ الأب القراءة على الصغيرة حتى بدأت علامات التغير على الفتاة، فأصبحت أكثر صلابة وأكثر حدة، كأنها رأت فى عيون الأب عيون ذلك الكاهن بالمعبد الذى دفن نفسه فى التابوت فصرخت، فأمر بعض الحاضرين أن يمسكوا بالصغيرة بقوة حتى تمنع من الحركة أثناء القراءة، لأن الروح الشريرة التى تسكنها قوية وقادرة على أن تقاوم، وقد تتعدى على الأب وليم

نفسه بل والحاضرين.

وأنتهت القراءة، وقال الأب لتماما عليك أن تدهنى لها جسمها كل يوم أحد مرة بالزيت المقدس الذى يوجد تحت صورة العذراء، وأعطاهما زجاجتين صغيرتين وطمأنها على نفرتال، وتهلل وجه تمارا فبذلت العطاء فى الصندوق .

ولم يلحظ أحد أن مارى الراهبة كانت فى غيبوبة منذ رأت نفرتال، كأنها ترى فيها صغيرتها المفقودة، بنت أختها المخطوفة منذ زمن بعيد، وقد لاحظت نفرتال وجه مارى وقسماتها بوضوح، فهى تبدو كطيف قد رأت ملامحه من على بعد فى قاطنى المقبرة، إلا أنه وبالرغم من وجود شىء ما فقد انتهى الأمر، وسارت تمارا بوجه متهلل خلال الجمع ومعها نفرتال إلى خارج الجمع، وقد امتلأ قلبها ثقة بأنه يوم الخلاص لنفرتال وحيديتها.

ما زال الأب يطارد الأرواح الشريرة، ومارى تحمل صندوق التبرعات، حتى ملأت الشمس كبد السماء وقد نال الإرهاق من الأب وأخذ مأخذه ناظرا حوله، فما زال الكثير من الحاضرين فى الانتظار، فانبرى قائلاً : أنا تعبت النهاردة ممكن أحاول الأسبوع القادم أن أزور الدير مرة أخرى على غير العادة وأشكركم على صدقاتكم.

وتعالت الصيحات والرجاء: سأكمل أنا الأسبوع القادم سأكون فى قرية توتو القريبة منكم، من يريد أن يأتى سوف أكون فى خدمته، وسأحاول جاهدا أن آتى عقب القداس إلى هنا مرة أخرى.



وانفض الجمع وسط آمال الحاضرين فى أن يستمر الأب ولیم فى الماضى قدما لصلاح حالات أخرى، ولكن سقط الأمل باتجاه الأب ولیم إلى صندوق التبرعات الكائن بين یدى مارى ليأخذه ويدخل به إلى الدير مرة أخرى وخلفه مباشرة مارى.

واتجه كلاهما إلى الباب الخارجى للدير حيث بالباب عربة خشبية يجرها حصانان قويان قد وضع عليهما الغطاء المزركش، و كان يعتلى العربة أخ يدعى جرجس، فهو سائق العربة التى تخص الدير الكبير دير منلسا حيث يقيم الأب، وكذلك الأخت مارى به، وهو يبعد عن البلدة حوالى ساعة .

ذلك الرجل الطويل النحيف ذو الأنف المدبب وتقوح منه رائحة الزيت الإلهى كأقباط مصر، لا مال له ولا عائلة، فقد نشأ فى أحضان قريته بأحد نجوع قبلى مصر، فى بطن من بطون جبال مصر بالصعيد، ومال به الزمن كغيره من فقراء الأرض، فكان المال ورغد العيش كالأخرين همه وحلمه، فقرر الانضمام إلى صفوف الجهاد بعد أن أعلن إسلامه، وانخرط فى جيوش المسلمين الوافدة إلى أرض الشام، ووزع من هناك ليلحق بالجيوش المنتشرة فى البادية تحت راية الإسلام، فعصم نفسه من الجزية وضمن المبيت والأجر، بل كان له حظ فى الزواج من السبايا، مقابل مظاهر الطاعة والامتثال لأوامر وطقوس دينية لا تضر.

وحتما قد دخل الإسلام فى قلبه تدريجيا عندما شعر بالأمان والعيش فى وسط آخرين مختلفى الجنسية ولكن متحدى الدين، سادت الرحمة بينهم وحياة اجتماعية تسودها المساواة، فتسلل إلى قلبه ثواب الآخرة وكاد أن يكون مسلما حقيقياً.

إلا أن جرجس كان محباً لشرب الخمر، ولكنه كان أيضاً حريصاً ألا يشرب لأنه يعلم ماذا سيحدث له، وفي يوم غلبه شوقه إلى خمره بعدما سقط في يديه بعض زجاجات الخمر التي كانت في حانة من الحانات ناحية قتال، فاختلسها لنفسه، فلمحه أحد العسكر المجاهدين فتابعه ووضعه تحت بصره، كأنما أراد الشيطان أن يتخذ موقفاً من جرجس الذي أصبح اسمه الجديد عبد الله.

وقد تسلل ذلك المجاهد خلف جرجس، الذي قرر أن يجد مكاناً له اليوم في أحد أركان المعسكر، في حضن جذع شجرة كبيرة ليقتضى وقته مع خمره، ولم يكن ينسى أن يحمل في جعبته بعض الزيوت المعطرة حتى يتخلص من رائحة الخمر الكريهة، وخاصة أنه قد تجسد في عقله عقوبة شارب الخمر، ولكن دعاء الشيطان وصوت النفس وراءه ويشجعانه دائماً على بعض ملذات الحياة.

وقد اكتمل السيناريو أمام ذلك المجاهد المتربص بجرجس، فانطلق كسهم إلى خيمة قائد المجموعة فأيقظه وأخبره، فانطلق مع بعض الجند إلى حيث يمكث جرجس مع معشوقته فيكون الشهود.

ووقع الصيد في الشباك والنقطه العسكر، فجاءوه بغته، وأفاق جرجس من نشوته وسط أصوات عالية متوعدة جلده وإقامة الحد عليه : اقض على الكافر شارب الخمر وقعت يا لعين يا عدو الله .. واجب الحد .. واجب الحد ...

واستيقظ المعسكر وكان جرجس حاضناً لحمار الجلد الخشبي مربوط اليد، ولمع السوط الأسود من زيتته، وبدأ الصراخ، جلدة بعد أخرى فأتت قائمة الحد، وكانت كل جلدة تحمل قوة الثمانين

جلدة ابتغاء التقرب إلى الله، وأعلن جرجس توبته وعدم الرجوع للخمر مرة أخرى.

وفك وثاقه واقتيد إلى مخدعه، إلا أنه قد عزم على الهروب من ذلك الجحيم فالبيع كان رابحاً، حتى أثقلت كفتى ميزانه بتلك الليلة، وكان قد أعد الخطة في الهروب إلى مصر مرة أخرى، كما كان عليه أن ينتظر ويتحين الفرصة، حتى استطاع الهرب ذات يوم وعاد إلى مصر.

وسرعان ما خدمه حظه في مقابلة الأب وليم الذى علم قصته، وأفهمه أنه لولا أن يسوع كان فى عونه لسقط فى ذلك الدين إلى الأبدى، ولكن أشار عليه أن ينتقل من قبلى الوادى إلى حيث الدير ناحية مدينة العاصم حتى يبعد عن الشبهات، واتخذ سائقه وموضع سره منذ ذلك اليوم، وخاصة أن جرجس كان بالرغم من نحافة جسده لديه من فنون القتال والجلد والصبر ما يجعله حارساً ممتازاً أيضاً.

وامتطى الجمع العربية مصاحباً الأب وليم ومارى وجرجس والصندوق ظهر العربية، وبدأ بالسير إلى الدير دير ملنس، وقد اقترب الوقت من المغرب مبشراً بدخول ظلام ليلة أخرى.

وكان الأب وليم ناظراً إلى الصندوق الذى بين يديه كأنه يعد ما فيه بعينه، وقد اعتاد وليم ملء ذلك الصندوق وإفراغه فى قبو من قباء الدير، ثم كان يرسل ذلك المال لشراء السلاح الذى يصل إلى يد المسيحيين فى أطراف جبل الصعيد، لخلق القلاقل وخرق الأنظمة وإعلاء لصوت الصليب الخافت كما كان يعتقد، وقد أفاق من خدمته عندما مر بأحد مريديه الذى كان يحمل ابنته الصغيرة

بين يديه فى القداس والذى بادره حينئذ : ربنا يبارك فيك يا أبونا ولیم.

وأظهرت الأخت مارى البسمة التى ظهرت على وجه ولیم قائلة : نحن محتاجون إليك يا أبونا، اليوم كان ساخنا وأسرفت فى الكلام، كانت خطبة قوية ولكن لابد أن تحافظ على نفسك لأنك ملك لأبناء الرب.

فتمتم الأب ولیم ببعض الكلمات قائلا : ألا يكفى الصمت الذى سكن الوادى بشقيه مائة عام ؟ لا تخافى فأنا أعبر عما يختلج فى صدور مسيحيى مصر، يسوع معنا يقطر حركة الخراف الضالة فنجتمع .

فقالت مارى وهى تعلم أن الأب ولیم سيعترض : نستطيع أن نعيش فى سلام حتى يأتى اليوم يوماً وندخل ملكوت الرب، فرد الأب غاضبا : علينا أن نضخم ملكوت الرب قبل اليوم وبعده، كل ما نحتاجه أن يسود شمال الوادى روحاً وجسداً مثل جنوب الوادى... وذهب فى صمت .

وكان جرجس مثل الحصانين والصندوق يسمع و يرى، ولكن لا يعنيه الأمر فمراده حياة يعيشها فى كرامة ورغد من العيش، دون تدخل فى حياته من كنيسة، أو سوط فى شرب الخمر.

وعاد الصمت مرة أخرى إلى العربة التى تخترق الطريق بخفة وسرعة إلى ملنسا، وكانت مارى منذ أن رأت الصغيرة نفرتال وتذكرت قسمات وجهها قد عادت بها الذاكرة إلى ضالتها المنشودة ابنة أختها الراحلة (دمسيس) والتى فقدت فى ظروف غامضة .

وقالت ماري ناظرة إلى وليم : إن تلك الفتاة الصغيرة تمتلك عينين قويتين وعندى إحساس بها، أكاد أقول إنها نفرتال، نعم بالرغم أننى رأيت أمها إلا أنه يملأ قلبي إحساس بأنها نفرتال، وأخذ القس وليم نفساً عميقاً مردداً، إنه دائماً نفرتال فى كل فتاة بذات العمر، لأنك تؤمنين بأنها فى انتظارك .

ثم ساد الصمت بينهما، فأراد الأب أن يلطف الحديث فأردف قائلاً : ماري .. لقد وصل إلى سمعى اليوم أنه تم القضاء على العصابة وقتل جميع أفرادها، فسارعت ماري : ممن سمعت هذا ؟ أنا ما زلت أعتاد المخفر وأتحسس أى أخبار عن نفرتال منذ أجل طويل ولكن لا شىء يحدث، ممن سمعت هذا؟

فأجاب الأب: إنه حديث قد تردد فى ردهة الساحة الخارجية للكنيسة فى البلدة بين السيدات المسلمات. فحقق قلب ماري مرة أخرى لما سمعت وقالت: غدا سأذهب إلى المخفر وأسأل كبير العسكر.

فتهد الأب بصوت عال كانه يعلن: إنه سر يا ماري.

وقد أدركت ماري قلب وعقل الأب وليم، فقد اعتادت منه خيبة الأمل فى حديثها عن نفرتال.

وكان الأب وليم يكره دمسيس أخت ماري ويعتبرها كافرة، بعد أن ارتدت عن المسيحية ورفضت طريق الكنيسة لتتزوج بذلك المسلم الكافر، ويعتقد أن نسل الكفار لا يأتى إلا بمزيد من الكفر على أرض مصر المسيحية، وأرادت ماري أن تقفل باب الحديث حتى

الغد، فسألت الأب وليم الصلاة من أجلها وأجل نفرتال و من أجل  
أرواح البشر .

وتوقفت العربية أمام بوابة حجرية، وكان من خلفها أرض  
مزروعة بأشجار البرتقال، ويوجد ممر من البوابة خلال  
الأشجار، ويمتد إلى الداخل حيث توجد بوابة كبيرة وباب خشبي  
عريض يحتاج إلى عشرة رجال حتى يفتح، ولذلك يوجد باب  
صغير إلى جانب تلك البوابة الخشبية للدخول إلى الدير والذي  
يحيط به سور من الأحجار الكبيرة المرتفعة، فلا يرى ما خلفها  
إلا أطراف الشجر الكبير.

ويدخل الأب وليم ومن ورائه مارى حاملاً صندوقه، فترى ساحة  
كبيرة تؤدي إلى مدخل مبنى آخر قديم الطراز ضمن عدة مبانٍ  
مترامية على مد الأنظار، ومساحات واسعة من الخضرة في كل  
مكان وكثير من الطيور، وتسمع صوت الأبقار في ناحية من  
الساحة، ونرى حركة في كل مكان من أبناء وخدم الدير في نشاط  
طول النهار، وصلاة وتسايح طوال الليل .

فالدير هو من أقدم الأديرة بمصر، كان مكانه حجرة راهب قديم  
خالية من أى شىء كان يتوسطها ومخصصة فقط لعبادة الرب،  
وكان من شدة عبادته أنه يوجد حلقة معدنية إلى الحائط، فكان  
يربط بها ضفيرة شعره الطويل ويشدها إلى الحلقة فإذا نام أو غفل  
أثناء العبادة فميل رأسه إلى الخلف أو إلى الأمام يجعل الحلقة تشده  
فيستيقظ ليكمل العبادة، وبعد أن مات دفن بهذه الحجرة وتدرجياً  
بنيت حوله هذه الأبنية التى يلتبس زيارتها مريدوه للبركة، ثم  
أصبحت ديراً كبيراً يقوم على سنته.

وهنا أخذت مارى طريقها إلى داخل أحد الأبنية حيث تقيم مع الأخوات، واتجه الأب وليم خلال ساحة إلى قبو داخل المبنى الآخر، فقابل أحد الموجودين الذى أخبره بأن بعض الفتيان النافرين من الصعيد فى انتظاره، فناوله الصندوق وسأله أن يضعه داخل الحجرة المعتادة ويغلق الباب بالمفتاح ويعيده إليه.

نفرتال قابعة فى مكانها على الصخرة ليلاً كعادتها، شاخصة ببصرها إلى ساحة المقبرة، ولكن الليلة كانت إحدى ساكنى القبور فى نشاط غير عادى وبريق طيفها عال جداً.

وقد اعتادت نفرتال رؤية ساكنة هذه المقبرة دائماً جالسة على ظهر قبرها فى هدوء ناظرة إليها، لدرجة أن نفرتال كانت تعرف قسماً وملاح ذلك الطيف عن دقة وتفاصيل، والليلا ازدادت ملامحها وضوحاً كأنها تريد أن ترسل علامات أو إشارات عن شىء قد يكون دائراً فى تلك المقبرة أو له بعد هنا، فهى فى حركة دائمة، حتى أن تراب قد انتبه إلى ذلك الطيف ففر هارباً من بين يدي نفرتال فى اتجاه المقبرة حتى اختفى فى الظلام، كأنه استجاب إلى هذه الإشارات والعلامات إلى أسرار قد تكون موجودة ولكن تدور فى فلك آخر، فلا نستطيع إدراك هذه المعانى ولكن البعض من بنى البشر أو الحيوان يعلم.

وقاطع صوت نفرتال صوت الأب الذى قال : نفرتال ... نفرتال يجب أن تدخل إلى المغارة الآن ، فقد أصدر أبوك الأمر أن يحضر جميع أهل المغارة إلى الداخل الآن ولا يريد أحد أن يكون هنا، فالיום موعده مع شبح الليل الذى يأتى فى سرية تامة خلال الأعوام الماضية ولا يقابله إلا هو ثم يغيب مرة أخرى عن الأنظار، ذلك الرجل الخفى الذى لا يعلم قسماً وجهه إلا أبوك ..صحراوى.



فأجابت نفرتال : اعلم يا أبونا حنا ...ذلك المثلث الذى لا يأتى إلا بشر ويذهب بشر، فقد اصدرت المقبرة علاماتها بقدومه، فالأطيفاف فى حركة غير عادية، أرجو أن تمر الليلة على خير، إننى لا أحبه ولا أحب قدومه، فالمقبرة تكون فى حالة هياج قبل مجيئه دائماً كأنه الشيطان بعينه، انظر بنفسك إلى تلك السيدة التى حارت ودارت حول قبرها الليلة وذلك الهرج فى أنحاء المقبرة.

فرد حنا: لا أعلم ماذا تقولين ولكن هيا ادخلى معى.

فأضافت: دعنى قليلا وأمضى وراءك، وقد تركها حنا إلى داخل المغارة مؤكدا : لا تتأخرى، فأنت تعلمين ما ثمن وجودك هنا.

وقد ظهر شبح قادم فى اتجاه المغارة، يتحرك فى خطوات ثابتة رافعاً رأسه إلى أعلى، وأدركت نفرتال أن الزائر قد وصل فتحركت خلف الصخرة مختبئة ناضرة فى اتجاه ذلك الشبح، وقد أحست نفرتال بخاطرهما الداخلى أن ثمة رجلاً يحمل شراً كبيراً يتحرك على أرض المقبرة، فأرادت أن تراه عن قرب، واقترب الرجل من باب المغارة وكان يرتدى زى كبير العسكر، طويلاً قوى البنية وقد لف وجهه بوشاح إلا عينييه، ويحمل سيفاً فى غمده، وفى وسطه حزام يحمل فيه جراب جميل بداخله خنجر، واتضح وجه الزائر إلى نفرتال عندما سقط الوشاح عن وجهه وهو صاعد إلى أعلى المغارة، وتحركت بسرعة إلى داخل المغارة وقد انطبع وجه ذلك الرجل فى مخيلتها، ولكن فى طريقها إلى الداخل سمعت أصوات أقدام قادمة.

إنه أبوها وهو يقول لمن معه : ابقوا هنا سأخرج أنا بنفسى لمقابلة

الضيف.

وخافت نفرتال أن يراها والداها فأدخلت نفسها فى فتحة بين شقى صخرة بباطن المغارة، ترى من مكانها وتسمع ما يدور على باب المغارة دون أن يلاحظ أحد وجودها، وقد تسمرت رجلاها إلى جدران المغارة، فهى تخشى أن يراها والداها خاصة فالكل يعلم الأوامر.

نعم أنها أوامر صارمة فلا يعرف ذلك الشخص إلا الزعيم صحراوى، ذلك الرجل يدعى (جهاد) وهو رئيس العسكر فى البلدة ومسئول الأمن فى ناحية بحرى، ذلك الوغد الذى تدرج من عسكرى إلى منصب رئيس عسكر البلدة ثم الناحية حتى وصل إلى منصب رئيس عسكر بحرى.

و كان جهاد قد نفذ مؤامرة قذرة منذ أعوام طوال فى البلدة، مذبحة كان ضحيتها امرأتين من أهالى البلدة، حيث إنه استقطب من قبل أحد رجال عسكر البلدة فى تنفيذ تلك المؤامرة مقابل رشوة مالية وترقية فى سلك الجند.

جهاد يعمل منذ وقت طويل مع صحراوى، فهو الذى يقوم بحماية العصابة وتمويه رجال العسكر عنهم ويبلغهم بما يتم فى ديوان رئيس البلدة من خطط ومناورات للإيقاع بهم، مقابل مبالغ مالية، وكذلك تصريف المسروقات، وحقيقة رغم دناءة جهاد وحقارة أخلاقه إلا أنه كان يعمل مع صحراوى فى إطار من الثقة منذ أعوام طوال، منذ أن كان عسكرياً عادياً حتى وصل إلى منصب رئيس العسكر.

وقام صحراوى بالتهليل : ريس جهاد مرحبا بك.

فرد مندفعاً جهاد : اصمت يا أهوج.

فأجاب صحراوى : لا تخف يا ريس لا أحد هنا، الكل فى الداخل حسب الأوامر، أنا الوحيد الذى يتعامل معك ويعرفك والدار أمان، غيرت مواعيدنا المعتاد على غير العادة إلى اليوم، أنا وصلتني رسالتك فى المكان المعتاد وبعدين وصلتني رسالة على عجل مع الغازية.

قالها صحراوى فى مواجهة جهاد الذى كان يبدو عليه العجلة من أمره .

" طيب ..طيب يا صحراوى، اسمع عاوز أقول لك أنه من النهاردة تقوم على أمر نفسك ورجالك، أما المسروقات فتجمعها حتى تصلك رسالة بالطريقة المعتادة، لكن عليك أن تعلم من الليلة أنى انتقلت من البلدة، أنا اترقيت، ووصلت للقصر فى مدينة العاص ... وأصبحت قائد جناح قصر وزيرنا الشيخ زعفران.

ففرح صحراوى: يا الله ...قصر أمير المؤمنين ؟ والله خطتك نجحت، حلمت منذ زمن بعيد وعملت واليوم تحصد، خططت ودبرت ووصلت، كل ده من يوم ما قتلنا لك الجارية والندابة منذ عشرين عاماً .

- اسكت يا صحراوى كفاية قر، كان كله شغل وتعب.

رد جهاد وأكمل : المهم لازم تعرف أن العصابة منذ اليوم فى

خطر، لقد شغل مكانى وحل محلى المقرف (عبدالحفیظ) ابن البلدة، وأنت عارف هو ببذل كل جهد للايقاع بك وعصابتك، وطبعاً عصافيرى كلها طارت وخاصة أن أهالى البلدة والمناطق التى حولها أصبحت فى هلع وذعر من النهب والسلب، على العموم أنا خلصت ذمتى ونصحتك وأنت حر.

و تحركت نفرتال فسقط حجر صغير مما أثار فزع جهاد الذى بادر بوضع الوشاح على وجهه سريعاً مختبئاً إلى جانب المغارة، وتحرك بسرعة صحراوى ليرى ماذا هناك، وكتمت نفرتال أنفاسها وبرقت عيناها خوفاً أن يكتشف وجودها والدها، وبعد أن دار صحراوى فى كل اتجاه عاد إلى جهاد قائلاً : لا شىء .. ممكن يكون فار اتحرك أو غيره.

ورد جهاد خائفاً : لا أثق فى أحد .. جهزت الذهب والحلى؟

قال صحراوى : نعم .. انتظر، ودخل إلى المغارة، ووقف جهاد مترقباً يتلفت حوله، فقد أعد جهاد العدة للتخلص من صحراوى وعصابته بعد أن يأخذ ما جمعه صحراوى، حيث إنه لا معنى لوجود العصاة له بعد تحركه من البلدة، وقد أصبح صحراوى شوكاً فى ظهره وكان عليه أن يقفل ذلك الملف إلى الأبد.

وفجأة سمعت نفرتال أصواتاً تأتي من خلف الصخور أعلى المغارة، وعلى جانبها عدد كبير من الأصوات وأصوات السيوف التى اقتلعت من مغامدها، وظهر رجل آخر وقد تلقى علامة من يدى جهاد لا تعرف معناها، وكان صحراوى فى طريقه إلى الخارج لوحده ، فلما بلغ باب المغارة خارجاً وسلم الصندوق إلى

جهاد، غرز فى ظهره خنجر بيد ذلك الرجل مع كتمان صوت صحراوى بيده الضخمة، فسقط صحراوى على الأرض قائلاً : عملتها يا ندل ..عملتها يا كلب.

وكادت نفرتال تصرخ بصوت عال، ولكنها أدركت أن الموت هو مصيرها، وقد تدفق الرجال إلى داخل المغارة، وسمعت أصوات قتال وصريخ وعويل متقطعة وضربات سيوف، وازداد عدد العسكر الذين دخلوا المغارة، وتسمرت نفرتال فى مكانها لا تدرك ماذا تفعل وقد سمعت أصوات صراخ، أصوات البنات وكذلك الأمهات فى جميع أرجاء المغارة.

ومضى وقت قصير حتى ساد الصمت مرة أخرى، وتدفق العسكر إلى الخارج حيث كان جهاد ينتظر ، وتقدم إليه ذلك الرجل الذى صاح قائلاً : لقد قتل جميع من فى المغارة و لم يبق أحد حياً. فأردف قائلاً: على أن أطمئن بنفسى..

دخل المغارة، لا ليتأكد ولكن للبحث، عن مال العصابة فى كل ركن من أركان المغارة، ولكن عبثاً فعل دون أن يجده فأصدر أوامره إلى العسكر بعد أن منى بخيبة الأمل : ادفنوهم جميعاً فى المغارة لقد انتهت أسطورة العصابة ذات الخنجر.

وكانت العصابة بعد كل عملية تقوم بترك خنجر على باب بيت الضحية.

ومضى إلى خارج المغارة ، ناظراً إلى أسفل تحت قدميه حيث يرقد على الأرض صحراوى قتيلاً، ثم قال: ولا تنسوا دفن الزعيم

فى مكان لائق به.

واختفى فى ظلمات أرض المقبرة بلا عودة، بعد أن قال لرجالها:  
أعلنوا على البلدة انتهاء العصابة وأمرها إلى الأبد .

ومازالت نفرتال فى مكانها، دموعها على خديها قاطعة النفس  
كأنها شبح شاهد على عملية القتل والخيانة التى تمت فى ستر  
الليل، ومضى الوقت كأنه الموت ذاته وخمدت الحياة فى المغارة .  
وبعد أن أتم العسكر دفن القتلى وسمعت صوت آخر رجل خرجت  
من المقبرة، سقطت مغشياً عليها خلف الصخرة فى مكانها من  
هول ما رأت وسمعت.

وقد ظهر ضوء الفجر خارج المغارة وإذا بنفرتال تعود إلى  
الوعى، وما إن استرجعت ما حدث لها ولأهل المغارة حتى أخذت  
فى البكاء فى هيسستيريا : أبى ... أبى ...، وجرت إلى داخل المغارة،  
فإذا بالصغيرة تجد جانب أحد حوائط المغارة أكوام تراب من  
أرضية المغارة على مدى البصر، وأدركت أنها قبور تحتوى  
أهلها وأصدقاءها وأخذت فى بكاء هستيرى : ذلك الملعون جهاد  
... جهاد القاتل .. ذلك الشيطان..، وصاحت: أين أنت يا أمى؟؟ ما  
مكانك بين هؤلاء و أين أبى؟.

وانفجرت مرة أخرى فى البكاء، وفجأة كان بين رجليها تراب.

ذلك الكلب الذى كان خارج المغارة أثناء هذه المذبحة، وارتمت  
عليه: تراب .. تراب ، وكان تراب يقضى ليلته فى أغوار ساحة

المقبرة يطارد الثعالب أو يختبئ في ظلام المقبرة.  
وأخذ تراب يعوى هو الآخر كأنه ينعى الجميع إلى نفرتال وينعى  
نفرتال إلى الجميع.

مارى لم يفارق مخيلتها ما قاله الأب وليم عن قتل أفراد العصابة، فهذه هى العصابة التي تركت علامتها على باب أبوى نفرتال بعد قتلها فى ذلك البعيد من الزمن، وأخذت تمنى نفسها بأن تجد بنت أختها المخطوفة نفرتال مرة أخرى، وأخذت تعاود وتراجع مع المخفر كل فترة أخبار هذه العصابة .

وقد أقامت صلاتها المعتادة فى حبرتها بالدير، وأخذت تدعو جاهدة أن يضع الرب حداً لهذه المأساة وترجع نفرتال إلى حضنها مرة أخرى، وقد عازمت ليلاً على الرجوع فى الصباح إلى البلدة مرة أخرى لتعرف ما تم وحقيقة الأمر قاصدة مقر قائد المخفر .

وسارعت إلى ساحة العسكر حيث كان المكان فى زهو ونشاط، فقد استعادت الشرطة كرامتها بالأجهزة على العصابة وقتل أفرادها تلك العصابة ذات التاريخ الإجرامى، وكان مقر الشرطة وأفرادها قد اعتادوا وجه الأخت مارى، فما إن رآها ذلك الرجل الذى اعتادت سؤاله عن أخبار العصابة حتى صاح : أيتها الأخت مارى . لقد قتل أفراد العصابة ليلة أمس بالمغارة، فقد فعلها زعيم العسكر المغوار .

فردت مارى فى فرحة عارمة : وهل وجدتم نفرتال ؟

فرد العسكرى: أعتقد أن جميع أفراد العصابة قد قتلوا عن بكرة أبيهم، ولا أظن أننا تركنا أحداً حياً.

فخفق قلب مارى وصاحت : لا أظن أن نفرتال قتلت ...نفرتال



حية ..أنا أشعر بذلك، أرجوك أرسل معى من يدلنى على مكان تلك العصابة فقد أجد تلك الصغيرة هناك أو أصل إلى أى خبر عنها.

رد العسكرى : المكان موحش عليك فإنها مغارة فى جبل يحيط ويلتف حول مقبرة البلدة.

فردت مارى : لا عليك فأنا أستطيع أن أرمى نفسى فى الأهوال لمجرد أن أتى بخبر عن نفرتال أو أعرف أى شى عنها.

وأمام رجاء مارى استجاب لها ووافق على إرسال بعض الجند معها، حيث كان جرجس بالعربة خارج مقر الشرطة.

وتعجلت مارى الخطوات فى حماية بعض العسكر حيث أمروا أن يذهبوا معها، على أمل أن تجد نفرتال فى المغارة بباطن الجبل، بعد أن أصرت مارى على الذهاب لتجد بنت أختها، وركبوا جميعهم العربة التى يجرها الحصانان، وقد قفز العسكر إلى خلف كابينة العربة، وكانوا على أهبة الاستعداد، يتحركون فى زهو وفخر بعدما زالت العصابة إلى الأبد، فأخبار اندثار العصابة على يد جهاد زعيم العسكر قد رفع العجز، والخلل الذى أصاب العسكر سيتبدد فى نظر أهل البلاد، ولو علم الأهالى ما يدور خلف مسرح الأحداث لقتلوه على ما فعل ... ذلك الوغد جهاد، ولكن اليوم يغادر الناحية ببطولة وانتصار ليسجل فى قصر أمير المؤمنين وأولياء الأمر انتصارات لاحقة.

وكانت مارى تعد خطوات الجوادين بكل جوارحها، وتدور أمام عينها الأحداث منذ أن قتلت أختها التوأم دمسيس أم نفرتال

وزوجها على يد تلك العصابة، بل تعدت خطوات رحلة الماضي إلى بداية الحكاية يوم مقتل أمها نفرتال الجدة على يد أهل القرية، ومن قتل خادمة القصر السوداء التي هي من أهل البلدة حيث كانت في صحبة الجدة خلال اللحظات الأخيرة قبل مقتلهما.

وأدركت مارى أنها ليست اليوم فى حاجة إلى تفاصيل تلك الليلة المشؤومة، وعليها البقاء فى ذلك الشعور الذى يدور بين عقلها وقلبها ما بين اليأس والرجاء فى أن تجد نفرتال بعد هذه السنين، رغم أنها تترك بعقلها أنه إذا كانت نفرتال بين الأحياء فمن الصعب أن تتعرف عليها أو تعرفها، فقبول هذه الحقيقة عقلاً لا وجود له ولكن كانت تحسها بقلبها، فقربها من الرب بما ضحت به من وقت وصحة وشباب فى خدمة أيتام الدير، كيف كانت تمرض المرضى وتسهر عليهم وتصلى لهم ؟ وكان دعاؤها قوائم أملها، وخاصة أن نفرتال الصغرة قد وشم على ذراعها الأيمن منذ ولادتها اسمها الذى يحمل اسم جدتها الراحلة – وتمنت مارى أن يكون هذا الوشم هناك حتى يقودها إليها.

وأما داخل المقبرة، فقد كانت نفرتال أمام قبور أهلها حائرة وقد جفت دموعها، فهي تعلم أن الموت ليس نهاية المطاف، وسواء دفن أهلها فى المغارة أو فى ساحة المقبرة فالنتيجة واحدة .. عالم آخر .. عالم أطياف .. ليله حياتهم ونهاره اختفاؤهم، و لم يتبادر إلى ذهن نفرتال لحظة أن كون أهل المغارة لصوصاً قتلة قد يعنى شيئاً، ولكن كانت تعيش بينهم وتعيش أحلامهم وآمالهم و يومهم كأى مجتمع بشرى، فمازال الآباء يحنون على أبنائهم، وما زالت الأمهات ترضع وتعد الطعام، ومازال الرجال يعملون لكسب قوت

يومهم، فمادام الإنسان موجوداً بشقيه.. الرجل والمرأة .. وجدت حياة ما يتقاسمونها بجميل وقبيح أيامها.

وكان ما يشغل بال نفرتال الآن هو ماذا ستفعل ؟ هل ستكمل حياتها وحيدة هنا بين قبور الساحة وقبور المغارة ؟ .. ماذا تفعل فى الشعور الجديد الذى يجتاح جنبات قلبها، الانتقام من ذلك الوغد مجاهد قاتل أهلها وسارقهم الخائن الغادر؟ فوجهه قد حفر فى قلبها وارتسمت ملامحه فى عقلها، وتمنت أن تقبض روحه ذلك القاتل الذى قتل الصغيرات والكبيرات، وبجانبها تراب يتمسح بين رجلها كأنه يدلها ويوقظها على أن تتحرك من هذا المكان، فقد يأتى أحد فى أى وقت قاتل أو شامت أو باحث عن المال.

وتحركت نفرتال فى اتجاه مخبأ المغارة حيث أموال العصابة وخزنة أبيها، ذلك الصندوق الخشبى الكبير المدفون هنا، فهى تعلم مكانه وتعرف كيف تقفز بين صخور أرضية المغارة وتحرك الأحجار لتصل يداها إلى ذلك المال، وبالرغم من أن نفرتال لا تعلم ما معنى ذلك المال وما أهميته، فهى لم تستعمله فى حياتها ولا تعرف له معنى، بالرغم من أنه دائماً كان مادة الحديث الدائر بين الرجال والنساء، وحتى ذلك اللئيم مجاهد مع أبيها، وأدركت أن المال قابع فى مكانه لم يلمسه أحد، فخافت أن يعود ذلك الوغد مرة أخرى إلى طلب المال، وتحركت إلى خارج المغارة حتى قررت الذهاب إلى المعبد الفرعونى خلف الساحة التى أحبت أن تكون دائماً بين جدرانها ورسومها القديمة لتختبئ من أشعة الشمس والنهار حتى يدركها الليل فتعود إلى المغارة مرة أخرى .. وتابعها تراب.

وقد قاربت شمس النهار على السطوع كلية لتزاور عن أهل المغارة ذات الشمال، إلا أن كلبهم كان مع نفرتال فى الطريق إلى المعبد، وتعجبت نفرتال سائلة تراب أين كنت يا تراب أمس البارحة وكل هؤلاء الأغراب القتلة حولنا؟ .. لم تركتني قبل وصولهم واختفيت ؟ ألا ترى ؟.. إن كنت منهم فلماذا أنت معي؟ وإن كنت معهم فكيف تكون الآن هنا ؟ و نظر تراب إلى وجهها رافعاً وجهه إليه كأنه يريد أن يقول كنت بساحة المقبرة حتى أعلم ماذا كان يدور حور قبورها وذعر سكانها، فإنهم يعلمون أن الشيطان بالمنطقة.

ودخلت نفرتال من بوابة المعبد المتهدمة واجتازت الطريق الرئيسى إلى البهو حتى وطئت قدمها الساحة التى اعتادت أن ترقص فيها هى والصغيرات، وعاد مزيلتها تلك الرؤية التى رأت فيها كاهن آمون وقسمات وجهه، وقادتها أرجلها إلى جانب البقعة التى كان بها تابوت الكاهن، وجلست إلى جوارها مع تراب والذى أخذ ينبج وكأنه قد مسه جان، وهنا ضاعت نفرتال فى أحلام ورؤى بعد أن أخذت عيناها تمر على الرسوم المحفورة على جدران المعبد كأنها تراها على منوال عاداتها القديمة.

وعندما بدأت العربة تدخل زمام المقبرة، سمعت مارى أصواتاً ضعيفة صادرة من العسكر يقول أحدهم: دخلنا أرض الموت .. وربنا يحفظنا، ومال آخر على مارى قائلاً: صلاتك يا أختنا ببركات المسيح ومحمد نصل على خير ونخرج من هذه المقبرة الملعونة على خير.

وهنا خرجت ماري من صمتها قائلة : هل وصلنا إلى المغارة ؟  
فرد أحدهما: ليست ببعيدة آخر هذا الطريق فهي في وسط المقبرة،  
واستعدت ماري واستجمعت كل قواها ضارعة في صلاة للرب  
حتى تضع نهاية لهذه السلسلة من اليأس والرجاء ... نفرتال ...  
...نفرتال ...

ولم يطل الانتظار حيث دخلت العربية ساحة المقبرة القديمة، ورغم  
أن أهالي البلدة قد علموا بقتل جميع أفراد العصابة بالمغارة، إلا  
أنه لم يجرؤ أحد منهم أن يقترب من المغارة ليروا بأعينهم، فما  
زالوا تحت سيطرة عليهم الجن والخوف والهلع من الخرافات  
والأساطير الواردة حول المقبرة وأرضها الملعونة .

ونزل العسكر من العربية سائلين ماري أن تنتظرهم، إلا أنها  
أصرت على الذهاب معهم ولكنهم رفضوا، وهنا تذكرت أنها  
مقبرة أختها التي دفنت بها والتي قتلت على يد أفراد العصابة،  
وسارعت في اتجاه المقبرة لتجد قبر أختها الذي وجد عليه  
الصليب المكسور وكتب على قطعة الرخام (الشهيدة)، وسمعت  
صوت أحد العسكر: انتظري هنا أيتها الأخت ولا تتحركي حتى  
نصعد المغارة بأنفسنا ونرى إن كان هناك أحياء أم لا .

وانخرطت ماري في بكاء حار، وأخذت تتنادى أختها تحت الثرى:  
مازلت ترعين ابنتك نفرتال حتى الآن، تحت عينيكي وبصرك  
تتحرك .. ابنتك نفرتال ليست بعيدة عنك، فقد اختار الرب أرضا  
لها هي أرض رقدت فيها، كأنه يريد يقرب روحك منها، حقيقة كم  
أنت عظيم يارب السماوات والأرض، كم أنت رحيم يا يسوع،

أنت الملكوت والملكوت أنت، جمعت الحى والميت فى بقعة واحدة، وانهالت فى صلاة طامعة أن يستجيب لها الرب فترى نفرتال بين يديها فى القريب.

ويمر الوقت ومارى فى صلاتها، وفجأة تسمع أصوات أرجل العسكر فى اتجاهها ولكنها لا تسمع صرخة فرحة نفرتال عندما تراها، ويخبرها أحد العسكر فى صوت مسموع : لا يوجد أحد حى بالمغارة فكلها مدافن، وهنا أدارت وجهها إليهم قائلة فى ثبات غير مسبوق: إنها حية والمسيح الحى حية .. أنا عارفة وروح أمها تحرسها، أنا عارفة.

ورد العسكرى: يا أخت نحن نعلم مصيبتك ولكن لا حيلة لنا، علينا أن نرجع الآن ، فردت قائلة: لا أعود حتى أجد نفرتال وأرجع معها .. اذهبوا أنتم.

فرد عليها أحدهم : كيف نتركك هنا؟ إنها أرض العفاريت والجن!.. ألا تخافين على نفسك؟! ..، فسكتت ثم أدارت وجهها إلى قبر أختها قائلة : وكيف أخاف وأنا وأنتم فى حماية الرب؟ اتركونى وارجعوا إلى حال سبيلكم فالوقت لم يتأخر بعد وسأعود لوحدى مع جرجس وسيلغكم بعد ما أرجع.

فقال العسكرى : الأمر لك يا أخت ولكن لا تلمى إلا نفسك، سلام الله عليك.

ثم مضى إلى العربة مع الآخرين، واستدارت مارى تنظر إلى القبر وأخذت فى البكاء مرة أخرى سابحة فى صلاة تلو صلاة ..

حتى سقطت مغشياً عليها على القبر، وقد عاودها جرجس، إلا أنها أرسلته إلى بيته ليعود إليها قبل المساء، فهو من ساكنى البلدة ومتزوج ولديه بنات، فاستجاب لها .

و مرت ساعات واقتربت الشمس إلى الزوال، وأدركت نفرتال هى الأخرى أن الطريق قد يكون آمناً فى العودة إلى المغارة مرة أخرى، وسابقها تراب يجرى أمامها، وعندما اعتلت نفرتال الطريق إلى المغارة وقبل أن تدخل المغارة ألقت نظرتها المعتادة على المقبرة لترى إن كان هناك أحد أم لا، حتى وصلت عينها إلى قبر تلك السيدة التى تأخذها عينها دائماً لترى (مارى) ساقطة على القبر، فأنخلع قلبها بين ضلوعها، وألقت نظرة حادة للتأكد مما ترى، وفعلاً أدركت أن ثمة أحداً ساقطاً لا حراك على المقبرة فقررت أن تذهب لترى عن قرب وحذر ماذا يدور هناك .

واقتربت نفرتال فى اتجاه القبر ثم التفتت لتختبئ خلف شجرة السنط، ويتابعها تراب فى صمت، ثم نظرت إلى تلك السيدة التى ترتدى زى المسيحيين كما اعتادت أن تراهم حين يدفنون أمواتهم فى هذه الناحية من المقبرة، وكانت عيناها ترى وجهها، أى وجه مارى فاقدة الوعى، وتعجبت نفرتال من قسمات ذلك الوجه، حتى حجم الجسم الذى لا يختلف كثيراً عن طيف السيدة الساكنة لهذه المقبرة، كما اعتادت أن تراها ليلاً حول قبرها، وتبادر إلى عقلها أنها قد تكون صاحبة الجسد الراقد فى التراب قد تخلت عن موتها وسباتها وأرادت الرجوع إلى الحياة.

وبالرغم من إطالة النظر إليها فالسيدة الراقدة لا تتحرك، وفجأة أخذ تراب فى النباح، وحاولت نفرتال أن تسكته، ولكنه استمر فى النباح حتى يبدو أن مارى قد سمعت صوته، فبدأت فى الحراك

ببطء وفتحت عينيها بصعوبة، وأدركت أنها كانت غيبوبة وعاد إليها وعيها، ونظرت في اتجاه تراب الذى تقدم منها بينما نفرتال اختبأت كلية وراء جذع شجرة السنط، وأدركت مارى أن كلبا فى ذلك المكان قد يكون متوحشاً، ولكن قد يكون طالباً للطعام أكثر، وكان بين يديها شنطة قماش صغيرة بها بعض صفائر الخبز فأخرجت واحدة لتقدمها إليه، فإذا بتراب يقترب منها مداعباً إياها بهز ذيله الطويل، ورغم شراسة تراب إلا أنه يبدو هادئاً لطيفاً مع مارى، وسرت نفرتال لما رأت ولكنها ما زالت خائفة، ولما رأت مارى كاملة وواضحة الوجه أيقنت أنها ذات السيدة الراقدة فى القبر لا محالة، فقد تكون طيفاً بالليل وجسداً بالنهار، فكانت نفرتال عادة لا تنظر إلى ساحة المقبرة نهاراً.

ويبدو أن مارى تذكرت المصيبة وخيبة الأمل مرة أخرى، وأدركت أن الشمس فى طريقها إلى زوال، والمكان موحش لا يأتيه أحد بعد الآن، وعليها أن تتحرك حيث ينتظرها جرجس خارج المقبرة، فقد تأخرت عليه، ولكن أخذت فى البكاء مرة أخرى قائلة : يا حسرتى عليك يا نفرتال.. الآن الرحيل يا أختاه.. يا أم نفرتال.

وقد سمعت نفرتال اسمها يتردد أمامها، فتبادر إلى ذهنها مرة أخرى بأنه لا يمكن إلا أن تكون هذه السيدة ساكنة القبر روحاً لا تؤذى أحداً وتعرفها، وحين استدارت مارى إلى القبر فى طريقها للخروج سمعت صوتاً ينادى " أنت ساكنة هذا القبر ؟، وفزعت مارى حين سمعت الصوت، ورأت أن الكلب يجرى فى اتجاه الشجرة التى خرجت من ورائها نفرتال لتظهر كاملة أمام مارى، واستدارت مارى بعد أن توقفت لتتظر خلفها مرة أخرى قائلة: يا



يسوع كن معى، وأخذت نفرتال تردد هذه الكلمات قائلة : يا يسوع كن معى.

وأخذت نفرتال تعيد عبارتها مرة أخرى : إنك تشبهين ساكنة هذا القبر، أنت سيدة القبر؟

ولكن ما يدور بخلد مارى حين رأت نفرتال لا يمكن وصفه، فالأيأس والرجاء تجسد فى نفرتال وصرخت مرة أخرى وهى تجرى فى اتجاه نفرتال ...نفرتال ... نفرتال ... أنت نفرتال.

أوجست نفرتال خيفة من مارى فتراجعت إلى الوراء، ولكن ذلك لم يمنع مارى من الاستمرار فى العدو نحو نفرتال قائلة: نفرتال...أنا خالتك.. تعالى يا حبيبتي ولا تخافى، حتى وصلت أمام نفرتال لتأخذها بين ذراعيها والدموع تنهمر من عينيها وما زالت تقول: أنتِ نفرتال...أرينى ذراعك الأيمن، وكانت المرة الأولى فى حياة نفرتال أن تسكن حضن أحد غير والدى المغارة، ولكنها استسلمت إلى مارى، وفعلا رأت مارى العلامة، وصاحت قائلة : نعم ارقدى دمسييس بسلام ..فقد سلمتتى الأمانة والرب ساعدنا بعد كل هذه السنين.

ثم أبعدت نفرتال عنها لتراها، ولكن نفرتال قالت : كيف عرفتتى بالنهار وكيف خرجت من قبرك فى هذه الشمس تردددين اسمى؟ وردت مارى : حبيبتي..عم تتكلمين؟ أنا خالتك مارى التى حرق قلبها شوقاً وتعبت أرجلها وراءك كل هذه السنين.

واستجمعت مارى قواها وأخذت تتحدث إلى نفرتال ناظرة إليها:  
حببتي إن الراقدة فى هذا القبر أمك دمسيس، ولا أعلم كيف  
رأيتها وهى راقدة، ولكن اعلمى أنى لست ذلك الشبح أو الطيف،  
أنا خالتك مارى الأخت التوأم لأمك، فهى صورة منى تماماً روحاً  
وجسداً وأداءً ولكن فرقنا الموت، وأنت يا نفرتال إنك تشبهيننى  
وأمك عندما كنا فى سنك...الرابعة عشرة.

ونظرت نفرتال إلى تراب، وأشاحت بنظرها شاخصة إلى أعلى  
المغارة قائلة : أنك تكذبين على ..فأمرى قتلت هى وأبى أمس على  
يد ذلك الغادر ودفنا بالمغارة أمام عيني .فكيف تدعين أن أمى  
ترقد هنا؟ أنا أعرف الراقدة هنا منذ أعوام طويلة وكانت أمى على  
قيد الحياة.

فهمت مارى ما يدور بخلد نفرتال، وأن الصغيرة ليست محل أى  
كلام أو شرح الآن وخاصة بعد ما مر بها ليلة أمس، و يبدو  
عليها الهزال والتعب والحيرة، وتذكرت أن عليها أن تأخذ نفرتال  
وتغادر المقبرة قبل الليل، فالطريق غير آمن، وقررت أن تخاطب  
الصغيرة بطريقة أخرى فقالت لها: إن الرب يسوع قد أمرنى أن  
أتى إلى هنا لآخذك معى، بعد أن فقدت كل أهلك بالأمس  
وستعيشين معى خارج هذه المقبرة.

فقاطعتها الصغيرة قائلة : يسوع؟.. أنت تعرفين يسوع كما كان  
أبونا الصالح حنا يقول عن يسوع وسماحته ورحمته..فأنا أصدقك  
لأن الأب الصالح حنا لا يعرف الكذب، ولقد قتل هو الآخر مثل  
الآخرين دون سبب، ولم يتحرك يسوع إلى إيقاف هذه المذبحة أو

إنقاذ الصالح حنا من حمام الدم، لا أفهم .

وأمسكت ماري بذراع نفرتال لتأخذها إلى خارج المقبرة، ولكن نفرتال: تصلبت مكانها وسألتها: إلى أين ؟ وماذا عن تراب ؟ مشيرة إليه بيديها، فقالت ماري : دعينا نذهب الآن قبل الليل ثم نأتى بعد ذلك لنأخذ تراب فأنا أحبه، وكأن تراب علم ما يدور فأخذ يجرى فى اتجاه المغارة بسرعة كبيرة، وكادت نفرتال أن تتبعه ولكن ماري أوقفها قائلة : سنعود إليه قريباً، خوفاً من أن ييأس جرجس ويتحرك بالعربة إلى خارج المقبرة... نفرتال ..نفرتال أنت الآن وجدت خالتك وستبدأ حياتك، لا تخافى وتعالى معى.

وأمسكت بيدها، وانطلقت الاثنتان فى اتجاه خارج المقبرة، ولكن نفرتال تنتظر إلى الخلف دائماً، إلى الأرض التى ولدت بها وعاشت بها، ولا تعلم إلا ترابها وسكان المقبرة وتراب، إلا أنها فى ذات الوقت تحس شيئاً يدفعها إلى أن تكون مع هذه السيدة التى تشبه كل شىء حولها، بل وتحس صدقها أيضاً.

كان جرجس فى انتظارها خارج العربية، قلقاً عليها، وكانت الهواجس تكاد تقتله خوفاً على مارى، ولكن ليست عنده الشجاعة لدخول المقبرة وحده حتى يرجع بها، فأثر الانتظار، ولكن الانتظار عند المقبرة قاتل وصعب على النفس .

وما أن لمح مارى على أول مخرج من ساحة المقبرة، وبجوارها صبية صغيرة حتى طار جرياً إليهما لا يصدق ما يرى، وخاصة أن العسكر قد أخبروه بأنه لا جود لأحياء هنا وأن مارى تحلم وتصدق الهراء فى أن تجد الصغيرة فى جوانب القبور والمغارة الموحشة .

و قد خافت نفرتال من هرولة ذلك الشخص ناحيتها فتراجعت، وأدركت مارى التى كانت فى صلاتها وذكرياتهما من الفرحة، فأمسكت بيدها : لا تخافى ..إنه جرجس سائق العربية الأمين وهو معنا فى انتظارنا.

وما إن وصل جرجس إليهما حتى صاح: نفرتال ؟

فتعجبت نفرتال بأن هناك آخرين يعرفون اسمها، بركات الرب يا مارى وطهارتك، وطاروا جميعاً جرياً إلى العربية ...

نعم الصغيرة تخطو أولى خطواتها إلى خارج أرض المقبرة، ولكن بعد أن تشبعت بدنياً و بصرياً وعقلياً بروح الموت، الحقيقة المطلقة، وما زالت عيناها تنظر إلى الخلف ولمحت تراب أعلى باب المغارة ناظراً إليها كأنه يودعها، فقد اختار البقاء بين جنبات

المقبرة .

ورغم انسياق نفرتال إلى رحلة جديدة و ذراعها عالقة بذراع مارى، إلا أنه يوجد على عقلها البسيط سحابة كبيرة من الغموض .

وفى الطريق قال جرجس لمارى : إن الوقت قد تأخر وأنتما فى حالة من التعب، فأسألك أن تشرفينى بالمبيت عندنا فى البيت الليلة، وغداً فى الصباح نعود إلى الدير الكبير حتى ترى ماذا ستفعلين.

أما مارى فكانت فى حالة من الضعف والتعب لا تختلف كثيراً عن حال نفرتال، فاليوم كانت أحداثه كثيرة، كما أن نفرتال فى حال يرثى لها بعدما شاهدت ما حدث ليلة أمس، فوافقت مارى شاكراً وكلها امتنان لجرجس.

فقال جرجس : أتشكرينى على أن يزورنا ملاك مثلك وبيبارك البيت وأهله ؟

وكانت نفرتال تسمع ولكنها كانت فى ضرب من ضروب الأحلام، فاللغة مختلفة والأصوات جديدة وطريقة الكلام لها رونق مختلف.

وتذكرت مارى أن نفرتال جائعة فأخرجت فطيرة أخرى من شنتتها لم تكن من حظ تراب هذه المرة، واحتضنت نفرتال وهى ناضرة إليها ولكن كلا منهما فى بوتقة من الحب والحنان.

ولقد كانت هذه هى المرة الأولى لخروج نفرتال من المقبرة، ولأول مرة تقع عيناها على الطريق، وبدأ التعجب يظهر عليها

كلما اقتربت العربية من البلدة، حيث بدأت البيوت تنتشر متناثرة على جانبي الطريق والأنوار خافتة بها والأصوات تصدر عنها، تأخذ عقلها وتطرح الأسئلة، ولعل أكثرها غرابة هذه الوجوه التي يحملها المارة.

وقد لاحظت ماري ذلك فأخذت تضم نفرتال إلى صدرها، ثم قطعت صمتها وقالت: لقد وصلنا، وعندئذ توقف جرجس أمام بيت ريفي عادي، وقفز أمام البيت، داعياً ماري ونفرتال إلى الدخول بعد دفع الباب بيديه صائحاً: يا أم العيال عندنا ضيوف وحبائب، فخرجت زوجته مرحبة بالضيوف ومن خلفها صبيتان جميلتان، وتعارف الجميع، وسأل جرجس زوجته وبناته إعداد الطعام وإعداد المبيت للضيوف.

وأخذت الفتاتان نفرتال معهما إلى الحجرة الداخلية لهما وهم يسألانها أن تغسل وجهها، بل وأحضرتا لها لباساً آخر لتلبسه، بينما ذهبت الزوجة لإعداد الطعام، وبقي جرجس متحدثاً مع ماري في المنذرة.

و كانت هذه المرة الأولى في حياة نفرتال أن تدخل بيتاً وترى الأثاث وكيف يكون البيت من الداخل، ورغم مرح الصغيرين معها إلا أنها كانت ترد بصعوبة، ناظرة إلى كل شيء حولها في عجب واستغراب، ودارت الأحاديث في كل شيء وكل اتجاه.

وغمرت إحدى الأختين لنفرتال قائلة : أختي بتحب ابن عمها منذ الصغر حقيقة هو شاب جميل وقوى، ولعل ذلك الحديث أضاف إلى قاموس نفرتال اللغوى والبصرى في هذه الليلة أكثر مما اكتسبته خلال حياتها الماضية، وأخذت في الاستماع والاستعلام

عما يكون من كلمات أو لمحات بين ثنايا كلام الفتاتين.

واجتمع الجميع حول طبلية الطعام، وثليت الصلوات، وكان الشرف للأخت ماري في الصلاة، وذلك جديد على نفرتال، ولكن قد ذكر اسم يسوع فلفت نظرها وخاصة أنها تعلمته من الصالح حنا، وبدأ الجميع يصب الطعام صباً في طبق نفرتال، وأخذ لسانها هو الآخر يتذوق طعماً بعد طعم، جديداً في جديد، وعقلها يجمع اسماً بعد اسم، وأدار جرجس دفة الحديث على الأكل، ثم أعد لهما الفراش في حجرة البنيتين، قائلاً: في الصباح سأقودك إلى الدير، ثم أضافت زوجته : أتعتقدين يا ماري أن نفرتال ستكون هي الأخرى راهبة في دير الرب؟

وكان ذلك الموضوع قد بدأ يشغل بال ماري، فما نوع الحياة القادمة لتلك الصغيرة التي حرمت من كل شيء وفاتها الكثير؟ إنها تحتاج كل وقتها ورعايتها ولكن كل ما وصلت إليه هو أن عليها أن تبدأ الخطوة الأولى إلى الدير حتى تتضح العلامات أو يظهر الرب علاماته للمستقبل.

وأجابت ماري أن اختيار دار الرب اختيار شخصي يعامل إقناع وليس ملبساً أو ملجأ مؤقتاً هرباً من ضروب الحياة، أو قاذفة من قذائف شرور الحياة تهرب بها الضحية، فالأمر كله متاح وأظن أن عليّ أن أعلم نفرتال وأوضح لها الأشياء، و هي الأخرى عليها أن تكتسب الكثير من الخبرات، وتعهد الحياة البشرية ثم تقرر ماذا تريد.

وأضاف جرجس : والمسيح الحي قد فكرت مراراً أن آخذ دير الرب ملجأ وحياة أقضيها في سلام و صلاة، ولكن ليس الأمر

سهلا و يتطلب الإخلاص والخلاص.

و تم الطعام وغسلت الأيدي، ودخلت ماري ونفرتال الحجرة لتتأمل أول مرة في حجرة ومبيت على فراش، لتبدأ معركة الأحلام.

وكانت نفرتال شاردة الذهن، ورغم أن لقاءها بخالتها ماري لا يتجاوز بضع ساعات، ولكنها كانت منذ لحظة اللقاء بمثابة الحصن الحصين والركن المتين وعصب حياة جديدة، حياة قد أعلنت مولدها بعناية الخالق ليتمكن هذه المخلوقة الشفافة من أن تتحرك في الحياة كسائر مخلوقاته، وتذكرت تراب فبادرت قائلة: وحشني تراب يا خالتي.

وانتفضت ماري حين سمعت كلمة خالتي من نفرتال لأول مرة وصاحت : خالتي !.. هذه أول مرة أسمع تلك الكلمة، وطالما حلمت يوماً أن أجذك وتناديني خالتي، فأنا الخالة ماري ولست الأخت ماري من الآن، لقد أوصلت روابط العائلة المفقودة، ليت دميسيس هنا لتسمعك وأنت تتطيقين خالتي.

ثم أضافت : حبيبتي نفرتال أظن تراب فرحان بوجودك معي، ألا تتذكرين حين حاولت أن تأخذه؟ تركك لحياة جديدة وذهب إلى أعلى باب المغارة مودعا إياك، شامخاً بوجهه محركاً ذيله غبطة وفرحان كأنه يتمنى لك حياة جديدة، فهو ابن تلك المقبرة وهي سكنه، وسنعود من وقت لآخر لزيارة قبر أمك وكذلك تراب، اخلدي إلى النوم ولا تفكري في شيء، فأنت تعب ومرهقة، وغدا عندنا رحلة أخرى إلى الدير الكبير.

ومدت يدها لتقل من ضوء السراج لتضيء على المكان جو



السكون والهدوء، ونظرت إليها نفرتال بكل حب ثم قالت وهى تحتضنها بذراعيها : أنى أحبك يا خالتى وأرجو أن تكونى معى دائماً.

وأطبقت ماري كلتا ذراعيها على نفرتال حبا ورحمة وشكرا لنعمة الرب، و هنا حركت نفرتال الفراش لتمد جسمها إلى جوار جسد ماري التى خلعت طرحة الرب إلى جانبها حتى رأتها نفرتال بكامل شعرها فقالت : أنتِ جميلة قوى يا خالتى.

وضحكت ماري وقالت : نامى يا صغيرتى.

وأخذت تتلو صلاتها، وافترقت كل روح منهما فى سبات النوم.

على الجانب الآخر من البلدة بيت كبير تقطنه السيدة أم مصطفى التى تقضى ليلها فى ألم وصبر، ولكن عقلها وقلبها دائماً منفطران على ولدها مصطفى، فهى تعلم أن مصطفى فى سلوكه المستهتر وإهماله لأرضه ومال أبيه سيكون فى النهاية فريسة للحاج صالح الذى لا يرحم ولا يرفع ذمة ولا ضميراً، فهو قائم على إدارة أرض مصطفى وأمه وزراعتها، وقد جمع ثروة تعادل ثروة أم مصطفى من السرقة والنهب خلال الأعوام الطويلة الماضية.

و كم حاول صالح مراراً أن يقنع أم مصطفى بالزواج منه فى الماضى، وهى تعلم مراده وغرضه ولكن حقيقة الأمر الآن أنه ليس فى حاجة إلى ذلك الزواج، فقد حصل على كل ما يريد والحاجة أم مصطفى لا تملك من الرجل أو السند من يعاونها فى زراعة أرضها، خاصة وأن أهل والد مصطفى منذ زواجه من الحاجة فاطمة قد رفضوه كلية وطردوه من زمام العائلة، تلك العائلة الغنية التى تقطن البلدة المجاورة.

وكانت أم مصطفى شابة جميلة ولكنها فقيرة وعائلتها لا تملك قوت يومها، ولكن قد تعرف عليها حيث كانت تساعد أهل الدار المملوكة لصديقه فى البلدة ثم تزوجها، حتى أن صديقه تخلى عنه هو الآخر، وأمام ذلك فإنه ترك بلدته وأهله بما استطاع أن يجمعه من مال من ميراثه الكبير، ويشترى به داراً وأراضى زراعية، ليقوم مع أم مصطفى بهذه البلدة، ولكن سرعان ما تلقته المنية تاركاً وراءه مصطفى وأمه غرضاً لكل طامع، وكذلك مرض أم

مصطفى الذى باغتها بعد وفاة زوجها قد حد من قدرتها، وألقت الأرض فى عب الحاج صالح يوماً بعد يوم، وكان أملها أن يكبر مصطفى ويفلح أرضه مرة أخرى، ولكن بعد أن ذهب إلى مدينة العاص مراراً مع الحاج صالح أصبح حلمه أن يعيش بها، ولم يكن أمامه إلا أن يحاول أن يقنع والدته بدراسة الفقه والشرعية فى حلقات العلم.

ولم تستطع والدته أن تثنيه عن عزمه، وخاصة أن ذلك الشيطان الحاج صالح كان وراءه دائماً يشجعه على فكرته، ويحاول أن يقنع أمه حتى يتمكن من الانفراد بكل شيء، بل كان يخطط لزواج مصطفى من ابنته الصغيرة الجميلة (خضرة)، والتي رزقها على عشرة من الأولاد من زوجته الرابعة والتي تعيش معه فى دار مستقلة، تلك الشابة اللعوب التى أنثرت وأنضجت فى ابنتها خضرة من الأنوثة، وحقيقة كانت جميلة وقريبة من قلب أبيها.

وحان أذان الفجر، ودوى صوت المؤذن المسؤول عن الناحية من البلدة لإعلان فجر يوم جديد، وكعادتها كانت الخادمة المسنة فى طريقها إلى حجرة الحاجة حتى تعاونها على الوضوء للصلاة .

فى صباح ذلك اليوم سيأتى الحاج صالح إلى الحاجة قبل أن يذهب إلى مدينة العاص حتى يأخذ ما أعدت الحاجة لابنها من زاد، كذلك تحمله رسالة شفوية بأن يأخذ باله من نفسه وعليه أن يعود إلى القرية. وأطلت الخادمة العجوز نبوية على الحاجة فاطمة بطلاقة الوجه المعروفة عنها، مارقة من الحجرة تحمل فى يدها الطبق المعدنى والإبريق القديم.

وبدأت نبوية فى صب الماء للحاجة قائلة : لقد سمعت أن الحاج

صالح سيأخذ معه ابنته الدلوعة خضرة لتزور أولياء الله ومدينة العاص.

وقد انتهت من صب الماء، فردت الحاجة : نعم يا نبوية، تحبى تزورى معهم أنتِ كمان؟

فأجابت : طبعا ولكن خلىنى بعدين يا حاجة، وزادت فى القول: البت خضرة كل رجال البلد تتمنى تتزوجها، طبعا حلوة وغنية وأبوها من كبارات البلد.

زادت الحاجة فاطمة : وعندها طين كمان.

فضحكت نبوية قائلة : أيوة يا حاجة الله يرحم، كله من خيرك وخير ابنك، ياريت يا حاجة تجوزى مصطفى لخضرة يمكن ينصلح حاله.

و أدارت الحاجة فاطمة وجهها إلى ناحية الشباك قائلة : عشان الباقي يروح كمان .. ما أنت عارفة يا نبوية إن كانت خضرة بنت صالح فكفاية أنها بنت زقزقة العجرية، وطبعا أنت عارفة من زقزقة العجرية فى شبابها.

ثم أخذ الحديث مجرى آخر، فأضافت : المهم أنت خلصتي الحاجات التى سيأخذها معه لـ مصطفى؟

- طبعا يا حاجة !

أجابت نبوية وهى فى طريقها إلى خارج الحجرة، ثم توقفت فجأة وصاحت : نسيت أقول لك فيه أخبار فى البلدة من أمس نتحدث عن مجاهد قائد العسكر الذى قبض وقتل أخيراً جميع أفراد

العصابة التى شبيبت بحرى مصر، والناس الآن فى فرح كبير.

فردت الحاجة: خير خير، حاميتها حراميتها، مجاهد سند الحاج صالح وجامع المكوس والضرائب من أهل الناحية، أنا فاكرة من سنين طويلة عندما كان عسكرياً عادياً كان لا يمتلك قوت يومه، لكن اليوم جميل الملبس حليق الذقن يللم من الأراضى والغلال بلا حساب دابر الناحية ولا ترد له كلمة .

وأيقظ صوت أذان الفجر دابر الناحية جميع من كان ببيت جرجس كما هو معتاد كل يوم، إلا أن نفرتال استغربت ذلك الصوت وحاولت أن تفسر معنى كلمات الأذان فلم تستطع، ولم تشعر إلا بحضن الخالة مارى، إذ داعبتها من خلف أذرعها جعلتها تعود إلى عالمها الجديد، وقالت : صباح الخير يا خالتي، إننى لم أنعم بنوم مثل ذلك النوم فى حياتى، فالنوم هنا على ذلك الفراش مريح للغاية، ليس كمثلى فراش الأرض، أرض المغارة وصخورها وترابها، لكن تعرفى وحشنى تراب، لقد اعتدت أن ينام حولى أو تحت قدمى مداعبا معى فى الصباح وهو كسلان يهز ذيله.

وقاطع الحديث صوت طرق على الباب للإعلان أن الفطور فى طور التجهيز، وبسرعة ارتدت نفرتال ومارى ملبسهما، وقامتا بتنظيف الحجرة سريعاً وإعادة ترتيب الأشياء مرة أخرى، ثم خرجا ليجدا الماء يصب على رأس جرجس بيد البنت الصغرى، ثم تقدمت نفرتال بعده وبدأت فى غسل وجهها ويديها ثم تبعتهما مارى، ثم رجع الجميع إلى مندرة المنزل استعداداً للفطور، وذهبت مارى لتساعد زوجة جرجس فى إعداد الطعام .

ورصت الأطباق فالضيف فى مصر ضيف بغض النظر عن ديانتته أو جنسيته، وتعددت أنواع الخبز والشراب، وذلك ما لم تعتده نفرتال فى حياتها، وبدأ الحديث، فقال جرجس : لابد أن نلحق نصل للدير قبل موعد صلاة الجمعة لأن السوق يصبح أكثر زحاماً يوم الجمعة.

وسأل نفرتال عن نومها فأجابت أنها لم تتم من قبل فى راحة مثل هذه الليلة ولولا أذان المؤذن لما استيقظت، وأنها لم تقهم ما يقول وسمعت أكثر من مرة الله ورسوله، فمن هو الله ومن رسوله؟ وكان الرد سريعاً من جرجس أعقبه تعليق من مارى فتعقدت الصورة أكثر أمام نفرتال، فما كان قول جرجس أن الله هو إله المسلمين وكذلك رسوله، فقاطعت مارى قائلة : إن المسلمين بشر من صنع الرب يعتقدون فى الدين الإسلامى، وأمرنا أن نصبر عليهم ونرشدهم للوصول للملكوت، فالخراف الضالة كثيرة، ولكن جرجس حاول أن يبدأ القول بأن الأب وليم يقول ...، فعجلت مارى : أعلم يا جرجس أنى دائماً فى صراع مع الأب وليم لوقت غضبه الشديد وحنقه على المسلمين، فهؤلاء الخراف الضالة من واجبنا أن نرشدهم كما قلت لدخول ملكوت الرب ونشفق عليهم، فإنهم ليسوا محظوظين لعدم اتباعهم المسيح، حتى أن الأب وليم يقوم بعلاج رواد الكنيسة من المسلمين طالبي الشفاء.

-..نعم.. صاح جرجس مقاطعاً مارى، ولكنه يجمع تبرعات كبيرة من هؤلاء المسلمين، يقولون كذلك إن الأب وليم وغيره لا يعالجون المسلمين من الجن والمردة بل هم الذين يدخلون أجسادهم هذه الشرور حتى يبيدوهم ويهلكوهم عن بكرة أبيهم،

وتتدخل زوجة جرجس ناهية الحديث : دعنا من الكلام ونأكل أفضل.

فبادرت ماري قائلة : الله ورسوله بالنسبة للمسلمين هو الإله الأعظم ورسوله محمد صاحب التبليغ لهؤلاء للدخول في ملكوت الرب، فقالت نفرتال: إذن يسوع إله المسيحيين والله إله المسلمين، فردت ماري: سأشرح لك كل شيء ولكن لا يمكن القول إلا أنه إله واحد لجميع الناس ولكن اختلف اسمه من مكان لمكان، علينا أن نأكل الآن لنتحرك .

وتليت الصلوات ليبدأ الفطور الأول لنفرتال مع خالتها وآخرين في العالم الجديد، واحتضن حضن نساء البيت ماري والصغيرة معا، وانطلق جرجس إلى العربة التي أعدها من الفجر وتحرك الجمع .

تحركت العربة تخترق طرقا البلد، وأخذ بصر نفرتال كل ما حولها من المارة الذين يسحبون حيواناتهم في طريقهم إلى الحقول والمزارع، وحاولت نفرتال اختراق هذه الوجوه لترى قسما وملامح ليست مختلفة تماما عن سكان المغارة، ولكن يجمع بينهم همة الحركة وجرأة الخطوة لإتمام عمل ما .

وأما ماري فكانت في صلاة ودهشة وتعجب من أمر نفرتال وما حباها الرب من جمال وخفة روح، وأودع الأسرار في ذلك الجسد النحيل ذي الروح العالية، وبينما هي في أفكارها اختلست الصغيرة نظرة إليها باسمه، وهنا تبسمت ماري لها وقالت :

أتعرفين أنني التي اختارت اسمك نفرتال حين ولدت، ووقعت بيني وبين أبيك مشادة كبيرة، ونجحت عندما انضمت أمك إليّ، فكان

أبوك يريد أن يسميكِ على اسم أمه، فقالت نفرتال : أبى الذى فى المغارة يرقد ..وسكنت مرة أخرى ثم أكملت : تعنين أبى الحقيقى ؟

وأكملت مارى، نعم واسم نفرتال هو اسم جدتك، وتوقفت العربية برهة فوق الصمت مرة أخرى وكان قطيع من الإغنام يعبر الطريق، ثم عاودت نفرتال : جدتى ؟ أين هى ؟ أريد أن أراها، فقالت مارى وأنا كمان ولكنها عادت إلى الرب، لقد ماتت ..قتلت غدرا وافتراءً.

فأخذت نفرتال تتمتم بصوت خافت : الموت ..الكل يموت ..من أعرف ومن لا أعرف يموت، أعلم أن الموت ليس بعيداً عن أحد، كان كل يوم يأتى أكثر من ميت إلى أرض المقبرة ليرقد هناك، واستدارت مارى لتأخذ نفرتال فى حضنها مرة أخرى حتى تحس بالأمان، وأكملت نفرتال كلامها : إنى أحبك يا خالتى ولا أريدك أن تموتى وتتركىنى مرة أخرى.

وأخذت تبكى واختلطت دموع الاثنين . وقد قطعت العربية كثيراً من الطرقات حتى كادت تصبح على مشارف سوق البلدة الكبير الذى يقع قرب الدير العتيق، وقال جرجس من مكانه : لقد دخلنا سوق البلدة وتستطيع الآن نفرتال أن ترى السوق والبلدة، وتوقف جرجس إلى جانب العربات الملاصقة للرصيف حيث اعتاد الناس الركوب والنزول هنا.

ونزلت مارى ووراءها نفرتال من العربية، وكانت نفرتال ترتدى ذلك الجلباب الذى أهدي إليها فى بيت جرجس، وأصبحت عيناها



شاخصتين فى كل اتجاه، وخاصة إلى أعلى المشهد حيث بدأت تظهر البيوت المكونة من دورين أو أكثر فى طراز معمارى مختلف، والأبواب والشبابيك من الحديد والخشب أكثر دقة وروعة وقوة من تلك البيوت التى فى أطراف البلدة .

وقال جرجس أنا أرجع لكم بعد صلاة الجمعة حيث افترش الناس الجامع الكبير الذى يتوسط السوق، وقد هرول معظم الموجودين إلى الجامع، ومشى معهم جرجس حتى يحتسى بعض الجنبيل ويدخن المعسل كما اعتاد هنا.

وأخذت المحلات والمعروضات والباعة والبضائع المعروضة فى كل مكان نظر الصغيرة نفرتال، وعندما اقتربوا من الجامع كان الشيخ يتلو فى خطبة الجمعة المعتادة عند المسلمين قائلا : " لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم " "لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة"، وهنا ضحك جرجس وهو ينظر إلى أعين مارى التى كانت ترتدى لباس الراهبة وقال مرحبا بك أيتها الأخت فى السوق المسلمون يحيون تلك الخراف الضالة التى حدثتتى عنها اليوم، وهم يرمون بالكفر، وعلى فكرة لقد تم بناء ذلك الجامع بهذا الحجم لستر الدير العتيق الذى يوجد فى أول السوق .. فنظرت مارى إلى جرجس وقالت : كفى يا جرجس، فنزلوا على الناصية، وسارت هى ونفرتال إلى داخل السوق، ونفرتال تسأل عن هذا وذلك، ورغم أن مارى تجيب إلا أن نفرتال لا تفهم شيئا.

و كانت وجهة مارى محل الحلوى المشهور فى السوق، فقد عزمت على شراء بعض الحلويات والمخبوزات الشهية لتقديمها لنفرتال، وعندما وصلت كان صاحب الدكان فى طريقه إلى

الصلاة ولكنه توقف أمام مارى وقال : سريعا يا بركة الرب،  
عاززة حاجة يا أخت قبل الصلاة .. بس بسرعة لو سمحت حتى  
ألق الصلاة. نعم معظم أهل البلدة أو المصريين يكنون الحب  
لأهل الدير، إلا المتغطرسين من المسلمين والمسيحيين الذين  
يدعون أنهم جنود الرب فى الأرض وأصحاب الحق فى فرض  
دينهم على الآخرين ولو كرها .

واشترت مارى من الفولية بالعسل وبعض الخبز، ثم أخذتا جانباً  
من الطريق وجلستا جانباً إلى حجر كبير، لتبدأ نفرتال تذوق أول  
طعم الحلويات فى حياتها ولتعلم أسماءها، فهى أحلى ما ذاقت  
حتى الآن فى حياتها، وتناولتا الطعام حتى شبعت نفرتال، ثم  
حضنت خالتها فى حب وحنان . والتقت مارى ونفرتال وجرس  
حسب الاتفاق بعد أن انتهت الصلاة وفتح طريق الوصول إلى  
الدير وركبوا العربى مرة أخرى للوصول إلى الدير، وعادت  
العربى طريقها إلى خارج السوق، إلى المروج الخضراء على  
جانبى الطريق الترابى حيث تتوسطهما أشجار النخيل الذى يحمل  
بلحاً أحمر، وآخر أصفر ورغم أنهما متواجدان جانباً إلى جانب  
فى العربى، إلا أن كلا منهما عاد إلى عمله مرة أخرى تداعبه  
أفكار وأحلام للأيام القادمة .

ووجدت مارى نفسها أمام معركة جديدة لم تتوقعها من قبل،  
بمعنى أن الأكثر صعوبة الآن بعد استحالة وجود نفرتال من قبل  
هو ماذا تفعل مع نفرتال فى الأيام القادمة، لتجعل من تلك الفتاة  
المحرومة من الحياة شابة قادرة على اعتراك الحياة، فالصغيرة  
تحتاج إلى وقت طويل ومأكل و ملابس وبيت وكل هذا يتطلب مالا  
..مالاً..

اللحظة الحاضرة جعلت ماري تفكر في المال، المال الذي لم يكن له وجود طوال ثلاث عشرة سنة ماضية، فقد قضت معظم حياتها في الدير والعبادة والتمريض فكان قليل من المأكل والشراب يكفي، ومكان آمن للنوم ساعات، وقليل من الثياب بل ثوب واحد لستر الجسد يكفي، فلا شيء يهم إلا صلة الرب في رعاية اليتامى وتمريض المرضى والصلاة من أجل الناس ولخير الناس.

ولكن اليوم كل شيء مختلف فهي تريد أن تعطى نفرتال حياة، وبالرغم من احتواء الدير على مأوى ومأكل ومشرب إلا أنها تجد هذه الحياة صعبة على نفرتال، ومن غير العدل أن تخرج من سجن المقبرة والمغارة لتقيم في الدير حياة الزهد والعبادة، إلا أنها قد عقدت العزم على البقاء مبدئياً بالدير حتى تجد مخرجاً لها ولنفرتال .

وأخذت العربة تقترب من الدير الذي يقع على أطراف السوق من الجهة الأخرى، لتتبدل صورة المروج الخضراء والحقول إلى بيوت متلاصقة متراسة جانباً إلى جنب، تختلف في شكلها وبنائها عن سابقتها بالبلدة الصغيرة، بيوت أكثر حضارة ومدنية، وقد دبت الحركة في أرجاء المدينة مما جعل نفرتال تشعر بالخوف، فحياتها السابقة كانت هدوءاً وسكوتاً، وأهل المغارة معدودون وجيرانهم من ساكني المقابر يرقدون دون إزعاج، فقد ألقى الموت بظلاله وسكونه عليها وعلى كل ذاكرتها، مما دفع الصغيرة إلى أن تقترب من ماري وتلصق جسدها النحيل بجسد الخالة راصدة ما حولها، حتى وصلت العربة إلى بركة مياه كبيرة وقالت ماري :  
إننا على مقربة من الدير يا نفرتال، فقالت الصغيرة : أتسكنين في مثل هذه البيوت؟ فردت ماري : لا، إنني أقطن في دير الرب،

ولكن قريباً سيكون لنا مثل هذه البيوت التى نراها، ثم أخرجت ما تبقى من الحلوى التى كانت تحتفظ بها وأعطتها إلى نفرتال.

أوقف جرجس العربى أمام باب الدير معلناً نهاية الرحلة التى استغرقت أكثر من وقتها نظراً لصلاة الجمعة وغلق الطريق قائلاً: بيت الرب، وصلنا بالسلامة، حظاً سعيداً يا نفرتال، فشكرته مارى ونفرتال، ونزلتا من العربى فوجدتا باب الدير مفتوحاً، ذلك الباب الخشبى القديم الذى أخذ اللون الخشبى الضارب إلى السواد من فعل المطر والتراب، ذو المفصلات الحديدية الكبيرة الذى يتوسط مدخل الدير الدائرى الشكل المبنى من الحجارة الكبيرة وحوله سور كبير، ويقف الصليب الخشبى كبير الحجم المتقن الصنع والذى يرتكز على قاعدة حجرية كبيرة بالسور على الباب الخشبى

أحد قصور الحكم فى مدينة العاص يقع على ضفاف نهر النيل، تلك القاعة الواسعة المعدة لاجتماعات أهل الدولة لمناقشة شئون الحكم، ذلك القصر الذى يتوافد عليه يومياً العديد من الشخصيات البارزة فى الحكم فى حضرة والى مصر.

واقتراب موعد وصول رسول أمير المؤمنين من الأراضى المقدسة لاستلام حصيلة الضرائب والجزية المفروضة على مصر كولاية تابعة للدولة الإسلامية، فمصر واحدة من الأمصار التى فتحت بيد العرب المسلمين، والتى غزتها الجيوش الإسلامية فى الماضى وعليها أن تؤدى الجزية والضريبة سنوياً، مما أرق خزانة الدولة المصرية والمصريين، خاصة أن والى مصر والحاشية لهم الجباية الخاصة بهم أيضاً، وقد تتعجب أنه فى نهاية المطاف يقوم أمير المؤمنين بتوزيع هذه الأموال كأنصبه للأهل وخلف الخلف الصالح من المسلمين، لأولاد المهاجرين والآن صار بالدرجة الأولى، وكذلك إعداد المزيد من الجيوش لإستكمال الغزو الإسلامى للأمصار .

وكان شخص آخر وافدا على القصر، ذلك العجوز اليهودى الديانة (هارون)، ممثل اليهود أو أهل الكتاب فى مصر كما يدعى فى عرف المسلمين، فاليهود والنصارى هم أهل الكتاب .

وانضم هارون إلى المائدة التى يجلس حولها والى مصر والعديد من الشخصيات البارزة، وكان مكانه إلى جوار كبير القبط فى مصر ورفيقه الأب وليم كمثلين لأهل الكتاب من النصارى فى

مصر، وعلى الثلاثة أن يجلسوا إلى ذيل المائدة .

وها هو ذا والى مصر، ولى أمر المصريين المعين من قبل أمير المؤمنين على حكم ولاية مصر، والذي يرتدى فاخر الثياب والعمائم من الحرير وغيره، ويزين عمامته بالأحجار الكريمة، أما أصابعه فعليها إنعكاس لضوء القناديل على خواتم الذهب تضيء على الحاضرين البهجة، نعم والى مصر يرتدى كل ما حرم الله فى شريعة المسلمين وسنة رسوله من حرير وذهب وزخرف، والدور الأساسى لوالى مصر نجاحاً يتمثل أولاً فى سداد الضرائب والجزية فى موعدها كل عام، بزيادة عن العام السابق وبغض النظر عما يعانيه أهل البلاد من فقر، وها هنا هو اليوم فى قاعة القصر بين الجمع لإيجاد وسيلة لرفع حصيلة الجباية من الضرائب والجزية لأرسالها لأمير المؤمنين ليثبت نفسه والياً على عرش مصر .

والى جانبه الوزير زعفران، ذلك الرجل العجوز المحنك فى أمور الحكم والولاية، فلديه من الحكمة والدهاء ما جعله أهم من والى فى نظر الرعايا، وكذلك فى نظر والى كدعامة لملكه ومنفذاً لرغباته .

والوزير زعفران ولد لعائلة غنية، ورغم دماء المصرية النقية التى لا تحمل دماء البدو الغزاة، لا هم ولا شاغل له إلا مصلحته ونفوذه على حساب الرعايا المصريين، ومعظم رجال عائلته تتوارث لعبة السياسة والمناصب فى جميع أجهزة الدولة، كما يفعل الآن جميع أهل مصر، ذلك الوزير الذى يعد من أكبر رواد سوق الجوارى فى مصر فى زمانه، وقد تزوج الكثيرات وطلق الكثيرات، وله من الأولاد والبنات ما يسد عين الشمس، وكل واحد

من هؤلاء الأولاد ذكر كان أو أنثى لا يقل عنه شراسة فى جمع المال والتشبث بالنفوذ، دون مراعاة للمصريين أهل البلاد .

وقد أخذ الوزير والوالى يتهامسان فى صوت منخفض لا يسمعه الآخرون من رواد المائدة، حيث قال الوالى للوزير : ما أخبار الجوارى الجدد ؟ القصر عاوز يجدد دمه..، فضحك الوزير : طبعاً يا مولاي لكن الحسان لسن كثيرات ومولاي ذواق، لكن عندى أخبار مفرحة، لقد وصلنا بالأمس مجموعة من الجوارى التركمانستان نوات الأعين الـ...، وقاطع ضحك الإثنين غلق الحاجب للأبواب معلناً عن بدء الإجتماع، وكان السيد (صك) مدير والقائم على أعمال بيت المال، ذلك البدين الذى يحمل أمامه وعاء كبير يدعى عند البشر المعدة، ويكاد لا يتنفس من كثرة الملابس التى عليه، وقد وضع على رأسه عمامة عاليه، قد لفت حول راسه بعناية فائقة وحرفية عالية .

وهنا قال الوزير زعفران : اكتمل النصاب .. الآن نبدأ الحوار، ثم أكمل : نحن هنا اليوم لأنه باكتمال هذا الشهر يكون رسول أمير المؤمنين هنا مع قواده وحرسه لاستلام أموال الجباية من الضرائب والجزية أى خراج مصر لأمير المؤمنين، ورغم اقتراب الموعد إلا أنه يبدو هذا العام اسوأ من العام الماضى، ونحن نعلم أن مصلحة مصر .. نعم .. مصلحة مصر والحاضرين أن يتم التسليم فى الموعد المحدد، فرد مولانا الوالى : نعم .. لا أعلم لماذا هذا التأخير فى جمع الأموال.. أين المشكلة ؟، يمكن أن

يحدثنا صاحب أمانة بيت المال، فجمع صك قواه مردداً : كل شيء هنا يا مولاي . في ذلك الكتاب الذى أمامكم .

فرد الوزير قائلاً : اقرأ علينا من عندك يا صك، فمیل القس وليم على مجاهد زعيم العسكر الجديد قائلاً: نعم نصف الأموال فى الكتاب والنصف الآخر فى معدته تحت الثوب الفضفاض، و بدأ صك يقرأ أن حصيلة الجزية التى يدفعها اخوتنا الأقباط وإلهود ذات الحصيلة عن العام الماضى، فرد هارون ذلك الإهودى العحوز الذى ذاع صيته فى الثراء : عظيم دائماً أهل الكتاب فى انضباط وأداء، فقال الوالى : كيف يكون هذا ؟ . لولا أننا نعلم أن كبير القبط الذى تولى جمع الجزية بنفسه وكنيسته، ونعم أمانتهم كانت واضحة خلال الأعوام الخمسة السابقة لقلنا أن أموال الجزية تسرق، كما كان يفعل من قبل الجباة من المسلمين ولكن ما زلت فى حيرة يا كبير القبط، ألا تعمل الكنيسة على جعل رعاياها أكثر تمسكاً بالدين المسيحى فيزداد العدد وتزداد الحصيلة ؟ أما الأكثر عجباً أنه لم يولد خلال ذلك العام مسيحيين أو يهود !!

فرد كبير القبط ويده تمسك بلحيته الكبيرة المتدلّية على رقبتة وتخفى ورائها الصليب الخشبى، لا يمكن يا مولاي المزايدة على أمانة الكنيسة فى جمع أموال الجزية، فهى تؤدى إلينا فنحملها إلى القصر، وقد ازدادت هذه الحصيلة إلى الضعف خلال السنوات الخمس الماضية، فقد حملت الكنيسة هذه الأمانة كما قلت من قبل، وكان قراراً حكيماً من مولانا المعظم بقصر هذه الجباية علينا بدلاً من المسلمين الذين كانوا ينهبون نصفها من قبل، ولقد قد نمت إلى



علمنا أن كثيراً من الشباب المسيحي المتدين قد هاجروا إلى جبال جنوب مصر ليمارسوا الرهينة والعبادة حول تلك الصحراء، ومن الصعب الذهاب إليهم لجمع الجزية، كما أنه قد ازداد الفقراء المسيحيين في مصر، فقد حرّموا من حق الجهاد والمشاركة في الفتوحات الإسلامية في أنحاء الأرض، والتي يجمع فيها مسلمي مصر الذين انخرطوا في سلك الجهاد أموال طائلة، وعلمنا بأن الشريعة السمحاء تعفى غير القادرين من دفع الجزية بل أن بيت المال يدفع عنهم .

وأضاف وليم : لا ينسى مولاي أن قيمة الجزية مبلغ بسيط، وأن كثر عدد أهل الكتاب فلا تمثل حصيلة كبيرة، فرد مولانا موجهها كلامه إلى قاضي القضاة : افتنا يا قاضي القضاة هل يجوز لنا أن نزيد قيمة الجزية ؟، وكان قاضي القضاة قد غلبه بعض النعاس، فنغزه اليهودي هارون في رجله قائلاً : نزيد قيمة الجزية أم لا يا قاضينا ؟، فتنبه القاضي وقال : سندرس ذلك يا مولاي فإن كان عدلاً وموافقاً الشريعة السمحاء نفعل وإن لم يكون سوف نجد مخرجاً بالفقهاء إن شاء الله.

فرد مولانا : اذن لا محل للمناقشة هنا، اكمل يا صك ما عندك، قال يا مولاي : عندنا مشكلة في نفقات بيت المال، في كل عام تزداد المبالغ التي يدفعها بيت المال للأرامل والمطلقات والأيتام خاصة المسلمين، فقال الوزير زعفران في غضب : لماذا تهدر أموال بيت المال في هذه النفقات ؟، فيرد صك : يا مولاي إن المسلمين في الأعوام الأخيرة، اعتاد كل رجل زواج أربعة من

النساء سواء كان غنياً أم فقيراً، ولهم من البذور عدد لا يحصى، ثم يقوموا بطلاقهم والزواج من أخريات تاركين السابقات دون نفقات، فيأتوا إلى بيت المال حتى يستطيعوا أن يعيشوا، وبالتالي كل عام تزداد النفقات، كما أن كثيراً من الرجال يذهبون إلى الجهاد تاركين عائلاتهم في كفالة الدولة، وكثيراً منهم لا يرجع قد يموت وقد يؤسر أو يستمتع بالسبايا أو يتزوج في بلاد الجهاد، ويقيموا هناك تاركين ورثتهم عائلاتهم التي ترجع إلى بيت المال .

فيرد كبير القبط : أظن أن الكنيسة براء من هذه النفقات لأن شريعة الرب زوجة واحدة، فلا زواج إلا بواحدة ولا طلاق إلا بالموت، أنظروا كيف أن قبط مصر لا يستنزفون مواردها..، وكان رد قاضى القضاة الذى كان متوهج الحضور فقال : إن المسلمين يفرطون فى استخدام هذه الرخصة، أى الزواج من عدد كبير من النساء، فليست المشكلة فى التشريع ولا مزايدة عليه يا كبير القبط، فرد مولانا قائلاً : لا يجوز لنا أن نمنع زواج الأربعة فما العمل ؟ كيف نوقف هذا النزيف من المال المهدر ؟

وهنا شارك مجاهد الجمع : أعتقد يا مولاي أن فكرة الجهاد رغم أنها تؤثر سلباً على حصيلة بيت المال إلا أنها ذات الفكرة التى تتقذ بيت المال، فنحن نعلم أن الفتوحات الإسلامية والدعوة إلى الإسلام فى عصرها الذهبى، فإذا أعلننا عن فتح باب الجهاد بصورة منتظمة مشاركين فى فتح آسيا الآن فإن ذلك يدعم بيت المال ولا ينقص الحصيلة، لأنه يجوز خصم نفقات أعداد المجاهدين لإرسالهم لهذه البلاد فتخصم من أموال الضرائب المرسلة إلى أمير المؤمنين، ويعلم مولاي أنه لا رقابة على هذه الأموال ولا على أعداد المجاهدين، فأخذ الوالى يداعب شاربيه

بأصابعه مبتسماً مردداً : عظيم .. عظيم .. يا كبير القواد الجديد..  
أكمل أننى أجد كلامك جميلاً ويزيد الحصيلة فعلاً دون غضب  
أمير المؤمنين، ففكرة الجهاد المنظم جميلة وإعدادهم يحتاج إلى  
أموال طائلة فعلاً ولا يجوز لأمير المؤمنين رفض هذه التكاليف،  
مما يريحنا ويزيد حصيلتنا ويجعلنا أكثر إيماناً فى نظر شعوبنا  
المؤمنة .

فأكمل مجاهد قائلاً بعد أن صب بعض الماء من القارورة فى كأس  
زجاجى : عفواً يا مولاي..، حتى يشرب، ثم قال : كلما زاد عدد  
المجاهدين قل عدد الشباب المقبل على الزواج، وبالتالي فلا إنجاب  
.. وكلما طال وقت الجهاد من مكان لآخر، زاد العدد وطال الوقت  
فبذلك نثبت حصيلة النفقات على الخلف الصالح، وصاح قاضى  
القضاة : فعلاً رأى سديد ويدبر الكثير على خزانة بيت المال، بل  
وتصبح صفحة فى تاريخ الجهاد ويزداد الإيمان بين العباد.

فقال الوالى : عظيم يا مجاهد .. عظيم يا زعفران، عليكم بالعمل  
من الآن لرفع راية الجهاد، ثم قال: أكمل يا صك، فأكمل: يا  
مولاي مع أن فكرة مجاهد عظيمة إلا أن ذلك سيأتى بالسلب على  
بند الضرائب المفروضة على الصناعة والزراعة وضريبة  
المواشى، لأن كل من يذهب للجهاد يترك صنعته فتقل الأرباح فى  
البلد وبالتالي تنتقص حصيلة الضرائب، فرد كبير القبط قائلاً : ده  
غير صحيح، مسلمين مجاهدين فى الساحة وغير الساحة، ولكن  
معظم الصناعة والزراعة قائمة على أهل الكتاب، ومعظم  
المسلمين يحبون العلم والخطابة فى المساجد.

مولانا : بعدين ..بعدين.. يا صك شوف المسألة دى ..، فرد زعفران وقال : وفين أموال الزكاة يا صك ؟، فرد قاضى القضاة : الزكاة فى مصارفها الشرعية طبعاً يا مولای ..إقامة المساجد وحلقات العلم والذكر ورواتب الدعاة والقضاة.

وصاح الوالى : اذن لا حل عندنا حتى نحافظ على نفوذنا ونضمن استمرار أعضاء ذلك المجلس إلا زيادة الضرائب على المصريين، أو أن تتبرعوا ويتكفل كل منا بسداد حصته فى ذلك المال المنقوص لأمير المؤمنين...

وبدأت المهمة وصاح الجميع فى صوت واحد : نعم هو الحل الأول.

وانفض الجمع، واصطحب الوالى الوزير زعفران لاستكمال الحديث عن الجوارى وما ملكت الأيمان، وتابعهما اليهودى العجوز هارون قائلاً : مولای ..مولای ..إن سفينة البندقية قد تصل إلى الإسكندرية فى خلال أسبوعين، لقد وصل إلى يدي مكتوب من رسولهم بالأمس، فرد والى مصر وزعفران وفى نفس الوقت : يا بشرى .. يا بشرى، لا عليك يا هارون فالأموال جاهزة، وانطلقا إلى داخل القصر، وهمَّ الجمع بالخروج من الردهة من الجهة الأخرى .

باب الدير مفتوح على غير العادة، وقد تجمع معظم العاملين فى خدمة الرب بالدير، ورأت مارى وجه الأخت تريز فسألتها: ماذا هناك؟ فردت : طفلة حديثة الولادة دون ملابس ملفوفة فى خرقة من القماش وجدت إلى جوار البئر كسابقيها ..، فصلت مارى وذكرت اسم الرب وأحمر وجهها غضبا ثم قالت لنفرتال: ابقى مع تريز حتى أعود إليك .

وكان الأب وليم يقف وظهره إلى الناحية الغربية من البئر، وأمامه النافورة الدائرية القديمة ذات المياة الراكدة الخضراء اللون، والتي تسلقته نباتات الإلوديا من قاعها إلى قامتها وامتدت خارج الحوض الحجري الدائرى، ومرت مارى خلال الأخوات والأخوة وهى تقول : كيف يفرط الناس فى فلذة أكبادهم وتلقى هذه الأجساد الضعيفة فى دمس الليل وظلامه إلى جوار البئر الموحش، هذه ليست المرة الأولى كان الناس تعرف أن الرحمة بالدير فقط .. أين الأمهات؟ أين الأباء ؟.. السفاح والزنا أم الفقر ؟..، فردت واحدة من الأخوات : عفواً إن هذه الأجنة ليست لها أجنحة إننا لا نعلم من يضعهم هنا، هل هؤلاء من الدير أم خارجه؟ وهنا استشاط الأب وليم غضباً، فناول الطفل الذى فى يديه إلى مارى وشاركه بعض الحاضرين غضبه ..، نعم .. لا أحد يدخل الدير وهذه الأطفال لا تطير من على الأسوار لتستقر هنا ولكن ليس من الصعب أن يجد

أحد طريقه إلى داخل الدير ليلاً .

فقالت ماري : لا عليك أيها الأب فإن الرب قد اختار وهده إلى هذا المكان، فليرقد إلى جوار أخوته اليتامى فى عنبر الأخوات، وليكرمه الرب، ولتجعل موعد لقداسه وغطاسه ليظهر ويدخل الملكوت، فنحن لا نعلم أهو مسيحي أم مسلم أو غير ذلك، نحن الآن أبأوه، ورجعت حامله الطفل حيث تقف نفرتال، إلا أنها تذكرت نفرتال، فرجعت مسرعة إلى الخلف حيث الأب وليم : أيها الأب ..أيها الأب .. تعالى لترى عجائب الرب ..أنى وجدت نفرتال ..نفرتال تقف هناك مع الأخت تريز..، فصعق الأب : نفرتال ابنة أختك الغائبة منذ اثنتى عشر عاماً ؟! نعم أيها الأب نفرتال التى كانت ترانا ولا نراها ووقفت بين يدينا أمس باسم آخر فى البلدة المجاورة ..وأخذ الأب يتمتم : تمجد الرب ..تمجد اسم الرب، وهرع إلى ماري حتى يرى نفرتال .

إلا أنه لم ينه الحديث ولم تكتمل الخطوات، حتى سمعوا صياحا خارج باب الدير وطرق بشدة على الباب الخشبي، فيسارع إلى الباب مع الأخوة ليعلموا ما يدور خلف الباب، ووجد جمع من المارة ينادون : أنقذوها .. أنقذوها ..، ووجدوا سيدة مغطاة الرأس ملقاة أمام باب الدير تعاني من الألم والتعب تصارع الموت، عليها غطاء مفرش ملون وهى لا تقوى على الحراك أو الكلام، وصاحت ماري: إنها الأخت إيزيس ونادتها : إيزيس ..إيزيس ..، أحملوها إلى داخل الدير حيث حجرة التمريض، وناولت الأخت تريز الطفل حديث الولادة وسألته أن تأخذ بالها من نفرتال، وأسرعت وراء الأخوة إلى حجرة التمريض فهى أكثرهم خبرة فى أعمال التمريض والمداواة .

وتسمع همساً بين الأخوة : أهذه إيزيس التى اختفت من الدير؟ بعد أن أمضت هنا أكثر من عامين وانقطعت أخبارها تماماً؟..، وقد ظن أهل الدير أنها رجعت إلى الحياة مرة أخرى وتركت حياة الدير بعد أن جاءت بإرادتها هنا، ماذا حدث لها ؟ أين كانت فى الأشهر السابقة؟؟

وما إن رقدت الأخت إيزيس على السرير الخشبى والوسادة تحت رأسها، أمرت مارى الأخوة بالآن صراف حتى تخلع ملابسها وتبدأ فى علاجها، وسألت أحد الأخوات فى إحضار ماء دافىء، وقد لاحظت مارى آثار بقع دماء على النصف الأسفل من ملابسها بعد أن رفعت الغطاء عنها، وإيزيس تحاول جاهدة أن تتمسك بالمفرش عليها كأنها لا تريد مارى أن تأخذه عنها، وفى عينيها دموع، ولكن مارى قبضت بحنان على يديها قائلة: يرحمك الرب ..لا عليكِ يا إيزيس .

وما إن خلعت عنها ثيابها قد تأكد لها من خبراتها أن إيزيس قد وضعت طفلاً حديث الولادة وتعانى من حمى النفاس.

وطرق باب الحجرة فخافت إيزيس، إلا أن مارى طمأنتها، وفتحت الباب لتأخذ الماء الساخن وسألت عن ملابس نظيفة لها متعمدة ألا يدخل أحد إلى الغرفة، ثم سارعت بخلع ملابسها، وقد اطمأنت إيزيس أن مارى لن تقضح أمرها، أما مارى فهى فى حيرة من أمرها، فهى لا تعلم ماذا حدث لإيزيس التى استسلمت لغيوبة وراحت فى سبات عميق.

وأخذت مارى جميع ملابس إيزيس لتتخلص من تلك الدماء الجافة والملابس عامة، ولكن قد علمت أن جراح إيزيس لن تستمر

كثيراً، وأنها فى طريقها إلى مقابلة الرب، ووضعت بعض الضمادات القطنية والخرق البيضاء حتى تخفى معالم النزيف قدر ما تستطيع، ثم طرق الباب ثانية ففتحت وأخذت ثياب نظيفة لتضعها على إيزيس، وجمعت جميع ملابسها الملوثة بالدماء ووضعتها فى خرج حتى تتخلص منها بنفسها حتى لا يعلم أحد ماذا يجرى، وحتى تعلم هى الأخرى الحقيقة من إيزيس، وقامت مارى بغلى بعض الأعشاب التى تساعد على إيقاف النزيف وخلطتها بالعسل الأبيض، وايقظت إيزيس لتشرب هذا المشروب ثم نامت مرة أخرى.

وقد مرت أكثر من ساعتين، ولكن الآن قد فعلت مارى قدر ما استطاعت، وكانت تعاود من وقت لآخر لتتابع إيزيس وتخفى آثار الدماء الجديدة، وهنا طرقت الباب الأخت تريز ودخلت وأخبرتها مارى أن إيزيس تنال الآن قسطاً من الراحة وأنها ستعود لتضى معها ليلتها.

وقد حاولت تريز أن تأخذ معها ملابس إيزيس لتغسلها، فأصرت مارى على أن هذه الملابس ملوثة وستقوم بحرقها حفاظاً على الصحة العامة، وهنا سألت أين نفرتال فقالت لها تريز أنها تحضر القداس مع الأب وليم والأخوة، وقد أوقدت الشموع والصلاة فى المذبح حتى يكون الرب فى عون المولود الجديد، وكذلك إيزيس المريضة.

وذهبت مارى إلى ساحة الكنيسة حيث المذبح، ووجدت نفرتال جالسة فى المقعد الأخير من المقاعد المتراسة على اليمين والشمال، بينهما طريق إلى المنصة حيث يجلس الأب والأخوة



حوله يرددون الصلوات، وأما نفرتال فكان يغالبها النعاس، فاليوم كان ملئ بالأحداث وعناء السفر .

وما إن رأت نفرتال ماري حتى جرت إليها قائلة : أين كنت يا خالتي؟ .. لا تغيبى عني ..إني أخاف أن أفقدك، فقامت ماري بحضن الصغيرة، وقد قطع الأب الصلاة وجاء إلى ماري ونفرتال، وسأل عن صحة إيزيس وفهم من نظرة عين ماري أنها فى طريقها إلى الموت، ثم قال : هل أخبرتك أين كانت كل هذه المدة ولماذا عادت ؟، فردت ماري : أنها لا تتكلم لأنها فى غيبوبة من الألم، ثم وضع الأب يده على رأس نفرتال قائلاً : لقد عادت إليكي نفرتال ولم يضيع الرب جهدك وصبرك هباءً فالصغيرة اليوم معك، تمجد اسم الرب، ولكنى أذكر أنى رأيت نفرتال من قبل، فضحكت ماري فى خفة وقالت: لقد أحضرتها أمها المزعومة فى الدير ببلدتها التى تقيم فيها لإخراج الروح الشريرة منها، ولكن تحت اسم آخر حتى لا نعلم عنها شيئاً، .. نعم .. نعم، تذكرت الآن هذه الصغيرة التى لها روح قوية، أذكر ثبات عينيها وعمق نظراتها.

واستأذنت ماري الأب أن تقيم بالحجرة مع نفرتال حتى تجد مكان آخر لهما، فانزعج الأب: ماذا تقولين؟ مكانا آخر؟ ماذا تعنين؟ فقالت ماري :لا عليك يا أيها الأب سنتحدث غدا، فعليّ الآن أن آخذ نفرتال إلى حجرتي لتنام وأنا سأذهب لأمضى ليلتي مع إيزيس، وأخذت نفرتال إلى الممر الكبير الذى فى نهايته محرقة الخشب الكبيرة التى تدفئ حوائط وأرضية الدير الحجرية فى

ذلك الشتاء القارص لتلقى بملابس إيزيس الملوثة بالدماء فيها لتخفى كل شيء .

وأما مارى فنقطن فى الدور الثانى حيث حجرات الأخوات وحجرات الأطفال الأيتام ، فالدير مكون من طابقين قد تم بناؤهما من أحجار ضخمة، وسقفت بالخشب المتراص على أعمدة خشبية فى دقة، وتتخلل حوائط المبنى نوافذ كثيرة لتدخل الضوء إلى المكان، مصنوعة من الزجاج المعشق ذي الألوان والرسوم اليدوية البديعة التى تحكى صلب ابن الرب والملائكة من حوله فى كل مكان، وأخرى للأُم مريم البتول رمز الطهارة والعفة لبنات البشر أجمعين، كما أنك تسمع صوت الصلوات التى لا تنقطع ليلاً أو نهاراً فى الدير باللغة القبطية القديمة والتى تضى على المكان روح القداسة.

ورغم أن نفرتال لم تحضر قداس أو تسمع صلاة من قبل، إلا أنها تفهم معظم هذه الترانيم والتى تعلمتها على يد المعلم الصالح حنا فى المغارة لوقت طويل، حتى تعلمت بعض القبطية واللاتينية والتى اكتسبتهما عن مهارة وخفة .

ولاحظت مارى أن نفرتال تردد بعض الصلوات باللغة القبطية فى سلاسة، فيزداد عجبها ببنت أختها التى تكتشف كل لحظة - منذ قابلتها - فيها شيئاً عجيباً فسألتها: أتفهمين ما ترددين يا نفرتال؟

- نعم يا خالتي فإن الأب حنا قد علمنا بعض الصلوات، وكان دائماً يتمم مثلما يفعل هؤلاء الآباء دائماً عندما يكون وحده أو أنا معه فى خفية من أبى زعيم العصابة، لأن أهل المغارة لا يمارسون ديناً فى جماعة.

قالت ماري: حمدا لله لقد فهمت الآن يا نفرتال.

وأكملتا خطواتهما في الممر إلى حجرة ماري، ورغم أن حجرة ماري بسيطة وفقيرة الفرش، إلا أنها نظيفة ولها روح خفيفة، وأما بالنسبة لنفرتال فهي تبدو كقصر، فما كانت يوما تحلم أن تسكن وأن تقيم في مكان مغلق له باب وبه سرير وطاولة صغيرة وخزانة ملابس .

وقالت ماري : إنها حجرة صغيرة ولكن غدا سنقيم بجناح الزوار حيث الحجرات الواسعة.

وسألت نفرتال: هل سنقيم هنا إلى الأبد؟ فردت ماري: لا .. ولكن سنمكث لبعض الوقت حتى ندبر أمر بيتنا الجديد في البلدة، وسكتت نفرتال وهمست: بيتا في البلدة! يا روعتك يا خالتي ماري! إنى أحبك، ثم قالت: ألا تقصين عليّ حكاية أمي التي ماتت وأبى؟ فوعدها ماري: ولكن ليس اليوم، وقد سألتها أن ترتدى بعض ملابسها غدا حيث ستذهب إلى السوق لنشتري لها فستاناً جديداً.

وكان يوجد في حجرة ماري بعض التمر والزيتون والخبز، فأعدت لنفرتال عشاء ثم وضعتها في السرير وجلست بجانبها حتى نامت، وقد أخبرتها بأنها سوف تذهب لتمرّض إيزيس قائلة: فإن استيقظت فلا تخافى، فردت نفرتال ضاحكة: لقد كنت أقضى ليلي ونهارى وسط القبور مع الأموات فكيف أخاف وأنا في بيت الرب؟

وسارعت مارى إلى حجرة الأخت إيزيس، فقابلت الأخت تيريز أمام حجرة إيزيس وعليها علامات من القلق، وتذكرت مارى أن إيزيس كانت الصديقة الخاصة دائماً لتيريز فى فترة وجودها بالدير، وقد سألتها: أمارالت إيزيس نائمة؟ وماذا عن ذلك الدم؟ ماذا بها يا مارى؟

فأجابت مارى: لا عليك فالرب فى عون الجميع، وسألتها أن تذهب لتستريح وأنها ستقضى ليلتها إلى جوار الأخت إيزيس، وما أن همت بالخروج من الغرفة حتى قالت لها مارى: كيف حال طفل اليوم؟ فقالت: إنها بنتى وقد أرضعتها ووضعت عليها بعض الملابس من ملابس أخوتها بعد أن غسلتها بالماء وتلوت الصلوات عليها وهى تنام فى سلام الآن، وشكرتها مارى وانصرفت تيريز، وكان يبدو على مارى الحيرة، وتريد أن تعرف هل علمت أن إيزيس كانت فى حالة وضع قريباً أم لا، ولكن كيف لا تعرف فإن الأمر واضح لكل امرأة، ولكن ماذا يسكتها؟ كل ذلك كان يدور فى مخيلة ورأس مارى.

وخلدت مارى إلى النوم على الكرسي الذى يقع بجانب السرير الخشبي الذى ترقد عليه إيزيس، بعد أن اطمأنت عليها وتأكدت أن نزيف الدماء توقف، ولكنها تعلم أن إيزيس على وشك مفارقة الحياة، فالزرقعة التى فى وجهها والعرق المتصبب من جبينها وأنفاسها التى تلتقطها فى تعب وصعوبة كلها علامات تعرفها مارى من كثرة التمريض، وفجأة استيقظت مارى على صوت إيزيس الضعيف تسأل عن شربة ماء، فسارعت مارى بإحضار كوب من الماء، فإذا بإيزيس تشرب فى صعوبة، وتضع يديها

لتقبل يد ماري التي تمسك الكوب وتسقيها منه، ثم قالت إيزيس:  
بنتى .. بنتى .. يا ماري، يا أيتها الأخت ذات القلب الحنون ماري  
.. بنتى .. تيريز تيريز، ثم فاضت روحها، وصاحت ماري  
بصوت عالٍ: إيزيس، وسرعان ما أتى الأخوة والأب ولیم الذي  
كان في القبو السفلي من الدير، حيث كان يعد أموال التبرعات  
ويقوم بتصنيفها في مآربها .

وأخذت الدموع تنهمر من عيون الحاضرين، والصلوات تتلى هنا  
وهناك، وأضيئت الشموع في المذبح لأجل روح إيزيس الراحلة،  
وأشارت ماري على الأب بسرعة دفن إيزيس بمقبرة الدير  
الصغيرة التي تقع خلف المزرعة، في أقصى طرف الدير إلى  
جانب الكتبان الرملية التي تحيطها، وعقدوا العزم على دفنها في  
اليوم التالي، وانصرف الجميع كل إلى من حيث أتى، إلا أن الأب  
ولیم قد سأل ماري إذا ما كانت إيزيس قد تكلمت قبل موتها عن  
سبب هروبها من الدير، أو أين كانت تقيم، فأجابت ماري بالنفي،  
ثم أخذت طريقها إلى الحجرة، وما إن فتحت ماري باب الحجرة  
حتى رأت لأول مرة هذا الملاك الصغير نفرتال يرقد على  
سريرها في سلام وسبات عميق، فجفت عينيها التي ما زالت  
تغرقها الدموع على فراق إيزيس وكان عليها الخلود إلى نوم يريح  
جسدها وعقلها من عناء وأحداث اليوم الأول مع نفرتال في الدير .

أسدل الليل ظلّمته على بقعة أخرى فى صعيد مصر، حيث كانت الأقدام تدوس الحفائر فى أرض الأجداد الفراعنة، على أطراف نجع من النجوع المنتشرة بصعيد مصر، أقدام أهل وأفراد القبيلة التى تعيش بباطن الجبل الذى يرقد حوله أجساد ومومياوات وكنوز الأجداد الفراعنة العظام، وقد اعتاد رجال القبيلة نبش هذه المقابر، والاستيلاء على كنوز الأجداد وبيعها لذلك العجوز اليهودى (هارون)، ويقوم هارون بنقل هذه النفائس ويقوم ببيعها للأمراء والبارونات بأوروبا، ويقوم أيضاً بصهر التماثيل والأشياء المذهبة لتحويلها إلى ذهب، للجهل بالقيمة التاريخية العظيمة لتلك المقتنيات .

وقد اعتاد هؤلاء الرجال تمزيق المومياوات ونبش منطقة الرقبة، حيث يوجد فى الخاصة من مومياوات الفراعنة والملوك قنينة صغيرة لا تتعدى طولها سنتيمتر واحد تقريبا اسطوانية الشكل بقطر حوالى نصف سنتيمتر من الفخار تحتوى على مادة زنبقية، تلك المادة التى تسمى الزئبق الأحمر يستخدمها رجل القبيلة العالم بأحوال علم السحر لجلب وتسخير ملوك الجن لإصلاح أحوال العباد من البشر لجلب الرزق وعودة المطلقة وشفاء المرضى وعمل الخواتيم السليمانية لحمايته من الهموم والجن السيارة والمردة.

ومن المعلوم أن الجن لا يستطيع أن يتمثل في شكل مادي بذاته، ولكن يستطيع أن يكمن في جسد بشر فيملأ على إرادته المسلوقة ما يريده لصاحب المصلحة، وروى وشاع بين أهل جنوب مصر ولصوص مقابر وممتلكات الفراعنة الأجداد أن هذه المادة هي الرصد المتلو عليه من رجال كهنة المعبد الجنائزى، وتوضع في خلف رقبة المومياء ذات الدم الفرعونى الإلهى النقى، أهل الصفة، بعد تحنيط الجثة لحفظ المومياء من التلف وأبعاد الآفات والحشرات عنها، والأهم مساعدة صاحب المومياء فى التلقين ساعة الحساب فى العالم السفلى.

وهذه المادة هى طلب عظماء الجن دائماً، مقابل تسخير المردة من مملكة الجن فى خدمة من يملكها، ويمنحها لعظماء الجن، لأنهم يستخدمونها كعلاج لتخفيف آلام كبار السن من الجن العظماء الذين يبلغون من العمر ألف وألفى سنة فى حساب البشر، فالزمن مختلف من جنس مخلوق آخر.

وبدأت معاول الرجال تضرب بكل قوة فى نهاية ذلك السرداب الطويل، الذى يفصله ذلك الجدار الحجرى عن حجرة الدفن، إنها لحظة من اللحظات الحاسمة، ودلائل المقبرة تقيد صيد ثمين، وأن اليهودى فى طريقه إلى النجع والمقبرة مع صباح ذلك اليوم ليقدر ويثمن ويذهب بالسلعة.

الكل يعمل فى صمت وترقب، ورأس القبيلة يمكث إلى جوار الشيخ العالم ببواطن الأمور وفتح المقابر وفك الرصد فى انتظار هدم الجدار، وما إن تطايرت وتساقطت أجزاء الباب الخارجى، التقطت الأيدى المصابيح الزيتية وقذف بالمعاول لإضاءة المدخل،

وتراجع الكل إلى الخلف تاركين فتحة القبو حتى يدخل الهواء ليصارع هواء حجرة الدفن الذى سيطر على المكان منذ آلاف السنين.

ومن السهل مشاهدة تلك التماثيل الأربعة التى تحمى مدخل حجرة الدفن، وبدأ الشيخ يتمتم بأقوال وألفاظ غير مفهومة ولكن اعتاد سماعها رجال القبيلة عند فتح كل مقبرة، إلا أنه صمت، وسأل رأس القبيلة أن يأتوا بصبى دون اللحم الذى أعد لهذا الغرض، لأنه لا يستطيع قراءة خطواته داخل المقبرة، وأنه خطر محقق قد يودى بالجميع إلى الموت . وما هى إلا ساعة من الوقت حتى حضر صبى صغير يرتدى جلبابا مخططا لا يبدو عليه أى علامات خوف أو رهبة، و بدأ الشيخ المبارك برسم دائرة على الأرض التى أمام المقبرة بعصا، ورسم فى منتصفها نجمة سداسية، ووضع فى كل ركن منها حرفا من حروف غير معلومة، ثم وقف الصبى بين يديه، وأجلسه أمام تلك الدائرة على الأرض، ثم أخذ يقرأ عليه قراءات عديدة مختلفة، وسال العرق على وجهه فإذا بالجن المسخر فى خدمته حاضرا، وراح الصبى فى سبات عميق من النوم، فإذا بالشيخ يمسك برأس الصبى ويأمر جنة بالدخول حتى يستأذن أرواح المكان، ويعطل الرصد الذى يكمن فى التماثيل الأربعة وكذلك الأركان الأربعة لحجرة الدفن، وعندها بدأ الصبى يتابع الجن داخل فراغ المقبرة ثم يكون نقل الصورة إلى الشيخ الذى يمسك برأس الصبى، حتى يبدأ الصبى فى تحريك يديه، مشيرا إلى إبريق أسود اللون مملوء بالماء قد أحضره الشيخ معه، ذلك الماء الذى وضعت فيه لفائف الكتان التى كتب عليها بحبر الزعفران الأحمر منذ ليلة أمس بمعرفة الشيخ، فتقدم الشيخ يحمل الإبريق ويقذفه فى داخل حجرة الدفن، ثم قام



بإيقاظ الطفل وأمر بصرفه خارج المقبرة .

وقد تهلل وجه الشيخ ورأس القبيلة بالفرحة حين علموا أن المومياء للأميرة فرعونية، فالكمل سوف يجد ضالته المنشودة فى ذلك الكنز.

وتقدم الشيخ كقائد لمعركة وخلفه رأس القبيلة يحمل مصباح زيتى الإضاءة فى يديه، يكاد ينطفئ نوره كلما توغلوا داخل الحجرة، وتابعهم الرجال، حتى وصلوا إلى التابوت وبدأ الشيخ يتمتم بما لا يفهم، ثم أمر برفع ذلك الغطاء الحجرى الضخم الثقيل الذى يحمل وجه الأميرة، ثم ذلك التابوت الخشبى المنقوش عليه وجه الأميرة فى زخارف فنية رائعة الجمال والتفاصيل، حتى ظهرت الأميرة النائمة والملفوفة فى لفائف القماش الأبيض المائل للإصفرار فى مواطن عديدة، التف حول الجسد المحنط وعجل بفصل الرأس عن الجسد، ليجد تلك القنينة المنشودة ذات المادة الحمراء الزئبقية ليأخذها ثمن مجهوده فى فتح وفك الرصد، وينطلق إلى خارج المقبرة وكاد يحمل أحد التماثيل الصغيرة الذهبية التى وضعت جانباً على أرضية حجرة الدفن فى مواجهة التابوت، فصاح رأس القبيلة: لا شأن لك فقد أخذت أجرك فاتركها وأخرج.

وقد شارف اليهودى على الوصول إلى المقبرة حيث الجمع، وقد رست المركب الشراعية على ضفة النيل قرب النجع، وكانت فى انتظاره الخيالة والجمال التى حُملت بالصناديق الخشبية الكبيرة الفارغة التى تملأ فى العودة، وقد تم الإعداد لكل شىء منذ الأسبوع الماضى، حيث دفع جزء من الأموال إلى زعيم القبيلة من يد هارون عندما كان فى زيارته على أن يكمل باقى المبلغ بعد جرد وتسليم محتويات الكنز .

ورغم نظافة التعامل إلا أن اليهودى دائماً فى حماية جماعة العسكر الذين اعتادوا حمايته دائماً فى صفقاته بما يتول من الأموال جزء إلى زعيم العسكر طبعاً، وقد أصبح اليهودى فى عهد جديد مع مجاهد على غرار سابقه، وحقيقة الأمر أن اليهودى فى أمان لأن زعماء القبائل يحمونه ولا يسرقونه، لأنه كنز دائم للتعامل، فإن حدث مكروه لليهودى أو ماله فقد هؤلاء مصدراً مضموناً للشراء.

ووصل اليهودى إلى المقبرة، وكان فى استقباله زعيم القبيلة وكبير العائلة وأفراده، مستبشرين بصفقة رابحة حيث أن المقبرة ملكية، ولحسن الحظ أنها لم تنبش من لصوص المقابر أو وقعت فى أيدى كهنة الإله الحاكم والأوحد آمون أو آتون فى عهد ما فى تاريخ الفراعنة حيث الحرب الدينية قائمة دائماً، وقد نهبت كثيراً من المعابد والمقابر وطمست تواريخ وبرديات كلا فى الآخر، فقد نبشت المقابر الملكية منذ أزل بعيد هناك فى مصر القديمة، وخاصة عندما يبدأ عهد إله من آلهة آمون أو آتون ليعلن نهاية واندثار الآخر، فيستتبعه نهب الكهنة للمعبد ومقابر الإله الآخر، ذلك فضلاً عن اللصوص الذين اعتادوا نهب هذه المقابر.

ودخل اليهودى المقبرة وتهلل وجهه بما رأى وقدر وثمن، وقد ترى فى عين ذلك اليهودى وهو يقلب فى هذه المقابر كأنه يعلن انتقامه من الفراعنة العظام لما لقى أولاد بنى إسرائيل فى مصر من عذاب وهوان، ولم يكتف بما لعنته نصوص الآن جيل والقرآن فرعون بانتقام الرب رب العالمين من فرعون وجنوده ونصر بنى إسرائيل ليفسدوا فى الأرض كما يقول المسلمون والمسيحيون.

وقد نسى ما نعم به أبناء يعقوب من خير ومكانة ورغد من

العيش على قلب المصريين أهل مصر الحقيقيين، بعد أن مكنهم نبي الله يوسف من العيش في مصر في رغد ورخاء وأمن، ثم تعاقبوا المناصب وعقد العهود من غزاة مصر من الهكسوس المحتلين لأرض مصر، ونسى أن عذاب أولاد بني إسرائيل ليس لدينهم أو معتقداتهم بالأمر الأول، ولكن نتيجة لأفعالهم المشينة على أرض مصر وضد أهلها ونهبهم أموالهم .

تلك الشريعة التي تجعل من اليهود شعب الله المختار، وأن ما عدا ذلك فهو ما دون اليهودي الذي يولد، فكل شيء مباح له من عرض وشرف ومال الإنسان الآخر طالما أنه ليس منهم، جعلوا الدين بذرة الشر والتعالى بعد أن يبذل ويفسر بمنطق المرسل إليهم، و لكن اليهودي يترجم أفعاله بنوع من التجارة في أجساد أهل مصر القديمة.

هارون ذلك اليهودي الذي ولد بالبرتغال لعائلة يهودية قد هربت منذ زمن بعيد من فلسطين، أعنى الأرض المقدسة التي أورشها الله لهم وأمرهم بالدخول إليها، رغم وجود أهلها الأصليين الكنعانيين أو القوم الجبارين، والتي أيد رب العالمين نبي الله داوود بالنصر الحاسم عليهم في سجل المعارك والحرب، واحتلال الأرض وسفك الدماء برعاية رب العالمين حسب أقوال المسلمين والله يورث أرضه لعباده الصالحين، واليوم عندما تتجمع إسرائيل يهب الجميع في وجهها بأنها يد غادرة وغاصبة، ولا تعلم ولا تدرك ماذا يحدث حولك ومن تصدق ولكن البقاء للأقوى.

قد هربت عائلة هارون مع ألف يهودي بعد أن تم التتكيل بهم من بختنصر وغيره من أسلافه، ثم أكملت الكنيسة والنصارى في القدس مسلسل العذاب لأنهم قتلوا المسيح، واليوم الذين هربوا إلى

أوروبا طلبا للحياة ولكن ذاقوا التنكيل والعذاب والقتل لأنهم هم قتلّة المسيح، وأكمل المسلمون الحلقة المفرغة، فأجمع المسلمون وكتابهم عندما ظهر نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم أن ما سمى أولاد الأفاعى فى الأنجيل هم القردة والخنازير الذين لا عهد لهم ولا ملة، العدو الأول للدين الإسلامى ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم جاء المسلمون أصحاب الدين الحق دين رب العالمين الذى أورثهم الأرض لأنهم عباده الصالحين، فكان نصيب اليهود مزيد من العذاب والإحتقار ومحط الكراهية لأنهم أبناء اليهود الذين حاربوا الله وأنبياءه، فهربوا من أرضهم وشردوا مرة أخرى.

ورغم أن عائلة هارون هاجروا منذ زمن بعيد إلى البرتغال وإسبانيا وإيطاليا ومعظم بلاد أوروبا، إلا أن سلطة الكنيسة وأبناء الرب وأحباؤه أكملوا العذاب لهم والتنكيل بهم، فسبّيت نساءهم وأخذت أولادهم عنوة إلى الكنيسة لتتصيرهم ليدخلوا ملكوت الرب وينقذهم من الضلال، واحتل اليهود المواطنة من الدرجة الثانية، لا يكتسبوا جنسية ولا يملكون، ولكن مسلمى مصر كانوا أكثر رحمة بهم فعادوا إلى مصر وأقاموا بها.

ورغم هذه المعاناة قد قام اليهود بالإنجاب والتكاثر، كما يفعل الفلسطينيون اليوم، إلا أنها حقيقة، فبعد أن هاجر بعض أقارب أجداد هارون من البرتغال إلى مصر مرة أخرى، فقد وجدوا فى مصر مرة أخرى نوعاً من الحياة الكريمة، فالمصريون رغم أنهم أهل القبط والإسلام وكلاهما من أولاد الفراعنة، إلا أنهم كانوا ألطف وأخف قسوة، إلا المتشددىين من الكنيسة والجامع الذين نصبوا أنفسهم حماة الرب والرسول فى شخص الدين المسيحى

والدين الإسلامى على الطريقة الأصولية، الذين أصروا على موقفهم من العداء والتتكيل تحت عباءة الشيطان الدينية .

هاجرت أسرة هارون مرة أخرى عائدة إلى مصر واستقرت هنا فى أرض مصر، إلا أن معظم أهلهم قرروا البقاء فى البرتغال وإيطاليا، لأنهم تنفسوا الصعداء عندما جعل لهم رب العالمين مخرج للعيش، فعندما أرادت الكنيسة أن تزيد من ثروتها أباحت لغير المسيحيين المrabاة، وكان خير استخدام لها هو ذلك اليهودى، ذلك المواطن من الدرجة الثانية، ذلك الدنس عدو الرب، فأودعت أموالها فى أيديهم ليرابوا بها فى إقراض المحتاجين مقابل حمايتهم وجزء من أرباح الفوائد، وكان عم هارون واحد من هؤلاء المحظوظين، إلا أن الكنيسة قد تخلت عن هذا القناع عندما رأت الأموال الكثيرة التى تدر على اليهود وعليهم، لتبدأ عهداً جديداً لتقوم الكنيسة بنفسها بالربا وتحصيل الفوائد على خلاف الكتاب المقدس وتعاليم المسيح .

وكان هارون محظوظاً وذو ذكاء حاد، فيقبل ما يسمع من توبيخ وإهانة لشعب الله المختار بوجه طليق ويتحرر من يهوديته حتى يعيش ويتعايش ، وتزوج وأنجب ولداً وبناتاً، إلا أن ذلك الولد موسى قد استقطب من جانب الأصوليين اليهود الذين يحافظون على التوراة والتلمود، فى انتظار المسيح حتى يعود إلى القدس مرة أخرى لإقامة هيكل سليمان، وإعادة الملك لبنى إسرائيل من النيل إلى الفرات .

و بالرغم من عمل هارون فى أنواع عديدة من التجارة والمrabاة وبيع الجوارى وتجارة الآثار، فقد استطاع عن طريق أولاد عمه فى البرتغال وإيطاليا أن يفتح سوقاً جديداً ليروج لهذه الآثار

الفرعونية وإضفاء مظاهر الغنى والثراء وجلب الحظ لصفوة القوم من أهل هذه البلاد، والكنيسة بالطبع، حتى تطور في تجارته إلى نوع آخر وهو تجارة السلاح، والتي بدأت بالازدهار في أوروبا بعدما ورد إليها البارود من بلاد الصين .

بالرغم من ذلك الثراء وتلك المكانة التي يحظى بها هارون في ذلك المجتمع المصرى الإسلامى المسيحى اليهودى، إلا أن موسى ابنه الأصولى اليهودى تركه ليتعلم ويدرس المشيما وأصول الفكر اليهودى الذى حرص الأصوليون اليهود على حفظه فى الصدور دون كتابات، مما يتطلب العزلة الكاملة والعيش فى المعبد وحلقات العلم طوال الوقت، وقد فقدته تدريجيا حتى أنه يأس من عودته وماتت زوجته وبقيت ابنته راشيل معه، فهى الوجه الآخر من أخيها وذات المعدن الهارونى فى شهوة حب المال وجمعه.

إلا أن هارون كان قلقا على ذلك الثراء والمال دون ولد يرث ذلك، وكما أنه خائف من طمع الآخرين فى الزواج من راشيل، للمرة الثانية، بعد أن اكتشف هارون خيانة زوج ابنته الأول له وسرقته، فقتله دون أن تعلم راشيل، وكانت راشيل تحبه حبا جما وأجبرت أبيها على أن يقبل زواجها منه، ورغم علم هارون بمعدن زوج ابنته اليهودى، ظن يوما أنه اشترك فى مؤامرة لقتله، بعد أن دخل امبراطورية هارون وتعلم، ولكن هارون لا يغلب، نعم .. قد يصدق عليه قول الإنجيل نسل أولاد الأفاعى، فقتله، واصطنع تمثيلية البراءة من قتله، أما ابنته راشيل فرفضت الزواج من بعده.

ما إن أتم هارون الجرد والعد والتثمين، حتى ألقى فى حجر رأس القبيلة الوافر من أكياس المال، وكان يبتسم قائلا : زدنى أيها اليهودى، فرد هارون : إن اليهودى يزايد ولا يزايد عليه، نحن

أبناء القردة والخنازير، نحن أولاد الأفاعي، ما زلنا نحيا ونتعامل بقدر ومقدار، فضحك رئيس القبيلة.

وملأت الصناديق من الكنز، وتركت التماثيل الحجرية الكبيرة الحجم، ومزقت المومياء وعاود الظلام مرة أخرى للمقبرة بخروج آخر مشعل مصباح زيتى إلى الخارج، ليتحرك جمع إلى النجع بالأموال، والجمع الآخر إلى السفينة بالكنز، ليقوم اليهودى بحصر كنزه وكيفية التصرف فيه، فالمركب التى تأتى من البرتغال بالسلاح ستصل إلى الإسكندرية قريبا، وعليه إرسال ما انتقاه من الكنز لأوروبا مع السفينة العائدة.

ولقد اعتاد ذلك اليهودى هارون - رغم عدم أهمية الدين له - أنه صاحب اليد العليا فى الأموال التى ترسل لزعماء فرسان الصليب الذين ينتشرون فى الأراضى المقدسة، والتى أنشئت وتكونت حقيقة فى البداية من رجال المسيحية وحملة الصليب المتدينين لحماية الحجاج المسيحيين، فى رحلة الحج إلى بيت المقدس، والتى اعتاد قطاع الطرق ومستحلى الأعراض من اللصوص وأشخاص الديانات الأخرى لسبى نسائهم وأولادهم وبيعهم فى أسواق العبيد، ذلك الجنس الأبيض أبناء الروم، الذى قد استأذن أحد المنافقين المسلمين رسول الدين الإسلامى أن يعفيه من الذهاب إلى الحرب ضد الروم لأنه ضعيف أمام ذلك الجنس أبناء الروم، نساء فرنسا وصقلية وغيرهم .

وكان هارون على علاقة ممتازة مع الأب وليم، لأن مصلحة أهل الكتاب أن يكونوا أولياء بعضهم لبعض فى مواجهة المسلمين العرب الغزاة، فمسار هذه الأموال محدد من خلال علاقة وليم بفرسان المعبد .

صباح يوم حزين فى الدير حيث تعد المراسم لدفن الأخت الراحلة إيزيس، وكلا من تيريز ومارى حول جسد إيزيس المسجى على الفراش البسيط فى حجرة التمريض بالدير، و قد نزعنا عنها ثياب الدنيا، وأعد الماء لغسل الجسد بعد أن نقلت إلى السرير الخشبى للغسل، ثم ألبست ملابس الراهبات بعد أن ربط شعرها الطويل ولف تحت الطرحة، والصمت يعم المكان، وتلوتا الصلوات طالبتى الرحمة فى الآخرة لأختهم إيزيس.

ويقطع الصمت صوت مارى التى لمحت فى عين تيريز شيئاً ما، فتيريز هى الأخت المفضلة والصديقة المقربة لإيزيس وموضع سرها أيام وجودها بالدير، وخاصة أنها من حزنها الشديد صدرت منها بعض الكلمات عند الصدمة ( لا تخافى على ..طفلتك معى فى أمان ).

فى تلك اللحظة توقفت مارى عن الصلاة واشحة بوجهها إلى إيزيس قائلة لها : ماذا قلتي إيزيس، فردت إيزيس : ما سمعت..هى الحقيقة إن كنت لا تعلمين ؟، نعم أعلم ولكن كيف تعلمين أنت ؟، فأكملت إيزيس إذن سأخبرك بما حدث ولكن اكتمى سرها فهى فى معية الرب ... وانتبهت مارى لتسمع ...

- منذ ثلاثة أيام جاءت صبية صغيرة سألت عنى، وابلغتنى أن أذهب لأقابل إيزيس خارج الدير، حيث كانت تنتظر على جانب الطريق وراء الأشجار التى أمام الدير، وأوصت الصبية أن أتى بمفردى ولا أخبر أحدا بوجودها



هناك، فذهبت إليها، وكانت فى حالة يرثى لها تبكى بشدة وتحتضن طفلتها الرضيعة، ورأيت عليها وملابسها آثار دماء وعلمت أنها قد رزقت هذه الطفلة، وسألتنى أن أضعها فى الدير، ورجتتى بصوت ضعيف باك : أنقذى هذه الطفلة من حياة البشر البالية، وأمرتتى أن أضعها إلى جانب البئر حيث اعتدنا وجود المواليد هناك من قبل، واستجبت لها عندما أخبرتتى أنها ستعود إلى الدير فى الصباح مرة أخرى لتعيش معنا وترعى ابنتها عن قرب، وأن عليها أن تعود الآن حيث أتت، وحاولت أن أعرف منها ما وراء كلامها ولكنها كانت فى حالة ضعف شديدة وأعتقد أنها كانت فى حمى النفاس، وفشلت فى إقناعها بدخول الدير فوراً، وأوصتتى خيراً بابنتها وأن أكنم سرها، ولم تضيف أى كلمة أخرى.

وأنهمرت دموعهما مرة أخرى ودعنا لإيزيس بالرحمة، وقالت مارى فليدفن سرها الذى لم تقصح عنه معها، ولنطلق على ابنتها اسم (إيزيس)، وإن سأل أحد عن التسمية نقول أنها أتت الدير فى ذات اليوم مع إيزيس.

بينما كان الأب وليم على رأس مجموعة الأخوة يقوموا بحفر قبر جديد لإيزيس فى الجبانة التى تقع فى الجهة الشرقية من الدير، أعدت الحفرة لاستقبال الراحلة، وبعد أن تليت الصلوات وتليت المواعظ وأوقدت الشموع طوال الليل فى الدير، حان الآن وقت إهالة التراب على ذلك النعش الخشبى البسيط .

وكان قبر إيزيس يكمن إلى جوار قبر الصغيرة فاطمة الراقدة هنا

منذ أكثر من عامين، بناءً على طلب أبويها المسلمين الفقراء،  
فهي المسلمة الوحيدة المدفونة بجبانة الدير ولكنها ليست الوحيدة  
من نوع سكان الجبانة... أى البشر.

فاطمة تلك الطفلة المسكينة التي كانت أحوالها على غير المراد،  
فقد ظهرت عليها منذ الصغر أعراض شخصها أهلها أن بها مس  
من الجن كعادة أهل مصر أصحاب تاريخ السذاجة، فكان ينتاب  
الصغيرة حالات من الإغماء والتشنج من حين إلى آخر، وكانت  
طفلة هادئة الطبع صامئة معظم الوقت، وليست كباقي الصغيرات  
من سنّها، يعترّيها بعض التأخر فى الكلام . وكعادة أهل مصر  
المسلمين والمسيحيين ليساعدوها، جهلاً أكثر منه علماً، وحباً أكثر  
منه كرماً، أن يجوبوا بها الأديرة والأضرحة، القساوسة والشيوخ  
وغيرهم لاستخراج الجن من جسدها النحيف . وقد انتهى بها  
المطاف إلى الأب وليم المخلص الشهير . ورغم علمه وقدرته  
التي اشتهر بها فى استخراج الجن والأرواح الشريرة من  
المسلمين قبل المسيحيين، إلا أنها قد ماتت بين يديه، نتيجة لأن  
الشيخ السابق فى العلاج كان يضربها مع مجموعة من المصلين  
فى الجامع لاستخراج الجن منها، فأوسعها ضرباً دون رحمة،  
لأنهم يعتقدون ويوهمون الحاضرين بأنهم يضربون ذلك الجنى  
الذى سكن جسدها النحيف، وهى لا تشعر ولا تؤذى وإنما  
المتضرر هو ذلك الجنى الملعون ساكن الجسد، فما كان من ذلك  
العلاج إلا أن عجل بموتها، وقد سأل أبوها الأب وليم أن تسكن  
الصغيرة أرض المقبرة فى الدير، حيث البركة من الصلوات  
الدائمة، وحبهم وثقتهم فى الراهبات وأمانتهم، كما عرف عن  
المسيحيين أنهم أكثر أمانة وصدق من باقى الطوائف فى مصر.

وقد تم دفن إيزيس صباح ذلك اليوم، وقد كانت ماري متعبة جدا، فكثرة الأحداث التي مرت بها وموت إيزيس، وكذلك عدم نومها لأكثر من يومين جعلها في حاجة ماسة إلى النوم، ولكنها قد وعدت نفرتال أن تأخذها في ذلك الصباح إلى السوق لتشتري لها بعض الملابس .

وكانت نفرتال ما تزال بحجرة ماري غارقة في أفكار وذكريات وحاضر، كل الأفكار تتصارع داخلها ولكن عندما يمر خاطر خالتها ماري أمامها تبتسم في حب وفرحة، وما إن دخلت ماري إلى غرفتها حتى قامت نفرتال من المقعد لتستقر في حضن ماري قائلة : أين كنت ؟ أخاف أن أفقدك بعد أن وجدتك، فحضنتها ماري قائلة لا عليك لا تخافى بعد الآن .

وما هي إلا لحظات حتى سمعتا طرق الباب، كانت إحدى الأخوات، ودخلت سائلة ماري أن تأخذ نفرتال معها إلى حجرة طعام الأيتام ، فرحبت ماري وسألتها أن تطعمها وتجلس معها حتى تأخذ حصة من النوم حتى تخرج مع نفرتال بعد ذلك .

واستيقظت ماري بعد قليل من النوم، رغم أن جسدها متعب وعقلها مرهق، إلا أنها أرادت أن توفى بوعدها لتأخذ نفرتال إلى السوق حيث الملابس، و قد تصدر عقل ماري واستحوذ على تفكيرها فكرة واحدة وهي الآن تقال للعيش مع نفرتال خارج الدير، وهذا موضوع ليس بالهين وعواقبه كثيرة، ولكن مع إيمان ماري بدورها في حياة نفرتال، فنفرتال يجب أن تأخذ حقها في الحياة كما يعيش الناس الطبيعيون، تبدو الفكرة في إطار التصور حتى تكون حقيقة، فالطفلة تربت في المقبرة والمغارة ليس لها إرادة في أن تعيش وإن كان فعليها أن تعيش ثم تقرر بنفسها .

وكانت ماري تسترجع أكثر من خمسة عشر عاما من عمرها، يوم أن قتلت أمها وحرق منزلهم، وشردت هي وأختها ولم يحن عليها أهل البلدة، فكان الأب وليم هو الذي أخذهما، بعد أن أوسعهما أهل البلدة باللعنات لأنهما نسل الملعونة الساحرة نفرتال الجدة، بعد أن روج مجاهد وأعوانه تلك الشائعة عنهم، ولم يعبأ بها مسيحي أو مسلم، فما كان إلا مصادفة تواجد الأب وليم بالبلدة فأخذهما معه إلى الدير، ورغم أن ماري لم تختار حياة الرهبنة فلم ترفضها أيضاً وأحببتها كاختيار أوحدها. وأما دميس أختها فقد أحببت ذلك المسلم أبو نفرتال وتزوجته وعاشا معا في هدوء، إلا من لعنات الأب وليم الذي اعتبرها كافرة مرتدة عن دين الحق ولن تدخل الملكوت.

وأخذت ماري طريقها إلى حجرة الأيتام ، ورأت نفرتال تتعامل معهم في حب وود شديد، فنفرتال تملك كمية صفاء لا مثيل له، إلا بقعة واحدة أورثتها الانتقام ومرارته، هي (مجاهد)، فمشهد الموت لأهلها بالمغارة هو قمة الغدر والخيانة . وما إن رأت نفرتال ماري تعجبت قائلة : ألم تنامي ؟ فردت ماري : لقد نلت قسطا لا بأس به من النوم، والآن سنذهب إلى السوق، واتخذتا طريقهما إلى خارج الدير، وقد امتلأت نفرتال فرحة، فقد عرفت السوق وأحبته منذ رآته وهم في طريقهم إلى الدير .

ومازال رأس (ماري) مستغرق بالتفكير، فهي محتاجة إلى كثير من الشجاعة حتى تأخذ هذه الخطوة، ولولا وجود نفرتال لاستمرت في حياة الدير، ولكن ما موقف الأب وليم؟ وماذا عن الراهبات ؟، فلم يسمع من قبل عن أحد ترك الرهبنة، وماذا عن القصص التي قد تنتسج حولها مسلمو البلدة ؟، الذين سيرون أنها

تركت المسيحية كديانة، وليس هذا حقيقة الأمر، ثم ينقطع تفكيرها بالنظر اللى نفرتال التى ارتسمت على شفاهها ابتسامة وفى عينيها إقبال على الحياة، فتبسمت لها مرة أخرى .

وقد أدركت مارى أن عليها الحصول على أو كسب بعض المال، حتى تبدأ الخطوة الحقيقية نحو بيت جديد لتعين نفسها ونفرتال على قائمة الحياة، فهى لم تدخر أو تكسب مالاّ خلال فترة إقامتها بالدير ولا تملك حلى أو ثمين الشئء كي تبيعه، إلا أنها تذكرت والدتها نفرتال التى كانت تكسب قوتها فى توليد سيدات القرية أو خياطة بعض الملابس، أو بعض وصفات أو أعشاب لعلاج حالات الرصد والتى اكتسبتها عن والدتها، وأنها ماهرة بهذه الأشياء، وقد تدر عليها بعض المال القليل ولكن يكفى للعيش، ولكن ماذا عن المسكن ؟ ويمتزج الأمل وخيبة الأمل فى رأس مارى ولكن كل هذا لا يثنيها عن خطتها لأجل عيون نفرتال .

وبدأ الزحام بالسوق، وبدأت تظهر الباعة والبضاعة فى الطرقات والدكاكين، ولكن مارى تعلم محل أقمشة يمتلكه يهودى يقدرها لشخصها وكونها راهبة، ويبيع الأقمشة بمال زهيد إلى الدير، فأخذتها إلى ذلك المحل الشهير، ودخلت هى ونفرتال، فقد دست الأخوات قليل من المال فى يدها قبل خروجها لتشتري ثوبا لنفرتال، وانبهرت نفرتال حين دخلت المحل بما حولها من ألوان الأقمشة والمشتريين والحركة، ولكن كانت المرة الأولى التى تقع عين نفرتال على (شاؤول)، ذلك الفتى الأصغر لصاحب الدكان، ووقعت عيناه على نفرتال هو الآخر للمرة الأولى، فنفرتال جميلة رغم الملابس الرثة التى ترتديها، ولكن عيناها السمراواتين المصريتين الضاربتين إلى جذور أمنا مصر، مصرية . مصرية

..حتى النخاع، جعلت من شاؤول هدفا سهلا للاختراق ولكن  
بسبيل آخر، وبادلها شاؤول النظر ثم توجه إلى حيث تقفا، ورحب  
بالأخت ماري، فطالما رآها مع والده العجوز والقي التحية عليهما  
واصطحبهما إلى غايتهما بعد أن علم أن ماري تريد شراء قماش  
لحياكة فستان، وستقوم بحياكته في الدير .

مصطفى فى بيته الذى يؤجره فى مدينة العاص، واللييلة كعاداته يجتمع عنده شباب عليية القوم من أبناء تجار وصناع مدينة العاص، وقد أدمن مصطفى الجلوس مع هؤلاء، وكم من مرة تمنى أن يعيش فى مدينة العاص طوال عمره، ويعمل فى التجارة على الدوام، حيث رأى أنها تدر الكثير من المال والثراء على أهلها، كما فشل مصطفى فى دراسة العلوم الدينية، وطرد من المشيخة منذ أكثر من ستة أشهر، لأنه لا يحضر ولا يدرس ولكن لا أحد يعلم ذلك السر وخاصة والدته، فهى تعتقد أنه ما زال دارسا هناك.

ومصطفى قد أثمر الدلع فيه استهتاراً، نظرا لمرض والدته وعدم وجود أحد من عائلة أبيه، ومن جهة أخرى وجود كثير وآخرين من حوله من المنتفعين، وخاصة الحاج "صالح" الذى يعينه على الباطل دائماً لمصلحتهم، وعلى ذلك فمصطفى يكره العيش فى البلدة وكذلك الزراعة، ويود أن يبلغ سن الرشد حتى يستطيع أن يبيع أرضه، وينتقل للعيش هنا والعمل فى التجارة فى مدينة العاص .

مصطفى مثل جميع شباب المدينة له نزواته وهفواته، واعتاد أن يشرب الخمر وينتهك الحرمات فى السر مع أصدقائه فى بعض الأوقات، ولكن كان السؤال يطرح نفسه على مصطفى ...إلى متى سوف يكتم سره ويعلن أنه ترك دراسة الدين ولا يود أن يصيح

شيخ المشايخ أو علامة فى بلدته ؟، وكان همه ليس الدراسة فى مدينة العاص، ولكن العيش فى حرية مع أصدقائه، وماذا عن والدته وعن أهل البلدة عندما تعلن هذه الحقيقة أو الخيبة ؟

وفى صباح اليوم التالى طرق الحاج صالح ومعه ابنته باب مصطفى الذى كان يدفع قدميه بصعوبة بالغة ليتقدم خلال الردهة ليفتح الباب، سأل : من القادم فى صباح الجمعة ؟، فأجاب صالح : الوارد من الحاجة يا مصطفى، ففتح الباب سريعا صائحا : صباح الخير يا حاج صالح ادخل، .. ولكنى لست وحدى فمعى بنتى خضرة، وكان يحمل فى يده سلة وفى الأخرى سلة أيضاً، ومع خضرة سلة، فرد مصطفى : ادخلا على الرحب والسعة، أيوة يا حاج كنت فى انتظارك بفارغ الصبر، وصاحبهما إلى المقعد الذى يواجه الباب الرئيسى وكانت الفوضى تعم المكان كالمعتاد.

نظر الحاج صالح إلى خضرة قائلاً : يا مصطفى اتجوز يا حبيبى، أنت محتاج زوجة تقوم على خدمتك، أنت رجل وابو الرجالة والحمد لله مستورة معك، فأخفت خضرة وجهها على خجل مصطنع، فضحك مصطفى : زوجة مرة واحدة، أخلص الدراسة وارجع إلى البلدة وبعدين ربنا يصلح الحال.

وكان صالح قد أعد الخطة مع أم خضرة وتحت ترتيبها، أن توجد الشابة خضرة فى طريق مصطفى فغايتها أن يتزوجها، وخضرة فتاة جميلة جداً، قد ورثت أنوثة عالية من أمها وحب المال من أبيها بل والإدارة أيضاً، كانت تلعب صغيرة مع مصطفى كأولاد البلدة، ولكن كانت قريبة إليه نظرا لعلاقة الحاج صالح بأم مصطفى وتردده الدائم على بيت مصطفى، أما مصطفى فكانت خضرة لا تمثل شيئاً فى حياته بالرغم من جمالها حتى عندما



أزاحت الغطاء على وجهها للتحدث معه، فمدينة العاص تعج بالجماليات .

وأخرج صالح من بين طيات ملابسه كيس قماش كبير داخله مكتوب أم مصطفى الذى كان فى عجلة لأخذ ما يخرج ظنا أنه الراتب الشهرى، وفهم صالح لهفته فقال : الصبر يا مصطفى، ده جواب من الحاجة وعاوزاك ترد عليه والراتب موجود، فرد مصطفى :لا داعى لكتابة الرد، فأنا سوف أرجع قريبا بنفسى إلى الحاجة، فناولته صالح الراتب، وأضافت خضرة أيوة يا مصطفى الحاجة محتاجة تشوفك وأهل البلدة كمان.

وكان الحاج على عجل كما أخبر مصطفى، فلا بد له من زيارة الصالحين وشراء بعض الاحتياجات من السوق الكبير، وهذه فرصة حتى تشبع خضرة نزواتها وحبها لمدينة العاص كمعظم أهل البلدة الذين يحلمون بالزيارة والعيش هنا، وبعد أن أدى الأمانة استأذن فى الخروج، إلا أنه أوصاه بأن يعاود الحاجة قريبا كما وعد، وأن ينهى الدراسة ويعود إلى أرضه.

وكان صالح قد غير السياسة برؤية زوجته الجديدة فى زواج مصطفى بخضرة، فأصبح من الأكسب الآن أن يعود مصطفى إلى البلدة، وعاد مصطفى إلى سريره وعلى وجهه البسمة وخاصة قد وصله الراتب الشهرى، ورغم أن هذا الراتب لا يكفى حاجات مصطفى الكثيرة، وقد اعتاد اخذ مبالغ من الحاج صالح مقابل التوقيع على ايصالات بهذه المبالغ.

مصطفى شاب قد عرف مدينة العاص وعشقها من صغره، لما سمع من حكايات وقصص عن جمال مدينة العاص من والدته،

التي اعتادت أن تحضر إلى مدينة العاص منذ زمن مع والده  
الراحل، قبل مرضها ومع الست نبوية .

وقد أخبرته أمه بحلمها وحلم أبيه أن يصبح مصطفى عالماً في  
أمور الدين، ويتم دراسته هنا في مدينة العاص، ثم يعود إلى البلدة  
ليصبح رجلها الأول وصاحب الفتاوى والعلم، فعلم الدين في شعب  
جاهل، يرضخ تحت أعباء ظلام المعرفة، طريقاً يؤدي بصاحب  
المعرفة إلى كسب احترام وحب المجتمع المصري، وكل من سلك  
هذا الطريق قد اكتسب من الاحترام الاجتماعي والمنزلة الرفيعة،  
ليس فحسب وإنما مكاسب أخرى أيضاً، و لكن مصطفى لا يحب  
دراسة الدين وعلومه، وكانت الكارثة الحقيقية عندما بدأت  
الدراسة، فزاد كرهه لما كان يدرس، ففشل فشلاً ذريعاً، فأصبح  
ت بغيته الخروج إلى الأسواق والمقاهي والتودد إلى أبناء عليّة  
القوم في المدينة حيث التف حوله الأصدقاء من أولاد التجار  
الذين أصبحوا محور حياته .

وما إن خرج الحاج صالح وخضرة من باب بيت مصطفى حتى  
لقى عليه السلام من شاب من أصدقاء مصطفى قد تقابل معه عدة  
مرات في الماضي عندما كان في زيارة مصطفى .

- السلام عليكم يا محمد، أبارك إيه يا بني ؟
- الحمد لله يا حاج، غريبة أن يستيقظ مصطفى مبكراً!
- نعم !، أنهاردة الجمعة وأكيد يحب ينام من تعب الدراسة  
طول الأسبوع .

- دراسة ؟

- أيوة ، دراسة ..دراسة القرآن والفقه والسنة ...

فأدرك محمد أنه أخطأ في الكلام، و لكنه كان يريد أن يفشى سر عن مصطفى إلى الحاج، فهو لا يحب مصطفى لأنه ينافسه في حب فتاة من أخوات أصدقائهم، فكان جوابه صريحا قائلا : إذن لم يخبرك مصطفى بأنه قد طرد من المعهد الدينى من ستة شهور، وأنه لن يعود إلى هناك مرة أخرى، لكن لماذا لم يخبرك ؟ غريبة ! ..إياك يا حاج تقول له أنك عرفت منى، ولم يدخل إلى بيت مصطفى، وعاد مسرعا بعد ما أوشى بـمصطفى وأنهى الحديث، سلام يا حاج.

فتلقى الحاج صالح الخبر كصاعقة وكذلك خضرة : يعنى مصطفى بيكذب علينا كلنا ؟، فرد الحاج صالح : أيوة يا خضرة لأن مصطفى علوز يعيش هنا وخلص، لكن الآن على أن أخبر الحاجة فاطمة، وهى بقى حرة فى فعلها، ثم أخذا طريقهما إلى السوق .

وكان الحاج صالح قد عزم على الوشاية به عند الحاجة أم مصطفى، فقد يكون ذلك فى صالح خطة الزيجة، وقد أصبحت والدة مصطفى على نار وزاد عليها المرض عندما أخبرها صالح بما سمع، وأخذت تردد قائلة: مصطفى ضاع يا نبوية، لم يفلح فى زراعة الأرض ورعاية ماله، وتركنا لقمة فى فم صالح وأولاده، بعدما أوهمنا أنه يتعلم ويدرس الدين ويرجع رافع راسنا فى البلد، مش عارفة أنا عملت ايه، ده عقاب من ربنا ولا ذنب مين ؟؟

وقد حاولت نبوية أن تخفف على الحاجة وقد أدركت فداحة المصيبة، مصيبة ذلك الخبر وتوابعه على صحتها المتهالكة،

فقلت أنها ستذهب إليه غداً وترجع به إلى البلد وإن شاء الله ربنا يهديه ويسمع الكلام ويعاود أرضه ويحافظ عليها، فردت الحاجة :  
تفتكرى ؟، مصطفى عنيد ومدلل وممكن يحررك، فردت نبوية :  
مصطفى مؤدب يا حاجة، وقد تكون غلطة وعمره ما هيغلط فى  
إن شاء الله..

وفى صباح اليوم التالى أخذت الخادمة نبوية طريقها إلى مدينة العاص حيث يمكث مصطفى، لتعود به إلى أرضه وأمه مرة أخرى، وما إن طرقت باب البيت حتى فتح لها أحد اصدقاء مصطفى، وكانت أول مرة تراه، فقد قدمت عدة مرات ولم تره من قبل، فسألته عن مصطفى، فأجابها بصوت جاف وعدم اتران : إنه نائم ولا يستيقظ عادة إلا بعد أذان العصر، فسألته أن يوقظه لأنها قادمة من البلدة من طرف والدته وعليها أن ترجع قبل العصر، فرفض، فأرادت أن تدخل لتوقظه بنفسها فأوقفها وتشاجر معها وتعالّت الأصوات وكاد أن يقذف بها إلى خارج الباب .

وهنا استيقظ مصطفى وكان لا يزال أثر الخمر فى فمه وعلى لسانه من ليلة الأمس، فما إن رآته حتى استجذبت به، يا مصطفى يا مصطفى، ذلك الولد لا يريد أن يدخلنى إليك !!، فرد فى غير اتران من أنت وماذا تريدین ؟ ..، قالت: ألا تعرفنى يا مصطفى ؟ أنا خالتك نبوية خادمة الحاجة والدتك، وقد أرسلتنى فى طلبك حالاً إلى البلد وهى فى شدة المرض، فأشاح بيديه قائلاً: أتوظفينى لأن الحاجة تريد رجوعى إلى البلد..بعدين ..بعدين .. أنا عاوز أنام وبعدين أذهب إلى البلد، ارجعى أنت الآن ..

فردت فى عنف : أنت نوعك ايه يا ولد ؟ أمك فى شدة المرض، وأنت لا تعباً ولا تبالى، مش كفاية طردوك من المعهد، وكمان سايب الحاج صالح ينهب فى مالك ..فغضب مصطفى غضبا شديدا لما سمع وعلم أن سره قد كشف، ودفع بها إلى خارج الباب فوقعت على الأرض وكادت رأسها أن تدمى، ثم أغلق الباب وعاد إلى سريره مرة أخرى سائلا صديقه ألا يفتح لها الباب، ولكن صديقه رق قلبه لحال الخالة نبوية ففتح الباب قائلا : لا تؤاخذيه يا خالتى فهو مازال سكران من ليلة أمس، فردت: سكران ؟ خمرة ؟ خمرة ؟ لو الحاجة عرفت حتموت فيها، وأغلق الباب مرة أخرى .

وحاولت نبوية بالرغم من شدة الصدمة وسوء ما سمعت أن تقوم لتعود بخيبة الأمل إلى والدته مرة أخرى، وأخذت تبكى لدرجة أنها أصبحت لا ترى ما حولها وسقطت مرة أخرى فى وسط الشارع، وسارع إليها المارة وكان شيخ الجامع فى الجمع، فعاونها على القيام وعندما رأى ما فى عينيها من الدموع فسألها ما بها، مساعدا إياها فى الجلوس مستندة على الحائط، قائلا : الحمد لله .. أنت بخير يا والدتى ؟، فقالت : الحمد لله، ولكن ماذا أفعل مع الولد العاق ده؟، فرد الشيخ : اهدئى يا أمة الله واحكى لنا الحكاية، ومد أحد شبان الجمع يديه بشربة ماء فتناولتها قائلة : الحاجة .. الحاجة ..، فقاطعها الشيخ قائلا : يبدو عليك وعلى ملبسك أنك لستى من أهل الحى أو المدينة .. من أين أنت ؟، فردت نبوية : من بحرى مصر، وجئت هنا بأمر سيدتى لأسأل مصطفى ابنها ليعود إلى البلدة، فهي مريضة وهو لا يسأل عنها، فطردنى و نهرنى ولا

أريد العودة إلى الحاجة بخيبة الأمل مما رأيت وسمعت، ذلك الصبي الذى يتعاطى الخمر ليلا وينام نهارا وقد افسد دراسته وحياة أمه .

فرد الشيخ فى غضب ومن حوله من الملتحين: أعوذ بالله أعوذ بالله من غضب الله، أين يسكن ذلك الزنديق؟، فردت : فى ذلك البيت، مشيرة بإصبعها إلى الجهة الأخرى من الشارع، وكان الشيخ هائجا لاعنا قائلا : والله لاجعلن حوائط هذا المنزل قبرا له، ولنقيم عليه الحد إن كان ما رويتى صحيح، فصاحت نبوية باكية : لا أريد مزيدا من العذاب له ولأمه، فهى سيدة قد شارفت على الموت وهو أملها الوحيد، فأن استطعت أن تقنعه بالسفر إلى أمه فلك الأجر والثواب، فرد : لا عليك يا أمة الله، سنرى وليعاوننا الله، وتوجه الجمع مع نبوية الي بيت مصطفى، طارقين الباب فى شدة وعنف .

و يبدو أن صديقه قد ترك المنزل بعد طرد نبوية، وكان مصطفى فى نوم عميق مرة أخرى وازداد الطرق على الباب مما جعله يستيقظ ويلعن الذى يطرق الباب بهذا العنف مناديا على صديقه، ولكنه أدرك أنه قد رحل هو الآخر، وذهب وهو يترنح ليفتح الباب، فلما رأى ذلك الجمع وتتوسطهم نبوية الخادمة ففرك عينيه وقد ملئ قلبه بالرعب، فعاجله الشيخ قائلا : أنت مصطفى؟، قال : نعم وما الخطب ؟ ومن الجمع ؟ ولماذا عدتى أيتها العجوز مرة أخرى ؟ موجهها كلامه إلى نبوية، فقاطعه الشيخ قائلا : تحدث إلى أنا، كيف تطاوعك يداك لتضرب تلك العجوز وتلقى بها خارج

الباب لمجرد أنها قد سألتك أن تعود معها إلى بلدتك لترى أمك المريضة ؟ وما هذه الرائحة العفنة التي تخرج من فمك ؟ أتشرب الخمر وأنت مسلم ؟ لعنة الله عليك و على أمثالك ... أأنت مسلم ؟، وقد همهم الجميع من وراء الشيخ : دعونا نلقنه درسا لا ينساه ونقيم عليه حد شارب الخمر، فصاح كصطفى بصوت عال خائفا : من أنتم ؟ ومالك على من حد، فقال الشيخ: اسمع يا هذا إن شبهة شرب الخمر خير كفاية لإقامة الحد عليك، ولكن أقسم بالله إن لم ترتد ملايسك وتذهب مع هذه العجوز إلى أمك، وإن لم تترك إلى قول ذلك الجمع فلن أقف ليفتكوا بك ويتفرق دمك بينهم فيضيع حقك، وردت العجوز: يا مصطفى يابنى أمك محتاجة لك ومالك اتسرق وأنت لا تدرس، فارجع معى وأنقذ أمك وأرضك .. أرجوك ..و جلست تبكى.

وكان مصطفى مازال عالقا به بعض العناد وعدم الإدراك، وقال : أنا أريد العيش هنا وأعمل بالتجارة، قالت : لو علمت أمك بحالك هذا فلن تتال أى مال، ارجع يابنى، فرد الشيخ: اسمع يابنى ارجع إلى أمك ومالك، لا مكان لك هنا إلا للضياع واقسم بالله لأن عاودت هنا، لن أتركك بل سأكون هنا قبل كل صلاة لآخذك لتصلى معنا فى الجامع، ولن أسمح بهذه الصحبة والمعاصى فى ذلك البيت الذى يقع فى مواجهة جامع ربنا، وإزاء ذلك رضخ مصطفى وقال : ادخلى يا نبوية سأضع ملابسي وأنظم حالى وارجع معكى، فرد الشيخ: نعم الصواب يا مصطفى ارجع يابنى وأنصرف وأنصرف خلفه الجميع، وقد قال مصطفى فى نفسه لقد

كشفت أمرى ولكن استراح قلبى وعقلى، فقد علمت الحاجة،  
وشوية أيام وأعود اقناعها بالتجارة هنا وأعود مرة أخرى .

وأخذ مصطفى يرتدى ملابسه وهو فى حالة يرثى لها، فهو أمام  
موقف صعب، وأخذ يلعن الخادمة العجوز تارة وشيخ الجامع  
والإسلام، والمسلمين الذين ينصبون أنفسهم أولياء على الآخرين،  
ويتدخلون فى شئونهم بدعوى إقامة الدين، إلا أنه فى نفس الوقت  
كان حائرا وخاصة كيف سيكون المستقبل الذى أراده لنفسه تاجرا  
فى مدينة العاص دون مال إن لم يعد، وأن سره قد انكشف حيث  
لم يعد له حجة ليستمر فى مدينة العاص كطالب علم، وهو يلعن  
صورته حين يعيش فلاحا وتكون الزراعة حياته والفلاحون  
أصدقائه .

وما إن أتم ملابسه ونادى الخادمة لترتيب المنزل حتى يرجع  
مفتاحه إلى مالكه ..، إلا أن عقله قد فطن أن الحل هو عند أمه،  
وأن أمه لا تملك غيره وتحبه فما عليه إلا أن يرضيها ثم يسألها  
العون فى أن يكون تاجرا حتى يعود إلى مدينة العاص مرة أخرى .



كانت ماري دائمة التفكير في نفرتال، ولم تغادر فكرة الخروج من الدير عقلها، إلا أنه قد دارت مناقشة بينها وبين تيريز أوجدت حلاً لهذه المشكلة، وقد وافقت تيريز ماري في التفكير أنه من الخير ألا تجعل من نفرتال دمية دينية تفرض عليها هذه العيشة الصعبة، وخاصة أن نفرتال ليس لها عائل آخر وليس لديها أدنى خبرة في معاملة البشر، لاعتيادها سكنة المغارة والمقبرة كما علمت من ماري .

وقد التحقت تيريز بالدير منذ عشر سنوات، رغبة في الدير بعد أن ماتت أمها، ولم تتزوج من قبل، تاركة ورائها بيت صغير يقع على الربع الأخير من البحيرة التي لا تبعد عن الدير، وهذا البيت لا يسكنه أحد، فعرضت مفتاحه على ماري لتعيش فيه مع نفرتال، مما أسعد ماري وكان علامة لها أن الرب في عونها ويصادف صحيح تفكيرها خالصاً لمصلحة نفرتال، وقد مدت يدها لتأخذه منها بعد شكر، وقالت : قد يبدو البيت قديماً وأثاثه بسيطاً، ولكن لا تنزعجى، فمن السهل ببعض التعب جعله بيتاً جميلاً ونظيفاً، فردت ماري : لا تقلقى على فأنا الحب العمل والحركة وسأجعل منه بيتاً جميلاً، ولكن على وعد منى أنت تقبلى أن أدفع أجرة البيت، فردت تيريز : عما تتحدثين ؟ على الأقل أنت تحمين البيت، فقد وقعت في مشاكل منذ تركته دون ساكن، وكم من شخص احتله دون سند من قانون أو دين، فأنت تعلمين ما يحدث

فى مصر الغالية إن كان لك أرض أو بيت شاغر دون ساكن له، فإنه يصبح لمن يغتصبه أو يحوزه، فردت مارى : أنا مصرة على دفع أجرة البيت، ولكن لن أستطيع الآن ، ولكن سأدفع قريبا ببركة الرب، ولا لن أقبل هذا المفتاح وأعيده إليك، فقالت تيريز : لا عليك يا أخت مارى، عندما يتيسر الأمر أفعلى ما تريدين فتبسمت مارى من إخلاص أختها تيريز، ولكن تيريز تعلم أن قرار ترك الدير ليس بالسهل، وأدركت أن قلق مارى من هذا الموضوع أكثر من قلقها على إيجاد سكن لها، مضيئة : أن قرار الخروج من الدير ليس قراراً سهلاً، فما زالت هناك عقبات أخرى، والأهم كيف تنقل هذه الرغبة إلى الأب وليم، وكان عليها أن تتحين الفرصة لهذه الرغبة .

وأما نفرتال قد بدأت تتحرك فى جوانب الدير والمزرعة الخاصة به، بذلك الفستان الجديد الذي حاكته لها مارى بسرعة، وقد أعجبها ذلك الدير الصامت الجدران، و لكنه خلية من العمل المتواصل والصلاة لقاطنيه، وقد وجدت الصغيرة طريقها إلى مقبرة الدير، عرفتة من خلال جنازة الأخت إيزيس منذ يومين، وعندما وقعت عيناها على المقبرة الصغيرة أيقظت بداخلها مقبرة البلدة، فما زال قلبها وعقلها فى دائرة الموت ولم تفقد مهارة رؤية أطياف الموتى، وأكثر ما شد انتباهها فى هذه المقبرة ذلك القبر الصغير الذى ورد عليه اسم " فاطمة المسلمة دفنت برعاية الدير"، وقد وصل إلى سماعها من خلال الأخت تيريز قصتها وكيف ماتت نتيجة لضربها.

وتقدمت نفرتال إلى القبر لتخترق جدرانه السمكة سائلة الراقدة تحت التراب، لماذا حرمت الحياة عليك وأنت مازلتى صغيرة؟

هل حياتك تحت التراب أكرم وأحسن من هذه الحياة؟، وقد اقترب الظلام ومازالت نفرتال غارقة في أفكارها حتى أنها توهمت صوتا خافتا ينادى : حررونى ..حررونى ..، فرجعت نفرتال إلى الخلف، وقد لاحظت أن أطيف القبور المعدة تخرج بحلول الظلام ، وأن طيف ساكنة القبر لم يظهر، وقد أصبح الصوت أكثر قوة فى آذانها : حررونى ..حررونى ..، فاطمة ؟ كيف ؟، فأجاب الصوت: أزيلى ذلك الحزام الشمعى الدائر حول القبر وذلك التراب المخلوط بالشمع والماء المقدس، فنظرت نفرتال ولاحظت ذلك الحزام يلف حول القبر، ذلك من عمل الأب ولیم، فبعد أن وافق على دفن جسد فاطمة الصغيرة بالمقبرة الخاصة بالدير، قد حدثت أحداثا غريبة داخل الدير، فكانت الأصلبة وتماثيل المسيح تقلب رأسا على عقب و تتطفئ الشمع عند الصلوات، فأدرك الأب ولیم بعد انزعاج قاطنى الدير وخوفهم بوجود روح شريرة متمردة قد سكنت أركان الدير باحثة عن جسد بشر لتسكنه، ولكن جميع أهل الدير محميين ببركة يسوع الرب وعلى طهارة وصلوات دائمة، مما أفقد تلك الروح صوابها . ذلك كان تفسير الأب ولیم، فاستعان بما لديه من قوة روحية وخبرة عالية ليطرده تلك الروح الشريرة، والتي أيقن أنها كانت ساكنة لجسد تلك الفتاة فاطمة التى دفنت بالدير فى ذات اليوم .

فأطلق نفسه وراء تلك الروح الشريرة المتمردة، وقام بحبسها فى ذلك القبر الصغير مع جسد فاطمة، وقد أحكم سجنها فى ذلك القبر حتى لا تؤذى أحدا مرة أخرى، ووجد أنه لا بد من وضع رصد حول ذلك القبر الملعون، حزام من الشمع اختلط بالتراب حول القبر ثم رش الماء المقدس وقام بقراءات عديدة غير مفهومة عليه

باللغة القبطية والسريانية، وقد نجح فعلا فى حبس تلك الروح النجسة، وقد أعلم الجميع أن هذه الروح الشريرة روح مسلمة كافرة تكره المسيح وأبنائه المخلصين، وقد ندم على السماح بدفن هذا الجسد الملعون بمقبرة الدير.

وقد كانت الصغيرة فى طريقها لإجابة النداء الحاد وذلك الصوت الملح عليها بإزالة ذلك الرصد، إلا أنه قد قطع هذا وصول مارى إلى المكان وكانت تبحث عن نفرتال فى الدير لاختفائها منادية عليها : نفرتال ...نفرتال ....

وقد رأت مارى نفرتال من ظهرها بجوار ذلك القبر، فنادت عليها فلم تجبها لأنها كانت غارقة فى ذلك العالم الخفى، فهرولت إليها، وما إن وضعت يديها على كتفها من الخلف فأصاب نفرتال رعشة ونظرت إلى الخلف لتجد خالتها، فألقت بنفسها فى حضنها ...خالتي ...خالتي ..، وقد تعجبت مارى من وجود نفرتال بهذا المكان دون سبب ودون خوف سائلة : أين كنت يا نفرتال ؟ لقد بحثت عنك فى كل مكان بالدير ..لماذا أنت هنا ؟، ردت نفرتال : لقد سألتنى فاطمة أن أحررها من قبرها حتى تخرج كما يفعل أطياف القبور فى الظلام ، فتشاركهم، وقد منعت من الخروج لوجود رصد الأب ولیم .

فأنزعجت مارى متسائلة : كيف تحررى الموتى من مرقدهم ؟ أصابك مس من الشيطان ؟ أم بك روح شريرة من تلك المقبرة التى اعتادت ساكنتها ؟ وكيف عرفتى اسمها ؟، فردت نفرتال : لقد قرأت اسمها على القبر وسمعت من تيريز حكايتها، وزاد رد نفرتال مارى غرابة : أنك لا تعرفين القراءة ؟ ماذا بك يا نفرتال ؟

أنك تخيفينى .. تخيفينى ..، سأذهب بك فى الحالى إلى الأب وليم، فردت نفرتال : يا خالتى لقد سألتنى أن أزيل ذلك الرصد الذى وضع حول القبر، فضمتها مارى إلى صدرها : الرصد !! كيف تعلمين ذلك ؟ لقد حدث ذلك منذ عامين وأنت لم تكونى هنا، أما زلت تحملين داخلك شيئاً لا نعرفه يا صغيرتى ؟ علينا الخروج من هنا فوراً..، وقامت بالقبص على يدها بحب وحنان راجعين إلى الدير.

فاستسلمت لها نفرتال واخترقتا الظلام لتعودا إلى الحجرة، ورغم أن مارى قد عقدت العزم على أن تخبر الأب وليم بما حدث إلا أنها كانت تخاف من اللوم الذى سيوجهه لها بسبب ادخالها نفرتال إلى الدير، فمازالت قصة فاطمة وما حدث بتلك الليلة التى دفنت بها لم يمح من الذاكرة، فهل ستعيد نفرتال القصة مرة أخرى ؟ .

وقد قضت مارى ليلتها فى حيرة وغرابة ما سمعت وما رأت، وكانت تلك الليلة سبباً آخرأ قويا فى العزم على الخروج من الدير حتى لا تذهب نفرتال إلى ذلك القبر الملعون مرة أخرى، ولكنها عقدت العزم أيضاً على عدم اخبار تيريز بما حدث حتى لا تتقل الأخبار إلى الأب وليم، وقد أوصت نفرتال بعدم الكلام مرة أخرى عن فاطمة ساكنة القبر، وما روته عنها، وأفهمتها أن ذلك خطر عليها وعلى نفرتال نفسها .

وقد اتفقت مارى مع تيريز على اصطحاب نفرتال صباح اليوم التالى إلى السوق لشراء أغراض للدير، وكذلك تمران على ذلك البيت الذى يقع على الطرف الآخر من البحيرة، كما وعدت تيريز

مارى حتى تراه، وتخبر جيرانها الذين يعتنون بالبيت بقدم مارى ونفرتال لتسكنا به قريبا، وكذلك لتحديد حالة البيت وإذا ما كان يحتاج إلى إصلاحات قد تبدأ قبل قدومهما إلى البيت.

وبينما الثلاثة فى طريقهم إلى السوق، وكانت نفرتال تسير خلف تيريز ومارى وعيناها فى كل اتجاه ، وفجأة يأتى من خلفهم شاب يجرى فى سرعة على غير هدى وسط صياح جميع من خلفه أمسكوا حرامى .. أمسكوا حرامى ..، وكاد أن يصطدم بنفرتال من الخلف، ولكنه اصطدم بالأختين مارى وتيريز، فسقطتا على الأرض وسط صراخ وعويل الجمع من خلفهم .

وما إن رأت ذلك نفرتال حتى جرت فى سرعة فائقة خلف ذلك اللص، متعدية بسرعتها جميع الذين يجرون خلفه، حتى أنها دفعته من الخلف فسقط على وجهه، إلا أنه قام بسرعة مرة أخرى فأمسكت به نفرتال فوجه إليها قبضة قوية، فتفادتها نفرتال ومسكت به ورفعته فى الهواء وألقت به على الأرض أمامها بقوة، فلم يستطع الحركة مرة أخرى، وكل ما حدث كان فى لحظات معدودة، وانقطع صياح الجميع الذين كانوا فى دهشة مما يرون، حتى أن الأختين مارى وتيريز كانتا لا تزالان على الأرض لا تصدقان عيناها ....

وبدأت تتردد عن الجمع أقوال عجيبة عن نفرتال " البنت دى قديسة ولا عليها عفريت!" ..، وقال البعض أنها فتاة فى قوة عشر رجال .. شىء لا يصدق.

وقال آخر أنها فتاة مبروكة، ورجعت نفرتال فى ذهول مما حدث لتساعد مارى وتيريز على النهوض، بينما أوسع الجمع ذلك اللص

ضربا كما اعتاد أهل مصر، فالكل يشارك بما فتح الله عليه به لكمة أو حذاء أو شبشب امرأة، فالشعب محب للمجاملة.

وقد همست تيريز في أذن مارى حينما كانت نفرتال تساعد على القيام : لقد صدقتى يا مارى فإن نفرتال بها شىء غير طبيعى، أخبرينى يا نفرتال من أتاك هذه القوة لتجرى بهذه السرعة وتلحقى بهذا الشاب القوى ضخم البنية و ترفعيه فى الهواء و تقذقيه كل هذه المسافة ؟، كل ذلك ومارى قد أصابها الذهول ولا تستطيع الكلام، فردت نفرتال: لا أعلم ما حدث، كل ما أتذكر أننى عندما رأيتهما على الأرض و ذلك الوحش يجرى رأيت وجه كاهن المعبد يبتسم لى وبعد ذلك لم أشعر بما حدث !!، فردت مارى و تيريز فى نفس واحد : من كاهن المعبد ؟

فضحكت نفرتال، وقد أدركت أنها هى الوحيدة التى رأت ذلك : لا عليكما، أكيد حبى لكما هو الذى قوانى وجعلنى أفعل ذلك.

و مضت ثلاثتهن إلى دكان الأقمشة المملوك لذلك اليهودى، واليوم كان الرجل العجوز هناك، وجانبه الفتى شاؤول، وكانت نفرتال هذه المرة أكثر جمالاً وأناقة لأنها تتردى الفستان الجديد، وعندما دخلن المحل ووقعت عينا نفرتال على شاؤول للمرة الثانية وكان شيئاً ما يدور وراء الكواليس قد يمس قلب نفرتال، إلا أنه من الأعجب أن شاؤول قد سبقت عيناه عيناها، و لكنه منذ المرة الأولى كان قلب شاؤول قد خفق سريعاً، حقيقة فإن مع قوة وسحريون نفرتال يذوب أى شاب، وخاصة أنها فتاة تميزت بكثير من المهارات الإنسانية، فضلاً عن جمال وجهها وسواد

وطول شعرها ورشاقة قوامها، وقد أشرفت على الخامسة عشرة من عمرها .

فما إن أدرك أنه تسمر في مكانه وأطار النظر إلى نفرتال حتى بدأ يتحرك، وخاصة أن الرجل العجوز سارع إلى الأختين ليكون في خدمتهما، وتوجهت نفرتال إلى داخل المحل لترى الأقمشة ، بينما بقيت الأختان مع الرجل العجوز، وتقدم منها شاؤول مبتسما قائلاً: ذلك القماش الذى أخذتموه المرة السابقة، كم هو جميل عليك، فردت نفرتال في خجل وتعلمت : خالتي ماري هي التى فصلت لى هذا الفستان لألبسه، وتحرك قلب شاؤول مرة أخرى، وأراد أن يطيل الكلام قائلاً : أنا لم أرك من قبل المرة الأولى هنا، هل أنت هنا فى زيارة ؟، وقد لمحت ماري ما يدور، فقبل أن تجد نفرتال إجابة كانت ماري أمامها قائلة : نعم هي فى زيارة عندى بس زيارة طويلة، وهنا أدرك شاؤول أنه قد تجاوز حدود اللياقة، فانسحب تاركا المكان ليقوم بالبيع لإحدى السيدات فى الطرف الآخر، وأدركت ماري أنه حدث ما يدور بين صغار السن من الإعجاب، ورغم خروج نفرتال من المحل الآن شاؤول تابعها بعينه، وتوجه الثلاثة إلى بيت تيريز حتى تريهم المنزل، وكذلك تعلم جيرانها بالسكان الجدد.

وما إن وصلن، ظهر بيت صغير من الخشب قائم على قوائم خشبية وله سلم خشبى صغير وحوله قطعة أرض صغيرة تحيط به وله سور من الخشب، وكان البيت فى حالة يرثى لها ويحتاج لإصلاح، وما إن فتحت تيريز الباب الخارجى حتى تابعهن الجيران متسائلين ومرحبين وزائرين.

وكان البيت عبارة عن حجرتين نوم وصالة صغيرة ومطبخ ويقع



الحمام فى الطرف الأخير من البيت، وبه القليل من الأثاث البسيط، واقد أخبرت تيريز جيرانها باحتمال سكنى مارى ونفرتال هذا المنزل، فرحبوا بهما وأبدوا فرحهم والاستعداد لمساعدتهما، ولكن إحداهن قالت : كيف الراهبة تترك الدير لتعيش هنا ؟، مما أثار بعض علامات القلق على وجه مارى، فذلك السؤال يتردد مستقبلا . و ما إن انفض الجمع وعرفت مارى نفرتال البيت حتى استعدتا للرجوع إلى الدير.

وفى طريق العودة قالت مارى : لا أعلم كيف أشكر يا تيريز على البيت، فتبسمت تيريز قائلة : ربنا يكرمك، أنت ونفرتال على الرحب والسعة، وأردفت مارى قائلة: أعتقد أنه موضوع صعب وخاصة أنا لا أملك أى نقود، ولا أعلم كيف أفتح هذا الموضوع مع الأب وليم، فقالت تيريز : يا مارى أنت عندك خبرة ومهارة فى أمراض النساء والتوليد، وعلاج بعض الأمراض، فضلا عن موهبة الخياطة والتفصيل و صناعة الحلوى والمأكولات الشهية التى كنتي تصنعها لأطفال الدير، و كلام فى سرك أعتقد أن نفرتال محتاجة رعايتك فعلا بعدما رأيت منها اليوم فى السوق، أما عن الأب وليم فهو دائماً حاد المزاج، ناقم على المسلمين العرب، مشغول دائماً فى أعمال الخير والدير والمقابلات، فلن يلقى بالاً لأمرك ولا نفرتال، ومزيد من الصلاة تحل الأمور، وأعتقد أن الراهبة شيء فى دمك وأن خدمتك و تربية نفرتال نوع آخر من الراهبة، فالراهبة ليست محلها دير أو كنيسة أو جامع، ولكنها حب خالص ليسوع فلا تجزعى.

وكانت نفرتال تصغى باهتمام إلى ما يدور من الحديث عن البيت الجديد، وقد زاد حبها للأخت تيريز لتقديمها ذلك البيت لها

ولمارى، فذلك أول بيت حقيقى سيكون فى حياتها .

وما إن وصلوا إلى الباب وجدوا عربة رسمية وعليها الزينة، وعسكر خارج البوابة مما أثار انتباههم، ولكن الأختين قد اعتادت أن يأتى كبار القوم ورجال العسكر وغيرهم فى حضرة الأب ولیم، إلا أن المفاجأة الحقيقية كانت لنفرتال الذى صادف دخولها الدير خروج ذلك الشريف الوجیه ذو المكانة العالية من داخل الدير، أنه " مجاهد ".. السفاح الذى قتل كل أهلها فى المغارة ...، وسرعان ما تغير وجهها وارتسمت عليه علامات الغضب، نعم لقد تذكرت صاحب ذلك الوجه القذر، قاتل أهل المغارة ليس بالأمس البعيد، إلا أنها تتحت عن الطريق لخروجه إلى العربة، بعد أن أشار لها أحد العسكر المرافقين بالابتعاد عن الطريق، وكانت فى قرارة نفسها أن تقتله، ولكن ظلت ساكنه إلى وقت ما، ودار الحديث بين مارى و تيريز، فهتم منه نفرتال أنه رئيس العسكر الجديد وكان فى زيارة الأب ولیم لمكانته .

وبعد أن أدرك مصطفى أنه لا مفر له من الذهاب مع الخادمة إلى البلدة مرة أخرى، ولن تستقيم له الحياة مرة أخرى في مدينة العاص دون الرجوع ومحاولة العودة بعد إصلاح ما فسد، وخاصة بعد تدخل ذلك الشيخ في حياته، وقد أصبح بالنسبة لمصطفى كابوساً حقيقياً له، بل اعتبره شيطاناً بعد أن حرمه لذة العيش والشراب والأصدقاء، بل كاد أن يأمر الجمع من الناس أن يقيموا عليه الحد لجعله عبرة للآخرين، وأنه قد أصر على الرجوع إلى ذلك المنزل مرة أخرى، فلن يستطيع أن يكون في صلاة الجماعة في أوقاتها ولن يعود إلى دراسة الدين والفقه مرة أخرى، لكنه في ذات الوقت قد ارتاح صدره من شيء أصبحت والدته تعلمه وهو تركه للدراسة، فكان ما حدث هو حل خارج عن إرادته بالرغم من قسوته.

وعندما اقتربا من البلدة سألتها نبوية أن تذهب بنفسها الأول حتى تلطف الجو وتجعل الأمور على ما يرام بينه وبين أمه : فلا تدخل عليها حتى أحاول معها أن تكون كعادتها.

وقد رسم مصطفى خطته على أن يبدي لأمه الندم على ما بدر منه و يقيم معها حيناً، ثم يسألها أن تعطيه جزء من ماله ليبدأ تجارته التي لا يعلم ما هي ؟ ولا أين ؟ ..، وما إن طرق الباب فتحت له العجوز مطمئنة إياه، فدخل على والدته صامتاً، وقد ارتسمت على وجهه علامات الحزن والأسى، وما إن رأى والدته حتى هروا إلى حيث ترقد على فراشها دامعة العينين، وقال لها : سامحيني يا

أمى ..سامحيني يا أمى، فمسحت الأم دموعها قائلة : أسامحك على ماذا ؟ على كذبك وفسقك أم على عمرى الذى ضاع أم على مالك الذى أصبح فى عب الحاج صالح ؟، وقالت فى صوت مخنوق اعلم يا مصطفى لو كنت تأخرت على أكثر من ذلك لقبض الله روحى وأنا فى غضب عليك، وكم منعت نفسى وأمنعها أن تغضب عليك فى كل مرة ترفض وتبدى الحجج أن تأتى لترى والدتك، ولكن هذه المرة قد كشف الله ما سترته، لقد علمت كل أخبارك السيئة، من الضياع والخمر وأصدقاء السوء، ذلك هو سر تأخرك الحقيقي على وأنا مريضة، بل عمت عيناك عن مالك ومستقبلك، اسمع يابنى آخر كلمة منى لك وهى الفاصل ولا خيار لك هو أنك تبقى هنا على أرضك وفى بيتك، تزرع أرضك وتحمى مالك، فهى فرصتك الأخيرة لتصبح رجلاً كما تمنيت، تملك كل شىء شباب ومال وأرض ...فما دهاك؟، إنك تؤرق روح أبيك وتعذبني وتشتت بى الأعداء.

بينما مصطفى يتحدث إلى نفسه : "مصطفى قد يخسر الإنسان جولة أو أكثر من جولة فى المعركة، ولكن مازالت المعركة دائرة والخط الفاصل هو نهاية المعركة، أعتقد أنه آن الأوان أن ترجع إلى بلدك وبيتك وأمك وتصبح رجلاً كما كان يريدك أبوك الله يرحمه .

ثم أكمل نصف ضميره : " ولكن ماذا عن أصدقائى وملذاتى وتجارتى، ولكنه انتبه إلى نفسه وعاد إلى الواقع عندما أوشحت بوجهها المملوء بالدموع ناظرة إلى الجهة الأخرى من الحجرة حيث النافذة، ومصطفى جالسا على طرف السرير ناظرا إلى الأرض لا حركة ولا حراك، واستكملت حديثها :الأرض على

وشك الضياع، الحاج صالح لعنة الله عليه ركب الأرض واستنفذ خيرها ويعطينا الفتات، وأنت كما ترى لا قوة لى ولا سند طريحة الفراش، وأعتقد أن أجلى قد دنا، فدعنى أرحل وأنا فى قلبى شىء من الطمأنينة عليك، اللهم لا اعتراض، مصطفى لا تجرى وراء الأوهام والأصدقاء ، فلن تلومن إلا نفسك فى النهاية، عمر دارك وأرضك وتزوج وأملاً بيتنا أولاد وبنات، أنجب على قدر ما تستطيع فإنهم سذك فى الحياة، أنت وحيد يا ابنى، قم يا مصطفى خالتك نبوية نظفت لك الحجرة، ونادت على نبوية التى كانت تقف على الباب : تعالى..، نبوية تتحرك إلى الناحية الأخرى من السرير، وظلت الحاجة تقول : تعالى يا نبوية .. اسمع يا مصطفى خالتك نبوية بتحبك مثلى تماماً، هى اللى ربك وسهرت عليك، حافظ عليها واسمع كلامها ...، فنظر إليها مصطفى قائلاً: سامحني يا خالة نبوية وأنسى الذى حدث صباح اليوم، وتحرك خارج الحجرة إلى حجرته.

وقد انتاب مصطفى حالة من الحزن والكآبة، فما زال داخله جزء لم يشوه حبه لأمه، لكن طول غيابه عن أمه جعله لا يدرك مدى سوء الحالة الصحية التى وصلت إليها، وأخذ يتحرك فى حجرته كالأسد المحبوس فى قفص حديد، أو محارب قد طعن عدة طعنات حتى الموت ولكنه لا يدركه الموت، وقطع أفكار مصطفى طرق الخالة نبوية على بابه، لتخبره بأن الحاج صالح والحاجة والدته فى المنذرة فى انتظاره، ويبدو أن الحاجة قد عجلت وكانت ماضية فى عزمها على إصلاح حال مصطفى، وأرادت أن تطرق على الحديد وهو ساخن فأرسلت إلى الحاج صالح ليحضر.

وخرج مصطفى ورأسه إلى الأرض، ولكن استقبل الحاج صالح له وتهليله فى وجهه قد شجعه أن ينظر إلى أعلى وقال : مرحبا بك يا بنى فى بلدك وأرضك، بلا تعليم بلا غيره، وهنا أدركت الحاجة أن الحاج صالح قد عدل هو الآخر فى خطته حسب الوضع الجديد، فقالت الحاجة : أنا اتفقت مع الحاج صالح من بكرة أنك تلازمه كظله وهو سيقوم بتعليمك كل كبيرة وصغيرة، الحاج صالح هو الذى سيعلمك ما فاتك، هو يحبك وهو رجل مشهور عنه الصلاح والبيان فى البلدة، و إن كان فى دماغك أو قلبك شىء تحدث إليه، وهو سيكون لك السند والعون ونعم الصديق .

وكانت خارج الردهة نبوية يصل إلى أسماعها كل ما يدور من حديث، ولكنها كانت تعلق فى نفسها : أنا مش قادرة يا حاجة أسمعك وأنت بتقولى الكلام ده خاصة فى الحاج صالح .

فرد الحاج صالح : طبعاً طبعاً ابنى وابن اخوى الله يرحمه، أنا من بكرة الصبح سوف أمر عليك بالعربة ونلف حول الأرض والشغل، استأذن أنا يا حاجة، فردت الحاجة : عيب يا حاج العشاء جاهز، نبوية اليوم طبخت كل الأكل الذى يحبه مصطفى ...من أمس وهى تطبخ، فالحمد لله قد وفّت بعهداها وارجعت مصطفى إلى البلدة فهى أمه الثانية .

واجتمع الجميع حول صينية الطعام وقد احتوت على ما لذ وطاب، ثم أعقبها القرفة، وقالت الحاجة : شايف يا مصطفى يابنى الدار نورت بصاحبها، فردت نبوية : أيوة يا حاجة، منذ زمن بعيد لم يحدث هذا الفرح فى البيت، ربنا يديمه علينا إن شاء الله، وهنأهم

الحاج صالح إلى ناحية الباب على موعد صباح الغد، ودخل مصطفى إلى حجرته وكذلك الحاجة، فاليوم كان طويلاً وشاقاً على الجميع وأصبح للنوم مكانة عالية هذه الليلة .

وقد استيقظ مصطفى على صوت حركة في صالة المنزل، فخرج ليرى ماذا يحدث، فإذا نبوية تعد الماء للحاجة لتتوضأ لصلاة الفجر، فقد حان أذان الفجر، فألقت عليه تحية الصباح متسائلة هل يصلى بالجامع أم بالبيت؟ فرد أنه لم ينل حظاً من النوم وأنه سيصلى بالبيت، والحقيقة أن مصطفى لا يصلى أصلاً ولكن عليه من اليوم أن يصلى حتى يرضى الوالدة وأهل البلدة، وإلا سيعتبر فاسقاً كعادة أهالي البلاد والقرى، ليس فحسب ولكن أيضاً مدينة العاص، ودخل حجرته مرة أخرى لينام ولكن لم يستطع لأن حركة الفلاحين ومواشيهم إلى الزراعات هنا وهناك لا تدع أحداً ينام، والبلدة لها رائحة كريهة لم يعتادها من روث البهائم وغيره، وهنا قال مصطفى لنفسه : لماذا لا أصلى ؟ هل أنا كافر فعلاً؟ ولكنى أحب الله ولست أقل حبا له من الآخرين ..، أكيد سيأتى يوماً أصلى فيه كل ما فاتنى .

وما هو إلا قليل من الوقت حتى كان الحاج صالح بعربته التى يجرها زوج من الخيل، فى انتظار مصطفى كما وعد بالأمس، وما إن قفز مصطفى إلى جوار الحاج صالح حتى قال : أنا آسف يا حاج على عدم سداد المبالغ التى استلفتها منك السنين الماضية، فرد الحاج صالح ووضع يده على كتفه : لا عليك يا بنى ..كله فى بيته ..وقت ما تقدر تسدد سدد وأنت الآن أصبحت الأمر الناهى فى مالك وأرضك . وقد دبر ذلك الحاج من قبل بأنه كان يعرض عليه النقود مقابل أن يوقع على ايصالات بهذه المبالغ، وكان

يحتفظ بها إلى وقت معين هو الذى يعلمه، وأردف بمزيد من الكلمات : لا تخاف السر فى الحفظ والصون والحاجة لن تعلم شىء عن هذه الأموال، مما طمأن قلب مصطفى، فهو يعلم أن صحة والدته ليست فى حاجة إلى المزيد من كوارثه ومصائبه .

وانطلقت العربية إلى طريق ضيق يحده من الجانب الأيمن ترعة كبيرة تمر خلال أرض البلدة وتأتي من فرع النيل الكبير الذى يغذى دلتا مصر، وتنتشر الزراعات على طولها من الجانب الآخر، وعلى شمال الطريق بيوت الفلاحين المتراسة جنباً إلى جنب، لا تختلف كثيراً عن بعضها البعض، ويزن جدران البيوت الخارجية بعض رسومات تدل على أن صاحب الدار قد حج إلى مكة المكرمة . وقال مصطفى قاطعاً للصمت : أنا وعدت الحاجة أنى سأستقيم واتعلم فلاحاً الأرض، وأراعيها فهي بحاجة إلى، فرد الحاج صالح : تفكر يا مصطفى أنك تقدر تعمل كده ؟، افكر الأفضل لك الآن أنك تتزوج فالزوجة تساعدك على الإقامة والوفاء بوعدهم - فالبيت والأرض يربطوك هنا بنا وكل رجل له نزواته، وتقدر تسافر بعد كده إلى أرض العاص، كل الرجال بتعمل كده ...، ونظر مصطفى إلى قول الحاج كأنه شباك جديد يفتح على تحقيق آماله، فدائماً توجد طريقة رغم كل العوائق والعراقيل.

ومازالت العربية تجرى وقد امتلأت ضفاف الترعة بنساء القرية اللاتي يغسلن الثياب والأغراض فى مياه الترعة الجارية ، وأخريات يملأن الجرار على الجهة المقابلة، ويتحرك الصغار



ويلهون فى كل اتجاه، وكلاب ضالة تخرج من الأزقة من حول البيوت التى بنيت من الطين المخلوط بالقش الجاف، تتبح على الذهاب والقادم.

وقد رأى مصطفى شعبية وشهرة الحاج صالح بين أبناء البلدة الذين لم يكفوا عن الصياح بالسلام عليه فى أدب وإقدام كبير، فأحس مصطفى أن ما قالته إنما قالتها الوالدة حقيقة أو أقرب إلى الحقيقة، فهو الرجل الذى يكتم سره، فهو لا يعلم من أخبر والدته بأنه ترك الدراسة، ولكن فى ذات الوقت يعلم أن له كثير من الأعداء، فقد كلف أحدهم نفسه بأخبار الحاجة، فهو معلوم الموطن والبلدة، إلا أنه يكن للحاج صالح حبا آخر فداءً عنده حل لمشكلته، ويفتح له نافذة على هواه فيتتنفس الصعداء.

فى أحد أركان حديقة القصر حيث تمتد الأشجار مصفوفة وتزين الزهور أمام النوافذ التى تطل عليها، ذلك القصر المملوك للسيدة وعد، الزوجة المفضلة عند الوزير العجوز (زعفران)، تلك الشابة القوية البالغة من العمر حوالى الثلاثون، ولكن تملك عقل وحكمة وتدبير ورأس يعجز عن حملها الشياطين، إنها امرأة تعرف ما تريد منذ كانت يوما خادمة فى قصر الوزير، وسرعان ما أصبحت إحدى زوجات الوزير، بل الزوجة الأولى والأخيرة بالرغم من زيجات الوزير العديدة، وقد رزقت منه بولد، ولكن كان عنده من الأولاد والبنات ما يسد عين الشمس .

إنها وعد قاتلة نفرتال الجدة وجاريته الحبشية (سوسنة) التى كانت تعمل خادمة بالقصر، والتى كانت وعد قد استخدمتها لإحضار نفرتال الجدة لتخلصها من حملها السفاح مع أحد قواد العسكر فى القصر، واستخدمت ذلك العسكرى المغمور الوضيع فى تلك البلدة التى كانت الجارية والجدة نفرتال يعيشان فيها بحرى دلتا مصر، البلدة التى تقع فيها المقبرة التى عاشت فيها نفرتال الصغيرة، ذلك العسكرى المغمور الطموح مجاهد منذ أكثر من خمسة عشر عاماً .

ومنذ ذلك اليوم يعمل مجاهد فى خدمتها ولا يعصى لها أمراً، فهو الذى قتل لها ذلك الضابط الذى حملت منه سفاحاً فى القصر أيضاً، وقد تعددت مهامه فى خدمتها، وأخذ مقابل ذلك يتقلب فى

المناصب ويزداد قوة حتى صار اليوم رئيس وزعيم العسكر، ورغم أن وعد حاولت عدة مرات قتله هو أيضاً للخلاص من كاتم أسرارها ومنفذ رغباتها، إلا أن مجاهد كان يعلم مقصدها ونيتها في معالجة الأمور فكان حذراً، مما ضيع عليها خططها دائماً ومنيت بالفشل .

وقد اتفق الاثنان مجاهد ووعد على المقابلة الليلة في حديقة قصرها، الذى بناه لها الوزير لتستريح فيه عندما تريد أن تذهب إلى أقاربها، الذين يقطنون بلدة صغيرة فى أطراف مدينة العاص . وكانت (زينة) الوصيصة الأولى لوعد وكاتمة أسرارها تراقب المكان حتى يدخل مجاهد إلى حديقة القصر، فوجود رجل فى الحريم داخل أروقة القصر جريمة عظمى قد يقتل بسببها إن أمسك به، وقد أعطت زينة الإشارة حتى يدخل مجاهد إلى أحد أركان حديقة القصر وكانت فى انتظاره وعد .

-اسند ظهرك إلى الحائط حتى لا يظهر خيالك لأحد ولا تتحرك فالقصر يعج بالعيون على، قالت وعد، فتحرك مجاهد ليكون ظهره إلى الحائط وقال :لا تخافى فإن عيونى فى كل مكان، والآن لماذا اصرارك على هذه المقابلة ؟ وأنت تعلمين أن كثيرا من العيون حولنا، وخاصة من أهلك الملعونين الذين يبيعون أنفسهم مقابل الفتات، هناك القصر الملكى لنتقابل براحتنا كما اعتدنا، فقالت وعد : كل شىء على ما يرام لا تخاف، ولكن الآن أريد أن أعرف متى ستقتل ذلك اللعين الصغير (قاسم) الذى يلحق بذيلى أبيه العجوز حتى يصبح خليفته فى مجلس الوالى، وأمه ذات الناب الأزرق تعمل ما فى وسعها حتى يرث مكان زعفران،

وأنت تعلم أن ابني أولى بهذا المكان، فقد صبرت كثيرا وغامرت كثيرا وبقيت مع تلك الدمية الوزير لأجعل ابني الوريث لأبيه الوزير في المجلس، ولا تنس أن ذلك سيكون في صالحك، فكما أحبك الوزير فسوف أجعل ابني هو الآخر يحبك ويثبت قدمك هناك في الحكم، لقد وعدتني أكثر من مرة ولكنك لم تفعل، ويكاد ذلك الفتى يسطو على كل شيء، فإن قتل حل محله ابني (رستم) وأصبحت أنا المسيطرة على كل شيء.

فرد مجاهد : كما أنا ممن يعلم أن سياسة الرجال في الدولة تصنع ليلا على سرائر ومراقد الحريم، فالمرأة قادرة، وزوجك عبد ولكن تعطيه قدره أمام الناس..، يا سيدتي ..يا وعد يا مولاتي ..أنت عندك كل شيء ووزير لا يفعل شيئا إلا بأمرك، فسياسة الدولة تصنع في فراشك، ألا يكفيكي هذا؟! وأنا في كل الأحوال أتحين الفرصة لقتل ذلك الشاب، ولكن كانت الظروف دائما تحول دون ذلك، وأعتقد أني اليوم قد أصبحت قريبا منه، فاعطيني مزيداً من الوقت.

- اسمع يا مجاهد، أنت كبرت وسمنت من تحت رأسي، وعندى كل أخبارك وصفقات السلاح والشغل مع اليهودى هارون أنت أصبحت كما تريد، لا تستكبر على يا مجاهد

..

- وهنا ابتسم مجاهد ابتسامة عريضة متلطفاً معها قائلاً : ألم يحن الوقت حتى تحنى على بقبلة أو بحضن ..، أنت عارفة بحبك ازأى ومستعد أعمل أى حاجة ترضيكي

- مجاهد ...لا تخاطبنى بهذه اللغة مرة أخرى، فأنا لست

عاهرة، ولكن هناك شراكة عمل ما بيننا، أنت تقبض و  
تترقى، وأنا أستفيد .. مجاهد ... ثم قالت وعد :..أنت أحقر  
رجل فى العالم .

فقال : وأنت أجمل وصاحبة أكبر دماغ فى العالم .

وفجأة تحركت زينة إلى هذا المشهد قائلة أخوكى وصل من  
الصحارى، وأظنه فى طريقه إلى هنا يا مولاتى..، طيب يا زينة  
..اذهبى أنت، وأكملت وعد : وأنت يا مجاهد عاوزاك تخلص  
الموضوع ده ..

- اسمعى يا وعد ..لقد علمت أن أخوكى هذا وراءه كثير من  
المصائب والجرائم، فعليك أن تجعله يهدأ حتى ترفع  
الشرطة عينها عنه .

ثم التفتت وعد إلى الجهة الأخرى للدخول إلى القصر، واختفى  
مجاهد فى الظلام .

وقد لاحظت ماري أن وجه نفرتال غير الوجه الذي ألفته منذ دخول الدير، وما إن انفردت بها داخل جحرتها حتى سألتها: ماذا بك يا نفرتال؟ لقد تغير وجهك تماما إلى صمت وعبوس بعد أن كانت الابتسامة تعلو وجهك الجميل، وخاصة بعد أن رأينا معا البيت الذي سنعيش فيه بإذن الرب.

فتحركت نفرتال في اتجاه ماري عدة خطوات ثم ارتمت في أحضانها باكية مما أزعج ماري واسترسلت قائلة: هل رأيتي ذلك الرجل الذي كان على باب الدير يرتدى الزي العسكري اليوم بعد أن رجعنا من رؤية البيت؟، فردت: نعم يا نفرتال إنه زعيم العسكر الجديد كان في زيارة الأب وليم كعادته.. ماذا عنه؟

قالت نفرتال: ذلك الوغد هو قاتل أبي وجميع قاطني المغارة، حتى الصغار لم يترك أحداً منهم حياً، أنا كنت هناك وراء الصخرة، وشاهدت كل شيء بنفسى، ذلك القاتل الخائن الذي أخذ المال من أبي ثم غدر بهم وقتلهم جميعاً، هو مجاهد، ذلك اسمه أنا أتذكر جيداً.. ثم تعلثمت نفرتال قائلة: نعم.. المال.. المال!!، إن المال مازال بالمغارة يا خالتي ونحن محتاجين للمال، وقد أخذت الرهبة ماري عندما سمعت اسم مجاهد ووقفت صامتة، ثم قاطعت ماري نفرتال: اهدئي يا صغيرتي وقصى على ما رأيتي، ولا حاجة لنا إلى مال جمع من السرقة والقتل، فلن يبارك لنا الرب في عيش من ذلك المال الملوث فلا تذكره مرة أخرى.

وبدأت نفرتال تقص عليها أحداث تلك الليلة الرهيبة، وعندما وصل إلى سمعها اسم مجاهد مرة أخرى، ثارت شكوك ماري مرة أخرى، أنه قد يكون ذلك الشخص الذي قتل أمها نفرتال وجارتها الحبشية، ومعرض أهل البلدة على حرق منزلها منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، أي أنه هو الأداة التي استخدمتها امرأة الوزير لتتخلص من المرأتين، حتى تضمن كتمان سرها إلى الأبد، إلا أن ماري لم تبدى أى شيء أمام نفرتال، إلا أنها حاولت طمأنتها بقولها إن أحسن الطرق لصفاء القلب والحياة هو الغفران والسماح كما أمر الرب وأن الانتقام يؤذى صاحبه أكثر من المنتقم منه، وإن كان ذلك مجاهد هو يؤدي واجبه في مطاردة اللصوص ليعم الأمن، ورغم أنهم أهلك فلا تنسى أنهم كانوا لصوصاً وقتلة.

وكان على ماري أن تذهب صباح اليوم التالي كعادتها مع الأب وليم في جولته على الكنائس الصغيرة، ليجمع التبرعات ويقيم الصلوات ويستخرج الجن والعفاريت، وقد رتبت ماري أفكارها حتى تخبره بقرارها في ترك الدير حتى تقيم مع نفرتال، وانخرطت في صلاتها بل دخلت القلاية حتى تكون في خلوة الرب وتسأله التوفيق والغفران لأنها عازمة على ترك الدير، ولكنها عازمة أيضاً على مواصلة عمل الخير خارج الدير، وذهبت نفرتال إلى حجرة الأيتام لتساعد الأخت تيريز وتداعب الصغار حتى النوم .

إلا أن نفرتال قد ذهبت مرة أخرى إلى مقبرة الدير في الخفاء ممن حولها، وعادت ماري بعد انتهت من الصلاة وكانت نفرتال غارقة في النوم، فما كان من ماري إلا أنها احتضنتها وقد عقدت العزم في الصباح أن تخبر الأب وليم على عزمها على الخروج من

الدير .

وما إن بزغ نور الفجر استيقظت ماري على صوت جلبة في ردهة الدير وأصوات عالية وهرج وأصوات عالية، وفتحت تيريز الباب على ماري قائلة : أنت صحيتي يا ماري؟، فردت : نعم ولكن ماذا يحدث في الدير ؟، فردت : لقد حدثت ليلا أشياء غريبة، ويقول الرهبان أنهم وجدوا معظم صليبان الدير قد قلبت مكانها وأصبحت رأسا على عقب، وأن طوال الليل لم توقد شمعة ولا مصباح، وكلما أوقدت أحدهما انطفأت الأخرى، وأن الأب وليم منذ أطلق صلواته وعزائمه على تلك الروح الشريرة التي يعتقد أنها تهاجم الدير، ويبدو أن ما قاله قد يكون صحيح، وهنا التفتت ماري إلى نفرتال التي بدأت تستيقظ على صوت هذه المحادثة .

وعندما نظرت ماري إلى نفرتال ورد في ذهن الأخت تيريز ما ورد في ذهن ماري، وقالت ماري: ماذا فعلتي أمس يا نفرتال ؟ فقالت نفرتال: صباح الخير يا خالتي وأنت يا تيريز، أنا ذهبت لحجرة الأيتام وبعدين وأنا راجعة سمعت صوت في راسي يناديني ...فقالت ماري : أكانت فاطمة ؟...فردت نفرتال: نعم، فذهبت إلى قبرها وازداد صوتها لأزيل ما حول القبر من رصد، ففعلت، وفجأة توقف الصوت ولم أجد شيئا أفعله فرجعت ونمت، ولكني شاهدت مناماً غريباً، شاهدت أن جميع الصليبان في ساحة الدير مقلوبة، وخيم الصمت على الأختين قائلتين في نفس واحد: ماذا تقولين ؟! ثم قالتا : لا تحدثني أحدا بما قلتي الآن ، وضافت ماري : وأنت يا تيريز أرجوكي اكتمى ما سمعت حتى نخرج من



الدير، نحن لن نخلص من غضب الأب وليم على ما فعلت نفرتال.

وقالت ماري لتيريز : أعتقد أنه من الخطر على نفرتال أن تنتظر أكثر من ذلك في الدير، فاليوم سنتحرك إلى المنزل، فقالت تيريز: وماذا عن الأب وليم ؟، فردت: سأخبره حالاً، واستأذنه أن تذهب معه أحد الأخوات بدلاً مني في جولاته المعتادة في صغار الكنائس بالوجه البحري، ثم التقت إلى تيريز قائلة : انتظري أنت مع نفرتال .

وأخذت ماري طريقها إلى الأب وليم، الذي كان انتهى من إعادة وضع الأصلبة إلى وضعها الطبيعي، وقد طمأن الجميع، بهروب تلك الروح الشريرة من المكان، ولما رأى ماري كان في حالة غضب وقال: لماذا تأخرتي والعربة في الانتظار ؟ فجمعت ماري قواها قائلة : أستمحك عذرا أيها الأب وليم إنني لن أستطيع أن أذهب اليوم، وسيكون عزيزا على ألا أقوم بالجولة مستقبلا، فتستطيع إحدى الأخوات التي تحل محلي وتأخذ دوري في هذا العمل المخلص للرب، فرد الأب وليم في جدية : ماذا تقولين ؟ هل أصابك شيء اليوم؟ وماذا تعنين فإنك لم ترفضى أن بالجولة من قبل، أتعنين مرضا أم بك تعب ؟ ..أخبريني..

فدارت ماري حول المذبح وأشاحت بوجهها في الاتجاه الآخر قائلة : أنا قررت أن أخرج من الدير لأعيش أنا ونفرتال كما يعيش الناس في بيت، وزادت حدة الأب وليم قائلاً : كنت أعلم أنك

ستطلبين ذلك الطلب، ولكن لم أتوقع طلبه فى هذه المدة البسيطة، كيف تجرؤين على ترك الدير وخدمة الرب لتعودى مرة أخرى إلى الدنيا ومتاعها الزائف تاركة كل هذه السنين لتضيع هباءاً؟، ألا تعلمين أن ذلك سيؤثر على أخواتك الراهبات وسلوكهم وأنت قد رشحتى لمنصب رئيسة الدير بالإجماع؟

وردت مارى : أنا لم أترك الدير محبة فى الدنيا، ولكن نفرتال محتاجة إلى أنها فتاة بل طفلة مسكينة ضاع من حياتها أربعة عشر عاماً، وأنا لا أستطيع أن ادخلها لتعيش عيشة أهل الدير، وليس عندى أحد آخر يراعيها أو يعيش معها، فرد عليها : ما يمنع تلك الطفلة أن تعيش هنا وتتعلم وتعمل معا كالأخوات ؟، فالدير ليس صومعة شخصية للعبادة، ولكن الدير بالنسبة لنا حياة جماعية نتعاون على التقوى والخير ونعمل معا، فقاطعته مارى : أن نفرتال حالتها أسوأ من ذلك بكثير، وأنها لن تستطيع العيش هنا خاصة فى ذلك الدير، ذلك خطر عليها وعلى الدير، رد وليم : ماذا تعنين يا مارى ؟، قالت: أنا كنت عازمة ألا أحادثك فى هذا الموضوع، ولكن نفرتال بها مس، وقد وجدتھا إلى جوار قبر الصغيرة فاطمة التى دفنت فى مقبرة الدير منذ سنتين، رد الأب وليم بماذا حدث ؟ وما علاقتها بتلك الراحلة الشيطانة المنكوبة ؟، ثم سكت برهة وقال : آه نفرتال تلك الملعونة الصغيرة التى حل بجسدها ذلك المارد الشيطان، الذى حبسته فى قبر فاطمة منذ موتھا، فردت مارى : نعم وأعتقد ذلك تفسير ما يحدث بالدير، وموضوع الصلبان المقلوبة، فقال الأب : يوم وافقت على دفن تلك

الشیطانة بالدير، كنت أزرع جذور الشر فی الدير وتلك ملعونة الصغيرة نفرتال، تلك الشیطانة التي سكن جسدها ذلك الشیطان المسلم .

فردت ماری : إنها طفلة بريئة يجب حمايتها، ويجب ابعادها عن الدير، فرد الأب : إنه من الصعب أن يوافق مجلس الدير على عودتك إلى الحياة مرة أخرى بعد أن رسمت باسمك الجديد ماری، وكنت شعلة عمل وخير دائم حتى رشحتی رئيسة راهبات الدير، فردت ماری : لا أستطيع أن أقول أى كلمة أخرى ولكن سأغادر الدير اليوم ثم انصرفت باكية إلى حجرتها .

وليم : ماری .. ماری .. انتظري .. حاولی أن تفكری مرة أخرى، ولكن ماری قد غادرت المكان بسرعة إلى حجرتها، فهي تعلم أنها ستكون ضعيفة أمام كلام وليم، وحتما سيقنعها بما يعود بالسلب على نفرتال، و تحيا حياة أخرى أصعب وأصعب .

قاعة الطعام فى منزل الحاج صالح التى تتوسط صحن الدار والمجهزة بكل غال ونفيس.

ودخل الحاج صالح ومعه مصطفى، حيث تم إعداد الطعام كما أمر الحاج اليوم، وحقيقة أنها قاعة مفروشة بأثاث غال، يضاهى ما رآه مصطفى من قبل فى بيوت أعيان التجار فى مدينة العاص، وقال الحاج صالح : ادخل يابنى يا مصطفى، بيتك .. أنت لست غريبا، واجلسه فى أحد أركان الردهة الواسعة وقد توسطها قنديل كبير من الزجاج المنقوش ثم دخل إلى داخل البيت.

وما هى إلا لحظات حتى رجع الحاج صالح إلى مصطفى قائلاً، الغذاء جاهز، أنهارده تاكل من ايد خضرة، أصبحت ست بيت آخر تمام، البننت دى عرسانها كتير ولكن أمها لا تريد أن تفارقها، البننت قربت تعدى قطار الزواج من حب أمها فيها .. خضرة .. ما أنت رأيتهام معى فى مدينة العاص فى الزيارة الأخيرة، فرد مصطفى نعم أتذكرها، أظن نحن كنا معا فى كتاب القرية ونحن صغار، فرد الحاج : صغار ايه!! دى تمت الأسبوع الماضى خمسة عشر سنة، لكن تربية أمها تحس أنها ست عندها أربعين سنة ..خبرة والله.

ودخلت الخادمة تحمل صينية نحاسية كبيرة على رأسها، ويعقبها أخرى تحمل صينية مثل الأولى تماماً، وعلى كل منهما غطاء وقماش، وقال الحاج : ضعيتها هنا على الحامل وأنت كمان ..فين

الحاجة ؟، ثم نادى: يا حاجة تعالى ده مصطفى مش غريب وأنت يا خضرة تعالى يا بنت، أنت تعبانة طول النهار فلازم تشاركينا الطعام.

وتوافد أهل البيت على مصطفى وسلمت عليه الحاجة، واستمر الحاج فى الكلام : ده مصطفى مش غريب، أنت فاكدة أبوه الله يرحمه وأمه الحاجة فاطمة ربنا يشفيها، نعم يا حاج هو ده اللي كان بيدرس فى مصر ؟ بسم الله ماشاء الله، أصبح رجل، فقال الحاج : إن شاء الله هو معانا هنا فى البلد، رجع يدير أرضه، طبعا يا حاج ..هو ليه غير أرضه وداره ؟، ونظرت إلى خضرة ثم استمرت قائلة : دى خضرة بنت عمك صالح، بقت عروسة اهى وهى اللي عملت معظم الأكل ده، دوق وقلنا رأيك ايه بقى، فسلم مصطفى عليها وكانت اليوم لا ترتدى الغطاء الفلاحى الأسود اللون المتوارث بين جميع المصريين مسلمين و مسيحيين للحريم، وهى فتاة جميلة، جمالها فى حركة عينيها وجوابها وكحلها، أما قوامها فقوام فتاة رشيقة ممشوقة القوام فارعة الطول مثل والدتها، وقد مدت يدها لتسلم على مصطفى فى خجل مصطنع، وهنا توج الحاج صالح الموقف بالكلام قائلا : اجلسوا .. اجلسوا ...إن شاء الله فاتحة خير، وبدأ الجميع يمد يده وقد ملأ طبق مصطفى على آخره، و كان غداء شهيا، فالحاجة أم خضرة لم تدخر وسعا فى عمل كل ما لذ وطاب .

وقد دخلت الحاجة إلى الداخل وتابعها الحاج صالح قائلا : أروح أتوضأ، المغرب على الأبواب، بيتك يا مصطفى خذ راحتك، وما إن خرجا الاثنان حتى دارت مناقشة بين الحاج والحاجة : طبعا

اللى فى دماغك زى اللى فى دماغى يا حاج، فرد الحاج : أيوة طبعاً ده العريس المطلوب، صاحب أكبر أرض فى البلد، وعقله فى مصر المحروسة دايمًا، البنت خضرة دى محظوظة، فردت الحاجة : وهو أنا كنت واقفة حالها إلا علشان مصطفى، فرد صالح : طبعاً طبعاً أنت صاحبة الخطط دائماً وعمر ما ترتبيك يخر المياة يا حاجة، وخلص وقف الحال بقى، اليوم دور خضرة

وكان يدور حديث آخر على صينية الطعام، فلم تدخر خضرة وقتاً لتداعب مصطفى قائلة : أنت فاكراً يا مصطفى أيام زمان، كنا نلعب عروسة وعريس عندكم فى الدار، أنت كبرت و اتغيرت، يا بخنك كنت عايش فى مصر، قل لى يا مصطفى هم بنات مصر حلوين قوى زى ما بنسمع ؟، فرد مصطفى : طبعاً مش فى حلاوتك يا خضرة، و قد اعتاد مصطفى أن يتحدث إلى نساء مصر دون حرج أو خجل، فضحكت خضرة ..أنت بتعرف تقول كلام حلو أوى، وهنا رجع الحاج صالح، فهب مصطفى حتى يغسل يديه، وبدأت خضرة فى جمع وترتيب الصحون، وسارعت إلى الداخل لتحضر الإبريق والطشت حتى تصب على مصطفى، وهنا قطع أذان المغرب الحديث، فقال الحاج : أنا أسبقك إلى الجامع يا مصطفى، وتعالى ورائى بعد الوضوء، فأنا لا أستطيع أن أفوت صلاة الجماعة، بينك خذ راحتك، وأخذ طريقه إلى الجامع .

الحاج صالح يمثل قطاع كبير من أهلنا وبلدنا، أمثاله المحافظين على الصلاة دائماً وخاصة فى الجامع كمظهر اجتماعى، فالناس يشهدوا لمن دخل الجامع ويرتاده إلا أن يكون تقياً، ولكن مصطفى

لا يفهم ذلك وهو يجبر رجله دائماً إلى الصلاة، فلم يتوضأ، ولكنه هم للخروج والرجوع إلى البيت، فهو ما زال يتذكر طرقات البلدة منذ الصغر، وعندما أنت خضرة بالماء والطشت إلى قاعة الطعام كان مصطفى قد خرج حتى لا يتوضأ.

وقد جهز نفسه ليرد على الحاج رداً مقتعاً إذا سأله عن عدم اتيانه إلى الجامع، وما أن استهل الطريق إلى البيت محاولاً تذكر هذه الطرق الضيقة والملتقة حول البيوت والغيطان، كان الطريق مزدحماً كعادة نظراً لعودة الفلاحين عند المغرب من الحقول مصطحبين بهائمهم إلى البيوت، ولم يتوانى أحد في إلقاء السلام بعضاً على بعض كعادة المصريين، إلا أنه فجأة سمع صرخة ترحيب شديدة من شخص أتى في مواجهته قائلاً: مصطفى ... مصطفى .. أنت رجعت البلد تأنى ؟، فنظر مصطفى أمامه ليجد أحد أصدقائه القدامى الذى لا عمل له ولا أرض عند أهله، بل يعمل أجيراً هنا وهناك، فرد عليه مصطفى : أيوة يا حسن، ففتح كل منهما ذراعيه ليحضن الآخر ويسلم عليه . قال حسن : أنت رايح على فين ؟ فرد مصطفى : إلى البيت، فقال حسن : بيت ايه يا عم بس، تعالى معى أنا مشتاق إليك، لازم نجلس و نحكى للصبح .. تعالى يا راجل .. تعالى ..

وكان حسن شاب وسيم اعتاد الجلوس على المقاهى و ارتياد الموالد، فهو شاب صاحب مزاج له حكايات كثيرة فى الهوى، وذاع صيته فى البلدة والبلاد المجاورة بأعمال النصب والبلطجة وغيره، و كان جيب حسن خالى من النقود هذه الأيام، فكان الحظ السعيد القى إليه بمصطفى، فهو صاحب موهبة فى أخذ المال من الجيب.

واخذ حسن مصطفى إلى المقهى الوحيد فى البلدة، إنها قهوة المعلم (رجلة) وهو واحد من مشاهير البلدة، ويمكن لزبائنه أن يدخن فى ركن خلف القهوة الحشيش على الجوزة لقاء مبالغ إضافية، و كذلك بيع قطع الحشيش الصغيرة لمعارفه، وكان على حسن مبلغ من المال، ولكنه عندما وصلا إلى القهوة حتى جلس فى مواجهة المعلم رجلة بعد أن القوا التحية والسلام على الجالسين، فرد المعلم رجلة بعد أن لمح مصطفى حيث قابله مع الحاج صالح ذلك اليوم، وقام متجهاً إليه قائلاً : مرحبا بابن الأكابر مصطفى، القهوة نورت، وسلم على حسن قائلاً: ازيك يا حسن، فينك من زمان ؟، بس أنهاردة سماح علشان خاطر ابن الأكابر مصطفى، فرد عليه حسن : صاحب واجب يابو المعلمين.

وقد أدرك بفطنته أن مصطفى سيكون صيدا فى يد حسن طبعاً فى الأيام المقبلة، وعاجله حسن قائلاً : إيريق قرفة وجوزة معسل على حساب مصطفى، فضحك رجلة لأنه صاحب حدس، ولكن لم يلتفت مصطفى إلى ذلك، قائلاً : واجب علينا احنا يا حسن، الحساب على القهوة، دى أول مرة صاحب السعادة ابن الأكابر يجلس هنا، يا مراحب .. يا مراحب ..، فرد مصطفى شاكراً المعلم صاحب القهوة.

وكان الحوار دائراً بين مصطفى وحسن عند وصول القرفة والأرجيلة : قل لى يا مصطفى ..أنت ناوى تعيش معانا هنا تانى ؟ أنا سمعت من أهل البلدة الكلام ده، فرد مصطفى وكان ينظر إلى الطريق : نعم، فأكمل حسن : أنا سمعت أن مصر دى حلوة قوى، لكن كيف ستعيش هنا بعد أن تعودت على مصر وأهل مصر؟



وأخذ يسعل من الدخان .. فضحك مصطفى ضحكة خفيفة وقال :  
لا مفر .. ربنا يبقى يصبرنا، وخاصة أنى هنا ليس عندى أصحاب  
ولا أصدقاء ولا سمر ولا حاجة خالص، رد حسن : كل حاجة هنا  
يا صاحبي .. اعتمد على، اترك لى نفسك من اليوم وحتكون  
مبسوط ... أهلا ... أهلا بيك يا مصطفى، تعالى .. تعالى يا حبيبي ..  
واحشنى..

وانطلقا معا فى الطريق، وقد سلكا طريقاً خلفياً من المقهى بعيدا  
عن الطريق المعتاد داير الناحية، حتى وصلا إلى أطراف البلدة،  
وكان مصطفى خائفا بعض الشيء ولكنه تذكر أن جميع رواد  
المقهى والمعلم رجلة قد شاهدوهم معا، ووصلا إلى عشة صغيرة  
مبنية من القش والبوص، وقد أضائها موقد ضعيف من الزيت قد  
وضع على رف علوى من الخشب من الحائط الخشبي المواجه  
لفتحة الباب و يشغل المكان عدد من الطاولات والكراسى متناثرة  
هنا و هناك، وقد شغلت بعض هذه الطاولات والكراسى بأشخاص  
غريبة الأشكال، كل واحد منهم يحمل جوزة يخرج منها دخان  
كثيف ورائحة غريبة ولكن اعتادها مصطفى عندما كان يقضى  
أوقات سمره مع أصدقائه فى مصر، وكان معظمهم يتمايل مع  
رقص الغازية رباح التى كانت ترقص على الدف بخفة وبهجة،  
وعليها ملابس الغجر كثيرة الألوان وقد لف وسطها وشاح أسود،  
وفى أحد رجليها ترتدى خلخالاً فضياً يلمع فى ضوء المصباح  
الخافت ويحدث صوت رنين جميل، وقد أشار إليها حسن عند  
الدخول فأشارت له هى الأخرى ولمصطفى، وكانت عيناها قد  
وقعت على مصطفى لأول مرة فى حياتها، حتى أن مصطفى لم  
يكن يعلم بوجود هذه العشة على أطراف البلدة .

وقد أمعنت رباح فى نظرها إلى ذلك الشاب الوسيم البادى عليه معالم الثراء، فهو مختلف فى ملبسه ومظهره عن الآخرين، فمعظم مرتادى هذا المكان هم رجال ليل أو طلاب متعة، وقد اختار حسن طاولة بعيدة عن الآخرين، وسرعان ما فهمت رباح الراقصة، واتجهت إلى الطاولة ورحبت بحسن ومصطفى، وكان حسن زبوناً دائماً فى المكان عندما تكون جيوبه مملوءة، وقام لها حسن مرحباً : أهلاً بست الكل .. أقدم لك أخويا وحبيبى ابن الأكابر مصطفى .

وكان مصطفى قد بدأ النظر إلى رباح وأيقن أن كلام حسن حقيقى وأن البلدة بها شىء من السمر والجمال، وميل حسن على رباح هامساً فى أذنيها : اطلبى لنا وحضرى لنا طاولة على ذوقك على جنب، فردت رباح : وجب، إلا أن مصطفى سمع المحادثة وقال : اسمع يا حسن ...أنا تأخرت على الحاجة طول اليوم، لكن بكره نسهر هنا بعد ما استأذن الحاجة، فردت رباح: على كيفك يا سى مصطفى، ثم تحرك مصطفى وحسن إلى الخارج، حيث أوصل حسن مصطفى إلى البيت .

اليوم هو موعد خروج نفرتال والأخت مارى إلى الحياة العادية مرة أخرى، بالرغم من عدم رضا الأب وليم عن خروجها من الدير، كانت مارى ونفرتال قد أعدتا ما لديهما من قليل الثياب، وقد تنقلت مارى ونفرتال بين أرجاء الدير لوداع الأخوات والرهبان، فالיום ستعادر مارى جدران ذلك الدير الذى مكثت فيه أكثر من أربعة عشر عاماً، فقد أنت وأختها الراحلة مع الأب وليم لتقيما بالدير بعد أن قتلت أمهما وحرقت دارهما، وتدرجت ورسمت مارى حتى أصبحت الأخت مارى، التى يعز فراقها على جميع ساكنى الدير فهى تملك تدينا ثابتاً وقلبا خاشعاً.

وقد أحببت الدير منذ أن دخلته، ولكن أختها أحببت ذلك المسلم الذى كان يعمل على إحدى العربات، فخرجت من الدير وتزوجته، ولكن (حورية) أخذت تعمل فى خدمة الدير بحب وبجدية، وقد تأثرت بالأخوات وطريقة حياتهم، وقد انخرطت فى المسيحية فقبلتها، وخاصة أنها لم تكن لها رؤية محددة، كأماها نفرتال الراحلة، ولم يشكل لها الدين أو يحرك داخلها أى ساكن، بل كان الدين هو مصدر الشر فى حياتها، إلى أن أنقلب إلى مصدر خير وحب، وألفت حياة الرهبان وانقطعت عن أختها، ولكنها حضرت مولد نفرتال.

وقد انخرطت فى الدير تحت اسم الأخت مارى حتى ترسمت كراهبة بالدير، وكان ورائها دائماً الأب وليم التى كانت تكن له كل حب وتقدير، إلا أنها كانت تختلف معه فى عدائه الدائم للمسلمين،

وكذلك بعض الآن شطة غير الواضحة التى يقوم بها ، وقد تدرجت فى الدير لما تتمتع به من نشاط واجتهاد واخلاص فى عبادة الرب، وبما ورثته عن أمها فى التمريض وفنون العطاره، وكذلك العناية بالأيتام حتى أصبحت مرشحة أن تكون كبيرة راهبات الدير عن حب وجدارة، ولكنها اليوم تركته من أجل نفرتال.

والدير فى حياة أقباط مصر والكنيسة المصرية له دور عظيم ومحبة فى قلوب الأقباط، ورغم أن مصر كانت تزخر بحياة المخلصين والرهبان الفردية، إلا أن الدير قد رسم شكله المعتاد فى الفكر المسيحى المصرى، و بالرغم من قوة الكنيسة المصرية وأثرها فى الكفاح ضد الكنيسة البيزنطية الحديثة، وخاصة أن مصر كانت تعاني من عبء الإحتلال البيزنطى، وكان المصريون الأقباط يكرهونهم، مما ساعد على دخول العرب وغزو مصر أو فتح مصر دون مقاومة تذكر، بل كان الفلاحون العاديون قد انتقلوا للعيش فى الأديرة للعمل مقابل حمايتهم دون ملكية الأراضي الزراعية، وأن حقا المسلمين لم يقدموا إساءة فعلية لهم على أرض الواقع، إلا المتعصبين الذين يحرفون الدين ويشوهونه حتى يكره هذا الدين فى الأرض.

وقد توجهت مارى إلى حجرة الأيتام وورائها نفرتال وتيريز، وقامت برفع طفلة إيزيس الراحلة بين يديها وقبلتها وقد ملئت عينها بالدموع، وتذكرت إيزيس ومأساتها، ثم قالت لتيريز: ارفع الصغيرة ربنا يرعانا، تلك الفتاة بدأت حياتها يتيمة وأتمنى لها حياة كريمة .

و خرجن الثلاثة إلى الخارج مارين بمذبح الدير، حيث كان الأب

وليم مازال قائما هناك مع بعض الرهبان حتى يأخذ أحداً معه، ولما رأى مارى تقدم منها، وقد نظر إلى نفرتال بشدة كأنه يتهمها بأنها هى السبب وراء كل ذلك، إلا أن نفرتال وتيريز أخذتا طريقهما إلى الخارج، حيث كان فى إنتظارهم عربة جرجس التى ستأخذهم إلى البيت.

و قال الأب وليم لمارى : ألم تغيرى رأيك حتى الآن ؟ .. كيف تخرجين من بيت الرب وتعودين إلى تلك الحياة مرة أخرى ؟، فردت مارى : لا حيلة لى .. وأرجوك صل من أجلي كما أرجو أن تسمح لى بزيارة الأخوات فالدير لم ولن يخرج من قلبى أبداً، ثم خرجت لتلحق بالعربة التى كانت فى انتظارها.

وانطلقت بالعربة إلى البيت الجديد، وكان الصمت سائدا طوال الرحلة، وكان يدور بخلد مارى الكثير من الأفكار والمشاعر، فعودتها إلى الحياة مرة أخرى مسألة ليست هينة، فمن اليوم هى مسئولة عن نفسها وعن نفرتال، وعليها أن تدبر المال اللازم لمعيشتهما، خاصة أن بيت تيريز قد ساعدها كثيرا فى ذلك، فحياة الدير بسيطة وسهلة، مكان للنوم والأكل البسيط، لا زواج ولا أولاد ولا مسئولية إلا العمل الجاد فى خدمة الرب، الذى لا يدر مالا على أحد ..

وقد قطعت الأخت تيريز صمت مارى، ومدت إليها يدها بقطعة صغيرة من القماش الأبيض داخلها بعض النقود، فسألت مارى : ما هذا يا أختاه ؟، فقالت : هذه نقود لتعينك على الحياة خاصة فى البداية، فقالت لها مارى : من أين لكى هذه النقود ؟ فردت : إنها من الكنيسة قد أعطاه لى الأب وليم مساء أمس وأمرنى أن

أعطيتها لى بعد خروجك من الدير لأنه يعلم أنك سترفضينها منه، خديها يا مارى فهى ستساعدك كثيرا، فمدت مارى يدها وتراجعت ثم أخذت النقود قائلة : يعلم الرب أنى فى أمس الحاجة إلى هذه النقود، ثم عاد الصمت مرة أخرى إلى راكبي العربية، فلا نسمع إلا أصوات ضربات أقدام الحصانين الذين يضربان فى قوة وسرعة منتظمة أرض الطريق، وأما السائق جرجس يتميل يمينا ويسارا مع عجلات العربية.

وأما نفرتال فلا يسعها حبا وفرحة إلا أن تعيش ذلك الحلم، وهى أن تعيش فى بيت، لقد ذاقت طعم أن يكون للبيت سقف، والآن هناك بيت حقيقى.

وبعد أن دخلت العربية السوق، نظرت نفرتال إلى ذلك المحل الذى اعتادت أن تشتري منه الملابس، وحقيقة كانت تحاول أن تلمح هارون، ولكن كانت العربية سريعة والمارة فى كل مكان، مما يجعل الرؤية من على بعد صعبة . واقتربت العربية من البحيرة حيث نرى قوارب صغيرة متراصة جانباً إلى جانب وأمامها حلقة لبيع السمك كما يسميها المصريون، والصيادون قائمون على تلك الصناديق الخشبية المملوءة بالسمك الطازج رزق اليوم .

وتوقفت العربية أمام البيت المنشود، ونزل جرجس وجميع من فى العربية، فهو بيت خشبى مرفوع برمته على أحجار ضخمة وقوائم خشبية من جذوع الأشجار، مثله مثل جميع البيوت من حوله . وهنا أعطت تيريز المفتاح إلى مارى لتفتح الباب وتدخل، و تذهب هى إلى بيت الشيخ الشبراوى شيخ الجامع وجارهم، والذى درس على أيدي أحد العلماء من السلف الصالح، ورجعت ومعها الست زينب وزوجته وابنتها مريم، وهى فى سن نفرتال

ومخطوبة إلى ابن عمها فى صعيد مصر .

ودخلت مارى ونفرتال إلى البيت ، واستأذن جرجس للعودة إلى عمله، وكان عليه أن ينتظر تيريز حتى ترجع إلى الدير، وقد همت مارى ونفرتال بفتح جميع نوافذ البيت المغلقة لأعوام طويلة، ويوجد خلف البيت حديقة مهملة بها بعض أشجار المانجو ونخلة، وقد قررت مارى أن تزرعها بالخضراوات والورود.

وبعد أن قامت تيريز بتقديم سكان البيت الجدد إلى الست زينب وابنتها، وبدأ الجميع فى التنظيف، بدأ توافد الجيران على البيت مابين مهنيء ومساعد وعرض للخدمات، وكانت فرحة غامرة للكل، وقد اختارت نفرتال إحدى الغرفتين لتكون غرفة خاصة بها، فالיום أصبح لنفرتال حجرة فى بيت له سقف وباب بعد أن عاشت كل هذه السنين فى المغارة، سعادة غامرة وفرحة وانطلاقة لا حدود لها، مرددة فى نفسها : يا حبيبتي يا خالتي ..

وبينما الجميع يستريحون ويشربون الينسون، حتى أقبلت طفلة صغيرة تتأدى على الست زينب من تحت أحد الشبايك، حتى تأتى تساعد والدتها التى على وشك الوضع، فسارعت مارى معها إلى المساعدة وهى خبيرة بمجال التوليد ، وما إن فتح الأب الباب حتى دخلتا وسخننا الماء، وما هى إلا دقائق حتى استقبلت الدنيا مولودا جديدا، صارخا كعادته ليعلن قدومه إلى الأرض مختارا هذه الأسرة، وكان الأب والأم فى سعادة غامرة، فلهم من البنات خمس وكان الأب يرجو ولدا كالعادة فى مصر، وعادت مارى إلى البيت وعاودت زينب بنيتها، حيث أعدت طعام العشاء وأرسلته مع مريم إلى نفرتال، ولتشكرها .

وحقيقة لم تدخر نفرتال ومريم جهدا فى تنظيف البيت وترتيبه، بينما هى تساعد ذلك الصغير فى القدوم إلى الحياة، مما أسعد مارى، وقامت بغسل وجهها وغيرت ملابسها، ثم جلست مع نفرتال لتناول العشاء الذى أهدى إليهم، وقد لمحت مارى علامات الفرح التى ارتسمت على وجه نفرتال، فداعبتها قائلة : عندك بيتك الآن يا بنت أختى، فردت : عندى أهم من البيت عندى خالة مارى وعندنا كمان جيران حلوين أوى، فقالت مارى : نعم المعلم أبو المولود تاجر السمك فرحان جدا بمولوده عبده الجديد.

نفرتال ... قالت مارى بصوت مختلف : ماذا حدث لك بعد أن تركتى غرفة الأيتام بالدير ليلة أمس؟، اصدقينى القول ...، فسكنت نفرتال قليلا ثم قالت : وأنا راجعة إلى الحجرة مرة أخرى سمعت صوت قوى كما أخبرتك، صوت فاطمة ينادى علي، حاولت أن أتجاهل الصوت فلم أستطع، فذهبت إلى حيث ترقد فى المقبرة، ولم أجد طيفها كالعادة مثل الآخرين، وقد رجنتى بصوتها ولا أعلم من أين يأتى، كان صوتا باكيا، سألتنى أن أزيل الرصد من حول القبر، فما كان على إلا أن أصغى إلى ذلك الصوت، فلا أعرف كيف قمت بإزالة ما حول القبر، وما هى إلا لحظات يا خالتي حتى هبت عاصفة قوية حول المقبرة كلها، وفجأة سمعت صوت مختلف، كأنه صوت رجل عجوز يقول : الحمد لله .. الحمد لله .. الحرية.. الحرية، أنا مدين لكى طوال عمرى يا نفرتال، وأقسم بالخالق لأكون فى خدمتك، طالما حييت، فانزعجت وأصابنى الخوف وانزويت إلى جانب القبر، فكان مفاجأة لى أن يتحول الصوت من طفلة صغيرة إلى رجل كبير فى السن، ثم قال ذلك الصوت : لا تخافى يا نفرتال، أنت فعلتى خيرا ولن يصيبك ضرر



أبداً، فأنا الشيخ العفريت الطاعن فى السن، وأما فاطمة فروحها عند ربها، ولقد سجننى هنا ذلك الملعون الأب وليم، دون ذنب إلى ذلك الجسد الصغير حبيس المقبرة ..

فتراجعت مارى إلى الخلف ووضعت يدها على رأسها قائلة : لماذا يا نفرتال ؟ لقد اخرجتلى تلك الروح الشريرة التى أفسدت الدير أمس على أهله، وسيستمر هذا الشر طالما هذه الروح الشريرة حرة، .... لا أعلم ماذا بك يا نفرتال ..أهى روح أم بك جان ؟ وما العمل الآن ؟، فقالت نفرتال : لا ..لا يا خالتى، فقد عاودنى ذلك العفريت فى غرفته قائلاً : ما فعلت بالدير إلا انتقاماً من الأب وليم، فقد قلبت الأصبلة واطفأت الشموع، حتى يعلم أنى حر، فقلت له يا خالتى : أأخرجتك لتفسد وتخرّب المكان على أهله ؟ كم أنا نادمة على ما فعلت !، فرد : لا ..أقسم لك لن أعود إلى ذلك مرة أخرى وأنى تارك الدير الليلة، ولكن جئته لأشكرك مرة أخرى، فانسحبت مارى قائلة : لا أملك إلا الصلوات، فاكتفى الخبر ...

وتذكرت مارى ذلك المنديل الأبيض الذى به بعض النقود فأخرجته من صدرها، ثم قامت بعد النقود، وكانت سعيدة فعلاً وشكرت الرب، ودعت للأب وليم قائلة فى نفسها : لا أفهم ذلك الرجل فجوانب نفسه تحمل كثيراً من الخير، والأعجب أن الانتقام والغضب الذين بداخله يجعله فظاً غليظ القلب.

وقد عقدت العزم على الذهاب إلى السوق غداً لشراء بعض الدواجن وديك، لتقوم بتربيتهم فى حديقة البيت، وعددت ماذا تريد .. وتريد، وقد غلبها النعاس، ودخلت إلى الحجرة التى كانت من

نصيبها، ودخلت نفرتال إلى حجرتها هي الأخرى، بعد أن احتضنت نفرتال التي كان غالبها النعاس على الكرسي الذي بالردهة أمام ماري، وأخذت ماري تنتظر إليها مشفقة عليها، ومتعجبة بما تأتي به هذه الصغيرة من أفعال غريبة وخارقة والتي قد تجعلها يوما ما عرضة للخطر، وازداد خوفها عليها، ثم أيقظتها حتى تدخل إلى حجرتها لتنام وتقضيا يومهما الأمل في البيت الجديد.

بيت فلاحى بسيط مبنى من الطوب اللبن والطينى والقش، فى مواجهة بابه تقف عربة عليها سائق وخلفها عربة أخرى بها عسكر، ونزلت من العربة (وعد) امرأة الوزير واضعة على وجهها شال أبيض ومعها وصيفات، وما إن نزلت من العربة حتى سبقتها وصيفتها لتطرق على الباب، وكان الوقت قد اقترب من العصر، وقد تجمع أهل المكان والناحية البسطاء حول العربة، ومعظم سكان المكان يعيشون على هامش الحياة ولا هوية لهم وقد تجمعوا ليروا من القادم، فقد اعتادوا رؤية وعد من قبل تتردد على ذلك البيت، إلا أنهم فى الأول والأخير لا يحبون قاطنى ذلك البيت.

وما إن فتح الباب حتى أعلنت الوصيفة للسيدة التى فتحت الباب وكان عليها ملابس بالية : مولاتى وعد، ودفعت الوصيفة الباب ودخلت وعد، وأمرت الوصيفات بالبقاء فى الخارج، بعد أن تنحت تلك السيدة عن الباب، أنها مصرية زوجة صاحب البيت هلال الأخ الأكبر لوعد، ليس الأوحد، ولكنه الوحيد الذى رفض ويرفض أن تجعله وعد مثل باقى اخوته من كبار رجال البلدة والأعيان.

وكانت مصرية ترتدى عليها ملابس قديمة وبالية، وهى امرأة جافة جامدة تحس أن الحيوية والحياة قد غادرتا حياتها وجسمها، وهى عقيمة لم تتجب لهلال أولاداً، فهى امرأة تعيش على هامش الحياة، لا حول لها ولا قوة، فهى فى نظر زوجها وأهل الناحية

كشجرة جافة جرداء لا تطرح، فالسيدة التى لا تتجب لا لزوم لها، فلا بد أن يكون الوعاء عطاء.

وأما هلال فهو ليس مقيماً بصفة دائمة فى البيت ولكنه يتردد عليه أحياناً، فقد اتخذ هلال نوعاً آخرأ من الحياة، فهو يعتبر نفسه مجاهداً فى سبيل الله، وحقيقة الأمر أنه مطارّد من العسكر وآخرين، إلا أن العسكر طوع أمر أخته وعد، ومن كان يترقى فى مصاف العسكر فيغضون أبصارهم عن ذلك الشخص، وكانت دائماً ما تحميه لأنه هو الذى قام بتربيتها وهى صغيرة قبل أن تهرب من البيت، أما هلال فهو صاحب الدعوة فى جماعة، ونفر من الذين لا عمل لهم ولا مال لهم ولا علم، بل مدعين أنهم أهل لحماية دين الله الإسلام على الأرض، وقد ارتكبت عديد من الجرائم تحت هذا الشعار، فهلال من دعاة أن الدنيا كسيدة عجوز شمطاء ولا تساوى جناح بعوضة، والحرث فيها كالحرث فى الهواء لا قيمة له، وأن الجميع يتساوى فى النهاية فكل شيء فى التراب، إلا من جاهد وأخلص فى جهاده، وهو يعتبر وعد كافرة وأولى الأمر جميعهم يستحقون القتل لأنهم زنادقة، بل معظم الناس من المسلمين على دين آخر غير الإسلام، وأهل الكتاب كفاراً ويجب قتلهم جميعاً وسبى نساءهم وإرث أموالهم، وعلى ذلك فهو لا يأخذ من وعد أى أموال أو يقبل أى أملاك مثل أخوته، والغريب أنه قد ارتكب من القتل والسرقة والفساد فى الأرض الكثير والكثير، ومعظم وقته يقضيه مطروداً من مكان إلى آخر، وقد تزوج الكثير من الفقيرات هنا وهناك، وهرب منهن إلى هنا بدعوى الجهاد، وترك وراءه الكثير من الأولاد المشردين.

وقد علمت وعد بوجوده بالبيت من العسكر، فجاءت تخبره بأنها

لن تستطيع حمايته أكثر من ذلك، وخاصة أن مجاهد يبحث عن نقطة ضعف لها، وما إن رآته جالساً خلف الفرن مختبئاً فقالت له : اطلع يا هلال أنا وعد ...آخر كلام لك اليوم معى، فرد هلال بقسوة : أنت تحدى ربنا أننى لم أقتلك حتى الآن .. ردت وعد قائلة : أنك تماديت فى القتل والنهب بدعوى الصلاح، وأن السرقة التى قمت بها أنت واللصوص الذين معك للدير شىء لا يغتفر، ويجب أن ترد المقتنيات الأثرية وثمانى الأشياء إلى مكانها ... مجاهد ليس كالآخرين وإن سقطت فى يده لن يرحمنى، وأنا على ثقة بأنه يعلم كل شىء عنك، وقد حدثنى مساوماً على أمرك، فرد هلال رافعا صوته : إن كل المسيحيين كفرة ومالهم ونسائهم حل لنا نحن المجاهدين، وسوف يأتى يوم نصبح أولياء الأمر ونقيم شريعة الله على الأرض ...

- اسمع يا هلال كفاية كلام أنا وأنت نعرف أنه لا محل لما تقول، عليك أن تختفى من حياتى وتتركنى فى حالى وشوف حالك فى مكان بعيد عننا، وقد أخرجت من تحت ردائها صرنتين من المال، اترك البلدة واذهب إلى صعيد مصر ...

فردت (مصرية) : عاوزاه يتشرد تانى يا ست وعد ؟ ردت وعد : يتشرد ؟ قولى يتلم ...، ويمكن يأخذك معه، فرد عليها هلال ملقياً المال على الأرض: أخرجى بررة ...بررة ...، فردت وعد فى طريقها للخارج فى عصبية : أنا قلت اللى عندى، عليك من اليوم أن تحمى نفسك، فرد عليها : يا ست وعد أنت اللى تحمى نفسك مش أنا ...بررة ....بررة ...، فخرجت بسرعة إلى العربة وانطلقت،

وقد عازمت على التخلص نهائياً منه بأى طريقة حتى تطوى تلك الصفحة.

وعادت وعد إلى القصر فما إن دخلت حتى وجدت مسئولة الخدم والحريم فى قصر الوزير فى انتظارها، وقد بلغها بأن النحاس ( دربرة ) قد وصله دفعة جديدة من الجوارى الجميلات، وترد وعد برغبتها أن تراهم قبل أن ينزلوا السوق للبيع، وقد اعتادت وعد شراء الجوارى بنفسها، وكانت تختارهم بعناية فائقة، فهؤلاء الجوارى جيوش من الجواسيس والعيون فى القصور الملكية وقصور الأعيان، وهم فاكهة الرجال والساسة فى مصر، وقد تصنع السياسات فى أحضان هؤلاء الجوارى وما ملكت الأيمان وما أكثرهم .

وكانت وعد خبيرة فى اختيار السلعة الواردة إليها، فهى تقوم بنفسها بفرز هؤلاء الجميلات وشم رائحة عرقهم وأفواههم وطريقة كلامهم، ليس جمال الوجه والجسم فحسب ولكن الكثير من المواصفات، وفعلاً قد نجحت وعد فى بناء جيش لها من خلال هؤلاء، فمعظم أخبار الساسة وأولى الأمر معلومة تماماً لوعد، بل أنها تدس ما ترى فى مصلحتها فى تلك القصور من خلال أجساد تلك النساء، ومعظمهن يمثلن للأمر دون مقاومة أو اختيار.

وكان النحاس فى حراسة العسكر فى طريقه وراء رئيسة الخدم ومعه الجوارى الجدد، حتى تشتري وتختار ما تريد، وكانت وعد تدفع بسخاء فى البضاعة مما جعل معظم النحاسين العظماء يتهافتون على رضائها، أما الوزير فكان من أكثر المعجبين بوعد فى اختيارها للجوارى، فكان يهدى من وقت لآخر لولى الأمر أو صاحب المصلحة الجوهرة الجديدة، بل كانت وعد تدفع فى

العذارى أكثر بكثير من كبيرات السن أو فاقدات العذرية، وخاصة أن اللصوص دائماً لهم نصيب الليلة الأولى فى البضاعة قبل بيعها للنحاس إلا إذا اشترط الشرط فى هذه البضاعة فيدفع أكثر، فهذا عالم يدور فى فلك الدولة الإسلامية، له قواعده و قوانينه، بل يتمتع بحماية كاملة، وما أكثر المسميات التى تخبىء حقيقة الأمر، إلا أن الدعارة هى الدعارة.

وبخروج وعد من بيت هلال بدأت معركة تدور فى ذلك البيت الطينى بين مصرية وهلال، لقد تركت وعد النقود ملقاة على الأرض وخرجت، وكانت مصرية تبكى قائلة : أنت تعلم أن سر بقاؤك حياً حتى الآن هو وعد، كم أحسد تلك المرأة التى اغتنتت وجاءت بالفضل إلى أهلها جميعاً فجعلتهم أسياد القوم، مازالت تملك من الجمال والنفوذ أكثر من أى امرأة فى سنّها أو مكانتها، ماذا تريد ؟ أصدقت أنك تجاهد فى سبيل الله ؟ وإن فعلت تكون أنت الوحيد الذى صدق هذه الإكذوبة، لقد غرقت يدك فى الدماء واستحللت الزنا والإغتصاب، وتقود أشرار البرية أمثالك إلى أشنع الجرائم والأفعال كل يوم ...، يا شيخ هلال أين تعلمت أصول المشيخة؟ فى أحد اعمدة الجوامع الشهيرة ؟ أم على يد أحد الأئمة؟، إنك لا تستطيع أن تقرأ أو تكتب، نساؤك فى كل مكان تقوم الليل على أجسادهن، تلك الفروج التى أنجبت صغاراً كلهم حقد وشر، لا أب يرعى أو طعام يسد الجوع ولا ملابس يستر الأجساد، كيف ستقابل الله إن كنت تعلم وتعمل لمثل ذلك اليوم ؟ إنك لا تعلم أين تضع موضع قدميك ...، اسمع ..الآن عليك إنهاء ما أنت عليه، ذلك المال أظهر مما تحصل عليه من أطراف أخرى، خذ المال واتق الله فى، ودعنا نتحرك لنبدأ حياة جديدة فى مكان آخر .

وكان هلال صامتاً وقابعاً في مكانه بجانب الفرن الطيني، يريد أن يسمع ولا يسمع، فإنه يشتهي أن يسمع كل جرائمه، إنها السادية المطلقة ...، وأكملت مصرية حديثها : إن المجاهدة الحقيقية على طريقتك هي وعد رغم أن جرائمها قد تكون أقل من جرائمك ولكنها الحقيقة ..، أما الوهم والضياع الذي تلبسه حلة الجهاد وتتخيل نفسك في منازل الشهداء ... لا ...، أنت أكثر واحد يخاف الموت، إنك تعلم الحقيقة ولكن شيطانك يثبتك ويريد بقائك هنا، وأنت تريد ذلك أيضاً، كل شيء مباح وحماية من وعد، لا مسئولية ولا عمل، علم متدنى لا يبذل فيه نقطة عرق واحدة للحصول، هلال دعنا نأخذ النقود ونرحل .

فرد قائلاً: أنت تبقى هنا، لا قيمة لكى الآن ، وانطلق إليها فى سرعة والتقط عود من الخشب ضرب بها رأسها فسقطت على الأرض فى دمائها قتيلة، ولكنه لم يشعر بشيء والتقط النقود وصرخ فيها : حشرة مثلك مثل هؤلاء، لا بد من قتل هؤلاء الحشرات حتى ولو كانت وعد المرة القادمة، وضحك فى هيسيرية وقذف بنفسه خارج البيت تاركاً الباب ورائه مفتوحاً إلى غير رجعة فهو المجاهد السياح، ولكنه وقف فجأة ناظراً خلفه، فما زال المال ملقى على الأرض، فرجع و التقط المال ودسه فى طيات ملابسه، وانطلق فى خفاء واندس فى مكان ما.



وما إن استيقظت ماري كعادتها قبل شروق الشمس، وخاصة أن أذان الجامع الكبير القريب من البيت قد دوى بصوت الشيخ جارهم، وقد اغتسلت وتلت صلواتها المعتادة لأنها كانت متعبة طوال الليل فلم تصل ليلاً، ثم ذهبت إلى حجرة نفرتال التي ما زالت نائمة كالملك في هدوء وأمان، فقد أحست نفرتال بالأمن والأمان فاطمأنت فأسلمت عينها للنوم مثل الفتيات اللاتي في سنها، إلا أنها استيقظت على صوت أرجل خالتها، فتبسمت قائلة : صباح الخير يا خالتي، وقفزت من السرير لتستقر في حضنها .

وبينما هما في عناق طرق باب البيت، فذهبت ماري لفتح الباب فوجدت أمامها صينية طعام صغيرة مغطاة بقطعة نظيفة من القماش، تحملها الست زينب جارتها، وقد أعدت ذلك الفطور منذ الفجر لنفرتال وماري، فهي تعلم أنهما متعبتان ولا يوجد طعام في بيتهما، فأخذته ماري شاكرة ومقبلة الست زينب، التي وعدتها بالذهاب معها إلى السوق كما وعدتها بالأمس، بعد خروج الشيخ الشبراوي إلى حلقة الدرس التي تدور بالمسجد .

ووضعت ماري الصينية على الطاولة وكشفت عن الغطاء، ونادت على نفرتال التي كانت تغسل وجهها مرتدية ذلك الفستان الأوحده، وقد لاحظت ذلك ماري فعقدت العزم اليوم على المرور على دكان الأقمشة لتحريك فساتين أخرى لها، وأقبلت نفرتال وجلست إلى جانب خالتها على أرضية الردهة أمام الطاولة الخشبية، جالسة على ذلك الفراش المتعدد من قطع لفروات الخرفان، التي

افتترشت أرض الردهة لتطفئ عليها الدفء والشرء.

وما إن بدأ الأكل حتى قالت نفرتال : خالتى .. لقد وعدتني أكثر من مرة أن تحكى لى قصة جدتى نفرتال، وقد سألتها من قبل نفرتال عدة مرات لتروى تفاصيل تلك القصة، ولم تجد مارى مفر من أن تحكى لها القصة فقالت مستهله الحديث : إنها قصة محزنة، بعد عودة جدتك نفرتال من قصر الوزير فى مصر، زارتنا الجارية السوداء (سوسنة) التى استعانت بجدتك فى مساعدة امرأة الوزير لتتخلص من حملها، وفتحت لها الباب عندنا، وكانت تسأل على جدتك وهى خائفة متعجلة تتصبب عرقاً، فأخبرتها أن جدتك ليست بالبيت، وكانت جدتك يا نفرتال معروفة بالبلدة بمهارتها فى استخدام العطاره وأعمال التمريض للنساء والتوليد، و كان لها معرفة فى فك السحر والأعمال، وكانت تشارك فى المآتم والأفراح لتدر عليها بعض المال لإعانتنا على المعيشة، المهم أن الجارية سوسنة قالت لى : أخبرى والدتك أن تمر على بسرعة و قالت لى أن وعد قد غدرت بالكل، وأرسلت جدتك إليها- عندما عادت إلى البيت - فى بيتها بالفعل، ولكنها عادت للبيت بسرعة فقد وجدت الجارية تصارع الموت بخنجر فى ظهرها، وقد أخبرت جدتك نفرتال وهى فى النزاع الأخير : قتلنى أتباع وعد ...ذلك العسكرى ...، وماتت الجارية ...، وأخبرتني أمى ألا أفتح الباب لأحد، لكن قد تجمهر أمام البيت عدد من المارة وشيخ جامع البلدة يصيحون الملعونة ..الساحرة ..، إن هذه المرأة هى لعنة صبت على البلدة وأهلها .

وكان الطاعون قد تقشى فى البلدة فى ذلك الوقت، وكانوا يحملون فى أيديهم مشاعل النار، و يصيحون اقتلوا الساحرة ..، ثم أخذ

هؤلاء الجمع وشيخ الجامع يقذفون الحجارة على الباب، فسارعت جدتك إلى الخارج لتعلم ماذا يحدث، وما إن فتحت الباب حتى أصابتها الحجارة في رأسها وجسمها فسقطت أمام البيت تتخبط في دمائها، وجريت أنا وأختي إلى الشارع حيث سقطت جدتك راقدة في دمائها، ولا نعلم ماذا حدث ..ولماذا هذا الكلام وهذا الجمع ..، و لكن كان شيخ الجامع يتوسطهم، وكان يكره جدتك منذ زمن بعيد وينعتها بالساحرة الكافرة، وفجأة ظهر شخص يرتدى الزي العسكرى ومعه آخرين يلقون المشاعل النارية على البيت من كل جهة قائلا : احرقوا بيت الملعونة، ونحن نصرخ ودماء أمتنا قد ملأت أرض الشارع ولا أحد يريد أن يساعدنا، ماتت جدتك ولم يرحمنا أحد .

وعندها وقفت عربة الأب وليم وكان معه جرجس فى مكان الحادث ليستطلع الأمر، و كان هو الوحيد صاحب القلب الرحيم فأخذنا أنا وأمك إلى عربته ليعلم ماذا حدث، و كان خلفنا البيت المحروق، و لم يساعد أحد فى اطفاء النيران أو يقدم أى مساعدة لنا أنا وأمك، ولم يعبأ أحد كما تركوا جدتك قتيلة ملقاة على الأرض، فعرض الأب وليم علينا الذهاب معه إلى الدير حتى نجد مخرجا لحياتنا، فقد أحس الأب وليم بالمصيبة وقسوة قلوب الناس علينا دون ذنب، فاستسلمنا للأمر وشكرناه، وذهبنا معه تاركين البلدة إلى غير رجعة .

فقالت نفرتال : يا جدتى المسكينة غدر بها كما غدر أبى وأمى ظلماً، أريد أن اقتل هؤلاء جميعاً، فردت مارى: لا يا نفرتال، إنه على قول المسلمين يمهل ولا يهمل، فأنظرى وتذكرى أن قاتل أبويك قتل ومن معه شر قتلة عقاباً له من الرب على فعلته، ولكن

حقيقة مازلت تتذكرين ذلك العسكى الذى كان يحرض ويلقى بالنار على البيت كأنه هو الذى دبر وخطط لهذه المصيبة التى حلت بنا، وما أظن أنه قتل أبويك هو الآخر إلا استكمالاً لمخطط وعد التى كانت تخاف أن يفشى ما أفضت به جدتك إلينا .

صغيرتى، إنك فى سن الحياة، فأنت زهرة اليوم، فلا تجعلى فى قلبك محل للماضى أو الإنتقام، فعيشى حياتك واستمتعى بها، والآن أكملى فطورك، ودعينا نستمع باليوم، فالست زينب جارتنا وابنتها سيمرون علينا لنذهب إلى السوق، ولكن ما دار بذهن نفرتال بعدما سمعت تفاصيل مقتل الجدة هو أن ذلك العسكى قد يكون ذلك الغادر القاتل الذى رأيته فى الدير ... مجاهد ..، ولكنها لم تبح بشيء إلى خالتها.

وما إن طرق الباب، كانت الست زينب وابنتها مريم وخلفها ابنها الكبير (حكيم)، ذلك الشاب المتزوج حديثاً والذى يقيم معهم فى البيت ويعمل نجاراً، وقد أتى حتى يعرف ما حجم عشة الفراه التى تحدثت عنها مارى بالأمس، ففكرت مارى أن تربي بعض الطيور خلف البيت مع زينب، فأخبرتها بأن لها ولد يعمل نجاراً قد يستطيع أن يعمل من بقايا الأخشاب المتبقية من عمله، فيعمل لها عشة تقيد الغرض، وقد علمت الست زينب من تيريز الحالة المالية لأهل البيت الجديد وضيق ذات اليد لمارى، فأرادت أن تساعدها، وكانت مفاجأة سارة لمارى، فالبداية كانت موفقة لها ولنفرتال.

ومضى الجميع إلى السوق، ودار حديث بين نفرتال ومريم،

فأخذت مريم تتحدث عن ابن عمها الذى خطبها، وأنها ستسافر إلى الصعيد للزواج والمعيشة هناك، ومريم تحب ابن عمها بالرغم من أنها لم تراه إلا مرتين، وقالت لنفرتال : ألسنت مخطوبة أنت الأخرى ؟، فردت نفرتال: لا، فاستعجبت مريم لذلك، فنفرتال جميلة، وتعدت سن الزواج المعتاد فى تلك الأيام .

واقترب السوق ووصلوا جميعا إلى محل الأقمشة ، وكان هناك شأؤول يقف إلى جانب الباب وخفق قلبه لرؤية نفرتال، وفرح وقام بالسلام على الأخت مارى والست زينب، فهى الأخرى من زبائن المحل، وقد سألتها الست زينب أن يحضر قطعتين من القماش على ذوقه لنفرتال، فقال : اتفضلى يا ست نفرتال فى الداخل، وقد لاحظت مريم نظرات عيون كل منهما للآخر، فضحكت ضحكة خفيفة، معلنة أنها ترى شيئا بين السطور .

وكان أبو شأؤول غير موجود بالمحل، لأنه كان دائم الحزن زالهم على ابنه الأكبر (تلمود) الذى قد أصابه المرض من زمن بعد أن تزوج وأنجب أربعة أطفال، وقد رجح المعالجون والمنجمون أن به مرضاً عضالاً من الصعب شفاؤه، وبالرغم من أنه نجل اليهودى إلا أنه انجرف فى تيار الذهاب إلى السحرة ومدعى العلم السفلى، كما يفعل أهل مصر فى كل وقت وزمان، ذلك بعد فقدده الأمل فى الطب، كما أن العجوز اليهودى لديه من البنات خمس، وجميعهم زوجهم من أهل دينه، بعضهم هنا وبعضهم فى صعيد مصر، وكلهم يعملون فى التجارة .

وكان شأؤول شاباً متديناً، فقد درس وتعلم بالمعبد اليهودى الدينى فى مصر لمدة خمس سنوات، فأجاد معرفة الشريعة اليهودية،

وكان حلمه مثل حلم اليهود المشردين فى الأرض، فى انتظار المسيح الذى لم يأتى حتى الآن فهو علامة تكوين دولتهم، دولة تقوم بإعادة بناء هيكل سليمان، إلا أنه قد أوقف دراسته الدينية ليساعد أبيه فى المحل والتجارة، نظراً لمرض أخيه الأكبر تلمود .

ورغم أن شأؤول شاب وسيم ومحبوب من الجميع، إلا أنه يحمل داخله الدين اليهودي الذى يجعل منه سيّداً على جميع المخلوقات ممن لم يدينوا بدينه، ويجيز له أن يفعل ما يريد مع من دون اليهود، وهو أقل بخلأ من والده، وقد عرف اليهود بين أطيايف الشعب المصرى من قديم الأزل بأنه الرجل الذى يبيع زوجته مقابل زوج من الأحذية، على سبيل الدعابة، إلا أنهم دائماً يعيشون فى مجتمعهم يحافظون على عاداتهم .

وسأل شأؤول نفرتال : ما أحب الألوان إلى قلبك ؟، ونظراً لأن نفرتال لم تعتد رؤية الألوان أوتعرف معناها و مدلولاتها .فسكتت، وقالت : اختر أنت، فرد : طبعا الأحمر الوردى يناسب جمال المصريات ذوات العيون السود والبشرة الخمرية والشعر الأسود المسترسل، وأضاف قائلاً : لكن حقيقى هى الأخت مارى خالتك ؟ سمعت أنها تركت الدير وحياة الرهبنة؟، فقالت : من أخبرك بهذا ؟، فرد : لكى تعلمى جميع أخبار المسلمين والمسيحيين فى البلدة، اسألى اليهود، هم مهتمين بكل صغيرة وكبيرة تحدث حولهم، فسكتت نفرتال ثم أكملت : اللون الأحمر عجبنى...، ثم ارتسمت على وجهها بسمه جميلة حتى جاءت مارى وزينب فقطع الحديث .

ومدت الست زينب يدها على القماش لتراه ثم عقت : ده فعلاً

لونه لائق عليكِ جداً يا نفرتال، وقالت ماري : وكمان اللون الأصفر ده عليكِ، اعمل لك فستانين حلوين، فضحكت نفرتال : فستانين مرة واحدة؟ يا حبيبتي ياخالتي ..أنت طيبة أوى.

وبالرغم من أن النقود التي وصلت إلى يد ماري ليست كثيرة، ولكنها صممت على الشراء لنفرتال بقدر ما تستطيع، وخرج الجميع متجهين إلى شراء حاجاتهم من لوازم البيت، وقد مالت مريم على نفرتال قائلة : إن شأؤول شاب وسيم وبنات كثيرة تتمنى أن ترتبط به، ولكننا نعلم أنه لن يتزوج إلا من دينه ..يهودية مثله، ثم نظرت إلى عيني نفرتال التي كانت لا تفهم ماذا تعنى مريم بكلامها، ولكنها أحست أن مريم تلمح إلى علامات الإعجاب التي قد رأتها متبادلة بين نفرتال وشأؤول .

بينما كانت الست زينب تتحدث متسائلة إن كانت نفرتال مخطوبة، فإن تيريز لم تحك قصة نفرتال إلى جيرانها، وهنا انتبهت ماري إلى أن نفرتال أصبحت فى سن الزواج بل أنها تعدته لما ألم بها، ولكنها قالت: ربنا يسهل لها، فردت زينب: لو كانت بس مسلمة كان ابني الثانى خطبها فوراً، ولكن كل شىء نصيب.

وكان هذان السؤالان قد شغلا ذهن ماري لدرجة أنها كانت تسمع ما تقوله الست زينب من حديث ولا ترد، إنهما تساؤلان سيطرهان نفسيهما على ماري ونفرتال دائماً، ورغم أن السؤال الأول صعب الرد عليه، وهو زواج نفرتال، ولكن السؤال الثانى معروف فإن الرب يسوع هو دين الحق، ومن لم يدخل الملكوت ويتبع المسيح ويعترف بألوهيته فقد هوى إلى الجحيم، ولكن ماذا عن نفرتال؟

فقد علمت أن أمها اختارت زوجا مسلما وتديننت بالدين الإسلامى

...

وما زالت الأفكار تدور بخاطر مارى حتى وصلوا إلى البيت، لتجد حكيم قد عمل تحويطة من الخشب فى ركن من حديقة البيت الخلفية، وزاد على ذلك أن وضع بها من عندهم عدداً من الدجاج و بطتين، وضحكت زينب قائلة : كريم مثل أبيك، ربنا يسهل لك يابنى، وفرحت نفرتال ومارى فرحاً شديداً بهؤلاء الجيران الذين يلمسون بواطن الأمور ولهم وجه كله طلاقة وحب، وكم تفرح مارى عندما ترى الحب والمحبة سائدين بين أهل الأرض وليس فحسب فى بيت الرب.

وما هى إلا لحظات حتى أتى صبى يحمل لفافة تتبعث منها رائحة السمك، سائلاً الأخت مارى أن تأخذه وكذلك كل يوم لمدة اسبوع إن شاء الله قائلاً : المعلم بسيونى السماك سيرسل السمك هدية منه لفرحته الغامرة بابنه المولود الجديد ليلة أمس، والتي كان لمارى فضلاً كبيراً فى جعل تلك الولادة سهلة، ولكن نوع المولود هو سر فرحه، فالرجل يجب أن يكون له ولد حتى يصبح رأسه مرفوعاً وإرثه فى أهله، ولم تستطع مارى أن ترفض هدية المعلم السماك، وأخذتها سعادة حقيقة وكانت فى سعادة ممن حولها من جيرانها .



وعاد مصطفى إلى البيت متأخراً وطرق الباب، إلا أن والدته والخالة نبوية قد غالبهما النعاس، ولكنه كان قد تعلم خدعة قديمة من الست نبوية يفتح بها الباب من الخارج، حيث اعتادت أن تمد أصابعها من خلال ثقب خشبي قى الباب لتحرك به السقطة فيفتح الباب، وعندما دخل وجدهما نائمتين، فدخل إلى حجرته ومدد على السرير واستعرض ما رأى وما حدث له اليوم، وتوقف عند خضرة وجمالها ودلالها، ومحاولتها في التودد إليه وما دار بينهما على طاولة الأكل اليوم، وقد زاد فرحاً عندما تذكر رياح تلك الغازية الجميلة وعلم بأن البلدة بها دروب للمرح، والتي قد تعوضه عن أيام مدينة العاص وسمر الأصدقاء، الغازية رياح ومكان السمر الجديد، قد ملأت رأسه ومخيلته حتى سقط نائماً .

أذان فجر جديد في البلدة، وكل يوم قامت نبوية بإيقاظ مصطفى بعد ما صلت الحاجة، وكان مصطفى في سبات عميق، وتثاقل على نفسه فاستيقظ، وطبعاً لم يصل، وعادت نبوية تطرق الباب بعد صلاتها لتعلم ما سبب تأخيره ليلة أمس، لأن الحاجة كانت مشغولة عليه، وجر مصطفى رجله إلى حجرة الحاجة فاطمة ملقياً تحية الصباح عليها، وقام بتقبيل يديها، وقد عاهد نفسه على تمثيل دور الابن المخلص وسألته: هل صليت ؟، فسكت مصطفى ثم تشجع قائلاً: طبعاً يا أمى ..، فكان عليه الخلاص ورضا الحاجة، ثم سألته عن سبب تأخيره بالأمس، فرد أنه قد قابل صديقاً قديماً له وعزمه على العشاء، وكان لا يستطيع أن يرفض،

وقد قابل بعض أصدقائه القدامى، كما أوحى إليها أنه قد يتجدد اللقاء عادة بالليل، فردت الحاجة: المهم يا مصطفى تلزم ذيل الحاج صالح وتتعلم منه كل حاجة يابنى واسأله فهو لا يفيدك إلا إذا سألته، وخذ بالك من أولاد السوء، كفاية الذى حدث من قبل يا مصطفى،... لا... لا يا حاجة ..أنا اتغيرت خالص، حتى أننى قضيت صباح الأمس حتى آخر النهار أنا والحاج صالح فى عمل، لقد أرانى الأرض والمستأجرين، وعزمنى على الغذاء عنده، فردت الحاجة : طبعاً..طبعاً .. رسم الغازية أم خضرة، وطبعاً كانت خضرة هناك ..، وقال مصطفى : نعم يا حاجة كانت المنضدة عليها ما لذ وطاب، وأسرعت الحاجة : خذ بالك يا مصطفى من الحاج صالح والعقربنتين البنات وأمهات، وحاول أن تفهم وتعرف كل شىء منه بسرعة وذكاء، و خذ حذرک من خضرة فهى تريد أن تتزوجك، فضحك مصطفى .

ثم قام مصطفى وتناول فطوره، فهو فى عجلة من أمره لأنه كان متشوقاً لينهى يومه سريعاً مع الحاج صالح ثم يقابل حسن أو رباح الغازية، إلا أن الحاج صالح كان له ترتيب آخر، فعجل بزيارة الصباح الباكر كالمعتاد وألقى عليه التحية وعلى الخادمة نبوية، ودخل يسلم على الحاجة بعد أن طرق الباب واستأذن، ثم ألقى عليها التحية وأخبرها أن ابنته خضرة والحاجة زوجته ستقومان بزيارتها اليوم، فهما فى شوق لزيارة الحاجة، فرحبت بهما الحاجة فاطمة، ثم استدار الحاج صالح إلى جهة باب الخروج من البيت، وكان مصطفى فى ركبته قافزاً إلى جواره فى العربة.

وبعد أن استقرت الشمس فى كبد السماء، اصطنع مصطفى أنه عنده ألم فى معدته حتى يتهرب من الاستمرار اليوم فى صحبة

الحاج صالح، وقام الحاج صالح بإصرار على توصيله إلى البيت، وعندما وصل إلى البيت كانت زوجة صالح وابنتها خضرة فى زيارة الحاجة أم مصطفى، كما أخبرها الحاج صالح فى صباح ذلك اليوم .

وقد تبادر إلى ذهن مصطفى عندما رأى خضرة فى ثوبها المتألق ووجهها المورّد، أنها ترمي إلى مشروع الزواج الذى أوضحت له أمه، وقد أقنع نفسه أنها جميلة وأبوها الحاج صالح يعمل كل الشغل فى الأرض، بل ظن أنه إذا تم الزواج فسيضمن أن الحاج صالح لن يسأله عن تلك الأموال التى أخذها من قبل، فالحاج صالح محل سره ومصدر ماله ومكانته عند أمه الحاجة، وطوع استمراره فى ذيل الحاج صالح.

وما أن دخل مصطفى والحاج صالح إلى البيت حتى سأل الخالة نبوية : تغلى لنا شوية نعناع علشان مصطفى عنده مغص ؟، وهنا قالت أم خضرة : يا خضرة قومى أنت اعملى شوية نعناع خللى عن خالتك نبوية، دى مشغولة فى عمايل الغذاء، ولكن مصطفى قال أنه محتاج بعضاً من النوم وعندما سيسيقظ سيصبح بخير، ودخل حجرته.

وبعد خروج الزائرين، قام مصطفى بفتح باب حجرته وطلب الغذاء، وأبلغ والدته أنه يحتاج للمشى فى البلدة ليرى أصحابه، ولكن الحاجة قالت : المهم الآن يا مصطفى أم خضرة فتحت الكلام فى أنك محتاج عروسة، وأنا خائفة من الموضوع ده، فرد مصطفى : الرأى رأيك يا حاجة، أنا خارج الآن ، وكان ألم المرض قد اشتد على الحاجة فلم تستطع الكلام، فتثاقل لسانها وهى تقول : لا تتأخر يا حبيبى.

وما إن خرج مصطفى من باب البيت حتى وجد صديقه حسن قادم إليه، كانا على موعد دون اتفاق، وقال مصطفى : أنا كنت قادم إليك، هيا بنا إلى مكان رباح، فضحك حسن وقال: أنا كنت عارف أنك سوف تحب هذا المكان، وأضاف: أنت معاك فلوس ؟ أنا أصلى مفلس، فرد مصطفى : طبعاً طبعاً الفلوس كثير، وأخذاً طريقهما إلى ذلك المكان على أطراف البلدة، وأخذ حسن يملأ أذان مصطفى بجمال رباح ورقصها طوال الطريق.

وكان المغرب قد دخل عندما وصلا إلى ركن الهوى، وكانت رباح جالسة ولا يوجد أحد من الزبائن، فمعظمهم يأتى بالليل وينام بالنهار، والقىا التحية عليها، فقامت وقبلت كل منهما قبلة خفيفة وأطالت القبلة لمصطفى الذى أصابه الذهول، فرباح لها شفتان كالفرولة وتستخدمهما فى نعومة وحرفية، ثم جرت الكرسي لتجلس إلى جانب مصطفى على الطاولة، قائلة : نورتنى يا مصطفى، أمس كنت على عجلة من أمرك، الليلة قاعد معانا ولا ايه ؟، وقامت رباح حيث تضع المشروبات والمعدل، فأحضرت زجاجة من الخمر الرخيص الذى يبيعه ذلك اليهودى المقيم بطرف البلدة الآخر، ورصت الأرجيلة أمام مصطفى وحسن وملئت الأكواب، ثم ترك حسن الطاولة ليجلس إلى صديق قد رآه داخل العشة، حتى يخلو الجو ويتجاذب مصطفى ورباح أطراف الحديث، ويدفع مصطفى العزومة على الرحب والسعة.

وقد وجدت رباح فى مصطفى سذاجة رغم أنه كان يعيش بمدينة العاص، وقد ألمحت أن يأخذ باله من نفسه ومن حسن، وكان مصطفى قد بدأ يسكر فلم يهتم بالكلام، فرباح لا تحب حسن ولا

طريقته، وتعلم أن مصطفى وجيبه سيكونا طوع حسن حتى يفرغ منهما فهذه عادة حسن، أما رباح فرغم كل ما تعمل إلا أن لا أحد يلمسها وأنها مازالت تحمل بعض طيبة القلب.

وقد أدركت رباح أن مصطفى قد بدأ فى السكر، فقامت إلى حسن حتى يأخذه إلى البيت، فقد علمت مكانته فى أهل البلد، ولا تريد أن يظهر فى صورة غير لائقة بينهم، وفعلاً تحرك مصطفى وحسن بعد أن دفع الحساب، وعندما وصل قرب البيت سمع أصوات بكاء ونحيب وجمع من الناس أمام باب الدار، وكان الحاج صالح واقف فى وسط الدار مع نبوية، وقال حسن : يبدو أن أحد قد مات فى داركم، فانتبه مصطفى لنفسه وعالوده وعيه وقال : ماذا تقول ؟ ميت ؟ .. ميت بدارنا؟ ..، ثم جرى مسرعاً وسط تعازى الرجال والنساء حتى دخل الدار فقابلته الحاج صالح وقال له : البقاء لله .. الحاجة تعيش أنت ..، وكانت نبوية تبكى بكاء حاراً قائلة : لقد كانت تسأل عنك، و تريد أن تراك يا مصطفى، وجرى مصطفى إلى حجرة الحاجة الراقدة على الفراش وحولها نساء البلدة وأخذ فى البكاء.

إلا أن الحاج صالح أدرك من رائحة الخمر أن مصطفى ثمل، فحاول أخذه من الغرفة حتى لا يبدو عليه الأمر إلى جانب المطبخ وهو يبكى، وقال له : اسمع يا مصطفى اشرب بعض الماء واغسل وجهك سريعاً حتى تساعد نفسك أن تقف موقفاً مشرفاً فى جنازة والدتك، البقاء لله ..، وفهم مصطفى ما يعنيه الحاج صالح فاستسلم للأمر وشرب بعض الماء وغسل وجهه، و خرج متماسكاً مع الحاج صالح وسط الرجال حتى يأخذ العزاء ويكون فى عون الرعاء لإعداد جنازة تليق بالحاجة فاطمة إلى مثاها الأخير.

وقد قضت البلدة كلها ليلتها فى حزن ومساندة مصطفى حتى صباح اليوم التالى، وكان كل شىء قد جهز، ولفت الحاجة فى كفنها الأبيض، ووضعت فى النعش الخشبى الراقد أمام حجرة نومها، ثم رفع النعش على أكتاف رجال البلدة، وساروا فى اتجاه المقبرة، المقبرة التى اعتادت نفرتال العيش فيها، وقد شارك مصطفى فى حمل النعش ودارت الأفكار فى رأسه الممتزجة بالحزن، هل هذا ما كان يريد ؟ وأتاحت السماء الطريق له حتى يتسلم ماله ويفعل ما يفعل ؟ أم هى مصيبة قادمة إلى حياته.

وجلس مصطفى يبكى فى ردهة المنزل وأمامه الخالة نبوية قائلة : لقد أصبحت وحيداً يا مصطفى، هذا اليوم كانت تخافه المرحومة أمك، أن تكون وحيداً وسط ذلك العالم الذى لا يرحم، كانت صابرة عليك، تدعو لك وتحاول بقدر ما أوتيت من قوة وبالرغم من مرضها أن توضح لك الحقيقة وتعلمك، ولكن من اليوم عليك أن تأخذ بالك من نفسك يا مصطفى، الله يرحمك يا حاجة ...ثم انهمرت دموعها هى الأخرى.

قال مصطفى: الموت خطف أمى وتركتنى وحيداً .. لا أعلم كيف سأعيش دونها، فهى كانت كل شىء لى، ورغم مرضها فكان وجودها سند وقوة لى، والآن ماذا سأفعل ؟ ومن يسأل عنى ؟...، فردت نبوية : اسمع ..أنت ابنى وزى (علي) ابنى، علي الذى ذهب إلى الجهاد منذ سنين تاركنى وراءه ولم يعاودنى، ولكنى أجد فيك ابنى الذى تمنيت، فأنت قد كبرت وأصبحت رجلاً تحت بصرى، وماتت والدتك، ولم تكن سيدة أعمل لديها فحسب ولكنها كانت أختاً ذات فضل كبير على ..، الآن يا مصطفى اعمل جاهداً على أن تتعلم من الحاج صالح كيف تدير أرضك، وحاول تنفذ

وصيتك، ولكن أحذرك يا مصطفى أن تثق به، فصالح ليس محل ثقة، فكن حذراً، فرد مصطفى : أنا لا أرى فى الحاج صالح أى سوء أو شر قد يضمه لى، ولا أعلم لماذا أنت والمرحومة دائماً تخافونه وتحذرانى منه، فهو دائماً ناصحاً لى ويساعدنى ولا يدخر وقتاً ولا غيره إلا كان لى خير دليل، فقالن نبوية : ولو، لا تصدق ما ترى أو تسمع منه، فدائماً عنده مصلحته الشخصية أهم عنده وفوق كل شىء، نحن أعلم منك يا مصطفى ببواطن الأمور.

و قد خيم الحزن على بيت مصطفى بعد فقد والدته، فقد كان يعلم حجم الآلام التي سببها لها من جراء سلوكه، ولكنه كان يريد أن يفعل ما يريد دون تفكير ولا مراجعة، والآن أحس بالوحدة الحقيقية، إلا أنه قد أصبح من الآن فصاعداً حراً في تفكيره وحر التصرف في أمواله، يفعل ما يريد وقتما يشاء دون رادع أو حساب أو لوم من أحد، وكانت نبوية الخادمة دائماً ما تتصحبه وتذكره بما كانت أمه تتمناه له، فنبوية سيده مخلصه ولكن للأسف لا حول لها ولا قوة .

وأصبح مصطفى فريسة لمن حوله، خاصة الحاج صالح من جهة وصديقه المفلس حسن من الجهة الأخرى. وأخذ حسن يتردد على مصطفى في أيام الحزن محاولاً إخراجهم من ذلك الجو الكئيب، وكان لا يحظى عند نبوية الخادمة بأى قبول، فسمعتة في البلد ليست على ما يرام، ورغم أنها كلمت مصطفى في أن يبتعد عن حسن هذا، إلا أنه لم يستجب لها بحجة أنه الصديق الوحيد له في البلدة وأنه يقف بجانبه في حزنه وأزمته.

وبدأ مصطفى وحسن يترددان على رباح تدريجياً حتى أصبح ليلهما دائماً عندها هناك، ورغم أن رباح غازية إلا أنها كانت لديها قدراً من الكرامة وتقدير الأشخاص ليس بالقليل، فاقتربت من مصطفى أكثر وأكثر مما أوغل صدر حسن، وكانت رباح لا تحب حسن بالرغم من أنه هو سبب معرفتها بمصطفى، وقد



حذرت مصطفى عدة مرات من أن حسن هذا شخص غير موثوق فيه وأنه يستغله دائماً، إلا أن مصطفى كان لا يبالي بكلام أحد ولا بالنصائح.

وبدأ مصطفى تدريجياً يعشق ليالى رباح ورقصها وشرب الخمر والحشيش، وأصبحت حياته لا تخرج عن كونه نائماً بالنهار وليلاً عند رباح . وقد حاول حسن أن يتفق مع رباح على مؤامرة ليستولوا على بعض أموال مصطفى، فوشت به إلى مصطفى، وأقامت الدليل على تلك الخيانة للصدقة المزعومة، ومنذ ذلك اليوم طرد مصطفى حسن من حياته وصداقته نهائياً وازداد ارتباطه برباح، وقد حاولت رباح أن تجعل مصطفى يعود إلى صوابه مرات عديدة ليراعى أرضه وماله، وحاولت أن تفهمه أنه يجوز الجمع بين المزاج وإدارته لأمواله، فكثير من الأغنياء يفعلون ذلك .

لقد أحبته وأخلصت النصيحة له، فرباح امرأة جميلة قد غلبت على أمرها فيما اتخذت من عمل، ولكن لم يمسه أحد من هؤلاء الرجال.

وقد أثر كلام رباح فى مصطفى، فأخذ يرجع إلى فكرته القديمة وهى أن يكون صاحب تجارة فى مدينة العاص و يهجر البلدة و يبيع أرضه ويعيش هناك، لأنه يحب حياة المدينة ولا يطيق أن يعيش بالبلدة وخاصة أن أمه قد رحلت هى الأخرى .

وكان الحاج صالح دائم التردد على مصطفى حتى يكون تحت عينيه، وفى ذات الوقت كان يخطط لزواج خضرة من مصطفى، وقد حانت له الفرصة لأنه كان يعلم أن المرحومة الحاجة كانت لا

تريد ذلك الزواج، و لكنه فى ذات الوقت كان لا يلح على مصطفى أن يذهب معه لىباشر الأرض، ويعطيه حقه فى الحزن، مع علمه الكامل بما يفعل مصطفى ولهوه، فكل ذلك لا يهمله بقدر همه أن يدخل مصطفى قفص الزواج فيتمكن أكثر من وضع وإحكام قبضته على أموال مصطفى.

وفى صباح اليوم طرق الحاج صالح باب مصطفى ودخل ليشرب معه الشاى كالعادة، وأحس الحاج صالح أن مصطفى يريد أن يقول شيئاً ما، فبادر هو قائلاً : اسمع يا مصطفى يابنى، حالك لا يعجب عدو ولا حبيب، فردت الخادمة نبوية قائلة : أيوة يا عم الحاج قل له لابد يرجع يباشر أرضه وزراعته كما أوصت الحاجة بدل السهر كل ليلة برة، فرد الحاج : اسمع يا مصطفى أنا شايف أنك تتزوج و تبدأ تعمل عائلة وتأخذ بالك من نفسك، يابنى البلدة صغيرة والكل بدأ يتكلم عليك وعلى اصحاب السوء اللى معك، فرد مصطفى : أنا حر أعمل ما أريد، فرد الحاج صالح : هذا الكلام لا يسمن ولا يغنى من جوع، توكل على الله واتجوز وأنا عندى لك عروسة مضمونة .. بنتى خضرة ...، وهنا وضعت نبوية يديها على قلبها لأنها تعلم أن هذه الزيجة ما هى إلا خراب جديد على مصطفى، ولكنها لا تستطيع أن تتكلم فى أى شىء، فسكت مصطفى ثم قال : أنا يا حاج عاوز أبيع الأرض وأعمل تجارة فى مصر، أنا بحب التجارة ولا أريد أن أعيش هنا، فرد الحاج يابنى بعد الزواج رأيك سيتغير، وكمان لا يوجد مانع بعد كام سنة كدة تعمل تجارة وتكون على الأقل فهمت نوع التجارة التى تريدها، وأنا معك فأنت زى ابنى وأكثر.

ثم أردف قائلاً : أنت فطرت الحمد لله، بالله عليك تعالى معى نتكلم ونلف بالعربة نمر على الأرض وبعدين تتعدى عندنا، وقام مصطفى يجر رجله لعله يجد بارقة أمل عند الحاج صالح، وقد أدركت نبوية أن الريح تأتي بسوء، فأخذت تبكى، فهي لا تملك أى قوة تمنع تلك المصيبة الجديدة.

وذهب مصطفى مع الحاج صالح، وأمضى معه الوقت حتى ذهباً إلى الغذاء فى بيته، وكانت خضرة قد تزينت وأعدتها والدتها لاستقبال مصطفى، وما إن دخل الحاج أسرع إلى الداخل تاركاً مصطفى مع خضرة التى بدورها بادرت قائلة : نفسي أروح مصر وأعيش هناك زى ما أنت بتفكر، أنا سمعت الكلام ده من أبويا الحاج..، فرد مصطفى: ياريت يا خضرة، ده أنت هناك تعيش عيشة حلوة وتشوفى حاجات جديدة والبيوت الكبيرة النظيفة، وهنا دخل الحاج صالح قائلاً: بتكلموا فى ايه يا ولاد ؟، فردت خضرة : بتكلم عن مصر والعيشة هناك، فقال : أنت كمان زى مصطفى ؟ ما جمع إلا ما وفق، وهنا ضحكت خضرة وجرت إلى الداخل، فقال الحاج لمصطفى : البنات مكسوفة يا مصطفى، يابنى اتكل على الله واسمع كلامى، أنا بنتى عاوزها كل شباب البلد بس أنت ابنى كمان وأحب لك الخير، وبعدين موضوع التجارة ده مضمون، أنا أعمل لك تجارة فى الفواكه والخضراوات والحبوب، وتقدر تذهب لمدينة العاص تتاجر زى ما أنت عاوز، وبعد أن تشرب التجارة يمكنك أن تذهب وتقيم فى مدينة العاص ويكون لك متجر كبيراً فى المستقبل .

ويبدو أن هذا الكلام قد أثلج قلب مصطفى، وبدأت تظهر الفرحة

فى وجهه وابتسم لأول مرة من بعد وفاة أمه، وقد خرجت زوجته  
خلف الخادمة التى تحمل صينية الأكل وقالت له : مبروك يا  
مصطفى الحاج قال لى على خطبتك لخضرة، خضرة عزيزة  
علينا لكن أنت ابن اصول حافظ عليها يا مصطفى، وفى ثوان  
معدودة تمت الخطبة حتى أن مصطفى لم يستطع أن يتكلم بعدما  
عاجله الحاج قائلاً : وإن شاء الله يا حاجة أنا سوف أقوم بعمل  
تجارة مع مصطفى ونشتري حبوب وفواكه ونصدرها لمصر  
المحروسة، ما شاء الله... ما شاء الله يا مصطفى ستصبح لك  
تجارة فى مدينة العاص .

وجلس الجميع حول مائدة الأكل ودخلت خضرة على استحياء  
فقالت الحاجة : ادخلى يا عروسة، وأنت زوجة الحاج صالح  
بزغرودة كعادة المصريين فى أفراحهم، وأحس مصطفى أنه قد  
تزوج فعلاً، إلا أن فكرة التجارة التى طرحها الحاج صالح كانت  
هى المصيدة المحكمة التى وقع فيها مصطفى .

وقد تناقلت البلدة خبر خطبة مصطفى لخضرة وفى لمح البصر،  
حتى وصلت إلى الست نبوية قبل أن يصل مصطفى إلى بيته، و  
كان مصطفى أخذته رجله إلى رباح قبل أن يذهب إلى البيت،  
وعندما وصل هناك قامت رباح باستقباله، وما إن جلس حتى  
أخبرها بما حدث فرباح هى الصديقة الوحيدة التى تسمع له  
وتتصحه، وأدركت رباح أن مصطفى قد وضع رأسه بين فكى  
الأسد، فالحاج صالح معروف فى البلد وسمعته سابقة له .

ورغم ما أبدته رباح لمصطفى من حب وود، إلا أنها تعلم تماماً  
أنه لا يمكن أن ينجح ذلك الحب، ومحكوم عليه بالفشل، ولكن  
رباح كانت لا حول لها ولا قوة، فالحب بلاء وليس اختيار، وعلى

المحب أن يفعل كل ما فى وسعه حتى يكون الحبيب دائماً فى أمان.

وأما رباح الصديقة فقد نصحت مصطفى أن يدير حاله على ماله فهى لا تملك أكثر من واجب النصيحة، وقد انتعشت فكرة الزواج والتجارة فى دماغ مصطفى بعد أن دخن الحشيش وشرب الخمر وأقنع نفسه أن ذلك ما كانت الحاجة والدته تريده وأن روحها الآن فى راحة وأمان، غالقاً بصره عن حقيقة الأمر كما اعتاد.

وما إن عاد مصطفى إلى بيته على حالته تلك، عقدت نبوية العزم على ترك البيت والذهاب إلى بيتها المتواضع لتعيش فيه، لأنها قد حذرت مصطفى من ذلك الزواج ولم يسمع لها، وقد ربطت رابطة وضعت فيها بها جميع ذهب ومصوغات المرحومة التى تركتها ورائها حتى تعطيها لمصطفى قبل رحيلها، ولما دخل مصطفى البيت كانت بالردهة فقالت له : أنت خطبت بنت الحاج صالح ونويت أن تتزوجها ؟، فرد : نعم وأنت مالك ؟...، فردت : ربنا يسهل لك أمرك ولكن لازم تعرف أن ما فعلته اليوم هو نهايتك، ثم مدت يدها بالرابطة، فسألها : ما بها ؟، فردت : إنه ذهب المرحومة وجميع الأوراق والحجج التى كانت فى دولاب المرحومة، خد المفتاح، أنا سلمت الأمانة ونصحت وربنا شاهد على، أنا راجعة بيتى وربنا يستر عليك ...، ولم يعبأ مصطفى بهذا الكلام وأخذ المفتاح ورابطة الذهب ودخل حجرته لينام، وخرجت نبوية وهى تبكى، فمصطفى لم يكلف خاطره حتى أن يمنعها أن تخرج اليوم من ذلك البيت، فقد خرجت ورحلت عنه المرحومة فاطمة، وجاء الدور عليها لتخرج هى الأخرى.

مارى يبدو عليها القلق والفكر، فمئذ كانت فى السوق مع الست زينب جارتها، وسؤالها هل نفرتال فى طريقها للزواج أم لا، ليس موضوع زواج نفرتال، ولكن قد أثارت فى عقل مارى موضوع أكثر ثقلاً ويتطلب إجابة، وخاصة عندما قالت الست زينب لو كانت نفرتال مسلمة لتقدم لها ابنى الآخر فى الحال للزواج.

فما هو حال نفرتال ؟ وما حقيقة ديانتها؟، نعم ..نفرتال قد ولدت لأم أسلمت وأب مسلم، ولكنها فى نفس الوقت خطفت صغيرة جداً ولم تمارس هذه الديانة أو الإسلام طوال حياتها السابقة فى المغارة، ولكنها اكتسبت بعض المعرفة عن يسوع الرب والمسيحية من ذلك الراحل الصالح حنا.

نعم ..لا بد للإنسان فى هذه الحياة أن يكون صاحب دين ...هذا شىء مهم فى هذا المجتمع، ليس فحسب فالهوية الدينية تحدد مسار حياتك، وقد تتحكم فى مقدار ما تتاله من احترام أو مال، لكن فى نهاية المطاف فإن الحكم للخالق أن يقبلك أو يرفضك بغض النظر عن دينك .

وقد حاولت مارى مراراً أن تلمح فى كلمات نفرتال شيئاً عن الدين فلم تجد، إلا ما أنعكس عليها من مخالطتها القديمة للصالح حنا أو من سماعها لمارى ذات نفسها فى صلواتها ورهبنتها، و كذلك ما رأت فى الدير من الواقع المسيحى الجميل .

ولم يقف سؤال مارى عند نفرتال ولكن تعدى السؤال مداه إلى

أبعد من ذلك...تعداه إلى مارى نفسها ..

فحقيقة الأمر أن مارى تدور منذ زمن بعيد فى فلك هل الدين اكتساب أم مولد ؟

بينما ولدت مسلمة فهى لم تمارس أى شعائر أو دين فى حياتها السابقة، لأن أمها نفرتال كانت فى كفاح مستمر من أجل لقمة العيش، وأن ما وجدته من أهل البلدة المصريين كل على دينه، الذين لم يتحركوا لحماية أمها وحرقت بيتها، وتركها بالطريق تنزف، ونعت أمها بأنها كافرة وملعونة، قد أورث قلبها معنى مختلف للدين وقلب أختها الراحلة ...

لكن الذى حدد دينها هو وجود الأب وليم فى طريقها بالمصادفة، حيث كانت الجريمة البشعة، وأن موقفه منها وأختها هو الذى حركها إلى الديانة المسيحية، التى اكتشفت جوهرها ومارستها بتواجدها فى الدير، مما جعلها تتخبط فى سلك الرهبنة خلال تواجدها فى الدير.

ولكن حقيقة أن عقلها كان يتأرجح، كيف تكون مسيحية مع أنها ولدت مسلمة اسماً ؟، وهى لم تصبح مسيحية إلا بعد أن غيرت مسارها إلى الكنيسة فتعلمت حلاوة المسيحية وعمدت وأصبحت راهبة .

إلا أن عقلها يعود ليحاورها مرة أخرى، نعم هى مسيحية، لأن المسيحية هى ديانة الرب وطريق المسيح ولا يدخل ملكوت الرب إلا من اتبعه، بل إن نفرتال محظوظة أن قابلت خالتها وهى على المسيحية، فإن الرب يريد لها الدين الحق وأن تكون من رعاياه، ذلك ما حاولت مارى به أن تقود به نفسها لهذه الإجابة، فقدمت

الأسانيد والأدلة والبراهين على صحة كلامها، إلا أن نفرتال كانت لا تبالي بتلك المسألة كثيراً، فهي تريد أن تعرف لون جلدها الجديد، فما كان الدين يمثل نجاحاً أو فشلاً في حياتها السابقة، و لكن الدين اليوم هو الشكل الذى تظهر به و هو بالنسبة لها المنظار الجديد الذى يحدد حياتها ورؤيتها وكذلك شريك حياتها إن أرادت الزواج، و هنا حاولت ماري أن توقف ذلك النزيف وتأخذ بظاهر الأمر.

كانت ماري متعبة من كثرة الأفكار، ولكنها قد حسمت إجابة سؤال طرح وكان يطرح نفسه بالنسبة إلى نفرتال، وكان عليها غدا أن تشتري الدقيق والسكر والسمن والعسل لعمل بعض الحلويات لعرضها للبيع فى السوق، فى إحدى محلات الحلوى المملوكة لجارها، بعد أن عرضت عليها الفكرة الست زينب ولاقت القبول من صاحب المحل، فذلك أهم لها الآن أكثر مما يدور فى عقلها، فهي فى حاجة إلى المال.

وعندما انتهت من صنع الحلوى، كان نهار اليوم قد انتصف، ثم أخذت طريقها مع نفرتال مرة أخرى إلى السوق بالحلوى، وهنا قالت نفرتال: يا خالتي ماري.. لماذا لا توافقى على أن نذهب إلى المغارة بساحة المقبرة ونستخرج النقود والذهب ؟ وقد عرضت نفرتال عليها مراراً هذا، إلا أنها قوبلت بالرفض، فرفضت ماري هذا الموضوع مرة أخرى، وقالت لنفرتال : لا... إنه مال مسروق ومن ناحية أخرى فإن مجاهد قد يكون وراء هذه الأموال، بل سيعود حتماً ويعود مرة أخرى ومرات ومرات حتى يجد ما يبحث عنه، وهذا خطر عليك، و كما قلت لكى أن هذه الأموال حرام لأنها جمعت بالسرقة والقتل والدماء، وهى لعنة على كل من



يحوزها، ألم ترى بنفسك هذه المذبحة عل النقود و بسببها ؟  
فسكتت نفرتال قائلة : أعدك يا خالتي لن أفتح ذلك الموضوع مرة  
أخرى، ولكن ...

وقد استطاعت نفرتال ومارى أن تحققا نجاحاً فى الأيام السابقة،  
فمعظم الجيران يحبونهما ويساعدوهما، كما أن نفرتال تعلمت أن  
تزرع الخضراوات والأعشاب، إلى جانب حظيرة الدواجن التى  
تنتج البيض الآن، كما أن مارى ما زالت تحافظ على ذهابها إلى  
الدير كل أحد للصلاة ومقابلة الأخوات .

وكان دكان الحلوانى لا يبعد كثيراً عن محل أقمشة شأوول، مما  
أتاح فرصة لنفرتال أن تراه و تدخل المحل بحجة أن ترى الأقمشة  
الجديدة، حيث أن مارى كانت هى الأخرى مشغولة بتدبير أمور  
الحياة، وقد ذاع صيتها فى الحى كمولدة وممرضة ومعالجة  
بالأعشاب وأسرار العطاره، بما أوجد لها باباً من أبواب الرزق  
والرحمة.

وقد تجرأ شأوول يوماً فسأل نفرتال أن يراها خلف المحل بعيداً  
عن الأنظار، ووافقت نفرتال فى فرح وحب، وقد تمت عدة  
لقاءات بينهما تم خلالها الإعلان عن حب جديد، وقد أحس والده  
بشئ غير طبيعى فى سلوك شأوول، فبدأ فى مراقبة أفعاله، إلا  
أن نفرتال بالرغم من أن سهام الحب قد اقتحمت قلبها إلا أنها ما  
زالت تتذكر قول مريم بأن شأوول يهودى ولا يتزوج إلا يهودية  
مثله، وذلك ما جعل الفتيات تعزف عنه رغم وسامته وثرائه.

وقد استحدثت مارى شيئاً جديداً فى حياتها، فهى كانت تحب أن  
تذهب لتمشى على أطراف البحيرة فى الصباح بعد صلاتها، ليس

لاستنشاق الهواء ورؤية البحيرة فحسب ولكنها قد أحبت أن ترى ذلك الصياد مفتول العضلات، أنه (عبد المسيح)، رجل فى الثلاثينات من عمره، له كوخ صغير على طرف البحيرة، ويعمل صياداً، وهو لا يملك قارباً، فهو فقير معدم إلا أنه يرمى شبابه دائماً من على أرض شاطئ البحيرة، وكان يترك طفليه الصغيرين يلعبان على رمال شاطئ البحيرة وهو يقوم بعمله ..الصيد ..

وقد أثار منظر ذلك الصياد الذى يعمل فى جديّة صباح كل يوم رغم البرد اهتمام مارى، وكيف كان يترك طفليه يلعبان بجواره على رمال الشاطئ، وبدأت مارى تشعر بأنها تريد أن تراه كل صباح وكأنما شىء جديد أدخل البهجة إلى قلبها، وقد أحست نفرتال بأن شيئاً جديداً قد طرأ على مارى كامرأة، إلا أن مارى لم تشعر بشىء إلا أنها تحب أن تراه كل صباح، ولا تجد تفسيراً لذلك الشعور، فمارى امرأة شابة عادت إلى الحياة مرة أخرى وخاصة أن حياتها السابقة كانت مأساة إنسانية.

ومرت الشهور، وتعاهدت نفرتال مع شاول على الحب والزواج، مما شجع شاول إلى أن يبوح إلى والده بمطلبه، وكان والده محنك قد سمع كل شىء من ابنه فى هدوء وصمت، ثم أخذه من يده إلى الردهة حيث كانا يتحدثان فى البيت، وفتح باب حجرة نوم أخيه الأكبر الذى كان مرضه قد اشتد، ثم قال له : أنظر يا شاول هذا أخوك هارون قد شارف على الموت وله ابنين وبنتين وزوجة، وأنه هو الأخ الأكبر لك وأنا ليس لى إلا أنتما الاثنين، وقد اجمع الأطباء على شدة المرض وصعوبته، وفشل الدجالون والمشعوذون فى انقاذ حياته، أنا اعلم أن الحب سلطان والشباب

هو الحب ولكننا لا نملك أقدارنا، فأنت تعلم أنه لا مفر من أنه بعد موت أخيك المحقق، فإن زوجته ستؤول إليك كزوجتك وأطفاله ينتمون إليك، هذه هي شريعتنا، وقد علمت منك أن تلك البنت التي تحبها مسيحية، و اليهودى لا يتزوج إلا يهودية، ولكن يمكنه أن يتمتع نفسه بأى امرأة غير يهودية، فعليك أن تطفىء شهوتك كما ترى، ولكن طريق واحد لا تقربه ..هو الزواج من هذه الفتاة، وإلا خسرت دينك وحياتك ومالك، والإنسان دون مال لا قيمة له فى الدنيا ولا سعر له بين الآخرين، ولن أزيد فى القول مرة أخرى وعليك اتخاذ القرار.

وكان كلام أبو شاؤول حازماً وقاطعاً، ورغم قوة حب شاؤول وإعجابه بنفرتال إلا أنه فى موقف لا يحسد عليه، فدائماً الدين ...الدين ..السلاح الذى يتسلح به الجميع لاغتيال أحلام وآمال الآخرين، الدين ..الشريعة ..هما القفص الذى يدخله الكل برجليه ويستقر داخله، بالرغم من أن باب هذا القفص مفتوح على مصراعيه إلا أن السجين لا يريد أن يخرج من ذلك السجن لاعتقاده بأن هذا السجن ارحم من السجن الخارجى، أو سجن الآخرة الذى أعده له صاحب الشريعة أى الإله، وهذا الإله هو واحد رغم اختلاف مسميات ما تعتنق جماعة إلى جماعة ومن زمن إلى زمن ...فهل هو إله بتار ينتظر أخطاء عباده ومخلوقاته حتى يرسل من يصب عليه ألوان العذاب من كل جهة ومن كل لون ؟

فسجن الشريعة واحد باختلاف الديانات ولقد تحطمت قلوب وضاعت أحلام، وعاش أصحابها كمربوطين بحبال وآخرين يجرونهم إلى مصائرهم التى غلبوا عليها، وقد زاد هؤلاء واحداً

الآن ..شأؤول ..الذى عليه الآن أن يواجه نفرتال بما سمع من والده، أم عليه الانتظار ؟ فقد يموت والده قبل موت أخيه، ولكنها فكرة بعيدة الحدوث، ودخل شأؤول حجرته وأخذ يبكى بشدة لا يعلم ماذا يفعل، إلا أنه قرر أن ينسحب تدريجياً من حياة نفرتال، وكأنما إجابة السؤال التى يوم أن سألته له يوماً فى لحظة حب كان من قبل واضح المعالم: أنت يهودى وأنا مسيحية، وكان جوابه فى تلك اللحظة نحن نفرتال وشأؤول فقط، امرأة أحببت رجلاً أحبها وذابا معاً فى هذا الحب، فما يمنع ذلك وما دخل شريعة أو دين فى تفريق قلوب العباد؟..

و رغم أن مارى على اتصال بالكيان المسيحى فى البلدة، وتذهب كل أحد إلى الدير، إلا أنه يبدو أن الأب وليم ليس فحسب ولكن معظم الأخوة المسيحيين يعتبرون أن مارى صاحبة خطيئة كبيرة، وهى خروجها من الدير، وقد شاعت قصتها وقصة نفرتال بين الأهالى وخاصة ما حصل فى الدير من قبل، مما أساء إلى سمعة نفرتال الجميلة الناضجة، وأصبح معظم الأهالى المسيحيون يعزفون عن التقدم لخطبتها لاعتقادهم أن بها مس من الجن وأنها كانت نقمة على مارى، والتى فقدت جزءاً كبيراً من شعبيتها فى المجتمع المسيحى، إلا أنها كانت محبوبة وكذلك نفرتال من جيرانها وجميع من حولها فى سكنهما الجديد.

وقد وقعت حادثة بأحد ضواحي البلدة قد أثرت على مارى ونفرتال وعلى علاقاتهم بمن حولهم إلا قليلاً وخاصة الشيخ (الشبراوى) شيخ الجامع وأسرتة، ذلك أنه قد قام حمار مملوك لشاب مسيحي بالأكل من عربة كرنب مملوكة لشاب مسلم ، فوقعت مشاجرة بين صاحب الحمار وصاحب العربة، وطعن

أحدهما الآخر بمديّة، وعندما ذاعت القصة وعرفت الحكاية، قامت عائلة المسلم المصاب ومسلمى البلدة بالهجوم على أهالى الشاب المسيحى وهم أقل عدداً وقوة، مطالبين برأسه ورأس جميع المسيحيين.

ووقع العديد من القتلى فى هذه الحادثة، مما أثار حفيظة المسلمين وسخطهم على المسيحيين، و زاد سخط المسيحيين على المسلمين العرب الغزاة، و كانت هذه القصة مادة الجوامع الأولى ومادة الكنائس والأديرة المفضلة، وكان الشيخ (الشبراوى) زعيم لهذه الفتنة وخاصة من موقعه فى الجامع، فقد تطاول وذهب بعيداً، بل دعا إلى طرد المسيحيين كلهم من مصر فهذه هى أرض المسلمين، ولا مكان لهم فيها، وعليهم أن يهاجروا إلى البلاد المسيحية !! وكان دور الأب وليم لا يقل عن دور ذلك الشيخ، فإن مصر أرض مسيحية و يجب القضاء على والتخلص من هؤلاء العرب الأجلاف الغزاة.

وتدريجياً قام الشيخ (الشبراوى) بمنع زوجته زينب وابنته مريم من الاختلاط بمارى ونفرتال، فالمسيحيين لا أمان لهم، و قد نهج نهجه الكثير من رواد الجامع، ورغم شدة هذه الزوبعة فقد هدأت خاصة بعد أن قام الوالى بتكليف قاضى القضاة بالمصالحة بين أبناء الوطن، وعليه كانت جلسة الصلح والقضاء بحكم ماض هو إعدام الحمار المعتدى الفاجر لصالح الشعب المسالم الجميل.

وفى ذات صباح، قامت نفرتال من النوم مفزوعة، فقد رأت مناماً مخيفاً، وكانت مارى قد عادت من البحيرة كما اعتادت يومياً، وكانت نفرتال خلال تلك الأيام مضطربة و بدأت تميل إلى الوحدة مرة أخرى، وخاصة أن شاؤول قد أرسله والده إلى الإسكندرية

حيث يمكث مع أقاربه، لينسى موضوع الحب والزواج بنفرتال، مما أثر على نفرتال هي الأخرى وصبغها بالوحدة والحزن، وما إن دخلت ماري من باب البيت حتى جرت نفرتال إليها لترتمي في حضنها، فاحتضنتها نفرتال وسألتها ماذا بها، فردت أنها رأت مناماً مزعجاً وبدأت تقصه عليها، فقد رأت أن أمها قد تركت قبرها وذهبت إلى ذلك المعبد الفرعوني لتفتح المقبرة على كاهن المعبد وأخرجته، وكان ورائهم تراب في خطاهم، وكانوا في طريقهم إلى البلدة ولكن جاءت مجموعة من الرجال الملتهمين وكان معهم مجاهد يحملون سيوفهم وخناجرهم لقتلهم من الخلف، ثم استيقظت من النوم خائفة، فهدأت من روعها ماري، أضغاث أحلام، فردت نفرتال: ممكن نزور قبر أمي وأرى تراب؟، فوعدها ماري بترتيب ذلك مع جرجس سائق عربة الدير الأسبوع القادم .

وخرجت نفرتال، وما إن وقع غطاء الرأس الذي تضعه ماري على رأسها، كاشفاً عن شعرها الأسود الطويل الذي أطلقته دون ربط كما اعتادت قد أثار إعجاب نفرتال فصاحت : أول مرة أرى شعرك على طبيعته دون غطاء !..أنت جميلة يا خالتي، وكان وجه ماري يفصح عن حب جديد قادم في حياتها وينعكس على تصرفاتها .

قد مضت الأيام، ويبدو أن ماري ونفرتال قد حققتا بعض الاستقرار المالى، ورغم الحب المتواجد بينهما وبين جيرانهما، إلا أنه قد ضربت عليهما نوعاً من العزلة بعد انقطاع مريم وأمها عن زيارتهما، وكذلك عزوف أفراد المجتمع المسيحى عن زيارتهما أو اشراكهما فى مناسباتهم، وأما نفرتال أصبحت حائرة من أمر غياب شاول عن المحل، ويبدو أن ماري أكثر حيرة لأن سن نفرتال تعدى سن الزواج المعتاد ولم يتقدم أحد إليها خاصة لما عرف عن ماضيها وما حدث منها فى الدير من أحداث، فقد أسهم كل ذلك بالتأثير سلباً على حياتها رغم جمالها .

إلا أن ما زالت ماري تمارس هوايتها المفضلة، وهى المشى على البحيرة ومشاهدة عبد المسيح الذى عرفت اسمه بالمصادفة عندما كان فى السوق نادى عليه شخص طلباً لشراء السمك الذى اصطاده، واليوم قد اقتربت من الطفلين الذين كانا نائمين على الشاطئ وعليهما غطاء ثقيلاً نظراً لبرودة الجو، وفجأة استيقظ أحد الطفلين وأخذ يبكى، مما جعلها تحمله وتمسح دموعه، وهنا رجع عبد المسيح من الماء تاركاً وراءه شبكته، وتراجعت ماري قائلة له : الظاهر أنه استيقظ وكان خائفاً، فرد : أنها بنت واسمها جانيت وهذا أخيها صليب، فردت قائلة : لما لا تتركوهم فى البيت بدلاً من نومهما على الشاطئ، فرد الحكاية طويلة يا أخت،

فهمت مارى أن ترد ولكنه سارع وأكمل : أنا عبد المسيح صياد ابن صياد، و قد حمل جانيت قائلا : الحكاية أن أمهم هربت وتركت البيت منذ أكثر من عامين، ولم تعد حتى الآن وأنا عايش لوحدى، ولازم اصطاد الصبح كل يوم علشان نعيش، وطبعاً ما أقدرش أتركهم لحالهم وهم صغيرين هناك، و الحل الوحيد أنى أحضرهم هنا، ثم استرسل قائلا: أنا جارك من الناحية الخلفية من البيت، كوخ صغير هناك فى طرف البحيرة وأعرف اسمك كما أعرف نفرتال، أنتم معروفين هنا فى كل البلدة وكل الناس بتحبكم، فضحكت وعرضت عليه أن يحضر الطفلين فى الصباح لها، فشكرها وقال : قصدك قبل طلوع الشمس، وأحست مارى أنها أطالت الحديث فأرادت أن تستأذن، فطلب منها أن تنتظر حتى يلقى شبكته على وجهها، فضحكت، وهروا إلى الشاطئ والقى الشبكة ثم سحبها وكان رزقاً وفيراً فقدمه إلى مارى، فقالت أن هذا كثير وأخذت سمكتين فقط ورجعت إلى طريق البيت، بوجه جديد قد ملأه الحب دون أن تدري أنه حرك ما بين ضلعها.

وعندما دخلت كانت نفرتال جالسة فى الردهة، وكان وجه مارى عليه علامات الفرح، وتتحرك فى خفة وحيوية لم تعهدها نفرتال، وكانت رائحة السمك الطازج تقوح أيضاً، وتعجبت نفرتال قائلة : من أين لك هذا السمك يا خالة؟، ولم تنتبه مارى حتى لوجود نفرتال بالردهة، ثم دخلت إلى المطبخ فدخلت ورائها نفرتال، تمشى ورائها كظلها، وفجأة انتبهت مارى لوجودها، ثم توقفت وأدارت وجهها إلى نفرتال ثم قالت : صباح الفل يا نفرتال، فردت نفرتال ايه الحكاية؟.. ايه الانسجام والفرح ده ؟، فسارعت مارى



قائلة : لا أبداً ..اليوم الغذاء سمك من البحيرة، فقالت نفرتال: أنت اصطدتي ذلك السمك ؟ لا طبعاً يا نفرتال ده سمك هدية من جارنا الصياد عبد المسيح، عندنا جار اسمه عبد المسيح، نفرتال : جارنا ولا نعرفه ؟ أين يسكن ؟ بعيد عنا أم قريب ؟، وأدركت نفرتال أن هناك شيء يجرى وراء الأحداث، ولكن ماري سارعت قائلة : تعالى نفطر وبعدين ننزل السوق نشترى لعب اطفال لأولاد عبد المسيح، وترجمت نفرتال الصورة بطريقتها الفطرية ..أولاد عبد المسيح ..حاضر يا خالتي !..

وكان يدور بعقل ماري شيء جديد قد بدأ منذ أن رأت عبد المسيح منذ عدة شهور على البحيرة، ذلك الشاب قوى البنية مفتول العضلات الذى يشغل شاطئ البحيرة بشباكه من قبل شروق الشمس كل يوم، وهو الأب الحنون الذى يحمى أولاده رغم ضيق يده، وتلك المرأة الخبيثة التى تركت عائلتها هرباً من الفقر، تاركة ورائها ذلك الرجل الطيب والطفلين دون رحمة أو شفقة.

ماري لم تنظر إلى حياتها من قبل بعين المرأة، وليس منذ دخولها الدير بل أبعد من ذلك، ففي أثناء حياتها مع الراحلتين فى البلدة لم تصادف إلا قليلاً من الشباب المسيحى كجيران أو أخوة، و لكن اليوم قد تأججت فيها مشاعر المرأة، وخاصة وهى واقفة أمام عبد المسيح المملوء بالشباب، حيث كان عليه القليل من الملابس لأنه عندما وصل إليها كان فى عجلة من أمره لخوفه على أبنائه النائمين.

وبدا يتحرك داخل ماري احساس الأنوثة وحاجتها إلى رجل، فقد قتلت حياة الرهبنة هذه الفكرة، ولكن اليوم هى ملك نفسها مرة

أخرى، وكان داخلها شعور أن نفرتال قد ظهرت فى حياتها لغرض ما، وخروجها من الدير ليس لنفرتال فحسب بل هى هدية الحياة لكل منهما .

و بعد أن تناولتا طعام الفطور ولم يتبادلا خلالها كلمة واحدة، فانتھت مارى إلى حجرتها وكذلك نفرتال لتضع بعض الملابس للخروج إلى السوق كما اقترحت مارى، ووقفت مارى أمام المرأة ونظرت إلى نفسها وهى دون ملابس، وقد أحست بما تملك من جمال شعر رائع ووجه جميل ولون البشرة المائل إلى البياض والجسم المتناسق، ذلك الجسد البكر الذى لم يلمسه رجل من قبل.

واتخذت طريقها إلى السوق، وعمدت نفرتال أن تمر أمام محل شاؤول حيث أنه كان لا يزال غائبا عن العمل، وقد اختلست النظر إلى داخل المحل فوجدت أبا شاؤول جالسا فى مكانه ولاحظت مارى ذلك، فعرضت عليها أن تدخل لتريا بعض الأقمشة الجديدة، ولكن نفرتال فضلت أن تذهباً فى وقت آخر .

وعندما وصلتا إلى دكان صغير تجلس فيه امرأة شابة حامل وعلى وشك أن تضع مولودها، تبيع الحلوى وبعض اللعب البسيطة للصغار، ألقت مارى عليها التحية وكانت جالسة فوقفت فطلبت مارى منها أن تبقى جالسة حيث يبدو عليها التعب وحولها ثلاثة أطفال فى أرضية المحل يلعبون، وعز على مارى أن هذه السيدة تقوم بالعمل بدلا من الراحة فقالت لها : اعطنى تلك اللعبة، فسألت : الحصان أم العربة ؟، فردت : الاثنين، ثم قالت : أين زوجك ليقوم بالعمل مكانك ؟ فردت فى أسى قائلة : إن زوجى له زوجتان أخرتان وكل منهما عندها عدد من الأطفال أكثر منى وهو فقير ولا يعمل، و يتركنا نتضور جوعاً وعلى أن أعمل،

عارفة يا أخت أنتم المسحيين محظوظين أكثر منا، فغير مسموح عندكم إلا بزوجة واحدة طوال حياتكم، وكان فى هذه اللحظة يمر الشيخ (الشبراوى) جارهما وزوج الست زينب، وقد سمع الحديث فرد : لا يا ست .. المشكلة فى المسلمين أنهم يستخدمون رخصة الزواج بأربعة على خلاف الشرع والدين فتكون النتيجة أننا نشكك فى ديننا وتشرد الأمهات والأولاد ...، وكان غاضبا، فألقت عليه مارى السلام ومن خلفها نفرتال فرد السلام وسألها عن حالهما فأجابتا : الحمد لله، ثم سألت مارى عن الحاجة زينب فأجاب فى كلمة واحدة: الحمد لله ..، ثم تركهما ومضى إلى حال سبيله .

وبعد أن دفعنا النقود وأخذنا اللعبتين، لاحظت نفرتال سؤالا فى عين خالتها مارى التى بادرت بسؤالها : نفرتال أنذهب إلى بيت عبد المسيح لنعطى أولاده اللعبتين ؟ أم أنتظر حتى الصباح على البحيرة ؟، ناسية أن نفرتال لا تعلم شيئا عن القصة..، فقالت نفرتال : والله فكرة أن نذهب إلى بيت عبد المسيح فندخل البهجة على الأولاد، وراقت لمارى الفكرة وأضافت : علينا أن نطبخ بعض الأكل والحلوى لهما، فردت نفرتال نعم الفكرة يا خالتي، وقد أدركت أن مارى فى حالة من الحب، وقد أسعد نفرتال سعادة خالتها وفرحتها الجديدة، ناعية إلى نفسها موضوع شأؤول والذى أرقق ذهنها، ذلك الموضوع أخذ طريقه إلى الظلام ، وأن شأؤول عاد يهودى فى فكره كما قالت مريم، التى صدق قولها، وأنها كانت خاطئة فى تفكيرها أنها ستكون غير الأخريات بالنسبة له .

وما إن أنتهيتا من إعداد الطعام والحلوى، أخذتا طريقهما إلى كوخ عبد المسيح الذى يقطن فى الطرف الآخر من البحيرة، وما إن

وصلتا حتى كانت جانيت وصليب يلعبان خارج الكوخ، وكان عبد المسيح يطهو بعض السمك للعشاء، فسمع أصواتاً خارج الكوخ فخرج ليجد ماري ونفرتال تقترشان الأرض مع الطفلين، وقد أعطوهم بعض الحلوى، وفي يد كل منهما لعبة، فخرج مهلاً ومرحباً، وكان فكره قد انشغل بعدما رأى وكلم ماري، تلك الأخت الجميلة ذات القلب المرهف، ولكنه كان في ارتباك وقد لاحظتا ماري ونفرتال ذلك فقالوا أنهما أحضرتا أكل مع الحلوى لجانيت وصليب وستمضيان إلى حال سبيلهما الآن، ولكنه شدد عليهما أن تبقىا حتى يغير ملابسه ليجلس معهم أمام الكوخ، حيث أن الكوخ صغير وغير مرتب، ودار بينهما أحاديث وروايات وقد همت نفرتال بإفساح المكان حتى تجلس ماري مع عبد المسيح فقامت وأخذت الأولاد تلعب معهم على بعد منهما .

وقد سألت ماري عبد المسيح عن زوجته ..، هل يعلم مكان أهلها أو حاول البحث عنها؟، لأنه قد يكون حدث لها مكروه مثلاً، فرد عبد المسيح أن أهلها فقراء وعلموا من أهل بلديتها أنها ذهبت إلى صعيد مصر مع شاب لا عمل له ليبدءا حياتهما هناك، بعيداً عني وعن أهلها، بل إن أهلها قد تبرأوا منها، وطلبوا منه أن يتبعها في الصعيد حتى يجدهما ويأخذ بثأره لشرفه ويقتلها، فردت ماري : لا .. لا .. لا تفعل، تماماً يا ماري.. رد عبد المسيح، كيف أترك الطفلين دون أهل وأبحث عن وهم حيث لا مكان لهما وبعد ذلك أقتل أو أسجن ؟ ومن سيعتنى بجانيت وصليب ؟، نحن لا أهل لنا وحتى أهلنا في البلدة فقراء بل ويعيشون بالكاد.

ثم قال : لقد نصحتني بعض الأصدقاء بأن أعيش وأخذ بالي من الأولاد وأبحث عن زوجة أخرى، ولكن كما تعلمين، من ستتزوج

بشخص فقير مثلى له أولاد ؟، والأدهى من ذلك أنه عندما تكلمت إلى أحد القساوسة قال لى أنه لا حل لى، فلا زوجة أخرى لك فالمجمع الكنسى لن يسمح لك بذلك، بل قال قد تكون أنت الذى قتلتها وتخلصت منها وتدعى أنها هربت، ولا يمكن لك أن تدعى على امرأة مسيحية بالزنا والفجور دون شهود، وعندما تكلمت مع أهلها ردوا نحن فى حالنا وأمرها انتهى بالنسبة لنا وكفاية فضائح، فردت مارى: مسكين يا عبد المسيح، فقال: عارفة يا مارى. واحد مسلم صديق لى قال لى غير دينك واسلم وتتحل مشكلتك، كما قال لى آخر مسيحى: عليك أن تغير الملة فيكون لك ما أردت، وتستطيع أن تتزوج بأخرى، ثم ضحك فجأة وقال : وكل هذا الكلام والحكايات وأنا أصلاً ما عنديش عروسة أو حتى فكرت أنى أتزوج بأخرى، فأنا لا أملك إلا قوت يومى وأخاف على طفلى من زوجة أب، فتنهدت مارى قائلة: لا عليك يا عبد المسيح فإن الرب سيجد لك مخرجاً، ومن اليوم يمكنك ترك أولادك عندنا وأنت تسعى على رزقك ولا تخاف عليهما معنا ..، فتنهد عبد المسيح قائلاً : لأول مرة فى حياتى أقابل أحداً من البشر فى قلبه رحمة وشفقة دون غرض، ولكنى لا أستطيع أن أحملكما ما لا طاقة لكما به وربنا يعمل الخير، و قد دنت الشمس من المغيب واستأذنت مارى و نفرتال للرجوع، ولكن جانيت و صليب أخذا بيكيان فاقترحت مارى أن يقضيا الليل معهما، فوافق عبد المسيح بعد الحاح منهما، واصطحبتا الطفلين معها بعد أن سلمتا على عبدالمسيح الذى كانت البهجة قد ملأت صدره وارتسمت علامات الفرح على وجهه.

أصبحت حياة مصطفى الجديدة مختلفة، فمنذ أن ماتت الحاجة فاطمة والدته، وأن تركت الخادمة نبوية البيت، فقد تحقق له السيطرة المالية وانتهى سوط النصيحة والزجر، إلا أنه لا تزال الفكرة القائمة في عقله وهو ترك البلدة ليعيش في مدينة العاص ويصبح صاحب تجارة، هي الفكرة المسيطرة على عقله وسندها الهوى والوهم، بل سندها الرغبة دون الحقائق . وكان من السهل أن يلعب الحاج صالح وابنته على وتر هذه الفكرة لنيل المطالب، فقد وافق مصطفى وصادق الحاج صالح على خطوبة خضرة بعد أن زين كلا منهما له أن الحياة القادمة هي الخطوة التالية للتجارة والعيش بمدينة العاص، ولم يدرك مصطفى مدى الخطورة التي وصلت إليها حالته وماله وأرضه والتي قد تضيع في لحظة.

وقد نصب الحاج صالح شباكه حول مصطفى، بل وأشركه في بعض تجارته التي يورد من خلالها الفواكه والحبوب لمجموعة من التجار في مدينة العاص، مما أصبغ حلم مصطفى بصيغة الواقع . وقد أظهر مصطفى لأول مرة في حياته مهارة فائقة وفهم سريع لهذه التجارة وأسرارها، مما أثار خوف الحاج صالح الذي اعتاد أن يجمع بين يديه أسرار النجاح ، وخاصة أن الغرض من اشراك مصطفى هو جر رجله إلى الزواج قبل كل شيء.

إلا أن خضرة كانت ابنة أبيها وابنة تلك المرأة التي لها تاريخ كبير في عالم الهوى، والتي أوقعت بالحاج صالح واستخلصته من

زوجاته الأخريات، وكان لخضرة رؤية أخرى، فهي قد وافقت مصطفى على رأيه وهواه في التجارة والسفر، وأغمضت عينيها على علاقة مصطفى برباح الغازية، وقررت أن تستوطن مكانها، بالرغم من الشائعات الواردة والدائمة بين سكان أرجاء البلدة، بل إنها قد عقدت العزم على أن تسبق أبيها الحاج صالح في اغتيال أرض مصطفى ولكن على طريقتهما بالزواج منه أولاً، وقد أعدت الخطة حتى تحكم الطوق حول مصطفى وتستخلص منه ما تريد، غير مهتمة بأبيها، فمصلحتها فوق كل شيء، وما أسهل الصيد الذي بين يديها .. مصطفى ...

وقد مرت عدة أشهر على هذه الخطبة المزعومة، وأصبح الزفاف على الأبواب وقد حدد مواعده، وقد قام صالح بابتزاز مصطفى، وللأسراف على ذلك الزفاف حتى يليق بأهل الصفوة، وانشغل الحاج في إعداد ذلك الزفاف مما جعله يرسل مصطفى لتوريد الفواكه والحبوب بنفسه.

وقام مصطفى بتغيير أثاث البيت كله بعد أن جدهه ببيع مصاغ أمه المورث إليه، إلا أن مصطفى كان دائم التردد على رباح، وقد فتحت له بابها دائماً لأنها أحبته، ولكنها تعلم أنه حب دون جدوى، فأثرت أن تكتفى بوجودها جانبه ورؤيته، واكتفت بالتعاشيش والسهر معه، وحاولت جاهدة أن تساعد على أن يفهم طبيعة ما يدور حوله، ولكن مصطفى أوقف عقله وقلبه في فكرة واحدة هي أن يكون صاحب تجارة في مدينة العاص، ولا ينصت إلى من يحبه، وينصت إلى فقط هواه وخياله وخداع من حوله.

اليوم علقت الزينة في كل مكان في البلدة وذبحت الذبائح ونصبت الفراشة حول بيت الحاج صالح، فاليوم يوم فرح لكل أهل البلد،

وأن الليلة للغوازي والراقصات والطبول ورقص الخيل، فالفرح  
لأكبر رأسين في البلدة . ولكن امرأتين في البلدة قد أحرزهم هذا  
العرس، الخادمة نبوية ورباح، كل منهما انزوت في مكانها،  
تبكيان ذلك اليوم لأنهما تعلمان أن الآتي على مصطفى ليس خيراً  
ولكن هو شر مطلق.

ولم تدخر خضرة وسعاً في تجميل نفسها وحسن لباسها، وحقيقة  
فهى لا تقتقر إلى الجمال أو الدلال، وارتدى مصطفى خرقات  
جديدة اشتراها من مدينة العاص ليوم العرس، وتم كتابة عقد  
الزواج بحضور شيخ الجامع وتم الزفاف، ودخل العروسان إلى  
بيتهما الجديد .

وما إن دخلا إلى البيت حتى تعلقت خضرة فى رقبة مصطفى  
قائلة : مبروك يا عريس، وضحكت وجرت إلى حجرة النوم،  
وجرى ورائها مصطفى وقد دخن من الحشيش الكثير تحية  
وواحب من أهل البلدة، ولكنها غلقت الباب ورائها قائلة : أغير  
ملابسى وبعدين أفتح لك باب الجنة، فضحك مصطفى ورجع إلى  
المائدة التى رحبت بكل أنواع الطعام، بعد أن كشف عن الغطاء  
الذى كان يسترها، وما هى إلا لحظات حتى خرجت العروس  
لباس نوم فاضح كاشف عن مفاتها وقد أسدلت شعرها على  
كتفها، وقالت لمصطفى : لا تأكل ..عندى مفاجأة لك علشان  
تعرف أنى بحبك، ثم ذهبت إلى حجرة النوم مرة أخرى ورجعت  
معه زجاجتين من الخمر الذى اعتاد مصطفى شربه، وقد  
أحضرته هى من ذلك اليهودى الذى يبيع الخمر بأطراف البلدة،  
وما إن رأى مصطفى الخمر حتى جرى عليها قائلًا وهو يلهث  
ورائها : حبيبتي يا خضرة، فقالت : من اليوم تشرب هنا فى البيت



معى، مافيش خروج يا حبيبى، كفاية العشة، أنا ارقص لك وأمتعك، زوجتك جنبك، مما أثلج فؤاده قائلاً : يحيا الزواج، أنت حلوة قوى يا خضرة يا مراتى، وتشاركنا الشراب، ولكن كوباً لها تذوقه بلسانها فقط مقابل خمس أكواب له، حتى أصبح فى سكر بائن، ثم دخلا إلى الحجرة ليطفأ أنوار الليلة الأولى، و يسكب ويذبح العذرية إلى غير رجعة، فهذه الليلة من أهم ليالى الزوج والزوجة التى لا يدخران فيها وسعاً لربط وتوكيد سعادة قادمة لا تنتهى، وقد يتذوق حلاوة هذه الليلة الرجل فى مصر أكثر من المرأة التى تسلم ما عندها من سر الصنعة والتى تفقده مرة واحدة

لم تستطع ماري أن تهرب من أفكار الحب التي بدأت تغزو قلبها وتطارد عقلها، ذلك الصياد الشاب الذي أعاد لها الحياة وأعاد الحيوية إلى عمرها مرة أخرى، ولكن في ذات الوقت كانت تطاردها أفكار أخرى، وأصبح نومها مضطربا وأصبحت هي بمعزل فكري عن المحيطين بها .

وفي ذلك الصباح خرجت ماري مبكرة تلتمس نزهة البحيرة ونسيم الصباح، وترى عبد المسيح وأولاده كالمعتاد، وقد جلست في ذات البقعة المعتادة لعبد المسيح وأولاده على الشاطئ، ولكن اليوم يبدو أن عبد المسيح قد تأخر، ولكن قد استسلمت ماري للأمواج وغدت في صمتها المفكر، وكانت تتأرجح بين فكرتي الحب والزواج أم تحافظ على كيان الرهينة بداخلها، فتارة تقول لا تتوترى ولا ترغمي نفسك على الرهينة لأن الله يريد سعادة الإنسان يا ماري، فإن كانت سعادتك في شيء فعليك الاختيار .

وكانت حياتها منذ أن دخلت الدير تتخللها أفكار وصراعات عندما كانت تذكر الزواج والشباب، يحركها جسدها وجمالها لتتال نصيبها من الحياة، ولكنها عندما تحصل على لذة الخلوة والصلاة تموت الفكرة الأولى، ذلك الصراع الجبار في رفض الجسد الأنثوي محاولة اكتساب الطبيعة الملائكية، ولكن كان الفشل والفشل، ولم تستطع البوح به وأخذت تتكتم تلك الأفكار الشيطانية، كانت تواجه هذه الصراعات الطويلة أثناء الليل بشكل عنيف ودون مخرج وكأنها ماري ضد ماري، وبصورة غاية في التعقيد

بالشعور بالذنب، وكان يلزمها سنوات وسنوات للتخلص من ذاتها البشرية، حتى اختفت وسقط الصراع بالانخراط والإخلاص فى قبول طريق الكنيسة.

ومنذ يوم أن انتصرت فى تلك الحرب، يوم أن أصبحت راهبة خادمة فى دير الرب وشهيدة، قد اكتسبت معرفة وعلم جديد جعلها تقهم قيمة الآن سان بطريقة مختلفة، كما أن جو الدير كان يحثها على العمل الدائم لتحرير الإنسان من قيوده، حتى أصبح القداس وحب الرب والتضحية بالنسبة لها هو محور حياتها ومصدر فرحها وقوتها التى تدفعها إلى المزيد .

وكان كل شىء صامتاً بداخلها، ماعدا صوت البحيرة الذى يعيدها إلى الفرح الحقيقى، الفرح الذى يفوق كل سعادة ..عبد المسيح .. فهذا هو الفرح والسلام المنبثق من مصدر داخلى، فصمت مارى يسحب فكرها إلى ذلك الجسد المراهق الذى ظل متلهفاً للحياة الأرضية، فكانت تشعر أنها مرغمة على الاختيار بين متعة الوحدة أو متعة التواصل مع الآخرين، والمضى قدما فى علاقة الحياة الجديدة مع عبد المسيح.

مارى .. إنها الفتاة البريئة التى تخاف من حرب الجسد، وفجأة تكون فى اتجاه آخر ..، المشكلة أن لها جسدا، وعليها أن ترضى رغباته، وفى النهاية ترى أن ثمة مشاعر الحب قد استيقظت داخلها .. ومضى وقت طويل، واستقرت الشمس فى كبد السماء على رأس البحيرة، ولم يأتى عبد المسيح، مما أثار مخاوف مارى، وفكرت أن تذهب إلى الكوخ لتعلم الأمر، ولكنها تراجعته وأخذت الطريق إلى البيت .

وكانت نفرتال هي الأخرى في ضجر وقلق شديدين، لأن ليس من عادة ماري التأخير على شاطئ البحيرة، كما أنها تعلم أن علامات الحب التي ظهرت على ماري ترهق ماري من الداخل، رغم أنها تكتم شأنها عنها، فإن نفرتال أصبحت شابة ولها تجربة، كما أن عقلها وأنوثتها المتدفقة جعلها تضع الأمور في نصابها، وكم من مرة حاولت أن تتكلم مع ماري في شأن عبد المسيح لأنها لاحظت هي الأخرى من عينيه أنه يكن لماري عواطف ما، وخاصة أنه منذ الزيارة الأولى التي قاما بها إلى بيت عبد المسيح، والتي تبعتها عدة زيارات خلال الأشهر الماضية تؤكد أن علاقة الحب القائمة تتضج يوماً بعد يوم .

وما إن دخلت ماري من الباب، لاحظت نفرتال عليها القلق والارتباك، فسألتهما ماذا يجعل وجهها في هذه الحالة التي يرثي لها ولماذا تأخرت؟، فأجابت: لا شيء ولكن عبد المسيح وأولاده لم يكونوا على شاطئ البحيرة وهذا شيء غير عادي، فقالت لها : ولما لا تذهبي إلى كوخه لتستطلي الأمر؟، فقالت: كيف أذهب إلى كوخه لوحدى ؟ ماذا سيقول الناس أو بالأحرى كيف يراني هو في مثل هذا الموقف؟، قالت نفرتال: سيراكى بكل خير وحب ..، فسكتت ماري قبل أن ترد ثم قالت : هل تعتقدين أنه من الواجب أن نسأل عنه؟، فرجعت نفرتال لتسند ظهرها إلى الحائط قائلة : نعم يجب، أنت تعرفين وأنا أعرف أن عبد المسيح يحمل لك شيئاً ليس بالقليل من العواطف، فلماذا تحاولين إخفاء هذا الشعور؟ أنا لا أعلم ماذا يدور هناك، ولكن أعلم أن هناك شيء ما ..، فقالت لها : نفرتال..كيف تقاتحين الراهبة ماري في موضوع

مثل ذلك ؟..حب وعواطف وزواج وجسد فانى ؟ .. وهنا علت وجه مارى مسحة من الخجل واحمر وجهها، ولم ترد نفرتال وبقيت صامتة ثم استأذنت لتحضر الطعام للفتور .

وسكتت مارى وتألمت فى نفسها لأنها لأول مرة تكلم نفرتال فى كبرياء وحدة صوت لتخفى ما تكن من شعور، ولكنها أصرت على صمتها وتناولوا الطعام، ثم قالت نفرتال: خالتى .. أنا لم أعد نفرتال التى ولدت وعاشت بالمقبرة، ولكننى خلال العامين السابقين تعلمت كثيراً وكثيراً، أن المشاعر والعواطف لا تريد أشخاصاً معينة للكلام فيها أو عنها ..لأنها جزء منا، وأعتقد أن الرب لم يفرض على أحد سلك الرهبة ولكن الرهبة اختيار، وكثيراً من الرهبان يعيشون خارج جدار ذلك الدير الذى كنت فيه، فأنا أعلم من المقبرة أن الأرواح هى الأرواح مهما اختلفت الناس التى نشيعهم إلى أرض المقبرة، ولكن الناس فى هذه الحياة كما أرى يفرقون بين البعض والبعض ويتكلمون بخفاء عن أشياء واضحة وظاهرة، ويصنعون الحواجز، ويكلفون أنفسهم فوق طاقاتهم ليجعلوا من أنفسهم شهداء لأفكارهم ومعتقداتهم الدينية، غير أنها غير ملزمة.

وأعتقد أن الرب سهل الطريق، سهل المنال، ومن أراد أن ينهل من نهر حبه فمياه نهره لا تنفذ وهى جارية دائماً ومتجددة بالحياة، ولولا أُمى تزوجت ما أنجبتنى، ولولا جدتى نفرتال تزوجت ما أنجبتك ولا أُمى، ولا أعطتك فرصة الاختيار البديعة بين العقل والرب ..الحب والتضحية..وكل الناس ليسوا سواء، وأنت قد عشت وبذلت العطاء فى الدير لمدة خمسة عشر عاماً، وأراد لك الرب أن تخرجى وتعيشى كمعظم البشر، بل أنت مازلت تعملين

كل ما كنت تعمله في الدير فلا تخافى.

فتبسمت ماري قائلة : من دفن الأموات إلى عواطف الأحياء ..تعالى في حضنى يا نفرتال، فقامت نفرتال وحضنت خالتها، ثم قالت لها : بعد الأكل نذهب لنسأل على عبد المسيح ونعرف ماذا حدث له، وهو جارنا والرب أوصانا بالجار ولم يفرق بين امرأة ورجل، فضحكت ماري وقالت : لقد أصبح ت أكثر خبثاً من كثيرات حولنا، أين تعلمتى هذه الحيل والأقوال الناعمة يا صغيرتى؟..

وعندما كانت ماري تستعد لوضع ملابسها، دخلت عليها نفرتال قائلة : خالتى..لماذا تصرين على ارتداء ملابس الراهبات مع أنك خارج الدير ؟ بل أنك أصبحتى حديث الأخوة والأخوات في الدير الذين يتعمدون الحديث عنك بغير حب واحترام، لماذا لا ترتدين ملابس عادية مثل الأخريات ؟ فردت ماري : لا أستطيع أن أفعل هذه الخطوة الآن يا نفرتال، فردت نفرتال في خبث لطيف : دعينا نبدأ ببعض الألوان الداكنة ثم تدريجياً إن أحببت التغيير إلى الألوان الزاهية، وأن لم تحبى اللبس الجديد فاستمرى فى ذلك الثوب مرة أخرى، وردت ماري : لا أستطيع يا نفرتال فأنا لم أغير تلك الملابس منذ أكثر من خمس عشرة عاماً، فردت نفرتال : من السهل تغيير الملابس ولكن أفكارنا لا تزال داخلنا لا تتغير، فالحياة سهلة وليست قالب نصب فيه حتى نكون نسخة أخرى لآخرين، والناس لا تحكم على أفعالنا من خلال ألوان وشكل ملابسنا ولكن من تصرفاتنا، والأهم أن الرب لا ينظر إلى أشكالنا وأعمارنا ولكن إلى قلوبنا، أنا سأذهب إلى السوق اليوم حتى أرى بعض الأقمشة المناسبة لك، فسكتت ماري لأنها تعلم أن نفرتال

تود أن تسأل عن ذلك الشاب الصغير شاؤول الذى قد اختفى لفترة من المحل، وبالتالي هى الأخرى لم تعد تذهب إلى هناك.

وأتمتا الاستعداد للذهاب، وأخذتا طريقهما مع بعض الحلويات إلى كوخ عبد المسيح، وما إن وصلتا حتى وجدت عبد المسيح يخرج مسرعا خارج الكوخ، فسألته ماري : ماذا حدث؟ فأجابها أنه مضطر يترك أبنائه وحدهم فى المنزل ليسرع بإحضار بعض الأعشاب من العطار حتى يعطيه لابنه لأنه مريض جداً، فردت نفرتال : أنا سأذهب إلى السوق لأشتري تلك الأعشاب، وابقى يا خالتى أنت مع عبد المسيح وسأعود بسرعة .

ونظرت ماري إلى نفرتال فى غرابة، ولكنها لم تمنع فقد وجدت الفكرة لا بأس بها، وشكر عبد المسيح نفرتال، ثم دعا ماري للدخول إلى الكوخ، و ترك باب الكوخ مفتوحاً، بل وقام بفتح النوافذ، ولكن ماري أسرعت بغلق النوافذ بسرعة، وكانت نفرتال قد عقدت العزم على أن تعرف ماذا حدث لشاؤول، فقد سئمت الانتظار، كما أنها وجدت فرصة حتى تعطى لكل من ماري وعبد المسيح الفرصة أن يعيدا ترتيب أوراقهما معا بطريقة أخرى، دون عائق بينهما.

وما إن وصلت نفرتال إلى محل شاؤول وجدته جالسا مكان أبيه فدخلت ناظرة إليه، ودخلت إلى حيث ترى بعض الأقمشة ، ولم يتحرك شاؤول رغم أنه رآها وكان يبدو عليه الهم، وكانت بالمصادفة هناك مريم التى دخلت المحل فى ذات الوقت، فرأت نفرتال فسلمت عليها وقالت : ألا تعلمين أن ابو شاؤول قد مات الأسبوع الماضى؟، فردت نفرتال : لا ..، فقالت مريم : كل

السوق قد عرف ذلك ، فردت نفرتال : جئت لأشتري بعض الأقمشة فحسب ولا أعرف شيئا، ولكن سأذهب إليه وأعزيه طبعاً، ثم تركتها وألقت عليه السلام فسلم عليها ودعاها للجلوس وسألها أن تشرب شيئاً، ولكنها عجلت قائلة : لقد سمعت بوفاة والدك الآن وأريد أن أعزيك، فقال : نعم، وشكراً لكى لقد عاد إلى ربه وتركنى فى هموم كثيرة، فالآن أصبحت مشاكل المحل والبيت ووالدتى وأخى المريض وعائلته ...كل ذلك فى رقبتي، لا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك ...، ففهمت نفرتال أن نهاية القصة كانت موجودة منذ البداية، فسلمت عليه وقالت : كان الرب فى عونك، ونظر شأوول إلى الأرض، وخرجت نفرتال دون أن تشتري شىء ذاهبة مسرعة إلى العطار وأحضرت ما طلبه عبد المسيح، وكانت الدموع فى عينيها ..، فهو الجرح الأول فى قلبها، ورغم أن الطعنة كانت موجودة من أول لحظة، فاختلاف الدين كان عائقاً قد اختلقه نص دينى ثم تعددت الأسباب بالفقهاء والتشريعات، ورغم أنها كانت تدرك وتشعر بالنهاية قبل البداية، إلا أنها أصرت على خوض التجربة لعلها توفق فى حبها، فالحب شىء لا يعرف عقيدة أو دين أو احتكار فكرى، فهو موضوع مشاعر امرأة ومشاعر رجل ، والنتيجة اليوم أن كلا منهما فى طريق، وكلا منهما له جرح يدمى فى قلبه.

وأخذت نفرتال طريقها عائدة إلى كوخ عبد المسيح.

وعندما دخلت مارى الكوخ كانت فى خجل كبير، فوجدت الطفل صليب راقداً على فراشه محمواً بشدة، وكانت أخته جالسة على أرضية الكوخ، وما إن رأت مارى ذلك حتى سألت عبد المسيح أن يعطيها ماء بارداً و خرقة نظيفة، و بدأت عمل كمادات له،



وكان عبد المسيح يغير الماء باستمرار لها، وقد تلامست أيديهما صدفة ونظر كل منهما فى عين الآخر ليدلى باعترافه فى صراحة من خلال النظرات المتبادلة .

وسرعان ما أحست مارى بالخل فسحبت يديها بسرعة فسقط الماء على الأرض، فذعرت، فقال لها عبد المسيح : لا تنزعجى الأرض محتاجة نظافة، فضحكت مارى وردت : أن البيت يحتاج لامرأة ..، ثم انتبهت وسكتت خجلا وكانت لا تقصد شيئا،.. فابتسم عبد المسيح قائلا : وهل يوجد أحد يرضى بهذه الحياة وهذا الفقر وهؤلاء الأولاد ؟، فردت مارى : خلق الرب بين ذلك وذاك، لا تئأس من أمر ربك، فقال عبد المسيح: مارى ..يمكن ...، وهنا طرق الباب المفتوح قاطعا الحديث ودخلت نفرتال وقد أحضرت الأعشاب، فصمت عبد المسيح الذى كاد أن ييوح لمارى بحبه، وكان وجه نفرتال فيه شىء من الحزن، ولكنها ابتسمت لأنها وجدت كلا منهما فى وضع ينم عن كلام كثير قد حدث، فقامت مارى وسألت عبد المسيح أن يستمر فى الكمادات، وأن يغلى بعض الأعشاب، وأنها ستعود مع نفرتال فى الصباح ليجلسوا مع الطفلين حتى يتمكن عبد المسيح من الذهاب لعمله فى الصيد.

إلا أن مارى فى طريق العودة أحست بدموع نفرتال ونظراتها الطويلة إلى الأرض، فقد أدركت أن موضوع شاول قد انتهى، فكانت تتابع الموضوع من بعيد حتى لا تخرج نفرتال، أو تضع عليها أى ضغط، ولكنها انفجرت قائلة : عندما يكون اليأس والفرح حولنا فإننا نكون فى حالة يرثى لها، ولكن سأعلمك أن تحبى الأرض التى ولدت فيها وتربيت عليها ...مصر ... فقد

تعلمت من جدتك نفرتال أن حب مصر هو الأصل، رغم أن مصر من الأرض القديمة، وأن الأرض القديمة قد ارتكبت عليها كثير من المعاصي والآثام وأريقَت عليها دماء ودماء، ولكن هذه الأرض هي الملجأ الأخير، فنتعلم أن حبها يغنى عن كل حب، فقد قيل في مصرنا كثيرا، وعندما كنت أبحث عنك ويدركنى اليأس كنت دائما أتذكر جدتك، وأغنى تلك الأغنية وأقول هذه المقولة حتى ظهرتى وأنكشف الغم ، فنظرت إليها نفرتال وقالت : علمينى تلك الأغنية يا خالتي ...، فقالت مارى بصوت رقيق وبكل حب :

"... لا تجهلى أن مصر هي صورة للسماء على الأرض .. كما أنها موطن السماء وكل القوى التى فى السماء، وإن جاز لنا قول الحقيقة فأن أرضنا هي معبد العالم .. كما أنه من اللائق ألا تجهلى أن الوقت سيأتى عندما يبدو وكان المصريين قد خدموا الآلهة عبثا ... فسوف تترك جميع الآلهة مصر وتصعد عاليا إلى السماء.. وتصبح مصر أرملة عندما تتخلى عنها الآلهة..لأن الأجانب سيأتون إلى مصر وسوف يحكمونها ..وفى ذلك اليوم سيصبح الوطن الذى كان أكثر البلدان ورعا ... بلدا عديم التقوى ولن يعود مليئا بالمعابد وإنما بالمقابر ...وستصبح مصر التى كانت محبة الرب ومسكن الآلهة ومدرسة الديانة مثلا للإلحاد...إلا أن مصر سوف تعود مرة ثانية إلى سابق عهدها وسيثبت سادة الأرض أنفسهم فى مدينة فى أحد أركان مصر سيتم بناؤها فى اتجاه غروب الشمس...."

اليوم قد أتم مجاهد بناء قصره الجديد بمدينة العاص، وقد انتقلت إليه عائلته من البلدة المعروفة لبعض الناس، وخاصة ولديه (أسعد وسعيد) اللذان يعدهما ليأخذا دورهما في التركة المورثة ..مصر ..، فاليوم مصر تورث مناصبها، فالقضاء أولادهم قضاة، أولاد بائعى الصكوك يرثوا الصكوك، وأما أولاد الحكام وأهل الحكم فنحن أدرى الناس بما يحدث على أرض مصر بلادنا، وهذا هو سلوك أهلها بغض النظر عن ديانتهم أو معتقداتهم، إلا أنهم اعتادوا هذا النظام، إنها أرض نفرتال ...

وقد أعدت الولائم وعلقت الزينة وفرغت الشوارع، فاليوم والليلة أهل الصفوة هم ضيوف على مجاهد ذراع الحاكم الأولى وحامى الحمى والأمان الداخلى للبلاد، وهو لدى الحاكم أهم بكثير من الجيش والحاميات العسكرية، فالدنيا أمان بوجوده، والجزية تدر الأموال على الخزانة، ولا يهدد الإمبراطورية الإسلامية إلا أهلها فلا خوف عليهم من الغزو الخارجى، فقد تقشى فيهم كثرة الفقهاء وتعددت المذاهب والفرق من جهة، وقد تقوم الحروب بين ورثة المملكة الإسلامية وينقلب الأخ على أخيه من جهة أخرى، الوليد على والده، وكل منهم لا يهتم إلا أن يرى الآخر بأسه، وكأنما ما يقوله المسلمون عن أن آفة هذه الأمة هي كثرة فرقها المنشقة والتي تتكالب على السلطة والحكم فى أرجاء الأمة الإسلامية، فكأنما هلاك هذه الأمة فى أن كل فريق وشيعة يتشعبوا ويتفرقوا ويذيق كل واحد منهم أخيه بأسه، أو كل عائلة تذيق الأخرى

بأسها، أو كل بلدة تذيق الأخرى بأسها، بل كل صاحب ديانة يذيق صاحب ديانة أخرى بأسه، وكأنها لعنة عامة على العالم وخاصة على أمة المسلمين، فعقاب الكوارث والزلازل والنار والصواعق أرحم بكثير من أن يذيق كل واحد أخيه بأسه، وتتدرج الأمور أن تكون المعمورة كما نراها الآن دماء وسلاح وخراب حتى كاد الشيطان لا يجد له عمل، فالإنسان اليوم يقوم بالمهمة على خير وجه ويؤدي عمله بحرفية زائدة .

مرت أكثر من سنة على زواج مصطفى، وأخذت الأمور تتحرك بشكل سريع فى الأيام الأخيرة، فقد قامت خضرة بدور كبير فى حياة مصطفى، فقد وضعت خطتها وأحكمت قبضتها عليه، فحثت مصطفى على أن يتعلم من الحاج صالح كل شىء عن التجارة، تجارة الحبوب والفواكه، وقد استخدمت أمها للضغط على أبيها حتى يعطى مصطفى الفرصة ليتعلم، وفى ذات الوقت استحوذت على مصطفى بغرائزه، فجعلت شربه للخمر بالبيت وأعدت زينتها يوماً بعد يوم، وملأت لياليه رقصاً وانتعاشاً حتى اطمأن إليها تماماً وأحس أنه اقترب من حلمه، إلا أن خضرة أيقنت أن الوقت حان لها، فقامت باختلاس أوراق ملكية الأرض والبيت من دولاى مصطفى وهو سكران ذات ليلة من ليالى الحب والغرام، وقد توصلت إلى مكان الأوراق بعد البحث عنها دوماً.

وقد أعدت خضرة الخطة على اغراق مصطفى الليلة بعد رجوعه من مدينة العاص معبئاً بالخمر والحشيش، وما إن وصل إلى البيت أعدت هى زينتها وشرابها وكلامها المعسول، وما إن أصبح مصطفى فاقد الوعى تماماً، استخلصت توقيعاته على أوراق الملكية كاملة وتركته نائماً، وذهبت إلى بيت والدها واطلعت أمها على سرها حتى تستطيع أن تسيطر على الحاج صالح، الذى كان هو الآخر فى خطته لاغتيال مصطفى وأمواله باعتبار أن أبوها مثلها، فلا فرق أين ترسى هذه الأموال فيما بينهما، واتفقت مع أمها على أنه عندما يعود مصطفى إلى البيت محاولاً إرجاعها إلى

بيت الزوجية، فإنها ستقوم بالبكاء والنواح لأنه يغضب الله و يسكر ويقوم بضربها والتعدى عليها كل ليلة، وأنها لن تستطيع أن تعيش معه مرة أخرى، وأنها تريد أن تعيش فى بيت أهلها، ولا تريد أن تراه مرة أخرى فهى لا تستطيع أن تغضب الله أكثر من ذلك .

وقد قامت الأم بخير دور لها، وخاصة أن الحاج صالح لا يستطيع أن يرفض لها طلباً، فهو طوع يدها، وقد زينت له أنه فى النهاية الأرض بين أيديهم ولا فرق بين الأب والابنة، وقد طلبت منه أن يكتب الخبر حتى يتم المراد، وأعلمته بما قالت خضرة حتى يكون حاضرا وطرف فاعلا فى اللعبة .

وقد استيقظ مصطفى كعادته شبه واع، ولم يجد زوجته بالبيت، ولكن هذا الأمر لا يعنيه كثيرا وكان فى غفلة تامة عما يدور حوله، وقد طال غياب خضرة عن البيت، فعندما رجع بالليل لم تكن هناك أيضاً، ولكنه كان فى سكره عائدا من عند رباح الغازية، فأرجأ الأمر إلى الغد لكى يسأل عنها عند أبويها، فهو يعلم أن لا مكان لها إلا هناك، وطالما هو ثمل فلا شىء يهم.

ولما استيقظ فى اليوم التالى عقد العزم على الذهاب إلى بيت الحاج صالح، وكانت أم خضرة فى انتظاره، وما إن وصل إلى بيت الحاج صالح وسأل مصطفى الحاجة عن خضرة فكانت إجابتها مفاجأة فى وجهه : كفى يابنى احنا بنتتا بنت أصول، وما عندنا حد فى العيلة يغضب ربه ويسكر ويهين ويضرب زوجته كل يوم، وهنا تراجع مصطفى إلى الخلف من المفاجأة فكيف علمت الحاجة أم خضرة موضوع الخمر؟، وإن علمت فكيف تتكلم

بهذه الطريقة وتورد إليه الاتهامات، فرد بلسان متقطع : أين خضرة يا حاجة؟ وماذا تعنين بما تقولى ؟!، فأجابته فى حدة مصطنعة : أنا بنتى عاوزة تطلق، وتبعد عن غضب ربنا وعنك، كفاية كل ما نحاول نصلح حالك فأنت تصر على عوجك وصبر البنت نفذ، يا مصطفى حرام عليك كفاية، الحاجة الله يرحمها ماتت من تحت راسك وراس مشاكلك يا مصطفى، حرام عليك يابنى دى بنتى صغيرة وألف واحد فى البلد يتمنى ظفرها وتراب رجليها، وحاول مصطفى أن يوقف ذلك السيل من الهجوم ولكنه لم يستطع، وهنا دخل البيت الحاج صالح وقد وجد المعركة قد بدأت، وكذلك خضرة كانت خلف باب حجرتها تسمع وتتابع الموقف، وأقم الحاج صالح نفسه دون سلام ولا تحية قائلاً : أنت مش ناوى ترحم بنتى خضرة يا مصطفى ؟.. أنا نصحتك ألف مرة قبل كدة وضغطت على البنت، لكن أن يصل الأمر أن تضربها كل ليلة بالوحشية والوقاحة دى؟، فرد مصطفى محاولاً أن يجمع شتات نفسه : أنا مش فاهم أى حاجة !!.. مين بيضرب مين ؟، فأكملت الحاجة : مين ؟، وكان مصطفى فى شبه غفلة، فهو لا يستطيع أن يرد أو ينكر أو يؤكد شيئاً مما يسمع، إلا أنه قال : أنا عمرى ما مديت ايدى على خضرة ولا غيرها، فاستمرت الحاجة يعنى بنتى كاذبة ؟، فرد مصطفى : أيوة كاذبة، فرد الحاج صالح وزوجته فى صوت واحد : لا يا مصطفى ..لا نسمح لك أن تقول على خضرة كاذبة ..أنت زودتها قوى .. احنا كنا ساكتين علشان عضم التربة، لكن بعد الآن لا .. أنت تطلق خضرة بالمعروف يا مصطفى ..أنت مش بتاع جواز، وانفرد به الحاج

مصطفى على جانب : اسمع يا مصطفى ارجع البيت دلوقتى وفكر بينك وبين نفسك لوحدك ونحل الموضوع بعد كدة، وافهم أن خضرة رافضة الرجوع إلى بيتك مرة ثانية وطالبة الطلاق.

وهنا خرج مصطفى غاضبا دون أن يلقي السلام، واتجه مباشرة إلى رباح الغازية وكان يتحدث إلى نفسه غاضبا مما حدث ، وقد وسوست له نفسه أن يطلقها فعلا فماذا سيخسر ؟ فقد تعلم الصناعة والوقت قد حان الآن ليترك هذه البلدة ويبيع الأرض ويفتح تجارة جديدة فى مدينة العاص.

و ما إن وصل مصطفى إلى رباح، كانت نائمة فى العشة، وكانت عادة تنام خلال النهار وخاصة أن الشمس فى كبد السماء، وكذلك مصطفى فإن وجوده على غير العادة فى الوقت فى هذا المكان، واستغربت جدا، ولكنه عاجلها وقص عليها ما حدث، فسكتت ثم قالت : أنا كنت دائما احذرك من هذه الزيجة وهذه العائلة، فأنت وحدك فى بيت الأفاعى ، وأرجو أن ما حدث لا يكون مقدمة لعاصفة قادمة قد لا تكون مستعدا حتى تستطيع ردها أو احتمالها، فضحك بسخرية قائلا : ليس لهم عندى شىء، فالأرض أرضى والبيت بيتى والمال مالى، فقالت رباح: لا يا مصطفى، الموضوع ليس سهلا فأنا أشم رائحة مؤامرة دنيئة ليست بالهينة كما تتخيل وتتكلم، صالح من كبار أهل البلدة وكلمته مسموعة وله نفوذ وأرضك فى عبه بالكامل.

- يا ريتك سمعت كلام الحاجة الله يرحمها وخالتى نبوية الغلبانة، أنا قلبى مش مطمئن يا مصطفى، شكلهم بيدبروا حاجة لك، أنا قلت لك خلى بالك من نفسك، خضرة مراتك



لم تكن تسمح لك أن تأتي هنا كل يوم دون اعتراض إلا  
لشيء قد دبرته، فهي صغيرة السن ولكن نابها أزرق فهي  
نسل الحاج صالح والعقربة زوجته، ربنا يستر عليك .

- فرد مصطفى : بلاش تعملى لهم حساب أكثر من اللازم،  
هو الطلاق وخلاص، حضرى لنا حجرين وزجاجة  
علشان نعرف نفكر، فردت رباح وهي صارمة الوجه :  
اسمع يا مصطفى من هنا وطالع حتى تحل المشكلة يجب  
عليك أن تكون واع وتعرف ماذا يدور حولك، فسكت  
مصطفى وقال : معك حق .. لكن اليوم خمر وغدا الأمر .

وحقيقة رغم أن مصطفى قد احتسى كثيرا من الخمر والحشيش  
ورغم أن رجليه لم تكن تحمله، إلا أن عقله كان يزخر ويعمل في  
كل اتجاه بين خوف ورجاء، استكبارا واستعلاء، ضياع ولقاء،  
وفجأة قام من على المنضدة وقال : أنا سأرجع إلى البيت .

وحاولت رباح حاولت أن تمنعه من أن يمشى إلى البلدة في هذه  
الحالة، فالأيام الآن قد تغيرت، وكانت رباح ترى مصطفى بمرآة  
حبها، ولكن هي الوحيدة التي يجب أن تقف في الجانب المظلم من  
الصورة، ولكنه أصر وحاولت أن تسأله أن يستريح قليلا في  
العشة أو الخص الداخلى الخاص بها حيث ما تزال الشمس في  
السماء ولا يوجد أحد من الزبائن هناك، ولكنه تحرك بهذه  
الصورة إلى البيت، وكان يبدو واضحا عليه أنه ثمل، فهو يرجع  
دائماً إلى البيت في الظلام بعيداً عن عيون أهل البلدة، ولكن  
لسوء حظه أنه تشاجر مع بعض الفتيان بالكلام والسباب عندما  
نعتوه بالفسوق، وكانت هناك الحاجة نبوية التي أدركت أن عليها  
أن تخلصه من هذه الورطة، فتدخلت ونهرت هؤلاء الشباب

وحاولت أن تفهمهم أنه مريض وأخذته من يديه وأوصلته إلى بيته، وكانت تبكى عليه طوال الطريق، وفتحت له الباب وأصر على دخولها، ولكنها رفضت قائلة : أنه لا مكان لى هنا يا مصطفى .. كده يا مصطفى ؟ تغضب ربنا وحباييك وتجعل من نفسك مسخرة بين رعا ع البلدة ؟ حرام عليك يابنى ..

وهنا نظر إليها مصطفى وقد تساقطت الدموع من عينيه، وأدرك أنها نبوية للحظة فقبل يديها واستسمحها وسقط على عتبة الباب، فحاولت أن تحمله حتى يدخل إلى البيت، وعندما دخلت البيت قالت : لا حول ولا قوة إلا بالله ...، وأدخلته إلى الحجرة التى أشار إليها ونام فى سريرته، وقالت له : استرح يا مصطفى، تعبت نفسك يابنى وتعبتنا معاك، ارحم نفسك يا بنى وارحمنا معك، ولكن لا تخاف فإن دعاء أمك ما زال هناك، وأنا معك فأنت أمانة عندى والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين، وخرجت من الحجرة باكية فقال لها وهو يبكى: لا تبكى يا أمى ... لا تيأسى يا أمى ... أنا كنت دائما شؤم على كل من حولى، رغم أن كان عندى كل نعمة .. أنا حاسس أنى تعبان عأوز أنام وارتاح، فردت : ربنا يهديك يابنى وخرجت .

وما كادت تلك الواقعة تحدث لمصطفى وخاصة تجوله فى شوارع البلدة ثملا، ومشاجرته مع الفتیان حتى طارت أخبارها إلى آذان الحاج صالح، ففرح ...، فالرياح مواتية الآن لضرب ضربته الآن ، والكل معه وكذلك الأرض مع خضرة بل والبيت أيضاً، ولن يجد مصطفى نصيراً فى البلدة كلها، فالبلدة كلها تعلم أن موطنه هناك عند الغازية رباح وهو لا يأتى إلى المسجد أبداً وأنه

يشرب الخمر .

و سقط مصطفى مريضاً بالفعل طريحاً للفراش مدة طويلة لدرجة أنه قد أرسل طفلاً صغيراً من الشارع إلى الست نبوية حتى تعاوده، لأنه مريض ولا يستطيع أن يتحرك، وفعلاً جاءت له نبوية وقامت بتمريضه حتى بدأ يتعافى .

قد توطدت علاقة الحب بين ماري وعبد المسيح خلال الأشهر الماضية، وقد أفضى كلا منهما بحبه للآخر، وحسنت ماري ذلك الموضوع الذى دار بين رضى الفكر والدير والنفس والجسد، وكان كلا منهما فعلاً فى غاية السعادة، وكانت أسعد من الحبيبين نفرتال التى لم تدخر أى قوة فى تشجيع هذا الحب، كأنها هى التى تعيش هذه السعادة، واكتملت سعادة الجميع بأن عبد المسيح - بفضل مساعدة ماري ونفرتال لأولاده - قد زاد رزقه وعمل ساعات أكثر، وأصبح الآن صاحب مركب يدر عليه رزقاً وفيراً، وقد بدأ بالفعل فى إصلاح كوخه الذى سيكون مسكن الزوجية، ولكن كان يعكر صفو هذه الحياة السعيدة أن عبد المسيح مازال متزوجاً حيث أن امرأته على قيد الحياة .

وقد ذهب مراراً إلى الكنيسة للحصول على صك بالطلاق فلم يستطع، بل قد اتهموه فى الدير بأنه قد يكون هو قاتل زوجته ويريد أن يشوه سمعتها حتى يتزوج بغيرها، بل وصل التهديد بأنه إن حاول ذلك مرة أخرى سيبلغوا العسكر أنه قد قتل زوجته، مما كدر صفو العلاقة وأصبحت ماري مهمومة وكذلك هو من ذلك الموضوع، إلا أن نفرتال اقترحت بأن تذهب ماري بنفسها إلى الدير لتشرح للأب وليم حقيقة الموضوع لأنه يثق بها، وترددت ماري فى قبول هذه الفكرة ولكن انتهى الأمر إلى أنها قررت أن تذهب فى صباح اليوم التالى لمقابلة الأب وليم، وقد تشفع

وساطتها فى حل مشكلة عبد المسيح بما لها من مقام ومكانة فى الدير.

وعندما وصلت مارى صباح اليوم التالى إلى الدير، كان أبونا وليم فى ثورة وحالة من المزاج السيء بسبب الكتاب الذى وصل إليه من بطريرك الإسكندرية المعظم برسول مخصوص ذلك الصباح، وقد حاول البطريرك مراراً مع الأب وليم أن يجعله يحد عن طريقته فى العداء للمسلمين، حيث وصلت معظم أخبار تحركاته، وعليه أن يكون رجل كنيسة وليس رجل سياسة لتواجهه الدائم بقصر الحكم وصداقته المريبة برئيس العسكر.

وقد أشار فى مكتوبه إلى أنه على الأب وليم أن يتذكر تضحية رجال الكنيسة المصرية - فى شخص كنيسة الإسكندرية - لقرن من الزمن فى نشر المسيحية والتضحية، وكيف نكل بها الرومان والبيزنطيون، وحرق مكتبة الإسكندرية وقتل الرهبان المصريين، كنيسة ذات الطبيعة الواحدة، وكيف نكلوا بهم ليقيموا الفاتيكان على أنقاض وجثث شهداء المصريين المسيحيين، وكيف كان خلاصهم من ذلك العذاب حيث تزامن دخول العرب مصر ليساعدوهم ليتخلصوا من ذلك الظلم، وكيف أعادوا بطريرك الإسكندرية مرة أخرى إلى الكنيسة فى ذلك العهد، وأن العرب أشركوا أهل الكنيسة فى الحكم ولم يتدخلوا فى معتقداتهم، وأن كان هناك بعض السفهاء والعملاء التى تريد أن تتال من وحدة مصر بضرب الجامع والكنيسة وكلاهما مصريين مؤمنين .

وكان البطريرك قوى فى قيمته ومكانته، إلا أن الأب وليم له أنصار كثيرة من الشباب المتعصب الجاهل الذى خلفه يد فى مكان

ما سواء داخل مصر وخارجها .

وقد أثارت هذه الرسالة غضب الأب وليم، وكان ماري لسوء الحظ قد وصلت إليه و بدأت الكلام معه، وما إن فتحت الموضوع حتى أصبح وجه الأب وليم جمرة نار، فصاح فيها قائلاً: ماذا ورائك ؟ أرجعتي الدير مرة أخرى ؟، فأجابت : لا ...ولكني هنا لأعرض عليك موضوع أحد الأخوة المسيحيين الذى ينتظر مؤازرته وحل مشكلته ...، فسأل : من هو ذلك الشخص ؟ ولماذا لم يأتى بنفسه ؟، فقالت : قد جاء من قبل واسمه عبد المسيح ..، فصاح : عبد المسيح !! ..ذلك الصياد الذى يدعى هروب زوجته المخلصة مع آخر ويفترى عليها حتى يحصل على الطلاق من الكنيسة ليتزوج بك ؟؟

وكان كلام الأب وليم قد وقع كالصاعقة على ماري ...كيف يتجرأ الأب وليم أن يتحدث إليها بهذه اللهجة، بل أنه خرج عن حدود اللياقة فى الحديث موجهاً إليها جملة أكثر حدة قائلاً : أتريدين أن تتزوجى من ذلك القاتل لزوجته ؟ عليك لعنة الرب ..اخرجى من الدير قبل أن تدنسيه ...، وقفزت الدموع من عيون ماري ولم تستطع أن ترد بكلمة واحدة، وجرت إلى الخارج مسرعة متجاهلة نداء الأخوات والأخوة عليها ، وتابعها الأب وليم خارجاً مسرعاً فى أعقابها إلى ساحة الدير صائحاً : ملعونة ..ملعونة ! ..تترك خدمة الرب لتعود إلى حياة وملذاتها، واليوم تتوسط لقاتل حتى تتزوجه، عليك أن تخبرى عبد المسيح أنه إن حاول مرة أخرى أن يعود إلى ذلك الموضوع سأخبر العسكر أنه قتل زوجته ...

وما إن وصلت ماري إلى باب الدير كان لحسن حظها جرجس

واقفا فى انتظارها أمام الدير، وما إن رأى مارى تخرج على ذلك النحو، لا تعلم طريقها متخبطة فى أعواد الزرع حول الممرات، والدموع تتساقط منها وسمع أصوات النداء عليها، فبادر بسرعة بالتوجه إلى مكانها وطلب منها أن تدخل إلى العربة ليوصلها إلى البيت، فقد أيقن أن شيئاً ما قد حدث ..

وكان ظهور جرجس أمامها بمثابة إنقاذ لها فدخلت العربة، مع أنها كانت فى عالم آخر، ولم يتحدث إليها جرجس، تاركاً إياها فى دموعها وأحزانها، فهو لا يريد أن يقتحم حياتها أو يتدخل فى أمرها على غير هواها .

وما إن وصلت مارى البيت حاولت مسح دموعها التى بللت وجهها بردائها، وسألت جرجس أن يأتى ليشرّب شيئاً ما، ولكنه نزل ليساعدها لتصل إلى باب بيتها، وما إن طرقت الباب حتى ظهرت نفرتال وفزعت لما رآته فى عيون مارى من دموع وحزن، وعلمت أن شيئاً فظيعاً قد حدث بينها وبين الأب ولیم، فسألت جرجس : ما بها، فرد : لا أعرف ..أنا وصلتها وعلى أن أرجع بسرعة إلى الدير، وأدخلتها نفرتال وسلمتا على جرجس وشكرتاه على صنعه.

وأجلست نفرتال خالتها مارى التى انخرطت فى البكاء بشدة ولم تستطع أن تتمالك نفسها قائلة : أنا ملعونة؟ أنا مطرودة من رحمة الرب؟ ماذا أقول ؟ أنت الشاهد يارب على وعلى فعل ذلك الرجل، فبرحمتك أستغيث ....وسارعت إليها نفرتال بكوب من الماء وأخذت تهدىء من روعها وتمسح دموعها حتى تسكن جراحها.

وما إن بدأت مارى تهدأ حتى طرق الباب، وكان عبد المسيح

والأولاد، وفتحت نفرتال الباب وسارعت ماري بالدخول إلى غرفتها ومعها الطفلين، وأغلقت باب حجرتها بعد أن أدخلت عبد المسيح إلى حيث تجلس ماري، وكان في لهفة ليعلم ماذا حدث في الدير، ولكنه لاحظ آثار الأخبار السيئة بداية على وجه نفرتال ودخل إلى ماري، وكانت ماري قد سارعت بغسل وجهها عندما سمعت صوت عبد المسيح والأولاد.

وقامت نفرتال بعمل عصير الليمون لهما، حيث كان عبد المسيح في انتظار ماري، ثم خرجت ماري وسلمت على عبد المسيح، وقالت بصوت منخفض : شيء فظيع .. غلطة أنى ذهبت إلى ذلك الرجل الذى لا يعرف شيء عن الكرامة الإنسانية، لقد سمعت منه أقوالاً فظيعة، وقد هددنى ولعننى، وقال إن حاول عبد المسيح أن يحصل على ذلك الطلاق مرة أخرى سيخطر العسكر أنه قتل زوجته، فهب عبد المسيح فرعا : ماذا ؟! ..، وهنا تتدخل نفرتال قائلة : طالما أهلها موجودين فهم من سيشهدون بما حدث، فرد عبد المسيح : لقد رفضوا أن يجعلوا سمعتهم مضغة فى أفواه قريتهم بالرغم من أنهم يعرفون الحقيقة كاملة، بل أنهم يعرفون مكانها الذى تخنقى فيه، فردت نفرتال : أنى أمقت ذلك الرجل البشع وأمقت الأديان كلها، كلهم كاذبون ومنافقون، فردت ماري : لا يا نفرتال لا تفقدى إيمانك فالمشكلة ليست فى الأديان، المشكلة فى من يستخدم الأديان ويتلفح بها كملايس يظهر بها كل منهم على الآخر.

وقال عبد المسيح : لا أعلم ماذا أفعل !!، ماري دعينا نرحل من هذه البلدة ونذهب إلى الصعيد ونبدأ حياتنا والله شاهد على أننا أبرياء وأطهار، أردفت ماري: يا عبد المسيح لابد من إتمام



طلاقك بالكنيسة أولاً، فقالت نفرتال : نعم الرأى يا عبد المسيح دعنا نذهب إلى أرض أخرى ونبدأ حياتنا، فالجميع هنا لا يحبونا ويتجنبوننا، ويصفونا تارة بالكفرة وتارة مرتدين وتارة ملعونين ...، مارى لابد أن تفعل شيئاً..

وقال عبد المسيح : لا يمكننا الآن الخروج بسهولة من بحرى إلى صعيد مصر، فالكوليرا منتشرة حولنا، ولا يسمح بالدخول والخروج من بعض القرى، وردت مارى : نعم هذه حقيقة، سمعت عن أخبار سيئة فقد ظهرت حالات حولنا، فرد عبد المسيح : نعم ..إن شيخ الجامع وزوجته وأولاده فى حالة يرثى لها، وفزعت مارى : زينب وأولادها؟، أنا لازم أروح أمرضهم وأشترك مع جماعة الصحة، فقد سمعت أنهم طلبوا ناس للتدريب على الوقاية والتمريض، فصرخت نفرتال وعبد المسيح : لا لا نريد مزيد من المأسى ولا شأن لنا بهؤلاء الذين يرفضوننا ويعاملوننا بوحشية وخاصة شيخ الجامع هذا ..، فردت مارى : لا عليك يا نفرتال، نحن نتعامل مع الناس بما نحن أهل له وليس بما هم أهل له، و بعدين إن شاء الله نشوف موضوع الخروج إلى الصعيد بعد أن ينتهى هذا الوباء من البلاد، فالوباء وبال من عند الرب لأن الناس فى ضياع وظلم .

وما إن غادر عبد المسيح المكان، يملأ قلبه الحزن وجعل أمله فى أن يذهب إلى الصعيد بعد انتهاء الكوليرا حتى يحاول الزواج والاقتران بمارى، وأما مارى فقد عقدت العزم على الذهاب للالتحاق بجماعة الصحة لتكون ممرضة فى فريق مكافحة الكوليرا، رغم معارضة نفرتال لها.

وبدأت مارى مشاركتها الفعلية وكان من نصيبها ناحية بيت الشيخ

الشبراوى وزوجته، وما إن رأتهم فى هذه الحالة، حتى عملت كل ما تستطيع حتى تخفف من آلامهم التى استمرت عدة أيام حتى قابلوا الموت، وقال الشيخ شبراوى وهو فى سكرات موته ناظرا إلى مارى : أنت ملاك يا مارى ملاك ..خسارة... أنت خلقتى لتكونى مسلمة وليس مسيحية، فردت مارى: أن الرب واحد ولكن نحن نفرق ونجلد ونحرق، ارتاح الآن .

وما إن انقضت الليلة حتى وضع على باب منزل عائلة الشيخ الشبراوى علامة واضحة بعدم الاقتراب لوجود الوباء بالبيت ووفاة أهل البيت جميعا به، وحزنت مارى ولكنها استمرت فى التمريض وكانت نادرا ما تذهب إلى البيت إلا لتطمئن على نفرتال، وقد حاولت نفرتال أن تجعل مارى تعدل عن رأيها فى المضى قدما فى موضوع التمريض للوباء، فهى تخاف عليها ولا تريد أن تفقدها .

إلا أن الأخبار المؤسفة طالت أيضاً بيت عبد المسيح، فقد أصابه الوباء هو الآخر، مما جعل مارى تفقد عقلها فهى تعلم أنها نهاية للنهائية، وجففت الدموع على خديها من كثرة البكاء لموت الأحباء وغيرهم، وساءت الأحوال بعبد المسيح والطفلين، وشارفوا على الموت، وخارت قوى مارى وأحست أنها قد أصيبت هى الأخرى، فآثرت البقاء مع عبد المسيح والأولاد، وحاولت نفرتال زيارتهم، إلا أن الحرس منعها من دخول ذلك البيت الموبىء الذى شارف أهله على الموت، وكادت أن تجن ..ماذا تفعل؟؟، وأصررت على البقاء خارج الحدود رغم دفعها من العسكر حفاظا على حياتها، حتى رأت علامة الموت على الباب ... فقد ماتت مارى وعبد

المسيح والأولاد... وكانهم أصروا على البقاء معا والهجرة معا إلى مكان آخر ليعيشوا فى سلام وأمان، بعيدا عن ذلك العالم الذى اهتم بظاهر النص وباطن النص واختلاف النص وغرق فى تعاليم وطلاسم.

وحاولت نفرتال أن تلحق أو ترى حتى جثة خالتها مارى، ولكن لا جدوى، فالجثث تحرق أمام عينيها، وحرصت الصبية على النظرة الأخيرة، ولكنها سقطت على الأرض، وحاول بعض العسكر مساعدتها إلى الذهاب إلى البيت، وسقطت نفرتال وحيدة فى بئر من الأحزان مرة أخرى، ولكن هذه المرة هى تعى حقيقتها وما حولها .

ووجدت نفسها مرة أخرى فى مقبرة رغم وجود الناس حولها، فالحياة لها كانت الخالة مارى، هؤلاء الناس الذين عذبوا مارى ونفرتال وعبد المسيح، ويعذبون أنفسهم ويجعلون الأديان لعنة عليهم منهم وإليهم. وكان قرار نفرتال الأخير هو أن تعود إلى الكهف والمقبرة وساحتها وتراب و لمعبد مرة أخرى، حتى تخرج من هذه الحياة المشحونة بالآلام و الأحزان والكوارث والمآسى التى اصطنعها البشر ليدمروا حياة الآخرين، يزعم أنه دين أو عبادة دون رحمة، تلك الأصنام المصطنعة وليس لها أساس من الصحة .

وهنا حزمت نفرتال أمرها وذهبت إلى جرجس، بعد أن تم فك الحصار الصحى الذى منع العائلة المنكوبة من التحرك إلى قبلى الوادى، الذى علم هو الآخر بموت الأحياء، سائلة إياه أن ينقلها

إلى البلدة مرة أخرى، وكان جرجس لا يصدق ما حدث للقديسة  
مارى ولا نفرتال، وأن ترجع نفرتال مرة أخرى إلى ساحة المقبرة  
كما أخبرته، وحاول جاهدا أن يثبتيها عن عزمها، لتعيش مع أهل  
بيته على الرحب والسعة، ولكنها رفضت وأصررت على ما  
عزمت .

وعادت نفرتال إلى حيث أنت ...

وقضى مصطفى أكثر من أسبوعين فى الفراش، وكانت الحاجة نبوية تخدمه فى مرضه وتعيّنه على همه، إلا أنها مازالت فى بيتها ولم تعد إلى الإقامة مع مصطفى مرة أخرى، وكان ذلك المرض فى صالح مصطفى أن أعطاه فرصة حتى يبتعد عن شرب الخمر وتعاطى الحشيش، فعاد مصطفى إلى وعيه مرة أخرى .

وقد علمت رباح بمرض مصطفى فأصرت على زيارته، لأنها تعلم ماذا به، وقد ترددت من قبل فى القيام بهذه الزيارة، وأخفت رباح وجهها تحت الملابس التقليدية لنساء البلدة، متلصصة طريقها إلى بيت مصطفى، وكان مصطفى جالسا معها فى صحن الدار يتجاذبان أطراف الحديث فيما حدث له .

وما إن طرقت رباح الباب حتى قامت الحاجة نبوية بفتحه ووجدت تلك المرأة فى وجهها تبادر بالسؤال عن مصطفى، فتعجبت نبوية من شخصية تلك المرأة، فهى لم ترها من قبل أو حتى سمعت صوتها، فسألته : من أنت ؟، فأجابت : أنا يا خالة نبوية .. رباح .. جئت أسأل عن مصطفى، فصاحت نبوية قائلة : قصدك رباح الغازية ؟ .. كيف تجروئين على زيارة مصطفى؟ ...، وهنا تدخل مصطفى بعد أن سمع صوت نبوية العالى وسمعها وهى تصرخ رباح الغازية !!.. فهرع إلى الباب قائلا : ادخلى يا رباح، فقالت له نبوية : حرام عليك يا مصطفى، أنت سوات سمعتك، البلدة كلها فى سيرتك السيئة، وكمان تلك الغازية تريد أن

تحطمتك فتأتى فى وضح النهار، فقالت رباح : ليه كدة يا خالتي ..حرام عليك، أنت لا تعلمى مقدار معزة مصطفى عندى، فقاطع مصطفى كلاهما قائلاً : يا حاجة نبوية أنك لا تعلمين شيئاً عن هذه المرأة إلا ما سمعتى عنها من إشاعات وحكايات، وأقسم لك برحمة أمى الغالية أنها ست مخلصه، فردت نبوية : أنا سأعود إلى بيتى الآن ، أنا لا أستطيع البقاء هنا، وخرجت . وأما رباح فبكت بكاء شديداً وقالت : لا يا حاجة نبوية أنا شفت مصطفى واطمئنيت عليه وسوف أخرج الآن ، أرجوكى لا تتركه فهو فى حاجة إليك، وألقت رباح السلام وخرجت.

وكانت رباح صديقة فيما قالت، فانقطاع مصطفى عنها وانتشار خبر مرضه فى البلدة وخاصة فى هذه الظروف كان وراء قلقها الذى دفعها للمجازفة بهذه الزيارة .

إلا أن هذه الزيارة قد وصل خبرها إلى الحاج صالح الذى نصب عيونه على مصطفى وما يجرى حوله، وقد انتعش قلبه بهذا الخبر، الذى سيجعل من الزيارة دليل على فسوق زوج ابنته، لتكتمل حبال المكيدة حول مصطفى .

وقد بدأ الحاج صالح تحركه لإكمال ما بدأ، فاستغل سوء سمعة مصطفى بين أهل البلدة، فأطلق الشائعات والحكايات التى تضع من سمعته أكثر وأكثر، وخاصة واقعة أن مصطفى قد دخل البلدة وهو سكران وقام بالمشاجرة مع بعض الصبية، وأخذ يترنح فى الطرقات، وزاد النار اشتعالاً بنشر خبر زيارة الساقطة رباح له فى بيته لتمارس معه الرزيلة، وما كان عليه إلا أن يدعو شيخ

الجامع للأكل فى بيته دائماً ويمده باللحم والشحم، ويمده بالمادة، فيصل ما يريد أن يقول إلى كل بيت فى البلدة، وقد أشاع أن مصطفى قد أفلس وفقد عقله من الخمر، وقد أظهر الحاج صالح الإيصالات القديمة والصكوك إلى كبار أهل البلدة بعد أن أضاف أرقام إلى الأرقام، وتدرجياً أشاع أن مصطفى قد باع الأرض لزوجته خضرة حتى يسدد ديونه ويرضى خضرة التى أصبحت فى موقف لا تحسد عليه كزوجة من ضرب وسكر كل يوم من رجل فقد عقله ودينه.

وكانت انتشرت الأخبار والشائعات حول مصطفى وحاله، وفى ذلك الصباح قدم الحاج صالح إلى مصطفى ليبلغه أن خضرة قررت الطلاق، وأنه قد اتفق مع كبار البلدة وشيخ الجامع لحضور واقعة الطلاق التى ستكون الخميس القادم فى داره، ولم يعقب مصطفى على شىء، واعتبر ذلك الطلاق خير عليه.

وعندما قام مصطفى بفتح دولابه الخاص لإخراج وثيقة زواجه من خضرة لم يجد أوراق الملكية التى أعطته إياها الحاجة نبوية بعد موت أمه مع المصوغات، وقد وضعها مصطفى بذات اليوم فى الدولاب، ولم تمتد إليها يده منذ ذلك اليوم، وهاج مصطفى وماج، وكرر البحث عن هذه الأوراق ولم يجد أياً منها إلا ورقة زواجه .

وأسرع مصطفى إلى الحاجة نبوية ليستفسر عن هذه الأوراق وما إن دخل بيتها يلهث حتى سألها، فأجابته بالنفى وكاد مصطفى يجن، فسأله نبوية أن يهدىء من روعه لعل تكون الأوراق قد نقلها هنا أو هناك وهو فى غير وعيه مثلاً، لكنه رد بالنفى : لا لا أنا بحثت عنها فى كل مكان ...لازم اتسرقت من الدولاب ..،

فردت نبوية : مين يا مصطفى غيرك فى البيت وخضرة ؟...خضرة ! ...خضرة !!...، مصطفى أنا فهمت دلوقتى اكيد الحرامية ...خضرة عملتها ...

وتركها مصطفى وأخذ يجرى وهى تتادى عليه يا مصطفى ..ارجع يابنى، ارجع...الأمر تحل بطرق مختلفة ...، ولكنه استمر يتحرك بسرعة فى اتجاه بيت الحاج صالح، وما إن وصل حتى وجد الحاج صالح واحد أعيان البلدة يحتسون ساخن الشراب ويدخنون فى قعدة أمام البيت، وكان معهم شيخ الجامع الذى يصب بعض الينسون من البراد الصاج فى الأكواب، وكان مصطفى مذعورا وفى حالة هياج فقال : ماذا يحدث يا حاج ؟ ازاي بنتك خضرة تسرق أوراق الأرض والبيت من الدولار ؟ زوجة أمينة ولا لصة شريفة ؟ ولا ده معناه ايه ؟، وهنا انزعج الحاج ونظر فى اتجاه مصطفى قائلا : يابنى أنت فايق ولا سكران ولا مش فى وعيك، علشان تيجي بيتى وتتهم بنتى بسرقة أوراق من دولابك أمام ضيوفى ؟، اشهدوا يا جماعة على نقصان العقل، فرد شيخ الجامع : هو أنت مافيش حد عاوز تحترمه فى البلد ؟ كل يوم مصيبة؟، وأضاف الحاج صالح : وبعدين يابنى يا مصطفى أنت مش بعت كل حاجتك إلى خضرة علشان تسدد ديونك وتصرف على الفجور ونساء الليل ؟ وكيف ترمى المحصنات العفيفات بأحقر التهم ؟ أنا ارتكبت خطأ كبير عندما زوجتك من بنتى.

وهنا رفع مصطفى يده فى الهواء وبدأ يضعها على أذنيه وفتح فمه بوسع قائلا : يا ضلالى أنا بعت أملاكى لبنتك ؟ وكمان ديون ؟ ما أنت قلت مافيش بيننا حاجة، يا راجل يا عديم الرجولة...



وفجأة تجمع الخدم والمزارعون الموالون للحاج صالح حوله، فقال : أقسم بالله إن لم تقفل فمك وتذهب من هنا سوف أضربك شر الضرب، وأكمل شيخ الجامع : يمين على يمينك يا حاج ما أحد يفعلها إلا أنا ..ذلك الفاسق الملعون ..، وخاف مصطفى وتراجع وقال أنى سأذهب إلى العسكر والقاضى، فرد صالح : اذهب كما تريد أن تذهب، توقيعائك على أوراق البيع، وبالمرة طلق الآن خضرة وإلا لن تذهب من هنا، طلق وهنا الشهود، فما كان من مصطفى إلا أن أوقع الطلاق، ثم صاح الحاج صالح : عليك الآن أن تترك البيت فى خلال أسبوع من الآن ..سأمع يا مصطفى؟ ..

أسيب بيتى وبيت أبويا وأمى ؟ أنت بتحلم .. أنا لن أترك بيتى أبداً، وخرج مصطفى مسرعاً، ثم عرج على الحاجة نبوية والتي كانت تتوقع كل هذا، خاصة أن الشائعات حول البيع والطلاق قد ملأت أذان سكان الناحية من البلدة، فالحاج صالح قد بث سمومه فى كل اتجاه، وقد نجح فيما أراد، وضاع كل شيء من مصطفى....

وعندما عاد وحكى لنبوية بكت وقالت : حذرتك من ذلك الضلالى والعقربة ابنته، والحاجة الله يرحمها حذرتك، وأنت برضه تقفل ما يتلوه عليك عقلك لك ولا تعبأ بكلام أحد .. ما العمل الآن يا مصطفى ؟.. أنت فعلا مضيت على أوراق البيع ؟ لو كان ختم ولو كنت جاهل كان ممكن نقول حاجة ثانية ...لكن الناس بتقول توقيع على الأوراق ..أنت وقعت فعلا يا مصطفى ؟؟

لا ..لا يا حاجة، طيب يابنى أصدقك ولا أعمل ايه ..وأنا شايفة وكل البلد عارفين حالك وشهود على أفعالك !!، فبكى مصطفى :

يعنى ايه؟؟ اخرج من بيتى وأسلم أرضى وأعيش صايع بقية حياتى؟! ..مصطفى ..وقت البكاء مر ..يجب الآن أن تفكر ماذا ستفعل فى المصيبة اللى أمامنا الآن ، فكر يا مصطفى يمكن تفكيرك يهديك إلى حل للمصيبة والكارثة التى نعيشها .

اسمع يا مصطفى ..لماذا لا تذهب إلى شيخ الجامع وتحكى له الحكاية، فرد مصطفى على الحاجة نبوية : شيخ الجامع ؟.. ده كل يوم أكل وشرب عند صالح وكان هناك وكان علوز يضربنى...لا حول ولا قوة إلا بالله يابنى ..معقول !! أجمعت عليك شياطين الأرض، لا لكن اللوم عليك أنت ..أنت اللى مكنت الكلاب من نهش لحملك ...يارب استر ..

ثم أخذ مصطفى يجر رجله للخارج، تاركا نبوية وهى تقول له يابنى خذ بالك من نفسك، ما عندك إلا صحتك دلوقتى ..اهدأ اليوم وربنا يسهل غذا ..هو العالم ...، ومضى مصطفى فى طريقه إلى رباح ... الصدر الحنون الوحيد له الآن ، ودخل عليها وكانت فى لهفة إلى أن تراه وتعرف ماذا حدث له، بعد ما سمعت عما دار بين صالح ومصطفى وأمام الجامع على الملاء، وقد انتشرت الأخبار سريعا حتى وصلت إلى العشة، فقالت : اقعد يا مصطفى، اعمل لك حاجة سخنة تشربها فأنت فى حالة يرثى لها ..اقعد هنا وأنا راجعة على طول، ورجعت سريعا ببعض العنب، وكان هناك همز ولمز حول مصطفى من المتواجدين، فقالت رباح بصوت واضح وصريح : اللى علوز يقعد هنا، يقعد مؤدب ويدخل لسانه فى فمه وإلا ...ولم تكمل مشيرة بإصبعها إلى الخارج ..، وقالت: لا تحزن

يا مصطفى، فرد مصطفى : معهم حق أنا اللي عملت كده فى نفسى، كل المشاكل والبلاوى دى أنا السبب فيها، لو كنت سمعت كلامك ولا كلام نبوية وأمى، لكان الحال غير الحال ... مش قادر اتصور أنى أصبحت فقيراً معدوماً لا سند لى ولا مال ولا بيت، أنا كنت غبى .. غبى... غبى... وأعمى القلب...

وردت رباح : لا معنى لهذا كله الآن يا مصطفى، أنا بحبك وأتمنى رضاك وراحتك لكن لا أستطيع عمل شىء لك، لو كان عندى فلوس كنت خليت رجال الليل والمطاريد يجيوا لك حقك، ولكن دول يحتاجوا فلوس كثيرة جداً وترتيبات صعبة جداً... الموضوع معقد، ربنا يحل البلوة دى ...، ورد مصطفى : أنا أقوم أروح دلوقتى، عاوز أنام، عاوز أفكر أعمل ايه، أنزل مصر بكرة الصبح أشوف حد ممكن يساعدنى، أنا أعرف واحد من أصدقائى يمكن أبوه على صلة بكبير العسكر يمكن يساعدنى ... وأخذ مصطفى طريقه إلى البيت عازماً على الذهاب إلى مدينة العاص لعل أحد أصدقائه يساعده هناك.

ورغم ما ذكره عن صديقه فإنه ليس حقيقة أنه سيساعده لأن مصطفى يعرف أن الأغنياء يحبون الأغنياء، واليوم هو ممن لا يملكون شيئاً، لا مال له فلا يستطيع أحد أن يحل أمره، وأدرك وقتها أنه قد فقد شيئاً عزيزاً وهو .. المال ...

وما إن وصل البيت حتى وجد الحاج صالح فى انتظاره، طالباً أن يكلمه فى الأمر فى هدوء، فأدخله، فقال له الحاج صالح : خد يابنى .. ومد له يده بمبلغ من المال، فسأله مصطفى : ما هذا ؟!، قال صالح : كل ما أستطيع أن أساعدك به هو هذا المال لتدبر

أمرك، ولكن اعلم أنه عليك ترك هذا البيت الأسبوع القادم، فرد مصطفى : أنت حرامى، فقال صالح : من غير طولة لسان، الولاد برة يقطعوك، اسمع الكلام، ثم خرج، وسقط مصطفى على الأرض باكيا .. فالأمر أصبح حقيقة لا مفر منها، حقيقة سوداء، كارثة واقعة.

ومضى الليل ليس أطول منه ليل، وفى الصباح جاءتة نبوية فقص عليها ما حدث، فقالت له : الأمر لله يا مصطفى، أنت رجل وشاب وعندك صحتك، ولعل ما حدث لك يكون درسا وأنا بيتى مفتوح لك، أنا عايشة لوحدى من سنين طويلة، منذ أن تركنى ابنى (علي) وذهب للجهاد، ولم يعد حتى الآن ، وكان الأولى به أن يكون معى وأنا محتاجة له، ولا أعلم عنه شيئا ..حى أم ميت ..، أنا عارفة يابنى أن البيت مش مقامك ولكن هو من خيركم، فقام مصطفى وقبل يديها وأخذ يبكى والدموع تنهمر من عينيه، وقال لها أنه ذاهب إلى قبر أمه يبكى عندها .. وخرج إلى ساحة المقبرة حيث دفنت أمه، فصاحت نبوية : المقبرة الآن يا مصطفى؟ ألا تخاف أن تذهب هناك لوحذك الآن ؟ فالشمس قد غادرت السماء، فرد عليها : لعلى أجد مودة سريعة على يد النداهة أوعفريت كما يقول أهل البلدة، فردت نبوية بحنانها المعهود : لا تيأس يا بنى ..أنا واثقة أن الله لن يتركك بالرغم من سوء عملك ولكن دعاء أمك الست الطاهرة باقى لك ...

عندما عادت نفرتال إلى ساحة المقبرة، وجدت كلبها صديقها (تراب) الذى كبر فى السن وأصبح أكثر شراسة، وفرح كل منهما بلقاء الآخر، فالحب الحقيقى وصداقة المكان والزمان تربط بينهما .

ولم تتغير حياة نفرتال عن سابقتها فى المقبرة، فهى ترقد فى الكهف مع أهلها القدم، لتستيقظ صباح اليوم التالى وهم نيام لا يستيقظون، وهى تصطاد كما اعتادت من الجدول الصغير خلف فتحة المغارة الخلفية، ولا مانع من بعض الفواكه أو الخضراوات التى لا تبعد كثيرا عن ساحة المقبرة، واعتادت ارتيادها ليلا، فهى كما يعرف الجميع لا تهاب العفاريت والجن.

ومازال أهل البلدة يملكهم الخوف والفرع من ساحة المقبرة بالرغم من علمهم بقتل اللصوص منذ سنين فى المغارة، إلا أنهم يخافون أن يقتربوا منها الآن أكثر لاعتقادهم أن الأرواح الشريرة قد زاد عددها فى الساحة، فالمغارة قد ضجت بالأموات والعفاريت والمقتولين .

وكانت نفرتال تعاود مجلسها أمام فتحة المغارة ناضرة إلى أطيايف الموتى ليلا، ولكن يبدو أن حياتها مع البشر قد قللت من قدرتها على رؤية هذه الأطيايف عن سابق زمانها ولكنها كلما بقت فى المقبرة، كلما ظهرت بوضوح أكثر الأطيايف لها، يبدو أن قوتها تعود تدريجيا كل يوم آخر يمر عليها فى المقبرة .

وقد عاودت مرة أخرى زيارة المعبد الفرعوني خلال الصباح الباكر، وعادة تقضى نهارها داخل المغارة هي وكلبها تراب، خوفاً من أن يعرف أحد مكانها، إلا أن بعض المترددين على ساحة المقبرة قد رأى خيالها، فنسجت إشاعات مرة أخرى بأن المقبرة تسكنها النداهة مما زاد الرعب في البلدة، وكان بالطبع في صالح نفرتال .

وأما مصطفى فأصبح في حالة يرثى لها بعد أن أجبر على طلاق خضرة وفقد أرضه وداره، ولم ينصره أحد في البلدة، وخاصة أنه قد ساهم أكثر منهم جميعاً في تلويث سمعته وضياع ماله، ورغم أن الغازية تعشقه إلا أنها هي نفسها عاجزة عن مساعدة نفسها، وقد قامت خادمته نبوية بإيوائه في دارها، فهي التي كبر في حجرها وهي المخلصة لوالدته الراحلة .

ولكن مصطفى أصبح هائماً على وجهه لا يفهم منه شيئاً، فقد أكل الحزن عقله وقلبه، ولا يعرف من أين يبدأ ؟ ولا حتى كيف يبدأ ؟، فماله يتمتع به الخونة تحت عينيه، ولا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة ليخلصه من مغتصبه. وتحول مصطفى إلى إنسان يائس نادم، وكان معظم وقته يذهب إلى قبر والدته، يبكي أمامه وبيدي ندمه على حاله طالبا الصفح والمغفرة حتى تعود له كرامته وماله برضاها عليه .

وقد لاحظت نفرتال ذلك الشاب الدائم التردد في ناحية ساحة المقبرة حيث يستغرق دائماً وقتاً طويلاً ليبكى دائماً أمام قبر والدته، وقد رأت أيضاً طيف ساكنة هذا القبر شديد التوهج ليلاً، وكان الطيف قديماً هائماً وأصبح الآن قلقاً في مرقدته في انتظار

لذلك الشاب الذى يأتى له كل يوم، وقد أثار ذلك الشاب تساؤلات فى عقل نفرتال، فهى لم تر أحدا فى مثل حزنه الدائم وحاله الذى يرثى له، حيث يقضى معظم وقته بالنهار أمام ذلك القبر باكيا، رغم أنه يعلم كباقي أهل البلدة بأن الشياطين والعفاريت تسكن هذه الأرض، إلا أنه لا يخاف كل ذلك، لابد أنه يحمل شيئا داخله.

وقد راود نفرتال بعض الأفكار لعلها قد تقترب من ذلك الشاب فتسمع منه وتخفف عنه، ولكنها أدركت أن هذه فكرة مخيفة فى ذات الوقت، فقد يفرع أو يجرى أو يحاول اصابتها بأذى، أو لا تجد مادة للكلام معه، وأدركت أن حالة السكون التى تعيشها بعد ما حدث لها منذ موت خالتها ماري، قد تكون هى الحل .

إلا أنها قد قررت أخيراً أن تقترب منه، فهى تعلم جيدا أن لديها قوة ما ستكون فى حمايتها، فلن يستطيع أحد أن يصيبها بأذى، وخاصة أنها أيضاً معها كلبها الشرس تراب، وقررت فى التو والحال أن تدع قدميها تأخذ الطريق حيث هو فى أحزانه أمام ذلك القبر اليوم التالى .

وما إن أتى مصطفى فى اليوم التالى وأخذ موضعه المعتاد وبدأت مناجاته ودموعه، حتى أخذت نفرتال طريقا خلفيا لتمر به واقتربت منه ولكنه لم يلحظ أن أحدا خلفه، فهو فى عالمه الحزين . وما أن تحرك تراب فنظر مصطفى خلفه، وفرع عندما رأى وجه تراب الشرس، فبادرت نفرتال قائلة : لا تخف إنه كلبى ..فأدرك أن فى الجهة الأخرى فتاة ...، فسأل : من أنتما ؟، فأجابت نفرتال : أن والدتى تقطن ذلك القبر منذ زمن بعيد ..وأنا أشتاق إلى زيارتها، فرد مصطفى بصوت مختنق وقد جفت

الدموع على وجهه وظلت آثارها هناك : ولكننى أتى إلى هنا منذ مدة طويلة ولم أرك من قبل، فردت : عادة أنا أزور قبر والدتى بعد الغروب، فسكت ونظر باستغراب إليها ..شئ محير أنك تقولين أنك تأتين هنا بعد الغروب، والآن أراك وحدك ..كيف يكون ذلك وهذه أرض الموت، و ما من كائن فى هذه البلدة إلا ويعلم أنها أرض الموت والشرطيين ..ألا تخافين كل ذلك ؟، فتراجعت نفرتال خطوة إلى الوراء ثم بادرت قائلة : بل أنا على علم بما تقول ولكن أهلى يقيمون قريبا من هذه الناحية، وأشارت بيدها إلى خلف الجبل، وأعلم طريقى جيدا وهذا كلبى تراب لا يتركنى لحظة، ولى فى زيارة قبر أمى شوق عظيم، وبزيارتها أستطيع العيش ليوم آخر ..، ثم سكنت ..ثم أكملت : أما أنت فمن الذى يرقد تحت التراب فتأتى دائماً كما قلت من قبل ؟ وأراك فى ذلك الحزن العظيم والدمع الدائم.

فقال مصطفى : أمى ..نعم أمى ..فقد ماتت منذ أكثر من عامين، ولكننى مت معها منذ ذلك الوقت، ما عملت يوما بنصيحتها، ولم أصغ إليها مرة واحدة، حتى رحلت عن عالمنا ثم ضاعت آمالى وأحلامى، بل قد تبدد مالى وأصبحت معدماً فقيراً، وأتى إليها كل يوم أبكى إليها وأشكو لها ما وصلت إليه وألوم نفسي وأتمنى أن أرقد إلى جانبها، وأخذ فى البكاء جالسا على ركبته جاثياً ناحية قبر أمه.

ورق قلب نفرتال لحاله ثم اقتربت منه هامسة : أنت رجل ...والبكاء للنساء، وأن كنت خسرت يوما فالיום التالى مكسب، فلا تلم نفسك ولا تستجد بالموتى ودعهم فى حياتهم الأخرى، لا تقلق



والدتك عليك، وأنظر أمامك ... فقال مصطفى : لا أعلم اسمك ..فردت : نفرتال .قال : ما أغرب اسمك فلا أحد بالناحية كلها يحمل ذلك الاسم ... ولكن يا نفرتال لا فرق بين رجل وامرأة فالمشاعر واحدة، فردت نفرتال : ليس بصحيح فقد اعتادت المرأة البكاء للتعبير عما تحس به، وخاصة أنها العنصر الأضعف في معادلة الرجل والمرأة، ولكن الرجال يحولون مشاعرهم إلى إرادة تتمثل في أفعال ..

ولكن ماذا يملك عاجز مثلى ؟ ..فقد ضاع كل مالى وشردت، وكيف تكون الحياة دون مال؟ ..

اسمع يا ..لا أعلم اسمك ..وما اسمك ؟، فرد: مصطفى، فقالت: كم من شخص فى هذه الدنيا لا يملك مالا ولكن مازال يعيش ويناضل من أجل البقاء أو حماية من يحب، فأنا أمامك لا أملك مالا ولكننى أعيش ..

يا نفرتال، أنت لا تعلمى معنى المال لأنك فقيرة، ولكننى كنت غنى أما الآن فلا أملك شيئا، فالجميع تبدل وجهه وأصبح عدو لى بعدما كانوا أصدقاءى، واتحدوا على لأنى فقدت المال .. نعم فقدت المال، وأكملت نفرتال: الخطأ خطأك يا مصطفى إن الدموع علامات الندم، والندم مستتقع لا خروج منه إلا بالعزم على تقبل الحقيقة .. فالمال موجود ولكنه لا يدوم لأحد، من يد لأخرى، لا يستقر كثيراً عند أحد فهو ليس حبيباً لأحد، ولكن يحركه القدر أو الحظ فى أيدى من عليه الدور، ثم رفعت صوتها قائلة : أن المقبرة ليست الحل الذى تبحث عنه .. فهنا الموت، أما ما تبحث عنه فهو

هناك فى البلدة بين الناس، وأحست نفرتال أنها تجاوزت حدودها، فسكتت ثم أكملت : دعنى أكمل زيارتى لقبر أمى حتى أنصرف

...

ثم التفتت عنه نفرتال متجهة إلى قبر أمها، فقد أحست أنها أطالت الحديث معه، وعليها أن تذهب، وماهى إلا دقائق حتى سلمت عليه واستأذنت فى الذهاب، وتابعها تراب، وكذلك عينا مصطفى حتى اختفت عن أنظاره.

فقال مصطفى فى نفسه : لماذا هذه الفتاة هنا ؟ هل نستطيع أن نستمد من الموت الحياة ؟ كلامها عجيب ولكن كيف تستطيع العيش ليوم آخر بزيارة قبر أمها ؟

ورغم بقاء مصطفى أمام قبر والدته إلى قرب الغروب، إلا أنه قد أحس بعد الكلام مع نفرتال والنظر إلى وجهها، أن شيئاً جديد قد ظهر فى حياته، ولكن رغم ما ورد على لسان نفرتال لمصطفى من كلام بسيط، إلا أنه أشعل فى قلبه وعقله طاقة من الأمل أو علامة على طريق ما، وقد امتلأت مخيلته بالصورة التى علقته بذهنه منذ رؤية نفرتال وتذكر ملامح وجهها الجميل بالرغم من التراب الذى يعلوه وملابسها الرثة.

وأخذ طريقه إلى بيت الست نبوية، وما إن وصل إليها وألقى السلام، وكانت جالسة فى صحن الدار بعد أن أدخلت صغار الفراخ إلى أقفاصها وربطت العنزة إلى الحجرة الخلفية، جلس مصطفى إلى جوارها على الأرض، ولمحت نبوية فى وجه مصطفى وجهاً آخرأ غير الذى اعتادت رؤيته منذ فقد داره

وأرضه، فاليوم وجهه عليه اشراق وأمل، فبادرت نبوية قائلة : ماذا بك يا مصطفى ؟ أنت مختلف ..لا دموع على الخد ولا رأس منكسة ولا أرجل ثقيلة الخطوة ؟ فتبسم مصطفى ..وكانت الابتسامة الأولى منذ زمن طويل، فقال مخاطبا نفسه : أحقاً كل هذا التغيير الذى ذكرته من مقابلة واحدة ؟ لا بد أنها ملاك أو جنية كما توقعت ..، فظهرت علامات الحيرة على نبوية قائلة : من هى ؟ وعمن تتحدث يا مصطفى ؟، إنها نفرتال يا خالتي كنت أمام قبر أمى جاثيا كالعادة أبكى، فجاء خلفى ومعها كلب مرعب فظيع الوجه وإلى جانبه نفرتال، فتاة جميلة ولكنها فقيرة معدمة، كانت فى زيارة قبر أمها إلى جانب قبر أمى، فتكلمت معى وقالت لى أحسن ما سمعت ثم اختفت..

قاطعته نبوية : مصطفى يا بنى، فتاة جميلة فى ساحة المقبرة وحدها ؟ فى أرض الموت والشرائطين؟ ومعها كلب شرس حارس لها؟؟، دى النداهة يا مصطفى !! دى النداهة يا مصطفى!! يا حبيبى يابنى، أوعى تكون مستك، لا تخرج من البيت ولا تذهب إلى قبر والدتك يا مصطفى مرة أخرى، فتبسم مصطفى قائلاً : نداهة؟ لا أظن أن النداهة تملك الحكمة والحب والمعرفة كأنها امتداد لشجرة كلام أمى، أحس أنها روح والدتى تجسدت لتكلمنى، أنا عاوز أسألك عن عرض شىء قد أخبرتنى به من قبل، فقالت : أوامر يا بنى، فقال لها : أنا مستعد أزرع القراريط بتاعتك ونقسم المحصول معاً، فصاحت : يا ألف بركة ..طبعاً يابنى طبعاً ..أقوم بقى أعمل لك لقمة تاكلها، أنت ما أكلت من الصباح، فأوماً برأسه رضا : ياسلام عليك يا خالة نبوية، وأنا كمان أقوم أتوضأ وأصلى على ما تعملى العشا، وهرعت الست نبوية إلى المطبخ وهى تكلم

نفسها : لا .. لا..هى النداهة ..هى والله !! ..وقد سطرت كلمات مصطفى وعشائه وصلاته، بل السؤال عن أرضها ليزرع و يعمل، قد خلق خوفاً فى عقلها وأدركت أن مصطفى فى حالة مس وتخط من مقابلة النداهة .

وقد سمعها مصطفى فضحك وأدرك أن شيئاً جديداً قد ظهر فى حياته، وبعد أن صلى وحمد الله على عشائه، قام وكانت ليلته مريحة واكمل رضائه برؤية أمه فى المنام باسمه قائلة : "خير كثير ..خذ بالك من النعمة ..يصيب برحمته من يشاء"، وقد استيقظ مصطفى واستعرض ما حدث له بالأمس، وقام به من غريب العمل والكلام، بل أصبح فى حيرة وتعجب وكاد يصدق أنها النداهة هو الآخر !

وأما نفرتال فقد قضت ليلتها على صخرتها كالمعتاد، ولكنها كانت اليوم فى نشوة جديدة قد أحستها من قبل مرة واحدة ..عندما قابلت شاؤول ..، ولكنه قد امتلأ قلبها رحمة وشفقة على ذلك الشاب، إنه إحساس مختلف، ظاهرة الرحمة وباطنه قد يكون بداية حب من نوع آخر وأن هناك علاقة ما .

ولاحظت نفرتال فى قبر أم مصطفى ليلا أن طيف أمه مشعا باللون الليمونى المائل للخضار ومتوهجا أكثر من كل مرة رأت الطيف فيها فى الأيام السابقة ، أيضاً فإن طيفها تلك الليلة ثابت لا يتحرك كأن هدأت روحها واستقرت، بل إن خيال نفرتال أخذها إلى ما دار بينها وبين مصطفى من كلام.

لابد أن روح أمه قد حضرت و سمعت ما دار وأنها راضية عنه،  
مما جعل نفرتال تقرر الاستمرار فى رؤية مصطفى .

ونالت نفرتال قسطا من النوم، فكان فى انتظارها هى الأخرى  
منام حيث رأت كل أحبائها حولها، الكاهن الأعظم، العفريت،  
أمها، مارى، عبد المسيح وأولاده حولها، جميعهم باسمين كأنهم  
فى حفل وهى معهم تحتل والكل فى فرح وهناء، بل إن نفرتال  
أخذت نتشد أنشودة الأمل التى تعلمتها من مارى قائلة :

"... لا تجهلى أن مصر هى صورة للسماء على الأرض كما أنها  
موطن السماء وكل القوى التى فى السماء.. وإن جاز لنا قول  
الحقيقة فإن أرضنا هى معبد العالم .. كما أنه من اللائق ألا تجهلى  
أن الوقت سيأتى عندما يبدو وكأن المصريين قد خدموا الآلهة  
عبثا ... فسوف تترك جميع الآلهة مصر وتصدع عاليا إلى  
السماء.. وتصبح مصر أرملة عندما تتخلى عنها الآلهة.. لأن  
الأجانب سيأتون إلى مصر وسوف يحكمونها .. وفى ذلك اليوم  
سيصبح الوطن الذى كان أكثر البلدان ورعا ... بلدا عديم التقوى  
..ولن يعود مليئا بالمعابد وإنما بالمقابر وستصبح مصر التى كانت  
محبة الرب ومسكن الآلهة ومدرسة الديانة مثالا للإلحاد ... إلا أن  
مصر سوف تعود مرة ثانية إلى سابق عهدها .. وسيثبت سادة  
الأرض أنفسهم فى مدينة فى أحد أركان مصر سيتم بناؤها فى  
اتجاه غروب الشمس...."

قلعة واقعة فى الطريق الصحراوى الذى يربط بين أرض الشام والأراضى المقدسة المؤدية إلى مدينة أورشليم، شكلها الخارجى عبارة عن سور قديم متهدم حوله عدة مبان حجرية مرتفعة، وقد اعتاد الناس العيش حولها وزراعة الأراضى المحيطة بها منذ زمن بعيد، ولكنها هدمت وهجرت منذ زمن، إلا أنها مازالت محطة انتظار وإيواء للعابرين من الحجاج المسيحيين فى طريقهم إلى أورشليم، كما أنها محطة من محطات أو ثكنات فرسان المعبد المنتشرين خلال هذه الأيام فى المنطقة، والآتين من أوروبا لحماية أرض المسيح و حجاجه، من قطاع الطرق الذين يهاجمون قوافل الحجيج المسيحيين ويقتلونهم ويسلبون أموالهم ويسبون نسائهم.

(ميخا) يتحدث إلى أحد هولاء القواد الذى يرتدى ملابس فرسان المعبد، وكانا الاثنان فى زيارة سريعة للمكان لاتمام هذه المقابلة المتفق عليها .

وقد اعتاد ميخا أن يتلقى المال والتعليمات من عدة أماكن مختلفة يخبر من قبلها برسالة ترسل له، فهذه الأموال المتدفقة من إقطاعيات أمراء أوروبا لأرضاء الكنيسة هناك ونيل بركاتها، تصرف فى حماية الحجاج لما تعرضوا له من قتل ونهب وسرقة من جانب قطاع الطرق العرب وغيرهم، كما تصرف هذه الأموال فى مصارفها على الأنشطة الخيرية المسيحية فى مدينة أورشليم والسلاح اللازم لحماية أهل الصليب، وكذلك صنع الجواسيس لمعرفة الأخبار وما يدور على الأرض ووراء الكواليس، وكذلك

تمويل كثير من الجماعات المنتشرة فى هذه المدينة العجيبة، التى طابعها الرب والدين وصناعتها المكائد والفتن بين قاطنيها اليهود والمسلمين والمسيحيين على مر السنين، وما أكثر جواسيس هذه المدينة والذين يعملون فى الخفاء أكثر من العلن، فمدينة فلسطين البربرية كانت وعد لأهل التوراة شعب الله المختار، ثم طهرت على يد المسيح الذى انقلب على الخراف الضالة وواصل تلاميذه المسيرة، ثم احتلت بيد خير أمة أخرجت للناس، وكل من هؤلاء يزعم أنه هو الأحق بهذه الأرض المقدسة وأنه هو شعب الله المختار ودينه الحق وذلك هو ما وراء هذه الجماعات المختلفة على هذه الأرض وراية السياسيين وكعبة المجاهدين.

فقد أصبح لكل واحد من هذه الأمم المؤمنة على هذه الأرض ركناً وجماعة، وأعلنت الحرب بظاهرها وباطنها هناك، ليكون الوضع كما هو هناك الآن ، وأخذ الميزان يطفو فى كفة كل واحد منهم فى زمن ما فينقلب على الآخرين كاشفا وجهه الحقيقى، تلك الأرض التى شربت من دماء قاطنيها والقادمين إليها، دماء زكية وشهداء على الأرجح كما يعتقد البعض، فتارة تابوت العهد، وتارة أخرى عصا موسى ثم صليب المسيح ثم الهلال، أطماع وحروب وصوامع تهدم وأخرى تقام، جواسيس ومنافقين ومقاتلين ومرترقة، قد تكون الأرض المقدسة ولكنها أصبحت الأرض الملعونة، بل هى مادة سياسية ودينية لمن أراد من الحكام والمجاهدين راية .

وميخا هو واحد من هؤلاء الناس قاطنى مدينة الرب، إنه من أصحاب عقيدة الصليب لكسب المال، ولكنه يهودى إلاصل والفكر، كما أنه أيضاً صديق المسلمين ..، دوره هو متعهد أخبار

بين أطراف الصراع على هذه الأرض المقدسة، فهو من أصول يهودية هاجرت إلى البرتغال هرباً من التتكيل باليهود، ولكن جده الأكبر اليهودى الذى أجبر على المسيحية من خلال الكنيسة البرتغالية كما فعل الكثير من اليهود المواطنين ذوى الدرجة الثانية فى أوروبا لأنهم قتلوا المسيح، وقد استوطن هذه الأراضى عندما كان ضمن إحدى قوافل الحجاج الآتين إلى أرض الزيتون، وأصبح من رجال الصليب هناك، ولكن كان يحن إلى أصله اليهودى وإقامة المعبد مرة أخرى ..

وميخا فهو بالطبع يجيد اللغة البرتغالية وبجانبها الفرنسية، وكان يعمل فى خدمة الحجاج الآتين من فرنسا وغيرها ليقضى مصالحهم فى أثناء هذه الزيارات، وكان عمله يدر مائلاً كثيراً حينئذ، إلا أن مصالحه تم تهديدها لقلّة الحجاج القادمين إلى أورشليم لخوفهم أن يأتوا إلى الأراضى المقدسة بسبب أعمال القتل والسلب والنهب والسرقة المتكررة مما أدى إلى انعدام الأمان فى الرحلات .

يعلم ميخا من خلال أعوانه ومصادره أن جماعات الجهاد الوافدة إلى أورشليم والمستوطنة بها من يهود ومسيحيين ومسلمين، طالبة السلاح والمكان والأفراد، والذين يدفعون أموالاً طائلة فى خلق وتثبيت أفكار هذه الجماعات، وهؤلاء أموالهم كثيرة وتمويلهم كبير وضخم، وقد انتشرت هذه الجماعات بحجة حماية الحجاج المسيحيين من قطاع الطرق والبرابرة، وأخرى بحجة نشر الإسلام وحمايته، وأسلمة المدينة، وآخرين مطالبين بعودة أرض اليهود لليهود.

ورغم أن معظم الوافدين من مختلف أقطار الأمة المسلمة تحت



رأية الجهاد، هم حسنى النية وصادقين فعلاً، إلا أن فرسان المعبد أتوا من بلاد اعتادت معرفة طبيعة أعدائهم وطرق تفكيرهم، فهم يعلمون أن العرب وأهل الشرق أصحاب مشاعر وقلوب من السهل تحريك مشاعرهم فيمتلكونهم بكلمات بسيطة، ووجدوا في مثل هذه الجماعات المتناثرة تحت لواء الجهاد سلاح مضاد وصديق غبى لتنفيذ المهام والمآرب دون مقابل أو لقاء ثمن زهيد ودون تضحيات كبيرة من جانبهم، فرغم قوة هذه الجماعات فكرياً وعقائدياً وبدنياً، طالبي الجنة عن طريق الحور العين، فإنه يمكن استخدامهم بسهولة في أن يجعلهم أدوات وأسلحة في ظهر هذه الأمة .

وهذا هو دور ميخا وغيره من العملاء، فعليهم استقطاب القادمين أو المتواجدين لإعطائهم السم القاتل، فما إن وصل "هلال" إلى أورشليم هارباً من مصر عبر الصحراء بعد قتل زوجته، بما يحمله بين ضلوعه من حقد وغل للبشر أجمعين، تلقته مجموعة من مجاهدى الشام الذين يعشقون الجهاد فكان الملتقى هو أرض بيت المقدس، وقد اجتمعت هذه الجماعات باختلاف أنواعها على شىء واحد هو قتل وتشريد النفس البشرية وتلوينها بدعاوى دينية وتاريخية كاذبة على الخالق والبشر.

وقد أظهر هلال مقدرته العظيمة للأخوة في تدريباته العالية، ومهارته في القتل والقنص والتحرش بجميع أنواع البشر من أهل البلاد ..مسيحيين أو مسلمين أو يهود، فالقتل...ملذته الأولى والأخيرة ، ودم وبكاء الضحايا يستمد منهما حياته مثله مثل الآخرين من أمثاله .

وقد ذاع صيت هلال بين الأخوة ووصل اسمه إلى ميخا من خلال

الجماعة عند صفقة تبادل السلاح، فقام ميخا هو الآخر بنقل اسمه إلى قائد حرس المعبد الذى كان يبحث عن هذه العناصر وخاصة من مصر، فمصر هى أكبر دولة، وشعبها مختلف عن جميع شعوب المنطقة، وكان لابد من تجميع أكبر عدد من الخلايا الجهادية بها، حتى يستغلوا حاجاتهم وجهلهم، ليشربوا من كأس المعرفة الخطأ فيعودوا إلى مصرنا بما يحملون من جهل وحقد داخلى ليهدموا ذلك المجتمع الذى أهلكه الحكام بالجهل والفقر والمرض.

وقد أولى فرسان المعبد عناية خاصة بهلال وأمثاله، فاللغة المتأسلمة وأهواء السابقين من الفقهاء الجهلاء والممولين للحكام المسلمين العرب الطاغية الذين ساعدوا اليهود وغيرهم على مر العصور السابقة من فاطمية وعباسية على اختراق صحيح الشريعة الإسلامية، وهو ما حدث من قبل فى الشريعة المسيحية، لإرساء الحقد الأزلى والأيدى الخفية بإبطال أحكام واختراع أخرى، حتى يزيلوا ويثبتوا ما ورد من تناقض بين أفعال وأقوال بل وقرآن حتى يزيّدوا عليها ويخفّوا، وقد خلقوا الجو المناسب الآن للأعداء لحصد ما زرع قرون وقرون.

فمؤالاة فرسان المعبد لليهود على اعتبار أنهم أصل العهد القديم وسكان فلسطين الأصليين، واعتياد اليهود ارتداء عباءة الأقوى حتى يتمكنوا من الانفراد بالأراضى المقدسة مرة أخرى، وإقامة معبدهم مرة أخرى، فكانوا أداة مهمة وأصحاب الدور الرئيسى فى نقل أخبار هذه الجماعات، والعمل على تثبيتها بالمال والعلماء الجهلاء، حتى نقلوا ما ورثوا المسلمين من مفهوم الجهاد إلى جهاد القتل والدمار فى أرجاء البلاد، وتمضى قاطرة الجهاد إلى قاطرة

القتل للوصول إلى السلطة وإقامة الأمة المزعومة مرة أخرى.

استيقظت اليوم نفرتال متأخرة على غير عادتها، فهي لم تنم طوال ليلة أمس حتى أدركها الصباح، وكان يشغل بالها ذلك الشاب مصطفى، كما ارتسمت ملامحه في مخيلتها، وخاصة أن ذاكرة نفرتال خاوية من ملامح الأشخاص منذ رجعت إلى ساحة المقبرة، وذلك الحديث الذي دار صباح أمس كان يتردد في خاطرها كلمة كلمة دقيقة دقيقة، لأنه هو ذلك أيضاً الحديث الذي تحدثت به منذ عودتها هنا إلى ساحة المقبرة.

وما إن استيقظت من النوم حتى رأت الشمس في كبد السماء، ورغم تميز المغارة بالسكون والصمت إلا أنها نظرت إلى تراب الراقد إلى جانبها قائلة : من معنا يا تراب ؟ غريباً في المغارة أم طيف عابر ؟، فحرك تراب ذيله يمينا ويسارا كأنه يعلم من هناك، وعاد صوت جديد إلى الساحة ضاحكا، وحركت ضحكاته غبار المغارة على شكل دوامة هوائية خفيفة : ... أنا ... أنا .. يا نفرتال أما زال الكاهن يحرسك ؟، فردت : العفريت ! أين كنت ؟ منذ حررت من مقبرة الكنيسة لم أسمع منك، أكنت تسعى فسادا وتسكن أجساد أبرياء البشر أم حافظت على عهدك لي ؟

- نفرتال .. منذ تركتك بحثت عن مأوى يحميني من شرور الجن والمردة السيارة والرصدة على الأرض أو الهائمة والطيارة في أرض السماء، فوجدت في هذه البلدة سيدة طيبة تعيش وحدها ولديها عنزة وطيور، أعجبتني العنزة وخاصة أنها صغيرة السن، وتحرس السيدة جيدا على

حياتها وتشرب لبنها ولا تذبحها، والحقيقة أن جسدها دافىء وحماية لى، وأنست وحدثها أيضاً..

- عجب العجب .. لقد صدقت هذه المرة، ولكن كيف عرفت مكانى؟

- القدر أعجب من العجب .. حقيقة الغيب نعمة، فلا يعرف الإنسان ما القادم ... شراً أكان أم خيراً، فهو عنده أمل دائم فى خالق أو حظ، فيتوقع الخير .

- ليلة أمس غلبنى النعاس وعنزتى ترقد إلى جوار الحائط جانب منزل الست نبوية ..

- فلمعت عينا نفرتال وقالت : نبوية ؟ هذا الاسم ليس بغريب على ولكن أكمل ..

- فإذا بذلك الشاب مصطفى القاطن فى بيتها منذ فقد بيته داخل عليها فرحاً ومتهللاً ...

- ماذا قلت ؟ مصطفى ؟ نعم ظنى فى محله .. مصطفى ونبوية ... علمت يا ماكر لماذا أنت هنا .. نعم لقد قص عليها قصتك معه بالأمس، وما إن ذكر اسم نفرتال من خلال مصطفى حتى طار النوم من عيني وأصغيت أنا والعنزة فى اهتمام كبير لنسمع ما دار بينكما بالأمس ..

- فتبسمت نفرتال : احكى يا عفريت .. احكى بسرعة، ماذا قال مصطفى عنى ؟ يا روعة القدر عندما تسكن أنت مع مصطفى فى نفس البيت ؟

وبدا العفريت فى سرد ما دار بين الحاجة ومصطفى : .. أعنى عندما كان يتكلم عنك أو عن تلك المخلوقة العجيبة التى قابلها فى أرض الموت والشياطين، تلك المخلوقة التى لا يعلم كونها نذاهة أم جنية أم إنسانة، وقد سرد كل كلمة دارت بينكما إلى الست نبوية، فلم أره منذ رأيتة فى مثل هذه الحيوية والحياة، فاعتاد من قبل الحزن والنواح على الأم التى فقدت والمال وأرض وبيت قد فقدهم وخيانة كان ضحيتها..

فزادت بسمة نفرتال وقالت : الحمد لله أسعدته، أسعدت إنساناً .. فأكمل العفريت : أنا تركته وهو يعد بعض الفطائر لك ولتراب فهو يخاف منه ومن شراسة وجهه، فهز تراب ذيله وكأنه يفهم الحديث، لقد نسيت شيئاً هاماً يا نفرتال يجب أن أحذرك منه، أحذرك من ذلك الشيطان شيخ البلدة الساحر المشعوذ، منذ لمحك أمس وأنت تتكلمين مع مصطفى، تابعك بعينيه دون أن تأخذى بالك، ذلك الملعون دائم التواجد فى المقبرة ليحضر تراباً من بواطن المقابر لعمل أسحاره، وكم أساء إلى نساء البلدة التى يعتقدون أنه يشفى ويرزق البنين ويجلب الرزق، وهو يستخدم صعلوك من الجن ليأتى ببعض شواهد، لقد سمعته اليوم مع آخر فى ناحية المقبرة وأنا فى طريقى إليك يعقد النية أن رآكى اليوم وحدك ليفعل بك شراً ..

- لا تكمل فهمت ولكن لا تخف فهو وعفريته ومن معه لا يقدرون على نفرتال وتراب وعفريتى والكاهن، وسوف تكون نهايته إن تجرأ، فأنا تغيرت وأعلم ما لدى، وسأستخدمهم لحماية مصطفى وكل من أحب من الآن فصاعداً ..

- خيراً خيراً، سأعود لزيارتك من آن لآخر، فأنا أعتقد سنكون معا جميعا قريبا فى بيت واحد... ضاحكا، والآن أرجع إلى عنزتى ..سلامى يا سيد تراب، واختفى الصوت، فهو لم يظهر نفسه لأنه دميم بمقاييس البشر كما أخبر نفرتال من قبل .

وملأت الفرحة قلب نفرتال، وقامت تحضر بعض الماء وبدأت تغسل وجهها وتنفض التراب من على ملابسها، بل شرعت فى تغيير ملابسها، فأحضرت ثوباً آخر تغسله قد كانت قد أحضرته معها، فهي تعلم أن مصطفى فى طريقه إلى المقبرة الآن ، وأخذت طريقها الخلفى حتى تشق وسط المقبرة لتأخذ طريقها إلى قبر أمها، وما إن ظهرت وسط المقبرة حتى سمعت صوتاً يقول لقد ظهرت ..وقعتى يا حلوة، فإذا هو الشيخ المشعوذ ومعه شخص آخر، وما إن اقترب من نفرتال حتى دفعت كليهما بيدها فى الهواء لأكثر من ثلاثة أمتار، وتابعهما تراب كاشفا عن أنيابة وعيناه الحمرأتان وهما يصرخان فى الهواء منبطحين على صخور ساحة المقبرة فى نفس واحد ..النداهة ..النداهة، وجرى كلاهما فى خارج المقبرة فأشارت نفرتال إلى تراب أن يهدأ، واستمرت نفرتال فى طريقها مخترقة ساحة المقبرة حتى وصلت إلى مقبرة والدتها فى انتظار مصطفى الذى أخبرها العفريت أنه فى طريقه إلى هنا .

أما خضرة التى تمتلك الأرض والبيت أصبحت من أغنى سيدات القرية بل أكبر أعيان البلدة، ورغم أن كثيرا من الشباب قد تقدم للزواج بخضرة - المطلقة الثرية المحظوظة -، إلا أن خضرة كان لها خطة أخرى، فهي تعلم أنه بزواجها ستنتقص ملكيتها بل

يمكن أن تفقدها أو حتى تفقد السيطرة عليها، فهي أن أرادت رجلاً فلا بد أن يكون على هداها، رجل للفراش والعمل في الأرض لا كلمة له إلا حاضر ونعم .

وقد كانت خضرة على علاقة حب كشباب البلدة من صديق مصطفى (حسن) من قبل أن يأتي مصطفى إلى البلدة، ذلك الشاب صاحب السمعة السيئة، ولكنه يعتبر من شباب البلدة جميل المظهر المفتول العضلات صاحب المزاج .

والغريب أن حسن قد أدرك منذ طلاق خضرة من مصطفى أن عليه أن يوجد لنفسه شيئاً في هذه الصفقة ويعود إلى حبه القديم، فقد سلك مسلكاً آخر هو أنه قاطع أصدقاء السوء وأخذ يتردد على جامع البلدة وخاصة أن شيخ الجامع من عائلته، وما إن رآه يتردد على المسجد حتى جعله في مجلسه دائماً، فهو يعلم أن شيخ الجامع له قدم عند أبو خضرة، فسأله أن يجعل له وظيفة عند الست خضرة في أرضها، فهو يعرف القراءة والكتابة، كما له سابقة في الزراعة والتجارة .

وقد وصلت نفرتال قبل مصطفى ناحية قبر أمها يتبعها تراب، فإذا خيال مصطفى يظهر على أرضية الساحة حاملاً في يده قطعة قماش بها بعض المخبوزات كما أخبرها العفريت، وعندما رآته أدارت وجهها كأنها مشغولة بقاطني القبر، وعندما لمحها تهلل وجهه وأسرع في خطاه حتى اصطدمت قدماه بقبر أمه لأنه كان ينظر إلى الأمام وليس إلى خطاه، ثم قال بصوت كله فرح باللقاء : نفرتال يومك جميل .. أنا جبت معايا بعض المخبوزات علشان ناكل معا وتراب كمان، فأدارت رأسها إيه ضاحكة متبسم : صباح الخير يا مصطفى، ما شاء الله البسمة تملأ وجهك، عندك



جديد ؟ ...طبعا ..رد مصطفى : ناكل الأول وأقول لك بعد كده، وكان تراب سابقا فقد شم رائحة المخبوزات الطيبة التى ألقاها إليه مصطفى، ثم قال : عمايل الحاجة نبوية، وكان قد جلس فى مواجهة نفرتال وافترشا الأرض، وكانت كإنها ملكة فى ردائها الجديد الذى يبدو نظيفا، كما أن وجهها أكثر وضوحاً اليوم بدون ذلك الغبار، وأدرك كلاهما أنهما كانا على استعداد لرؤية الآخر على موعد بلا موعد.

ثم قال : لقد حدثت أم نبوية عنك أمس، ولكنها استعجبت من كلامى، وخاصة أنى طلبت منها أن أزرع أرضها القليلة، ولكنها استعجبت أيضاً من اسمك وطريقة ظهورك فى ساحة المقبرة وحدك، وكذلك كلبك الغريب..، ثم التفتت إليه : أنا نسيت تراب وألقى إليه بقطعة لا بأس بها من الخبز .. ثم وضعت نفرتال ما فى يديها من خبز فى المنديل المفروش على الأرض وقالت: وأنت ايه رأيك يا مصطفى ؟ جنية ولا نداة ولا إنسانة، فاستغرب مصطفى وقال : كيف علمتى ما قلت أو ما يدور فى عقلى ؟...فردت : أبداً .. أبداً ولكن ...، فقال مصطفى : فتاة فى عمرك وحدها هنا ليلا أو نهارا، ومعها تراب، تعتقد فى الموت أكثر من الحياة، ولكن تعلم أن الموت هو بداية الحياة ..فماذا تتوقعين أن يكون السؤال الوارد فى عقلى أنا الذى كنت آتى إلى هنا للندم على ما فقدته وضياح مالى وهيبتى.. واليوم أنا كلى أمل بعد كلامك، فماذا أقول عنك إلا أنك ملاك .. ..نفرتال متلطفة معه : أنت الأول ..ماذا تتوى أن تفعل فى حياتك؟، أنا واضحة ..فقد أخبرتك

كل شيء عني، فلا أملك شيء أخفيه عنك، ولكن عليك أن تجيب على ذلك السؤال، ماذا سوف تفعل في الأيام القادمة.

- حقيقي يا نفرتال أنا تقاللت برويتك أمس فقد زارتنى والدتي في المنام وكانت باسمه وكأنها تعطيني شيء جديد من الأمل، أنا يا نفرتال تعرفت في مدينة العاص على كثير من فتياتها، مصريات أو غيرهم، جوارى أو حرائر، متدينات أو منزلقات، أسمع منهن كلاماً جميلاً وأحب أن أسمع منك أكثر، إلا أنني لم أر مثلاً وجهك وعينيك الناقدتين ولسانك الثابت وجمال روحك، والغريب أنني وجدتكم هنا في هذه المقبرة، ..نفرتال باسمه وموشحة بوجهها خجلاً في الاتجاه الآخر فقد عرفت الحب لكل البشر، كما أنها قد تعلمته من خالتها الراحلة ماري، ثم قالت : يبدوا أن تراب محتاج قطعة خبز أخرى، فرد مصطفى : عفوا سيد تراب، وألقى إليه لقمة أخرى، وعاد سائلاً : من أسماء تراب؟ اسمه أغرب من اسمك ..تراب ..تراب ..عودة إلى المقبرة ..

- عارفة يا نفرتال ... لو كنت أعرفك وأنا عندى فلوسي وأرضى، كنت سكنتك أنت وتراب وعائلتك في بيت جميل وكمان كنت حاجيب لك كل حاجة، وسأخذك معى إلى مدينة العاص ...خسارة ...ضاعت الفلوس..

- صدقك واضح يا مصطفى ..الفلوس موجودة حولنا ونقدر نعبر عن حبنا بها أو من غيرها ...على فكرة أنت طيب يا مصطفى لكن عليك أن تجد طريقك ..

- اسمعى يا نفرتال، ممكن أشوف وأقابل أهلك وأعرفهم؟
- ...مستحيل يا مصطفى ..يمكن فى يوم ما ..لكن عاوز تقابلهم ليه ؟
- ...علشان ...علشان ...ثم خجل من نفسه، ولكنه عاود وقال حين رأى نفرتال تنتظر إجابة ما : علشان زوجة مثلك فى أى بيت تدخله تحوله جنة ونعمة، جمال وحكمة، من نظر إليك سر ومن تكلم معك أحبك، وأكد من عاشرك سيكون سعيداً ...يا خسارة المال يا مصطفى ...
- كلامك حلو يا مصطفى لكن المال موجود فى كلامك دائماً، ألا تستطيع أن تكون مصطفى الآن؟ ...ثم أدركت أنها أطالت معه ..فقالت: على أن اذهب الآن ، فقال: ألا تعودين ؟، فردت باسمه : طبعاً اليوم لا ...لكن بعدما تبدأ الشغل مع الست نبوية، أشوفك هنا الأسبوع القادم، فتراب قد شبع لمدة شهر الآن ، فعمره ما أكل وذاق كل هذا الطعام، أصبح عندى مشكلة جديدة ..ذوق تراب فى الأكل تغير ..وضحك الاثنان معا ..
- لا توجد أى مشكلة ...أنا أحضر كل يوم لكم الخبز ...
- استغل الأول وبعدين خللى خالة نبوية تخبز ما تشتري أنت لها من الطحين من فلوسك و يكون الثواب والشكر فى محله..

ثم تحركت كعادتها ..وحاول مصطفى أن يتبعها، فأدركت نفرتال ذلك من نباح تراب، فتوقف مصطفى وأكملت نفرتال سيرها ...وكان كلا منهما فى سعادة وبدأ الحب ينشأ فى المقبرة.

وأصبحت حياة كلا من نفرتال ومصطفى لوحة جميلة من الحب والعشق رغم نشأته فى هذه المقبرة، وكلا منهما فى اشتياق واحترام لرأى الآخر . ورغم أن مصطفى حاول أن يجد عملاً أو يعمل فى أرض نبوية، إلا أنه لسوء الحظ عندما رفض عرض السيدة نبوية من قبل فقامت بإعطاء الأرض لمستأجر الذى رفض دخول ذلك الفاسق مصطفى على أرضه رزقه ورزق أولاده بدعوى أنه ملعون، وعاود مصطفى الاكتئاب مرة أخرى، فهو كان يأمل أن يكون له عمل ومكان حتى يتزوج من نفرتال حيث أصبح لا يستغنى عنها، ولا يطيق فراقها .

وقد جعل دوام المقابلات والحب ساحة المقبرة تتحول من أرض الموت حياة، ولكن مصطفى قد ملأه الحزن الاكتئاب والندم على ما خسر، وأفصح عن خيبة أمله فى حياة كريمة، وود أن يعود إليه ماله مرة أخرى إليه، ولكن اليوم قررت نفرتال أن تخبر مصطفى بقصتها كاملة، وكان قراراً صعباً ولكن كان عليها أن تخبره بحقيقة نفرتال بنت المقبرة، فأنا أصابت ولم يخف مصطفى وأكمل القصة . . . فخير . . . وأما أن أثر الهروب من النداة . . . فأنتهت القصة . . .

وقبل أن تبدأ فى سرد القصة، أخذت عهد على مصطفى ألا يقاطعها ويسمع الحكاية إلى آخرها، ثم يعاود التفكير مرة ومرة ومرات قبل أن يمضى قدما فى هذه العلاقة إن أراد أن يتزوجها .

وحاول مصطفى أن يعجل بالموافقة مهما كانت الحكاية ولكن أسكتته نفرتال قائلة : اصبر واسمع، واستكان مصطفى حتى يسمع، فالصرامة والجدية التي تكلمت بها نفرتال بداية لحديث مختلف تماماً عما اعتاد أن يسمع منها، وبدأت نفرتال سرد قصتها فأتمتها وقالت : الآن يا مصطفى قد علمت كل شيء عني وإنني أخاف مما أرى في عينيك، وكان مصطفى في حلم بل في خيال مطلق، ويدور سؤال هل هذه الفتاة حقيقة أم طيف أم خيال قد عاشه مصطفى طيلة الفترة الماضية ؟

ورغم أن ما رأى من حال نفرتال قد يضاهي ما سمع منها بل يتعدى الخيال وما أفصحت عنه اليوم قد أضاف ثقلأً جديداً على عقله فظل مكانه.

وانسحبت نفرتال من أمام مصطفى تاركة إياه في مكانه يحملق في شيء غير موجود بثغر مفتوح وعينين زائغتين، وما إن عاود وعيه كانت نفرتال قد اختفت هي وتراب، مما زاد القصة غموضاً أمامه، أهى خيال ؟ ولا وجود لها إلا في عقله، وماذا عن المعزة التي هي عفريت يسكن جسدها؟ وكيف تملك نفرتال هذه القوة الخارقة وتعيش مع الأموات في هذه المغارة ؟ وما ذاك الكلب الأسود الشرس ؟ أهو جان أم جان هو ؟

وأخذ الوقت يمر على مصطفى وهو يحاول أن يعود أدراجه إلى حقيقة الأمر مرة أخرى، ولكن نفرتال كانت هناك أعلى الصخرة مختفية تراقبه لترى ماذا هو فاعل، وبدأت عيناه تدركان حقيقة الأمر في القبر الذين توسطهما.

وقد أخذ مصطفى طريقه إلى البلدة، ولكن هذه المرة لم يقصد باب

الست نبوية بل أخذته رجلاه إلى المخلصة رباح الغازية، فمنذ زمن لم يمر عليها بالرغم من أنها كانت دائمة السؤال عنه، إلا أن الخالة نبوية كانت دائماً غليظة معها ولا تحسن استقبالها أو ترد استفساراتها، فهي فى نظرها عاهرة مستهترة وسبب من أسباب الكارثة التى حلت بمصطفى وسبب ضياع ماله ومستقبله .

وما إن لمحته داخلا إلى المكان حتى جرت إليه فى لهفة وشوق ...مصطفى ..مصطفى ..أنت هنا لتسأل على ..أنت عدت لترانى ؟، ولكن مصطفى كان فى عالم آخر ويدور رأسه فى قصة بألف قصة .

وتناول مصطفى كرسيًا وجلس، وقد لاحظت رباح أن مصطفى لم ينطق بكلمة واحدة وأنه شارد فقالت : مصطفى ماذا بك؟ حقا ما يدور حولك بالبلدة ؟ أنت فى هوى النداهة وقد ملكت قلبك فذهب عقلك ؟

هنا أدار مصطفى رأسه : ماذا عن النداهة ؟ وماذا يقال فى هذه البلدة ؟

فقالت رباح : لقد كثر القول وسمعت المشعوذ يطلق الشائعات فى أهل البلدة على أنك اعتدت حياة الساحة وندهتك النداهة واستحوذت عليك فى البلدة، وأنت تقيم فى المقبرة أرض الشياطين، كما أنه رأى بنفسه معك النداهة التى هاجمته وكادت أن تقتله، وأنها مستك بمس الجن، أحقا ذلك يا مصطفى ؟، أرى أن احوالك تؤيد هذه الأقوال.

- يا رباح الموضوع ليس كذلك، وأنا جئت إليك حتى أقص عليك حكاية، ولكنى الآن لا حاجة لى بها ..، فما أقص

عليك سوف يزيد خيالك أن يزكى هذه الشائعات ..

- مصطفى .. يبدو عليك أنك لم تعد تعيش معنا ولا يهتمك ما يحدث، ألا تعلم أن خضرة طليقتك الآن تملك طينا وصاحبة عربية أغلى من عربية أبيها، وقد بدأت علاقة مع حسن الصايغ الذى يعمل لديها فى أرضك ومالك، والآن يقوم بالعمل على تجديد وبناء دارك على هواها لأنها سوف تنتقل إليها قريباً لتعيش فيها، كل هذا لا يعنيك ؟ ماذا دهاك يا مصطفى ؟

فنظر إليها مصطفى نظرة فيها حيرة، ثم تركها مرة أخرى وأخذ طريقه خارج العشة إلى حيث تقوده رجله مرة أخرى إلى المقبرة لا إلى دار نبوية، فهو يحس أنه أخطأ عندما لم يجب نفرتال فى الحال، أن هذه القصة لن تغير ما بينهما فهما أحياء، إن كانت جنية أو نداهة أو بشرية فقدت نشأت بينهما صداقة تطورت إلى حب وإعجاب ثم اللقاء بين روحين دون غرض أو دين أو مال . وقد ازداد شعوره بعد ما سمع ما يدور فى البلدة من رباح عنهما، وأدرك أن عليه الآن وبلا تردد حمايتها بالزواج منها وإلا فقدتها إلى الأبد، وقرر أن يكون ذلك الآن .

ورغم أنه ما قالت رباح عن خضرة وداره قد أكمل مسلسل الحزن، إلا أن ذلك زاده إصراراً على حياة جديدة بطريقة ما تكون نفرتال شريكته فيها و معه دائماً ..ولكن كيف ؟ ..، لا يعلم ولكن يملأه الأمل، وخاصة بعدما تجددت الأحزان والحسرة فى قلبه على ماله بعدما أخبرته رباح بحال خضرة وما تستمتع به، فهو الآن عاقد العزم على الرجوع إلى نفرتال ليأخذها ويعود بها إلى نبوية الأمل الوحيد له، ولن تتركه على حسب ظنه، بل ستساعده



حتى يخرج إلى مدينة العاص مع نفرتال ليبدءا حياتهما فى أى شىء وأى مكان آخر . واخذ يسرع فى خطاه إلى المقبرة بالرغم من دخول الليل، فهو الآن يعلم الحقيقة ولا شىء يخيفه، فأمه تترقد هناك وحبيبته تقيم هناك، والخرافات لا معنى لها.

وما إن دخل المقبرة توجه إلى قبر والدته فهو يعلم أن نفرتال تحرس المقبرة وتراب سيكون هنا فى الحال، وفعلا كانت نفرتال جالسة بأعلى الصخرة، بالها مشغول إلى جوارها تراب، فلمحت مصطفى فتحركت إليه فى سرعة، فلمح مصطفى خيالها قادما إليه على ضوء القمر فجرى إليها ليحتضنها قائلاً : حبيبتي نفرتال، لا شك أنك ملاكى وحياتى، تعالى معى نذهب إلى الحاجة نبوية ثم ندبر بعض المال ونخرج إلى مدينة العاص لنعيش .. لنعيش ...، عندى أصدقاء هناك سوف يساعدوننى على أن أبدأ حياتى، فأنا الآن مختلف تماماً عما سبق من حياتى، أنا مستعد للكفاح والعمل.

نفرتال فى حضن مصطفى .. لأول مرة فى حياتها، تحس بالأمان والحب والرجولة، تحمل كل مشاعر امرأة جميلة شابة عاشقة متشوقة إلى النصف الآخر .. رجل .. حبا وشعورا وجسدا وسكنا ورحمة ...

قالت: كيف تأتى إلى المقبرة ليلا؟ ألا تخاف على حياتك ؟... الآن ستكثر الإشاعات حولك أكثر وأكثر ..

مصطفى : كيف أخاف وحياتى هنا وأمى تترقد هنا وحبى هنا ... اسمعى يا نفرتال أنا آسف لقد أخطأت حين تركتك ولكنى عندما ذهبت إلى البلدة قادتتى رجلى إلى رباح، فقصت على ما حرق قلبى وواضح لى أنه لا عيش لنا فى هذه البلدة بعد الآن ، ثم

أضاف قائلاً : والذى يحرق قلبى زيادة ما سمعت اليوم، أن خضرة قامت بتشغيل حسن عندها وولته أمر أَرْضى، بل وكلفته بتجميل وتجديد دارى حتى تنتقل لتعيش فيها لوحدها...أَرْضى .. دارى ..!!، اليوم أصبحت هى المالكة وأنا أبحث عن مكان حتى أعيش فيه، بل إننى لا أملك حجرة حتى يجمعنا حبنا معا ونتزوج فيها، فأنا أحبك يا نفرتال، ولا شىء يهم مما سمعت، لقد كانت لحظة استغراب وحب وتعجب وحرية، ولكن ذلك الملاك الذى أمامى لن أدعه يضيع من يدي، ورغم أنى أعتقد أن الحل الوحيد لنا هو المال، لا مفر أن أنسى ما خسرت حتى نبدأ حياة جديدة .

يوم ملكت المال كان لا قيمة لها تلك الحياة، ويوم وجدتك ووجدت نفسى لا أجد المال، فبكت نفرتال قائلة : اسمع يا مصطفى أمر المال سهل وإن كنت صادقاً فلك المال، فرد : من أين يا ملاكى وأنا أعلم بكل شىء؟ كيف يكون ذلك ؟

- يبدو أنك لم تتذكر ما رويته فى قصتى لك ..
- لا أعلم عما تتحدثين ولكن يبدو أنك تهذين، اسمعى أنا الآن أرجع بل حلاً لأقص على نبوية قصتنا لعلها تساعدنا أن نجلس عندها، فهى تعتبرنى ابنها، وليس لها أحد غيرى، ثم ندبر الأمر للسفر إلى مدينة العاص لنبدأ من هناك، وأنا أعرف أنها لن تعترض على الجلوس والزواج عندها فهى أكثر من أم لى .

- لقد سمعت ما قلت يا مصطفى، ورغم صغر سنى فأنى أعلم الآن من هؤلاء البشر، أكثر من أى شخص ..قلوب متحجرة ونفوس حائرة، كلامهم زائف ويسيروا فى

قوالب اختلقت فى الماضى وتطورت على يد الأجداد ،  
وورثت ثقيلة مزيفة، بل خالطها الأمر حقيقة وظنا، وأما  
نبوية فلن تكون أكثر من هؤلاء، وإن قلت لى رباح  
لصدقت، فرباح لها قلب ثابت ولكنها لا تملك القدرة فأنا  
أعرفها كما رويت لى عنها، ولكن اسمع يا مصطفى افعل  
ما تريد واعلم أنى جهزت الحل عندى ولن أتخاذل عنك،  
واعلم أيضاً أن كان طلب للزواج منى أن لا فأنى أحبك  
وفداؤك، ولكن احذر حزنى وغضبى، فإن ضاع حبى  
وثقتى فيك فسوف تضيع، أما أنا فدائماً لى المقبرة، ارجع  
الآن إلى نبوية وسترى ماذا سيحدث ..

ورجع مصطفى فى طريقه إلى نبوية كانه آلة تسير فى خطى  
ثابتة، وخرج من ساحة المقبرة وهى ترقبه بعينيها، وأخذ تراب ينبح  
معلنا عن وجود آخر فى المكان ...إنه العفريت ..وعاجلته نفرتال :  
ماذا ورائك يا قاطن المعزة ؟

فضحك وقال: سمعت الكثير فى البيت وخارج البيت إن إشاعة  
سائدة فى أهل البلدة قد بدأها ذلك الساحر المشعوذ القذر، فقد رآكما  
أكثر من مرة فى المقبرة وينعتك بالنداهة إلى مست مصطفى،  
وبعدما حدث له منك وما ناله من ضرب، أدرك أنك أنت النداهة  
التي يتحدث عنها أهل البلدة، فأذاع فى البلدة بأن مصطفى فى كنف  
النداهة، وقد ذهب عقله وأصبح خطرا على أهل البلدة، حتى أن  
الخالة نبوية نفسها قد اختلط عليها الأمر وتذكر ما حدث ومر  
بمصطفى من أحوال غريبة، وبدأت تميل إلى تصديق من حولها،  
واعتقد أنه قريبا سيقوم شيخ الجامع، ولا ريب حسن وأهل البلدة  
بمهاجمة بيت نبوية لقتله أو اخراجه من البلدة فهو فى نظرهم

شيطان وبذلك يضمن صالح وخضرة نهاية مصطفى إلى الأبد .

فارتعدت نفرتال خوفا على مصطفى، وتحرك داخلها الكاهن الأعظم، فبث الطمأنينة في قلبها وأعلمها أنه لن يصيب مصطفى بأذى ، فهو معه لأنها تحبه، وهو الآخر يتقبله، ولكن بادر العفريت قائلاً ماذا تفعلين يا نفرتال؟، فردت : إنى أعلم شر هؤلاء البشر وأنهم دائماً فى الجانب المظلم من الحقيقة، فأعتقد أنه قد اقترب الموعد ولكن أخبرنى ما دورك أنت وكيف تساعدنا ؟، فرد العفريت : أستطيع أن أراقبه وأغير علامات حتى أقوده لفعل الأصبوب وأثير الريح وأجعل حوله هالة من النار أو النور فيهابه الناس، ولكن لا أستطيع أن أقاتل البشر ولا أحرك مادة إلا من خلال بشرى آخر كما تعلمى، وعنزتى لا تملك أى قوة، وأنا من الآن تارك عنزتى خلفه فلا تقلقى، وإن حدث أكثر من مما يتوقع فسأكون تحت قدميك فى الحال، فتفعلى ما تريدين .

وانطلق العفريت خلف مصطفى، وعندما كان مصطفى فى طريقه إلى نبوية لاحظ أن أهل البلدة قد بدأوا الغمز واللمز عليه والنظرات تتطلق إليه ولكنه لم يفهم، فمصطفى خلال الفترة الماضية كان بعيداً عن أعين البلدة وأخبارها، وهو الآن فى الأول والآخر كان لا يتداخل مع أهلها ولا يسمع عنها ولا يلقى بالاً لها .

وعاد مصطفى مسرعا إلى البلدة ليلا من المقبرة، ليتحدث مع نبوية في أمر نفرتال، وعزمه على الزواج منها، وكان العفريت في أثره كما وعد نفرتال حتى يطلعها على أى شر أو مكروه قد يحدث له . وما إن وصل مصطفى إلى بيت نبوية، وعندما دخل البيت وكانت فى صحن الدار نظرت إليه نظرة غريبة لم يعتادها وقالت له : ماذا بك يا مصطفى ؟ أحيقي ما يقولونه عن أن النداهة قد أسرتك وقد أفضت إليك، فأصبحت أسيرها ؟

فسكت مصطفى ثم قال : لا تهتمى بهذا الهراء الدائر فى البلدة، أنا مصطفى ولا يوجد نداهة ولا عفاريت، كل ذلك من صنع خيال وإشاعات المغفلين الذين لا عقل لهم، وإنى أعرف جيداً مصدر هذه الإشاعات، ذلك الدجال المشعوذ، الذى يسيطر على عقولكم بقذارته، فردت نبوية فجأة : قف عندك .. ذلك الرجل المبارك الذى يملأ بيوت البلدة خيراً؟، وعجل مصطفى قائلاً : اسمعى يا حاجة نبوية، أنا عاوز أحكى لك الحكاية كلها وأنا طالب منك المساعدة حتى أسافر مع نفرتال نعيش فى مدينة العاص، أنا مالميش عيش هنا خالص ...

- مين نفرتال ؟

- اسمعى يا حاجة .. اتركى المعزة اللى بين ايديكى دى وتعالى اسمعى الحكاية وبعدين نشوف رأيك .

وبدا مصطفى يسرد حكايته، ولكن نبوية كلما تكلم مصطفى

وحكى كلما ابتعدت عنه تدريجيا، وفى النهاية صاحت قائلة :  
تريدنى أن أقبل النداهة فى بيتى وتتزوجها ؟ اسمع يا مصطفى  
أنت فقدت عقلك واتجننت زى ما أهل البلد قالوا لى، اخرج من  
بيتى ولا ترجع هنا تانى، أنا عاوزة أموت فى حالى، وأعتقد أن  
الله سوف ينتقم منك الآن ، وسلط عليك عقلك والشياطين بعدما  
خسرت نفسك ومالك وتسببت فى موت أمك، فرد مصطفى : لقد  
صدقنى يا نفرتال فيما قلتى، ولكن رغم ذلك يا حاجة نبوية أنا  
شاكر لك، أنت الوحيدة التى وقفت بجانبى وكنت لى الأم والبيت  
وأنا أوكد لكى أنى على الطريق الصحيح وستعلمين قريبا كل  
شئ، وفتح باب البيت وخرج.

وكان الليل قد انتصف، فمضى إلى رباح مرة أخرى وقد أوشكت  
على النوم، ففرحت بقدومه وأخذت تطمئن عليه ولكن هذه المرة،  
جلس وتحرك لسانه سائلا رباح : ممكن أبأت عندك لغاية الصباح  
؟ فردت : طبعاً، أنت ممكن تتام مكانى وأنا أناام هنا فى الخارج  
..

لا يا رباح أنا عاوز أحكى لك كل حاجة وأرجو أنك تصدقنى،  
أنت الوحيدة اللى أثق بها وقد أظهرتى كثيراً من الحب، ولولا  
قلبى مع نفرتال ما كنت فارقتك أبداً، وانعقد لسان رباح عن الرد،  
فهى أول مرة تسمع هذا الكلام من مصطفى، وسألت : من نفرتال  
؟، فرد مصطفى : لا عليك يا رباح سأسرد عليك الحكاية وبعدين  
أطلب منك طلب لو تقدرى تعمله لى ولها ...

وجلست رباح إلى جانب مصطفى ناظرة إليه فى حب وشغف  
وحيرة، تسأله : ما الموضوع يا مصطفى، وسرد القصة عليها  
كاملة كما قصها على نبوية، ولكن رباح ذهبت فى رياح الحيرة

مما تسمع، فالقصة عجيبة ولكن الراوى مصطفى، ورباح تعلم أن مصطفى قد لجأ إليها بعد ما تأكد أن الآخرين ناكرين له، فهي تعلم فيه الخير والحب رغم كل الأفعال والمصائب التي دارت عليه ومنه وإليه، فقالت : وما المطلوب؟، فرد : أعيش أنا ونفرتال عندك لحين أدبر حالى وأحصل على بعض المال، لأذهب إلى مدينة العاص حيث صديقاً لى قد يساعدى على ايجاد عمل أتكسب منه، وأعيش أنا ونفرتال عليه بعيداً عن هذه البلدة المزعجة، فردت رباح : مصطفى الذى كان أغنى شباب البلدة، اليوم يبحث عن عمل ليعول زوجته، ما نوع تلك المرأة نفرتال ؟ أهى جميلة إلى هذا الحد حتى تنسيك مصطفى القديم ومالك والغدر الذى تم بك؟ وتريد أن تقر معها إلى حياة جديدة لتعيش معها .. إنها لجديرة بهذا الحب، تلك المرأة التى جعلت منك رجلاً حقاً، وعلى العموم يا مصطفى أنا عندى بعض المال المدخر، ممكن تأخذه أنت ونفرتال، لكن أرجوك خذنى معك أنا الأخرى، فلن أستطيع أن أعيش هنا بعدك، فكل ما حولى من أشخاص وحياة لا معنى لها وما حدث لك جعلنى أكره هذا المكان أكثر ..

وقد ملئت عينا مصطفى بالدموع، ولكنه ضحك مردداً : كل ما كنت أريد أن أسمعته وتوقعته وجدته عندك يا رباح عندما خطوت الخطوة الأولى إليك الليلة، كنت واثقاً من ردك هذا، بل زدت عليه، اسمعى يا رباح سأذهب فى الصباح لأحضر نفرتال وأقص عليها كل شىء فهي تعرفك وتحبك دون أن تراكى، فهي تملك شخصية شفافة تحكم على الناس بحكمة من قول أو تصرف أو سرد حكاية عن الغائب، فقامت رباح واضعة يديها حول رقبة مصطفى لتمسح بيديها دموعه وتهز كتفاه بحنان قائلة : أمسك فى

نفرتال فهي سعدك وهي النور الذى يصل بك إلى برالأمان بعد كل ما لاقيت، فأملك تراك وأنى أحبك ونفرتال معك ..يالك من رجل محظوظ، تحبك أكثر من امرأة وكل تبذل ما تملك لإسعادك..

ومضى الليل فى كلام وحديث متبادل، وما إن ظهر الضوء حتى خرج مصطفى مسرعا إلى نفرتال فى المقبرة وقد سبقه العفريت بما دار وحدث، وفعلا نزلت نفرتال إلى قبر والدته مصطفى لانتظاره ومعها تراب، وقد أحس تراب بفرحة نفرتال، إنها فى غمرة السعادة والحب، وقد ظهر شبوح مصطفى وهو داخل المقبرة، فسارعت نفرتال إليه وكان يملأه الفرح صائحا : كل شىء على ما يرام يا حبي، المكان والفلوس، فلنخرج من يحبنا من مقبرة الأموات إلى مقبرة الأحياء، فلنذهب إلى خارج ذلك المكان دون رجعة، إلى الحب والحياة، فلنفرح، وحضنها وحضنته، وتراب يلعب حولهما ويقفز فى الهواء مع العفريت، وهمست نفرتال قائلة: قد أخبرنى العفريت بكل ما حدث ولكن الآن على وعليك أن نجد طريقة ترد بها اعتبارك فى تلك البلدة ويرد إليك مالك وأرضك وبيتك، وبعدين نبدأ حياتنا الجديدة ..

مصطفى : أنا لا أريد شيئا غيرك الآن ..

- لا يا مصطفى ..يجب أن تسترد اعتبارك وتخرج فاتحا وليس مخذولا ...، لا يا مصطفى ..لن أفعل مثلما فعلت مع خالتي مارى وأترك من أحب ليسقط، سأخوض الحرب ضد من يؤلمنى أو يؤلم من أحب، تعالى ورائى ولا تراجعنى فيما أفعل ...



وانطلقت نفرتال وورائها مصطفى إلى أعلى الجبل إلى داخل المغارة، ولأول مرة يشعر مصطفى ببرودة الموت عندما دخل المغارة، بل كانت رائحة الموت في كل جوانب المكان، حتى توقفت نفرتال في أحد أركان المغارة، ثم انحنى إلى الأرض تزيل التراب، وسألت مصطفى أن يحفر معها، حتى ظهرت قطعة خشبية طويلة، وما إن أزاحا تلك القطعة الخشبية حتى ظهرت الأموال وكنز العصابة الموجود هنا منذ قتل أهل المغارة جميعاً، وصاح مصطفى: يا الله !!! كل هذه الأموال والحلى والذهب !!!، فضحكت نفرتال: عرضتهم على خالتي ماري فردت على بأنه لا حاجة لنا بها، يمكننا أن نعيش سعداء من دونهما، عندنا كنوز حقيقية أخرى يا مصطفى، لكن علينا الآن أن نأخذ ما نستطيع وضعه في تلك الجلابية البالية ثم نعود لنأخذ ما نريد، فرد مصطفى: الآن نذهب ونعيش في مدينة العاص، يا حبيبتي يا نفرتال ... كل المال ده وتعيشين هنا هكذا ... كيف استطعتي أن تملكي هذه الأموال ولا تملكي؟، دعينا نذهب عن هذه البلدة والمقبرة ونعيش هناك، فردت: لا يا مصطفى ... ليس بعد .. فعلى أن أرجع مالك وكرامتك ودارك، فأنا لن أترك أحدا يفعل بي أو بك ما حدث من قبل و من قبل قبل .. قتلت جدتي غدرا، وظلمت أنا وظلمت خالتي وكثيرا من الناس ...

- لا أعرف ماذا تعنين يا نفرتال، ولكن ماذا نعمل الآن ؟ ..
  - نحمل ما نستطيع من المال ونذهب إلى رباح يا مصطفى كما وعدتك ثم سأشرح لك ما فكرت به ..
- وبدءا يجمعان ما يستطيعان حمله من المال واخفوا الباقي، والباقي كثير، وأخذا طريقهما بسرعة قبل افتضاح الأمر إلى مكان رباح

وفى أثرهما تراب . وكانت رباح فى انتظارهما كما وعدت، ولكن بعد أن رأته وسمعت منهما، أدركت أن القصة ستأخذ مأخذاً آخر.

وما إن اكلوا حتى قالت نفرتال: أنا سمعت منك يا مصطفى أنك على اتصال ببعض كبار الناس فى مدينة العاص، فخذ ما يكفى من المال واذهب الآن إلى مدينة العاص، ابذل جهدك لتصل إلى زعيم العسكر طالبا حمايته، وابذل المال حتى يحمونا هنا فهم أهل الرشوة كأهل مصر وكبار الدولة، وعندما ترجع ستكون أوراق ملكيتك للأرض والدار جاهزة فتكون سندك أمام العسكر، فيصبح فى ركبك الأوراق والمال والعسكر.

فرد مصطفى : كيف ؟ وأنت تعلمين أن الأوراق سرقت ؟ ..

- أتذكر يا مصطفى، ولكن الأوراق ستعود بنفس الطريقة التى سرقت بها، سترد اليك بنفس الطريقة، والمال جاهز معنا، وكثيرون يقومون بذلك العمل، فلا تقلق ولكن علينا بالسرعة والكتمان حتى يتم ما نريد ...

- ولكن كيف؟ إياك أن تخبرينى أن العفريت سيقوم بالسرقة !

فضحكت نفرتال : لا ده مش شغل عفاريت، ده شغل رباح ..

وتدخلت رباح : ماذا تعنين يا نفرتال ؟ ومن العفريت ؟

فردت نفرتال : اسمعى يا رباح لقد علمت أن هذا المكان يتردد عليه كثير من الرجال الخطرة وأبناء الليل، وأنت تعرفينهم جيداً، فما عليك إلا أن تختارى بعناية وعن ثقة فى إخلاصه لكى، من يستطيع أن يقوم بخطف خضرة وصالح مقابل الفلوس، حتى نصل

إلى الأوراق، ويجدوا طريقة أخرى لدخول البيت وسرقة الأوراق بالقوة أو بالحيلة..

فردت رباح : فهمتك، المال معنا والرجال موجودة ومصطفى معه العسكر، تمام كده .. وهز تراب ذيله وكأنه يوافق على الفكرة هو أيضاً.

نفرتال تجلس بمفردها فى حجرة رباح، بعد أن اغتسلت وأعطتها رباح بعض ملابسها التى أظهرت جمالها وحسنها، ونور وجهها، وهى تمشط شعرها وتغنى ما علمته لها مارى :

"... لا تجهلى أن مصر هى صورة للسماء على الأرض .. كما أنها موطن السماء وكل القوى التى فى السماء... وإن جاز لنا قول الحقيقة فإن أرضنا هى معبد العالم ... كما أنه من اللائق ألا تجهلى أن الوقت سيأتى عندما يبدو وكان المصريين قد خدموا الآلهة عبثاً... فسوف تترك جميع الآلهة مصر وتصدق عالياً إلى السماء.. وتصبح مصر أرملة عندما تتخلى عنها الآلهة.. لأن الأجانب سيأتون إلى مصر وسوف يحكمونها .. وفى ذلك اليوم سيصبح الوطن الذى كان أكثر البلدان ورعاً ... بلداً عديم التقوى ولن يعود مليئاً بالمعابد وإنما بالمقابر ... وستصبح مصر التى كانت محبة الرب ومسكن الآلهة ومدرسة الديانة مثلاً للإلحاد ... إلا أن مصر سوف تعود مرة ثانية إلى سابق عهدها وسيثبت سادة الأرض أنفسهم فى مدينة فى أحد أركان مصر سيتم بناؤها فى اتجاه غروب الشمس...."

وعندما دخلت رباح إلى نفرتال وسمعت الأنشودة فأخذت هى الأخرى تردد ورائها، فتوقفت نفرتال وسألتها : أتعلمين هذه الأغنية ؟، فردت رباح: نعم، لقد علمتتى إياها جدتى منذ صغرى، وذلك عندما كان يحدث فى قريتنا مشاكل بين الأهالى وكلا يتعالى

على الآخر بمكانته أو دينه، وهى تعلمتها الأخرى من جدتها، وقالت لى إن مصر ورثت هذه الأنشودة من الفراعنة، لقد ذكرتتى بأيام طفولتى، فأنت ملاك يا نفرتال يعيدنى لغسل روحى مرة أخرى لأعود إلى الحياة، أعرف أنها أنشودة أرض مصر الباقية، ولقد أحببت سيرتك منذ سمعت عنك من مصطفى، وهو يسرد ويصفك بأنك أحد الملائكة الذى يحاول أن يسعد من حوله.

نفرتال : ولكنك تحبين مصطفى فكيف تحبين سيرتى ؟، أعنى مصطفى يعرفك قبلى بمدة ويكن لك بعض الحب ..

فقال رباح متجاهلة ما عنت نفرتال : أعتقد أنى أحبك لأنك ستخرجينى مما أنا فيه كما أخرجنى مصطفى، فأعود إلى الحياة، وقد سألت مصطفى أن يأخذنى معكما إلى مدينة العاص فوافق، ولكن لا أعلم كيف، وأما مصطفى فحبه يخرجنى من نفسى إلى نفسى، ولكن نفسه عندك من قبل أن يراكى وأنا معه، فالحب الذى بينى وبينك الآن هو حب مختلف تماماً ويحوى كل حب ...

- يبدو أنك تعلمتى من الحياة كثيراً يا رباح، ولكن هل أنت واثقة أن أبناء الليل هؤلاء سيفعلون ما نريد ؟ لا بد أن يكون ذلك قبل وصول مصطفى وإلا لن تنفع الخطة..

- اطمئنى يا نفرتال، أنا اخترت جيداً الذين سيقومون بها، وليست العملية الأولى من نوعها، لأنى أعلم جيداً كم يكرهون ذلك الرجل صالح .. الذى استولى على أرضهم وشردهم أولادهم، ولا تنسى أن المال الذى ندفعه كبير، وموعداً العصر، سأؤكد لك، ولكن لا

تخرجى من الحجرة ابدا ولأى سبب كان، وسكتت لحظة ثم قالت : هل ستأخذونى معكما إلى مدينة العاص كما وعدنى مصطفى يا نفرتال؟

- طبعاً، ولكن هل كنت هناك يوماً ما ؟ ..أعنى هل عشتى فى تلك المدينة الساحرة التى يحكى عنها مصطفى؟

- لو تعلمى قصتى لأدركتى ماذا كان لى هناك ...فأنا لم أخلق غازية، ولست من أهل البلدة، ولكن منذ أعوام عديدة عندما كنت فى عز أهلى وبالتحديد يوم زفافى، ذهبت أنا والبنات فى الصباح إلى العين التى تقع خلف الجبل حيث يقيم قومى فى صحراء موسى، فهم بدو، لنحتفل معا كالعادة، فإذا بمجموعة من لصوص البدو والنخاسين يقبضون علينا ويهربون بنا، وكنا خمس بنات ومنهم بنت خالتى بدوية، وسافروا بنا إلى مدينة العاص، وتم بيعنا جميعاً، كنت أنا وبنت خالتى من نصيب أحد رجال القصر من عرب أهل القصر الذين يأتون فى قوافل الوالى من هناك ليحكموا هنا، ويستمتعوا برغد العيش، وأعرف أنه من كبار قبيلته، ومن عادتهم أن من يتولى حكم يأتى بعشيرته وقبيلته ليعيشوا هنا، وقد استحلفته أنا وبنت خالتى أن يرجعونا إلى أهلنا لأننا مسلمين مثله، فأبى وقال : أنت جوارى وعبيد لى ولأهلى، دفعت ثمنكم والإسلام لم يحرم بيع ولا شراء العبيد ولا حتى أى دين، فالدين لله والأرض لنا، ونحن أسياد اليوم .

وفقدت أنا وبنت خالتى عذريتنا على فراشه وفراش أولاده مراراً ومراراً، حتى قررنا الهروب، وأخذ ذلك وقتاً طويلاً، وما إن هربنا حتى أتينا إلى هنا شمال الدلتا لنختفى، ونتاجر ببعض

الأطعمة فى السوق حتى يقبلنا الناس هنا، ولكنى سئمت ذلك فبنيت ذلك المقهى، وارتاده رجال الليل وغيرهم، واعتادوا على واعتدت عليهم، فمعظمهم شرفاء، بالرغم من أنهم حثالة البلدة، وأما بنت خالتى فتزوجت من فلاح فقير من أهل البلدة .

حتى قابلت مصطفى ورق قلبى له، وكان يعاملنى بطريقة مختلفة، فملت له، ولكن عقله وقلبه كانا تائهين حتى ظهرتى فى حياته، وأما بنت خالتى فكانت لا تتجب، وقد ذهبت إلى ذلك الرجل المشعوذ الجبان كباقي أهل البلدة وتوصية زوجها، فكان لها الولد ...

- أتريدون أن تقولى لأن هذا المشعوذ الجبان قادر على تحقيق المعجزات؟ أنت اذن ممن يؤمن به يا رباح !!

- فى الحقيقة يا نفرتال لقد أخبرتنى بنت خالتى بسرهما وسأفضى إليك به، ولكن أرجوكى اكتمى ما تسمعى، أن ذلك الجبان قد اغتصبها، فى حضرة الأسياد والجن .. وعندما قررت فضح أمره قال لها أن نصف أولاد البلدة يشبهونه لو أمعنت النظر فى وجوههم، ولا تستطيع أن تفصح أمره وإلا قتلت هى الأخرى، وأن أحدا لن يصدقها حتى لا تتوه الأعراض والأقوال، فاسكتى وعيشى، وكان طلبك طفل، وقد قضيت لك طلبك، فإن حدث كسبت زوجك ونفسك، وإن لم يحدث فعيشى .. ذلك الكلب القذر...

وساد صمت تام من قبل نفرتال ثم قالت : إن ذلك الملعون لن

يفلت منى حتى أنتهى من موضوع مصطفى أولاً ثم يأتى الدور،  
لقد عاهدت نفسى إلا أسكت على ظلم طالما أستطيع، وأنا أستطيع

..

- لا .. لا يا نفرتال أرجوكى، يجب أن تستمر الحياة ويستمر  
سرهم فى طى الكتمان ...

- أسكت ؟ لا .. كيف ؟.. كيف يتزوج أخ بأخته ؟ قد يحدث يوماً  
طالما ذلك المشعوذ موجود وهؤلاء الجهلة يتمتعون بجهلهم  
ويقدمون نسائهم .

وسمعت نفرتال نباح تراب فخرجت رباح بسرعة إلى الخارج،  
فوجدت الرجال الذين كانت فى انتظارهم، قائلين : ما هذا  
الشیطان الملعون الأسود الذى يوجد عندك، لم نره من قبل، إنه  
شرس وكریه الوجه، وقال أحدهم : سمعت أن شیخ الجامع يقول  
أن الكلب الأسود شیطان وقتله فيه صدقة، فردت رباح : أنت  
وشیخ الجامع إلاتین شیاطین، هذا كلبى، يأكل عندى ويحرسنى،  
فلا أحد يمسّه بسوء ...تعالوا ورائى ...وأنزوت بهم فى أحد  
أركان المقهى، وتحدثت معهم عن المطلوب منهم بكل جدية،  
وذهبوا بعد أن دفعت جزء من الأموال على أن يتسلموا الباقى  
عندما يستلم مصطفى أرضه، فيستطيع أن يدفع، بل وعدتهم بمزيد  
من الأموال وقد يعملون لديه ويعيشون كأبناء البلدة.

وما إن اطمأنت إلى خروجهم، حتى قالت لتراب : خد بالك أن  
يعود أحد منهم، وهز تراب ذيله وكأنه الحارس الأمين، وكانت  
نفرتال تتحدث مع العفريت الذى أخبرها أن هناك مكيدة من ذلك



المشعوذ وشيخ الجامع أنهم حرضوا أهل البلدة على الخروج غدا بعد الصلاة للقبض على مصطفى ويخرجوه إلى خارج البلدة بلاعودة لأنه شيطان ملعون، وما إن دخلت رباح حتى سكت العفريت، ولم تسأل رباح عما أحست أو عن الصوت الذى سمعته مع نفرتال، فهي تعلم أحوال نفرتال ولا تتدخل فيها ..

وقالت رباح : خذى باقى الأموال، هم أخذوا المقدم وستتم العملية غدا، و قد رحبوا بذلك كما قلت لك، فهم يكرهون ذلك الوغد صالح، فقالت نفرتال : هل أخبروكى ما الخطة ؟، ردت رباح : لا بل قالوا اطمئنى فالأوراق ستكون عندك ليلة الغد فهذه العملية هدية لهم، فصاح العفريت : لا عليكِ يا نفرتال سأكون معهم، مازال عندى بعض الحيل أستطيع استخدامها، فرجفت رباح من سماع الصوت، فهدأتها نفرتال : لا تخافى فهذا صديقنا العفريت، فألقى عليها السلام ثم أنصرف.

رباح : أحس أنى أعيش قصة من قصص خيال جدتى، كما سمعت عن الجن والعفاريت، ولكنى لم أتوقع فى يوم أن اكون بينك وبين تراب والعفريت ..

نفرتال : اهدئى يا رباح، المهم مصطفى يرجع على خير ...

فى صباح اليوم التالى كان الكل داخل عشة رباح فى ترقب وحذر، وقد هاجم الفكر جميع المحاربين بما فيهم تراب الذى كان فى انتباه كامل لحماية نفرتال، فهما خارج أرض المقبرة، كما أنه أحب رباح التى أغدقت عليه فى الطعام والشراب ولم تزعجه وابتسمت فى وجهه، على عكس ما كان يفعل الآخرون، إما خائف أو حذر منه كأنه يرى شيطانا ..

وبدأ تراب فى النباح عندما رأى أحداً قادماً على الطريق، مما جعل رباح تخرج فى الحال إلى خارج العشة لتستطلع الأمر، وانتابت رباح حالة من الاندهاش من مجيء تلك المرأة التى تمشى على الطريق، فذهب ذهنها أنها قد تكون بنت خالتها ..، ولكنها لم تقل ذلك من سنين، فمنذ تزوجت وهى تحاول إخفاء هذه العلاقة لما يتردد عن بنت خالتها رباح من شائعات عن سوء أخلاقها، ولكن هذه المرأة القادمة من بعيد تبدو عجوزة من انحنائها وبطء مشيتها، وما إن بدأت ملامح هذه المرأة تظهر حتى تعجبت رباح، صائحة فى نفسها .. إنها الست نبوية .. ما الأمر ؟ أحدث مكروه لمصطفى ؟، وكان تراب قابلاً خلف رباح، ينتظر رد فعل رباح تجاه الغريب ..

وما إن وصلت إليها قالت : تعالى يا ست نبوية، ادخلى، ماذا حدث ؟ أى مكروه وقع لمصطفى ؟، فردت نبوية : لم يحدث حتى الآن ، لكن أذى كبير فى طريقه إليه، ولكنى أبحت عنه منذ الأمس وذهبت إلى المقبرة صباح اليوم ولكنه ليس هناك فظننت

أنه هنا عندك، ثم سكتت ..ثم قالت ناظرة إلى تراب : ما هذا الكلب الأسود الشيطان اللعين الذى تربيته عندك؟ اقتليه ولك فيه صدقة .. فردت رباح : بل أطعمه وآويه ولى فيه ألف صدقة .. وأردفت قائلة : لماذا ؟ هل مصطفى لا يوجد عندك فى البيت يا حاجة ؟

- لقد ترك البيت، فمصطفى فى لعنة دائمة، وقد علمت من أهل البلدة أنهم اليوم يجتمعون ليتآمرون عليه لطرده خارج البلدة بلا عودة، وقد يصل الأمر إلى قتله ..

- لقد سلبوا ماله وداره واليوم يطردوه .. هل يوجد ظلم أكثر من ذلك !!

- لا تطيلي الكلام يا رباح ..أخبريني أين مصطفى .

- لا أعرف عنه شيئاً مثلك تماماً ياخالتي، ولكننى سأحاول أن أعرف لك مكانه لأخبره بما قلتى .

- أنا لست خالتك فأنا امرأة شريفة، فإذا رأيته أخبريه أن يسافر بلا رجعة من هذه البلدة، ولا يأتى ليرأنا حتى لا تدور الدوائر على رأسه ورأسى.. وأخذت طريقها للعودة على عجل رافضة أن تستريح فى جهنم هذه.

وسارعت رباح إلى نفرتال لتحكى لها القصة، فردت : إنى أعلم ولكن لا تخافى ..سأخرج أول ما يبدأ اليوم إلى طريق مدخل البلدة للمسافرين، فقد اتفقت أنا ومصطفى على ذلك الموعد فلن يطيل

إقامته هناك سواء أنجز المهمة أم لا .

وما إن انتصف الليل حتى أعدت نفرتال نفسها، ووضعت بعض ملابس النساء السوداء عليها من رباح، وانطلقت فى الطريق وخلفها تراب وأمامها العفريت، فقد أخبرها بأن مصطفى فى طريقه إليها الآن ، ولكنه قد يتعرض لأذى، إذ رأى العفريت عصابة من رجال الليل فى نهاية الطريق، فسارعت نفرتال مبكرة حتى تكون هناك قبل وصول مصطفى، وقد أخبرت رباح، فأصرت رباح أن تأتى معها أو تحضر بعض الرجال معها، فأبت نفرتال قائلة : لا تخافى، فأنا وأصدقائى كفيلىن بأهل البلدة جميعا، فانتظرى هنا وأعدى لنا بعض الطعام وأكتمى الخبر فى صدرك، اخفضى نور المصباح واجمعى المناضد والكراسى، وإن زارك أحد ادعى أنك مريضة الليلة، وقامت رباح إلى نفرتال محتضنة إياها وداعية لها بالتوفيق .

وما كاد مصطفى يصل إلى نقطة الالتقاء حتى أحس بحركة من حوله، فأدرك أنه بخطر، ولكنه حمد الله أن جميع المال الذى كان يحمل قد وصل إلى يد رئيس العسكر، وفى ذات الوقت كانت نفرتال تبعد خطوات عن ذات المكان، وما إن اقترب أحد الرجال الثلاثة الذين كانوا خلف مصطفى منه حتى قام العفريت مشاركا بإحداث زوبعة هوائية كبيرة أحاطت بالرجال الثلاثة وأوقعتهم على الأرض، ووقعت خناجرهم منهم، وهنا ظهرت نفرتال قافزة فى الهواء وأصبح تراب أيضاً وسط المعركة، وأخذ الرجال يصيحون : العفو... العفو... عرفناكم أنت مصطفى وأنت النداهة...، ما كنا نعلم أنك أنت يا سيدى مصطفى العفو العفو...، واستغرب مصطفى من كلامهم، وضحكت نفرتال وردت : الأمان

عليكم الآن ، مطلوب أن تأتوا غدا بعد صلاة الجمعة إلى بيت مصطفى، وأحضروا معكم من الرجال من يريد مالا وعملا، وألقت إليهم ببعض المال، فتقدموا والنقطة وردوا: غدا سنكون هناك ومعنا العديد من محبي المال، وأضافوا : من الذى يحميننا هناك إن كان العسكر موجودين ؟، فرد مصطفى : لا تخافوا، فمعى جميع العسكر والمزيد منهم فى الطريق إلى، لا تخشوا أحدا، ولكن اجمعوا أكبر قدر من الرجال، ولا تخافوا شيئا وسأجزل لكم العطاء، فردوا : على الرحب والسعة، غدا نراك، ثم هرولوا مسرعين حتى اختفوا .

وجرت نفرتال وارتمت فى حضن مصطفى الذى كان مذهولا مما حدث، قائلا : لم أعلم أنك بهذه القوة يا سيدتى، تتحدثى كأنك ملكة قوية من ملوك الليل، وحكمة وبلاغة فى الكلام والأمر، بل و تعدين المال، فماذا ورائك ؟

فردت نفرتال : غدا بعد صلاة الجمعة سيزحف أهل البلدة على بيت نبوية باحثين عنك للنيل منك ليخرجوك من البلدة، كما قالت نبوية اليوم وكذلك الغفريت، فقال : نبوية ؟..أرأيتى نبوية؟..، قالت : نعم جاءت فى طلبك عند رباح، ثم سألتها فى لهفة : ماذا حدث فى مدينة العاص ؟ أنجزت شيئا ؟، قال : نعم يا نفرتال، قاصا عليها ما حدث : ما إن وصلت بيت صديقى جرس رحب بى وسألته، وهو من أبناء كبار تجار الغلال بشارع البحر، أكبر شوارع مصر وأقدمها، فسألنى عن المال فأريته إياه، فأخذنى وذهبنا إلى بيت ابن زعيم العسكر، عنده قصر جميل وفاخر، وقابلته فاشتراط على كل المال الذى معى له، أما عدد العسكر وذخائرهم وإقامتهم وأموالهم سأدفعها أنا إليهم، وسألته خمسين من

العسكر، وأخاف ألا أستطيع أن ندفع لهم، فضحكت نفرتال قائلة : لدينا من المال ما يدفع لجيش كامل فلا تخش شيئاً، إنهم فى ركبى سيصلوا حسب الاتفاق، ولكن على أن أعود إلى المخفر فى الغد، حيث سيكونوا فى طريقهم إلى مخفر البلدة، وسيأتون إلى بيتى القديم عند الظهر، فردت : هل تثق فى ذلك الشاب ابن زعيم العسكر ؟، فرد : نعم ( سعيد ) أشهر من يقدم الحماية مقابل المال، فهو يتعامل مع جرس وجميع التجار من خلال أبيه مجاهد، وهنا سكنت نفرتال....ألا يزال ذلك الملعون حيا هناك؟...أنا أثق الآن أن كل ما أريد سيتم، فسألها مصطفى : أتعرفين مجاهد ؟، قالت : نعم، وأحس أنه سيكون له شأن معى، فتعجب مصطفى كيف أن فتاة ولدت وتربت فى مقبرة البلدة تعرف مجاهد رجل الدولة المرموق، ولكنه تذكر قائلاً : ماذا عن الأوراق هل حصلت عليها ؟، فرد العفريت: كله تمام يا مصطفى، وأنى أرى الرجال الآن فى طريقهم إلى عشة رباح وبأيديهم الأوراق، وأن الحاج صالح وزوجته وخضرة وحسن معهم مقيدىن فى حظيرة المواشى الخلفية لبيت الحاج صالح، فصاح مصطفى : العفريت ..العفريت ..، فقالت نفرتال : نعم ..العفريت ..، ولكن علينا أن نسارع الآن لنحضر مزيداً من الأموال من المغارة، وانطلقوا فى سرعة إلى هناك حيث أن طريق السفر من البلدة ليس ببعيد عن ساحة المقبرة.

وكانت رباح فى قلق مستمر وخوف من كل شىء، إلا أنه قد مر بها بعض رجال الليل كعادتهم، ولكن هذه المرة، كان واحداً من الثلاثة الذين كانوا على الطريق منذ وقت قليل، وقد جاء ليخبر رباح بأن تخبر أى أحد يأتى أن يلحق بهم غداً عند بيت مصطفى، والحساب مدفوع، فتظاهرت كأنها لا تعرف شيئاً قائلة : ماذا

هناك؟ أنت ذاهب؟، فقال: طبعاً، ولو تعلمى ما حدث الليلة لأتيتى أنت الأخرى، على العموم أنا على أن الحق بأصدقائى حتى نحضر أكبر عدد من رجالنا للغد، ثم خرج مسرعاً.

وقد سمعت رباح نباح تراب فأحست أنهم وصلوا كأنه إنذار لها، ومن ثم ظهرت خارج المكان، وهم كانوا خلف العشة من الناحية الأخرى زيادة فى الحرص، فناداها مصطفى فاطمأن قلبها قائلة الحمد لله، وبينما يدور الحديث صاح العفريت بأن الرجال وصلوا وعلى بعد عدة خطوات حاملين الأوراق فى ملابسهم، ودخلوا الحجرة الخاصة برباح إلا تراب جلس أمام الباب بدون حركة، وناولها مصطفى بعض المال وطلب منها أن تكون حريصة، وأغلقت الباب وقد تناولت سكين خلف ظهرها فى ملابسها، مع أنها تعلم أن جنود نفرتال متواجدين .

ودخل الرجال عليها صائحين فرحين : الأوراق جاهزة فىن الفلوس؟، فسألتهم ماذا حدث فأخبروها بأنهم قاموا بالمهمة على طريقتهم بدون إراقة الدماء، وأن الأربعة صالح وزوجته وخضرة وحسن جميعهم مقيدى فى الحظيرة الخلفية مع البهائم، ولن يعرف أحد أنهم هناك إلا فى الصباح لما يدخلوا الحظيرة، وأن خدم البيت هم أيضاً مقيدى ومكمنى كل واحد فى مكانه..

فردت رباح : ربنا يستر، فىن الأوراق؟، فإذا بأحدهم يخرج شنطة كبيرة مملوءة بالأوراق من طيات ملابسه، وأخبرها بأنهم لا يعرفون القراءة، فأحضروا كل الأوراق بعد أن كسروا دولاب الحاج والحاجة، وقد احتارت رباح فهى الأخرى لا تقرأ.

ولكن كان مصطفى يراقب من ثقب الباب فقرّر أن يخرج مع

نفرتال ليقرأ الأوراق، وفتح الباب فارتعد الرجال من خروج مصطفى عليهم، وفجأة صاحوا أن مصطفى والنداهة هنا، كانوا في خوف ورعب، فرد مصطفى : لا تخافوا أنا اقرأ الأوراق علشان أعرف هي المطلوبة أم لا، وبعدين تاخذوا فلوسكم، إلا أنهم كان يبدو عليهم الخوف الشديد فالشائعات التي أطلقت حول قاطنة المقبرة، والمس الذي أصاب مصطفى الذي شاع في البلدة قد أعطى الحكاية قوة الأسطورة و كذلك وجود تراب، ذلك الشيطان المرعب الحارس الخاص لهما، ومما زاد في رعبهم ما قام به العفريت من صنع دوامة بأنفاسه قد وصل أخبارها لأهل الليل، وهنا خرجت نفرتال عليهم مما أرعبهم أكثر وخاصة أنها تحمل في جسدها عينا ذلك الكاهن ..كاهن آمون..الذي يخترق أجساد وعقول البشر بالرهبة.

حينئذ قام أحد الرجال بتقديم الشنطة إلى مصطفى الذي لم يدخر وسعا في فتحها وإخراج الأوراق التي بها، متفحصا إياها وكذلك توقيعاته عليها .. نعم هي الأوراق التي سلبت منه خيانة وغدراً، من زوجته الغادرة خضرة عندما كان مخموراً مخدراً لا يملك إرادته، وهنا تهلل وجهه فرحاً، وأخرج المال الذي وعد الرجال به بل وزاد عليه، وهنا قد أحس الرجال بشيء من الأمان، وقد سألت نفرتال مصطفى أن يسأل الرجال أن يجمعوا عددا كبيرا من ذويهم وطالبي المال ليكونوا غدا هناك أمام منزلهم بالبلدة، لأنهم قد يكونوا عوناً لهم وهم في حاجة إليهم عندما يتسلم بيته وأرضه مرة أخرى، وقد استحسّن الرجال الفكرة ووعدوا بعدد كبير منهم، وخاصة بعد أن رأوا المال ووعدهم بالمزيد منه بل وعمل أيضاً لديه، وانصرفوا إلى حال سبيلهم .



ولكن قد لعب فى مخيلة بعضهم أن يحاولوا أن يسرقوه بعد عودتهم، فما كان من تراب إلا أن قفز فى الهواء فطاروا أمامه، وكانت رباح قد أعدت الطعام انتظارا لعودتهما، وبذلت العطاء من اللحم والعظم للسيد تراب الذى أصبح صديقها وفى ركبها دائماً، كما يهز ذيله دائماً للشكر والامتنان.

وأما العفريت فبعد أن اطمئن على نفرتال ومصطفى، رجع إلى بيت نبوية ليكمل ليلته داخل المعزة، وجلس مصطفى ونفرتال أمام ذلك الطعام، وكان تحت إبطيه لفة الأوراق الخاصة بملكه، والتي كان يخاف أن يضعها جنبا، ويبدو للناظر أن الثلاثة قد أصبحوا واحدا فى بوتقة الحب والأمل، وما إن أتموا مائدتهم، أخذت رباح نفرتال إلى الداخل لتقضي ليلتهما، وأما تراب ومصطفى فقد ظلا بالخارج .

وقد تصارعت الأفكار فى رأس مصطفى، تارة يحلم بعودة كل شىء إليه وتارة يحل الخوف محل الأمل، فيبدو عليه التشاؤم، وظل هكذا وهو قد ألقى جسده على إحدى الأرائك مستسلما إلى النوم، بينما ظل تراب راقدا مستيقظا خارج العشة .

وما إن بزغ نور الصباح وقضى ضوء النهار على ظلمة الليل استيقظ مصطفى، لإعداد نفسه لمعركة اليوم و كان عليه أن يذهب إلى المخفر بالبلدة، كما أشار عليه (سعيد) ابن مجاهد قائد العسكر حتى يسوى الأمر هناك و دفع الأموال التى وعد ببذلها إلى يد العسكر.

وما إن وصل مصطفى الذى حمل بقبلة الصباح من نفرتال ودعوة مشتركة من زوجته ورباح المخلصة، إلى المخفر، ووجد عددا

كبيراً من العسكر قد وصلوا ليلاً ليقوموا بالمهمة التي أرسلوا من أجلها، وقد افترشوا خيامهم طلباً للراحة حتى يأتي موعد الظهر أى بعد صلاة الجمعة حسب الاتفاق.

وترجل مصطفى إلى داخل المخفر حيث رئيس المخفر كان فى انتظاره، وما إن ذكر اسمه فقام إليه مرحباً به قائلاً: لقد كنت فى انتظارك، وهنا فهم مصطفى .. فأخرج الأموال ووضعها أمام ذلك المسئول، وأكمل قائلاً : إن شاء الله، بعد ما كل شىء يتم على خير، يكون هناك المزيد، وقام بإخراج الأوراق حتى يضعها تحت نظر ذلك المسئول، فرد الرجل قائلاً : لا حاجة لنا للأوراق فأنت مصدق وخاصة أن من طرف السيد سعيد ابن زعيم العسكر، فقرعنا، ويكون موعدنا عند بيتك بعد صلاة الجمعة، سأكون فى انتظارك ومعى جميع العسكر هناك على أتم الإستعداد لحمايتك، فلدينا من الجند ما يسد عين الشمس، وكلنا رهن خدمتك، فقال مصطفى : وأنا كذلك قد جمعت الرجال وهم سيكونون فى العون والحماية، فقال له : لا عليك فإنى قد أمرت شيخ الجامع ألا يذهب إلى صلاة الجمعة لتقريب الجمع، فهو له قوة تأثير كبيرة على أهل البلدة، هذا وعامة أهل البلد يصبحون كالفران أمام العسكر والسلاح ، فهم لا يملكون إلا الخضوع والإستسلام كحالهم دائماً أمام القوة والعسكر، فقام مصطفى وسلم عليه قائلاً : موعدنا بعد صلاة الجمعة .

وقد توافد أهل البلدة على الجامع لصلاة الجمعة، وكان معظمهم قد عقد العزم على المشاركة في طرد ذلك الملعون الذى الذى ارتكب جميع الجرائم والموبقات التى حرمها الله، بل وتعدى على الحاج صالح أمام كبار أهل البلدة واتهمه أنه حرامى، بل أصبح جسده وعقله سكناً للنداهة التى تثير الرعب والخوف فى أهل البلدة والتى سكنت المقبرة منذ زمن بعيد، وقد ساهم المشعوذ بنشر الإشاعات، وأخذ شيخ الجامع يسكب الزيت على النار من خلال المنبر طوال الأيام السابقة، وجعل القصة قصة دينية والمشارك فيها كأنه فى جهاد.

والغريب اليوم أن الذى اعتلى المنبر لصلاة الجمعة لم يكن شيخ الجامع، لكنه أرسل من يخلفه فى إمامة الصلاة لأنه مريض مرضاً شديداً ولا يستطيع الصلاة أو الإمامة اليوم، وكان لذلك وقعا على أهل البلدة، فقد طاف عليهم طائف بأن النداهة قد زارته وأمراضته لما قال فى حقها، وأنها قوية لا يستطيع أحد أن يقاوم شرها، بل قد يكون فى طريقه إلى الموت لأنها مسته وستتركه قعيداً أو مشلولاً .

ورغم الخوف الذى ساد قلوب أهل البلدة إلا أنهم ازدادوا إصراراً على الذهاب إلى بيت نبوية الذى لا يبعد كثيراً عن بيت مصطفى، لطرده أو قتله إذا رفض الخروج، وخاصة أن المشعوذ قد أصابه الخوف، ويحمل كيد وغضب داخلى، فكان يرسل بالأقوال والتحريض ليخلق إصراراً على الذهاب إلى بيت نبوية لطرده أو

قتل مصطفى، ولكنه يعلم شيئاً ما لا يعلمه الآخرون، ولكنه لا يستطيع تفسيره وهو دائم الهياج والتحريض.

وفى ذلك الصباح تم فك وثاق الحاج صالح من حظيرة المواشى ومن معه وكذلك خدم البيت، وما إن فك قيده حتى طار إلى دولابه ليعرف ماذا سرق، وقد عجب وأهل بيته فكل شيء قد سرق حتى أوراق ملكية الأراضي، وورد فى فكره أن يكون أحد خدمه قد فعل ذلك، ولكن أثارت سرقة هذه الأوراق لغز بالنسبة له، فالمال والذهب كان هو وحده الذى يسرق، ورغم التهديد والوعيد لجميع خدمه إلا أنه لم يجد بصيص من الأمل ليجد حل هذا السؤال عندهم، وقد أشار عليه حسن بالذهاب إلى المخفر فهو على اتصال بهم وقد يجد حل للغز عندهم، أو يقوموا بتعذيبهم فيستخلصوا الإجابات ويعرف من هو السارق.

وما إن توجه إلى مركز الشرطة، لم يستطع الدخول نظراً لوجود تعليمات بعدم دخول أحد إلى المركز لوجود عمليات عسكرية سرية كما أخبره الجندى، وقد لاحظ أن عدداً كبيراً من الحرس والعسكر وافدين إلى البلدة وأن هناك شيء غير عادى، إلا أنهم قرروا الرجوع بعد الصلاة إلى المركز مرة أخرى .

وقد توجهت الغازية رباح مع نفرتال صباح ذلك اليوم إلى بيت الحاجة نبوية، ليأخذوها معهم ويشرحوا لها كل شيء، حتى تكون فى مأمن مما يحدث، وكان تراب فى أثرهما، وكانت نبوية فى حيرة من الأمر، فالأحداث سريعة وواضح أنها قد ندمت ولامت نفسها لما بدر منها فى حق مصطفى، ولكنها هى ملك العادات والتقاليد، وكذلك ما حدث من تطورات سريعة وغريبة على مصطفى وسلوكه و حاله وماله يجعل من حكمها حكماً صحيحاً

على مصطفى أنه مصاب بمس.

وقد أدخلت الحاجة نبوية رباح ونفرتال إلى الدار بصعوبة شديدة، وكانت ممتنعة عن الحديث معهما، ولكن رباح تمتلك من الفطنة والذكاء ومعرفة القلوب الصافية، فاستطاعت أن تمتص تلك الصدمة حتى لانت الحاجة نبوية واطمأنت على مصطفى، ثم بدأت رباح ونفرتال في تقديم أحداث القصة، وما إن علمت نبوية أن مصطفى في طريقه ليأخذ ماله وأن وراءه العسكر فلن يمسه أحد بسوء، خرجت معهم لمقابلته عند رباح، فما زال يوجد متسع من الوقت للأحداث القادمة ومجىء العسكر حسب الاتفاق بعد صلاة الظهر أمام بيته القديم.

وقد رجع مصطفى إلى العشة ليجد في انتظاره الحاجة نبوية بين نفرتال ورباح، وعندما رآته نبوية أخذته في حضنها وأبلغته ندمها على ما قالت في حقه، وإن كان ما سمعت حقاً فستكون الحاجة فاطمة في فرحة، وأنذرتة بأن عليه أن يصلح حاله إن حدث ما قالت الفتاتان، ففرح مصطفى وأخبرها أنها الآن سيدة البلد الأولى وعليها أن تكون مستعدة بعد استلام البيت، لأنهن سيقمن بإعداد الطعام لذلك العدد الكبير من العسكر كما وعد، وأنه سيرسل الذبائح مع العسكر والخبز وخيرات الأرض من المستودع عندما يستلمها، وعلى نبوية تجهيز عدد كبير من نسوة البلدة للطبخ، بل على البلدة كلها أن تشارك في الطبخ والأكل، فالיום عيد عودة الحق لأصحابه، وخرج مسرعاً وورائه تراب إلى بيته القديم، فقد حان الآن الوقت للذهاب هناك وكان في أثره العفريت لحمايته.

وما إن وصل مصطفى حتى وجد عدداً كبيراً من الرجال بانتظاره، وبدأ العسكر يتوافدون عليه، أما الحاج صالح فكان في

غفلة، حيث أن حسن قد أشار عليه بالرجوع مرة أخرى بعد الصلاة للمخفر، وفي نفس الوقت كانا في وضع لا يستطيعا أن يذهبا إلى الجامع اليوم، فآثرا أن يكونا بالبيت حتى يعود صالح إلى المركز مرة أخرى، وكان لا يزال لغز اختفاء الأوراق يخفى في طياته كثير من الألغاز، إلا أن خضرة قد صرحت بأنها تعتقد أن الذي سرق الأوراق هو مصطفى، وخاصة بعد الذي شاع عنه في البلدة أنه على علاقة بالنداهة، فهو الوحيد صاحب المصلحة في ذلك .

ولكن حسن عقب قائلا : نداهة ايه ؟ هو ده كلام يدخل العقل ! اللي قاموا بربطنا بالحبال والتهديد بالسلاح رجال من داير الناحية، أنا سمعت أصواتهم وعارف أشكالهم، ممكن نقول الكلام ده للناس، ولكنى عندي إحساس أن مصطفى هو الوحيد صاحب المصلحة في سرقة الأوراق، فرد الحاج صالح : تفكروا حتى لو مصطفى هو الوحيد صاحب المصلحة في سرقة الأوراق، ماذا سيفعل بها ؟ فلا قيمة لها بعد أن وضعنا أيدينا على الأرض والبيت، فقالت أم خضرة: الوحيد الذي يكشف لك الحقيقة، الملعون أبو الشعوذة هو الذي يستطيع أن يعرف الحقيقة من حبايبه اللي تحت الأرض، فرد صالح : يا حاجة هو احنا عاوزين نخلف عيل ولا نوقف حال حد علشان نقولى لى كدة !

وبدأت خطبة الجمعة، فذلك الشيخ البديل قد بدأ خطبة بعنوان ( إذا جاءكم فاسق بنبأ )، وقبل أن يبدأ خطبته دعا للمسلمين وحمد رب العالمين و صلى على رسوله، وقال أن شيخ الجامع قد طلبه صباح ذلك اليوم وأوكل إليه بالخطبة ليوم الجمعة هذا لمرضه الشديد، ولكنه كان على عجلة أن يخبرني بأمر هام لأخبركم به

وقد اجتمعتم عليه اليوم، ولذلك أعلمتكم بعنوان الخطبة، وقبل أن أبدأ أبلغتكم رسالة شيخكم، أريد أن أقول أنه كان معى بعض الأخوة عنده صباح اليوم، شاهدين على ما أقول .

قد أبلغنى الشيخ أنه قد رأى مناماً مخلصاً، احتار من أمره، وأرجعه إلى خطبة الأمس،، فقد رأى أحد أولياء الله الصالحين يصلى فى هذه الجمعة معكم، ورأى فى أول صف خلفه ذلك المدعو مصطفى، وهذا المنام لا تفسير له إلا تفسير واحد، أنها بشرى لذلك الشاب الذى ذاعت حوله الأقوال والشائعات، وأضاف أن الشيخ فى حيرة من أمره فى هذه الرؤيا، لكن الأمر إليكم...

وبدأت الأصوات حول الإمام فى الجامع تتعالى وتختلط، و لكن الإمام حزم الأمر قائلاً : لا تتسوا يا اخوة أننا فى صلاة وأن الأمانة التى كلفت بها قد أديتها، وكم من نبأ فاسق اخترق الأمة، فلا تتعجلوا الأحكام، وهذه البشارات، ولنعود إلى موضوع خطبتنا مرة أخرى ..

وواقع الأمر أن هذه الرؤية قد اخترقت العقول عكس ما كانت تتوى من التجمهر والقتل وطرد مصطفى، فقد عدل معظم المصلين عن الذهاب، وأخذوا القرار ألا يذهبوا إلا للترحيب ولتثبيت ذلك الرجل المبارك بالبلدة .

إلا أن ذلك المشعوذ الملعون قد امتلأ صدره بالمزيد من الحقد والكراهية، فوقف بعد الصلاة يحاول زرع البلبلة مرة أخرى قائلاً: قد يكون معنى الكلام فى المنام أنه الوقت المبارك للخلاص من ذلك الفاسق مصطفى والنداهة، إلا أن معظم الناس قد عقدوا العزم على عدم ايذائه، وأنهم سيكتفون بالمشاهدة دون المشاركة

أو التدخل، وهذه مباركة لأهل الجامع وأهل البلدة الطيبين وليس لوجود ذلك الفاسق، وإنما قد ظهر فى الرؤية حتى تعلموا أنه هو مصدر الفساد وطرده بل أن قتله واجب، وبدأ الهرج والمرج يعود مرة أخرى....

وكان مصطفى مع قائد العسكر، وقد أعد له صرة من المال زيادة له، أعطاهها له فى يده فى الخفاء، فابتسم له قائد العسكر، وقد اكتمل الجمع ومن ورائهم رجال الليل فى الطريق، وكانت نبوية ونفرتال ورباح ويقوموا بإعداد اللوائم حتى يستلموا البيت، وقد عجل قائد العسكر بتسليم مصطفى بيته ومكنه منه وأدخله فيه، وكذلك نبوية ونفرتال ورباح، وقد أشار مصطفى على قائد العسكر بالذهاب إلى دار صالح لتسليمه الأراضى والمستودعات والخطائر ومحتوياتهم، حتى يستطيعوا أن يقيموا اللوائم للعسكر كما وعد، وأخذت نبوية فى الصياح بالفرح للرجوع إلى البيت ورجوع البيت إليهم مرة أخرى، وتجمع أهل الناحية، وسألت نبوية النساء حتى يأتوا لإعداد الطعام معهم لضيوف مصطفى القادمين من عند الوالى من مدينة العاص، وأصبح الجميع فى حيرة، فالיום قد تكون مجزرة فى البلدة وخاصة وسط هؤلاء العسكر وأهل الحاج صالح لن يسكتوا على ذلك، لكن قد استجاب البعض وزاغ البعض الآخر.

وقد خرج مصطفى مع القائد والعسكر والرجال، وتركوا بعض العسكر على حراسة المنزل والنساء وللمساعدة فى شئون الطعام، وأخذوا الطريق إلى منزل الحاج صالح مارين ببيت الحاجة نبوية حيث كان تجمع أهل البلدة هناك، وعندما رأوا مصطفى وسط العسكر فإذا بالصياح يعلو : هذا الملعون ...،



ولكن لم يتحرك أحد، ثم تقدم مصطفى من بديل الشيخ الذى خطب اليوم وقال : اسمعوا يا أهل البلدة، أنتم تعرفون من أنا منذ صغرى، أنا لم أؤذى أحدا فى هذه البلدة ولكنكم تعملون فى أرضى وأرض أبى، وإن كنت قد آذيت أحداً فقد آذيت نفسى فقط، ولكن كل ما وصل إلى مسامعكم هو أقوال شياطين سرقوا مالى وأرضى، أى نعم أنا تعرفت على فتاة شريفة من أسرة فقيرة معدمة تعيش خلف المقبرة، وهى ليست نداهة ولا جنية، ولكن ذلك المشعوذ الملعون الذى يقف بينكم - مشيرا إليه بيده - وآخرين من مصلحتهم أن يبعدوننى عن هنا بعد أن سرقوا مالى، وما إن علموا أنى استعنت بقاضى القضاة والعسكر لاسترداد حقى جن جنونهم، فقد حكم لى قاضى القضاة باسترداد أرضى وبيتى ممن سرقوهم، فرد بديل الشيخ : أن الحق ما نرى وعلينا أن نساعد المظلوم حتى يرجع حقه ونرفع الظلم عنه، وهذا الشاب معه العسكر ومعنى ذلك أنه على حق، ويحب علينا أن نكون معه ضد من ظلمه، هذا هو الرأى يا أهل البلدة ألم أقل لكم ذلك المنام الذى رواه شيخنا صباح اليوم حقيقة ..أى والله حقيقة...

وكانت خطابة الشيخ البديل ومنظر العسكر المخيف وكلام مصطفى بقوة فيهم قد أثر فى الجمع، فخرج بعضهم عائدا من المسيرة، ووقف آخرون يتكلمون، وذهب بعضهم خلف العسكر ومصطفى إلى بيت الحاج صالح، وما إن وصلوا حتى خرج صالح ومن معه فى زهول من الجمع والعساكر وبينهم مصطفى، فصاح صالح لقائد العسكر : هذا هو الذى سرق أوراقى وحجج أملاكنا وضربنا وكثفنا بالأمس، فرد قائد العسكر : أنا عندى أوامر من الوالى بتسليم مصطفى كل أملاكه التى اغتصبت منه، وقد تم تسليم البيت له منذ دقائق، وقد قدم جميع أوراق الملكية

لقاضى القضاة والوالى، فهل عندك أوراق ملكية لما تدعى ؟، فرد : اسألوا أهل البلدة وشيخ الجامع،... فلم يتقدم أحد للشهادة عندما سأل أهل القرية عن أى شخص ليقول أى شىء، بل سمع أصوات همهمة قائلين : هذه أرض مصطفى عن أبيه منذ زمن بعيد وصالح يعمل فيها ولا نعلم إلا أقوال وردت على لسانه فى أهل البلدة، فرد الحاج صالح : يا أولاد الكلاب ...، فقبض قائد العسكر والحرس على الحاج صالح ومن معه عندما حاول إيقافهم ومقاومتهم، وتوجه الجمع والعسكر إلى الأرض ليضع مصطفى رجاله فيها وكذلك المستودعات والحظائر ..

وذبحت الذبائح وأرسل الطحين والفواكه إلى بيت مصطفى ...فاليوم الجميع فى فرحة ....

ورغم أن اليوم كان سريعاً وتوالت أحداثه الكثيرة، فكان كأنه حلم لمصطفى ومن معه أو من ضده، كل كان يستقبله كما يحلو له، ولكن الجميع فى خوف وترقب، فلم يعتاد أهل البلدة هذا الكم من الأحداث، أو يشاهد حجم العسكر بتلك الأعداد وكلهم تحت إمارة مصطفى، بل أن النداهة بذات نفسها متواجدة بينهم، ولا أحد يستطيع أن يفتح فمه، وما حدث للحاج صالح وأهل بيته، الذى أصبح فى نظر الجميع لصا مغتصبا للحقوق وخائناً للأمانة، بالرغم من أن معظم أهل البلدة لا يشك فى ذلك، ولكن أن يتم ذلك أمام الجميع وبهذه القوة فهذا شئ غير عادى، مما أكسب مصطفى رهبة وقوة فى أهل البلدة.

وكانت أسعد واحدة فى هذه الملحمة هى الست نبوية، فهى أصبحت الآن كبيرة البلد فى غمضة عين، تعد الطعام وتأمر نساء البلدة والكل يعمل تحت أمرها، والعسكر على باب دارهم تحت أمر إشارتها فى كل طلباتها بعد أن ذاقوا طعامها الشهى، وهى كذلك تعتز وتمتلىء كبرياء بأنها فى ذات الدار المملوكة للمرحومة والدة مصطفى التى عادت إليها معززة مكرمة مرفوعة الرأس، إلا أنها ما زالت فى قلق من وجود نفرتال وأنها فى معزل عنها وعدم التودد إليها من جانبها، إلا أن نفرتال كانت دائماً فى خطاها تعمل بأمرها وتبتسم فى وجهها .

ورغم أن تراب كان مصدر خوف ورعب لها وللآخرين، إلا أنه كان ساكناً أمام باب الدار مع العسكر فى هدوء، وقد أصرت

الحاجة نبوية أن تعد له من الطعام كميات كبيرة، وخاصة عندما رآته يقف بين الباب وبين خضرة التى جمعت بعض النساء وأتت إلى الدار الذى تعتبره منزلها، وأن العسكر كانوا فى حيرة من أمر النساء وكيفية التعامل معهم، فعسكرنا لا يتحرشوا بالنساء، ولكن حينما اندفعت خضرة والنسوة اللآتى كن معها بأجسادهن فى وسط العسكر لتفريقهم ..فتتحوا عن الطريق، فنساء الشرق عامة ونساء مصر خاصة تعلمن قيمة أجسادهن، فما كان من تراب إلا أن كشر بعنف وشراسة عن أنيابه ونبح نباحا شديدا ووقف بين خضرة والمنزل مما جعل النساء تخاف وتجرى صارخات من الرعب من ذلك الشيطان الأسود كلب النداهة، مما زاد الاعتقاد أن ذلك الشيطان الذى يرقد أمام باب النداهة لا يقهر وأنه جان فى صورة كلب.

وقد اكتسبت رباح شعبية جديدة وكأنها واحدة من أهل البلدة بالفعل، وأصبحت تعمل معهم وتتحدث إليهم دون خجل أو حياء، وانضمت إليهم بنت خالتها، وكانت رباح تجنى ثمار حبها لمصطفى، ليس كحبيب أو رجل ولكن كصديق وأخ، فهو الذى أعادها إلى الحياة مرة أخرى خاصة بعد أن وعدا ونفرتال بالذهاب معهما إلى مدينة العاص، فعندما تسقط المعتقدات الزائفة تظهر حقيقة الأشياء وتعمل على وضوح حقيقتها وليس على خيال صورها...

أما نفرتال فكانها هى وتراب فى حلم جميل، فكانا يختلسا النظر لبعضهما البعض من حين إلى آخر وسط ذلك الزحام، فكلاهما كانا يعيشان بعيدان عن هذا الكم من الناس، ولم يخالطوهم أبداً، أن نفرتال لم تعتاد منذ صغرها أن ترى هذا الكم من الناس حولها

كهذه الأعداد، وخاصة أنها هي محور الأحداث التى تدور من حولها، وكل النسوة ينظرون إليها فى حذر وترقب وخوف إلا أنهم لم يجدوا فى عينيها أو أفعالها ما يوحي بأنها النداهة كما كن يعتقدن، بل حاولت كثيرات منهن التودد إليها والكلام معها .

وقد قرب الانتهاء من إعداد الطعام، ورصت الصوانى خارج بيت مصطفى ونضجت اللحوم والعسكر وأهل البلدة كلهم فى انتظار الطعام، وكان مصطفى وقائد العسكر مشغولين بتسليم المحاصيل والأراضى من الحاج صالح الذى كانت لا تستطيع أرجله حمله من شدة الصدمة وهول ما يحدث له، أما حسن فقد اختفى من أرض المعركة نهائياً، أما الأسوأ حالاً فهى خضرة وأمها وخدم بيتهم وقد انضم إليهم المشعوذ الذى انقلب سحره عليه وانفض الجمع من حوله .

واكتملت الأفراح عندما حضر شيخ الجامع مائدة الطعام مع العسكر والبلد، فمن المعروف فى مصرنا أن اللحم والإيمان فى قلوب شيوخنا، ولكن وجوده قد أضفى نوعاً آخرأ أو بعدأ آخرأ على المائدة، وخاصة بعد أن أذاع الرؤية التى رآها بل قد أصبح معافى البدن يسابق الجميع فى الأكل، وبوجوده توج الفرح، ومعنى ذلك أن حلمه المصطنع قد قام بدوره فى التمثيلية، وحقيقة الأمر أن قائد العسكر أرسل إليه وأحضره ليتحدث معه مبكراً صباح اليوم، وأمره بعدم الخروج لخطبة الجمعة، وعلم الشيخ أن مصطفى يدعمه الوالى وكبار وعلية القوم فى مدينة العاص، وأن عليه أن يخضع لتعليمات الأمن والحق، وكان عليه أن يخترع واحدة من الحكايات الدينية أو المنامات العامرة التى تحرك المشاعر بين المحبين والمريدين، وقد فعل طبعاً، وكم من حكام

توجوا برسل وأحلام لأدعيائهم، وطبعا لأن الفكر أن الضرورات تبيح المحظورات بل إن حلمه المزعوم قد أسهم فى تسهيل الموقف.

وبعد أن امتلأت البطون، انتشر الفرح والمرح وعاد مصطفى ليصبح من أعيان البلدة بل من أسيادها، والعسكر متواجدين بالبلدة حتى يستقر الأمر له، وعاد متعبا إلى البيت، وكان يبحث عن نفرتال التى ضاعت منه فى زحام الأحداث، وما إن رآه تراب يدخل البيت أخذ يهز ذيله، فقد أبرت بوعدها الحاجة نبوية وأغدقت عليه بكثير من اللحم، وبعدما انفض الجمع عن مصطفى ونفرتال ونبوية ورباح بالبيت، وتراب خارج البيت والحرس حول البيت، وبعد أن أحضرت نفرتال بعض الحلويات مما عملته الحاجة نبوية، بدأ الحديث بينهم جميعا لأول مرة ..

- فقالت نبوية : يا الله يا مصطفى يابنى أمك اليوم فى عيد وفرح فقد عاد إليك مالك ومكانتك وأكرمك الله وانتقم من الظالمين، أنا بدأت أصدق فعلا أن نفرتال بشرة الخير عليك وعلامة رحمة لك

- بسم الله الرحمن الرحيم، أقوم أصلى وأزرع أرضى، وجه منور وعشا لذى لا بكاء ولا رثاء، فاكرة الغنوة دى يا حاجة نبوية ؟

- فاكرة يابنى كانت حقيقة فعلا .. ألا يا مصطفى هو حقيقى أن بسم الله الحفيظ إن العفريت موجود معنا هنا .

- كان معنا ولكنه تعب فذهب لينام فى عباءة المعزة أصله كان شغال معنا من إمبارح ..
- نعم يا نفرتال ؟ هو ده صحيح كمان ؟ والنبي ما أنام فى الدار أبداً مع المعزة لوحدها تأنى أبداً أبداً... فضحك الجميع ..، وأكملت نبوية : هو أنا مستغنية عن عمرى؟... دستور دستور ...ووقفت سائدة يديها على حافة الكنية التى يجلس عليها إلى جوار رباح .
- بس أنا خيفة يابنى .. النهاردة العسكر موجودين يحمونا بس بكرة مين يحميننا ؟
- فقالت نفرتال : ربنا موجود
- فرد الجميع : ونعم بالله
- بس الحاج صالح وعقاربه كثير يابنى ..
- تمام كلامك يا حاجة، بس أنا الآن على صلة بابن كبير العسكر، دائماً معى وفى خدمتى فى أى وقت، لا تخافى وبعدين كل رجال البلدة طوع أمرنا وأنا كمان رتبت حاجة جديدة أنهارده، كلمنى واحد من رجال الليل الموجودين معنا عن أصحابه وطلبوا منى أن أساعدهم على العمل معى فى الأرض والمخازن، هم عاوزين يتوبوا إلى الله، ويرجعوا وسط أهل البلدة بالشرف والخير خاصة بعدما كانوا اليوم معنا فى أمان من الكل ومن العسكر خصوصاً، وهم مستعدين يحمونى بروحهم ..

- ردت رباح : صح يا مصطفى الرجال دى شرفاء واثق فى كلامهم .

- فردت نبوية : حاميتها حراميتها ولا ايه ! القتلة شرفاء دلوقتي ؟

- ردت نفرتال : أيوة يا حاجة هم عاوزين حد ياخذ بايديهم ليعيشوا حياة شريفة ويقدر يحميهم ويوفر لهم مصدر رزق ..

- ايه ده يا ولاد؟.. أنتم الثلاثة بتتكلموا فى نفس واحد كأنكم عقل واحد، ربنا يستر عليا أنا بقى وسطكم، باين عليا تعبت أنهاردة من الطبخ والرص يابنى أنا عاوزة أنام .. شفت السرير الجديد يا مصطفى ؟ دى خضرة دى ذوقها متدلع وعالى أوى، فضحكوا جميعا .. يالا يا بنات ندخل ننام ..

فقامت رباح، ولكن مصطفى قال : أنا علوز أتكلم مع نفرتال، طوال اليوم لم أتكلم معها، فردت الحاجة نبوية : لا لا ما اجتمع رجل وامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما، مايصحش كده يابنى أنا حققد معاكم، فسحبت رباح الحاجة نبوية من يديها قائلة : يا حاجة مصطفى ونفرتال موجودين مع بعض منذ مدة طويلة فى ساحة المقبرة وعندى فى العشة لا تخافى هم كبار وعاقلين، بس ما تتأخروش احنا تعبانين طول النهار.

وكانت نفرتال فى مواجهة مصطفى، وقد ارتدت ملابس من عند



رباح، أظهرت جمالها وكان وجهها صباح مضيئاً بالفرح والأمل،  
أما شعرها الأسود الطويل كأنه حارس جميل لرأسها وأكتافها،  
وعيناها لا محل للكلام عنها فهي عين بعيدة المدى كلها أسرار  
وروايات ..

- أنت جميلة جدا يا نفرتال، قد رأيت فيكي جمال الروح  
ونقائها وصدقها في العطاء والحب للحب، وأما الآن  
فاكتشفت جمال وأنوثة لم أرها في امرأة أخرى هنا أو  
هناك، كأنك حواء الأولى كما أبدعها الخالق لتونس آدم في  
وحدته، فأنوثنك أنوثة بكر كما خلقك المبدع لم يتحرك  
عليها تراب الدنيا وغرائز الحيلة والمكر، كان الشيطان لم  
يوسوس إليك حتى الآن أو لم يقتحم عالمك.

فتبسمت بسمة كشفت بها عن مزيد من جمال الروح انطلق من  
داخلها عبر شفتائها، وكانت براءة الكلمات الصامته تعبر عن حب  
يعشقه كل رجل ليعرف رجولته ..

- ما عرفت كلاماً أجمل من هذا، فهذا بداية أول كلام قيل لى  
كامرأة، اليوم مصطفى قد رأيته على حق، فأنا لم أرك قبل  
اليوم، فأنت فلك الرجال يدور حولك، تقول الكلام في قوة  
وجرأة، وكنت اليوم على رأس الجمع، تأمر وتطاع، أنت  
أقوى رجل في هذه البلدة، بل أقوى رجل رأيته في حياتي  
حتى الآن ، اليوم عاد إليك حقك، بل الحق عاد إلى داره،  
واسترددت كل ما خسرت واغتنمته منك الظالمين .

- صدقتي يا مليكتي، أخرجت من هذه الدار بعد أن خربت  
بموت أمي وخروج نبوية وطردي، وكان كل شيء فيها قديم،

واليوم الدار غسلت ودهنت وجهزت وعطرت حتى أعود بك إلى دارك ومعك الحبايب نبوية حبيبة أُمى، ورباح صديقتى المخلصة وحارسى الأمين تراب، والعفريت الشقى وحيله، كل هؤلاء أعادوا مالى وأرضى واحترامى وكرامتى بين أهل البلدة كل هذا أنت يا نفرتال ... فأنت تملكى من القوة والعزم والحكمة والقدرة ما لا ينفذ، وكأنها حكمة ربك وحسن عطاءه لى أن تكون فى انتظارى فى هذه المقبرة ... كل شىء جاهز الآن ، دعينا نعيش زوج وزوجة بأموالنا وأصدقائنا، نتزوج غدا..

فأدارت نفرتال وجهها خجلا وطارت فرحا من الكلمة ووقفت على باب الحجرة قائلة : ما ينفعش الكلام ده الليلة، الحاجة نبوية مازالت مستيقظة، غداً نتكلم ..

ودخلت بعد أن تركت ابتسامة جميلة مكانها..

وارتسمت على شفتى مصطفى ابتسامة بعيدة توجت بنوم وأحلام جميلة، وأما رباح فقد أعدت مكان نوم لها ونفرتال على أرضية الحجرة، وفرشت من الغطاء والملابس على الأرض، فأخذت نفرتال مكانها إلى جانب رباح التى مدت يدها، فرفعت الغطاء عليها هى الأخرى وقالت : اتأخرتى ..

وضحكت ونام الجميع، أما خارج البيت فكان رجال مصطفى والعسكر وتراب فى حراسة البيت ذلك اليوم .

وكان معظم أهل البلدة فى استغراب مما حدث ومما سوف يأتى، وكان الكلام دائرا رغم تأخر الوقت وراء الأبواب، وقد تأهل رجال الليل لحياة جديدة، كما وعد مصطفى بعودة حياتهم حتى

يعيشون مثل سائر الخلق، كأنه حلم يتحقق على يد النداهة ومصطفى.

وأما صالح فما أصابه قد جاء له فى عقله فظل يسأل ويعيد الإجابة ويسأل وحوله خضرة وزوجته والملعون المشعوذ وبعض الخدم والجوارى، ولم يعد حسن مرة أخرى هذه الليلة، فأخذ يأكل الغيظ قلوبهم، وعقولهم تدبر وتحيك المؤامرات ولكنهم لا يستطيعون أن يجدوا حل لإعادة ما فقدوا .

مع بزوغ يوم جديد استيقظ أهل البلدة لاستقبال أحداث اليوم الثانى فى عمر مصطفى والنداهة، وتوضاً من توضاً وصلى من صلى، والست نبوية مع النسوة اللائى شاركن معها فى إعداد الفطور، بل أن الفطور يأتى من كل بيت، والعسكر فى ذهول من أنواع الفطائر والجبن والحليب والعسل وخيرات الريف الجميلة، فقد أحبوا هذه المهمة رغم عناء السفر، فقد بذل مصطفى المال وأكرمهم ببذخ وكانت المهمة سهلة، وقام مصطفى بنفسه مع بعض رجاله بتوصيل الطعام إلى رئيس العسكر ومساعديه، ولم تتس الحاجة نبوية صديقها الجديد تراب الذى كان أمامه العفريت يستعجب من كثرة الأكل أمامه وهو يهز ذيله، أما رباح ونفرتال فكانتا تحت إمرة سيدة البيت الأولى الحاجة نبوية .

وما إن عاد مصطفى إلى البيت حتى وجد صديقه جرس قد أتى من مدينة العاص ومعه مزيد من العسكر وقائدا أعلى رتبة معه، فجرى إليه مسرعا لم يصدق عينيه، فحضنه جرس وقال : كنت خائف عليك ولذلك طلبت من (سعيد) حبيبنا ابن الرئيس مزيد من العسكر ووصينا بطعامهم وزوادهم، فرد مصطفى : على عيني يا جرس يا جدع يا حبيبى، أنت تأتى من مدينة العاص إلى هنا يا ابن الأكابر، ورحب بهم والقائد وكان فى إثرهم قائد عسكر البلدة هو الآخر وأعيان البلدة و شيخ الجامع واكتظ البيت، وكانت البلدة فى ذهول من كم العسكر وعلية القوم الذين توافدوا على البلدة.

ودخل مصطفى إلى الحاجة نبوية ونفرتال وسألهم عن عمل فطور

يليق بكبار القوم وكذلك مزيد من العسكر، صاحت نبوية : من أنت يا مصطفى؟ كل هؤلاء طوع أمرك ؟ لا والله ..ما رأيت هيبة ولا مكانة فى حياتى لأحد مثلك اليوم، هى النداهة صالحة لهذه الدرجة ؟ ماذا يحدث هنا ؟ وما كل هذا يا مصطفى؟!، فضحكت نفرتال وقالت : دعينا نكمل المائدة يا حاجة، ردت نبوية: قولى يا خالتى أحب إلى من الحاجة، فضحك مصطفى وقال : كل الرضا نالته النداهة ..

نفرتال : الم أقل إليك يا خالتى ..ألا تخافى على مصطفى، مزيد من العسكر والعون ... لقد نسيت اذهبوا إلى تراب وتأكدوا أنه أكل، فصاحت رباح : إنه من كثر ما أكل لا تستطيع أن يتحرك، يهز ذيله فقط ..وضحك الجميع ..

ومال جرس على مصطفى بعد الأكل قائلاً : علينا الذهاب مع القائد حتى تأخذ كل ممتلكاتك اليوم، ولكن هل عندك رجال يقومون عليها ؟، فرد مصطفى : نعم بعد الفطور سيكونوا هنا، ونادى مصطفى على أحد الرجال خارج البيت طالبا منه أن يجمع رجاله جميعا، وخاصة من يريد أن يعود للعيش فى البلدة ويكون له عمل ودار وعائلة إن أمكنه، ففرح وتهلل وقال : الكل فى انتظارك يا سيد البلد، وخرج إلى خارج البيت ليدبر الأمر .

وكان مصطفى فى غبطة وغمرة من السعادة لوجود جرس معه، فقال له بصوت خافت وهو جلس على يمينه : لم أعلم أنى لى هذا القدر عندك يا جرس، تقلق على وتعيننى، لولا مشاورتك ومساعدتك وعلاقتك بالرئيس وأولاده ما تم شىء اليوم.

كشف جرس عن ابتسامة وانفرجت شفتاه وقال : أيضاً ولولا مالك

ما تم اليوم شيء، من أين لك كل هذه الأموال يا مصطفى ؟ خذ  
بالك من مالك ...

واكتمل الجمع بدخول شيخ الجامع الذى أراد أن يكون ضمن  
هؤلاء الكبار، فما إن رآه مصطفى حتى قام إليه مرحبا به وأجلسه  
إلى جواره وقال الفطور حالا يكون هنا، فرد الشيخ : فطور ايه ده  
الغذاء دلوقتى على حضور، الفجر كان من زمان، فضحك  
الجميع، ومال عليه مصطفى وقال : لك كل ما تريد فأنت من  
سيعقد قرانى قريبا، فصاح الشيخ : ماذا تقول ؟ على من ؟...  
فأمسك به مصطفى : بعدين نتكلم يا سيدنا الشيخ.

ورص الطعام وما لذ وطاب وملأت البطون، وأخذت الجماعة  
تتحرك مرة أخرى إلى بيت الحاج صالح وفى ركبهم العسكر  
ورجال الليل، وتابعهم الرجال فى فرحة كبيرة، ومال جرس على  
قائد العسكر قائلا : أعتقد يجب التنبيه على خصمه أمام الملاء  
والعسكر ألا يتعرض لمصطفى هو لا اتباعه بعد ذلك، فهز القائد  
رأسه : لا تقلق، سنقوم بكل اللازم .

وصادف وجود الجميع وجود خضرة والحاج والمشعوذ الذين  
كانوا خارج البيت أمام الفسحة الواسعة، وكان حسن بينهم فى هذا  
اليوم التالى، وما إن ظهر مصطفى والجماعة حتى أمسك المشعوذ  
بيد حسن قائلا: اقتل مصطفى وأدفع لك ما تريد بل زادت خضرة  
: وأنا أزيد وأزيد حتى ترضى، إن فعلتها فإنى ومالى لك، إلا أن  
حسن أدار وجهه .

وبينما أكمل الملاء طريقه توقف بعض أعيان البلدة قائلين : ما هذا  
يا حاج صالح ..ربنا يستر، وتقدمهم القائد خلفه العسكر ناحية

صالح الذى كانت عيناه لا تفارق الأرض نظرا وتقتله الحسرة، بالرغم من أنه لا يزال يملك الكثير مما جمع خلال السنين السابقة . وأشار القائد الذى تحرك خلفه العسكر وتأخر مصطفى والجمع قليلا قائلا : اسمع يا حاج صالح، لا تتعرض إلى مصطفى أو أعوانه وتذكر أن مصطفى هو رجل الوالى هنا، أمره مطاع ولا ستقع فى مشاكل، ولا أنت ولا غيرك يستطيع ردها، ليس السجن ولا الجلد، بل قد يزيد الأمر، ولم يرد صالح ناظرا إلى الأرض كأنه يهرب من رؤية وجوه الحاضرين، راجعا أدراجه إلى الخلف، ورجع القائد والعسكر إلى الجمع لاستكمال المهمة : لقد سمعتم كل ما قلت للحاج صالح وأظن أن هذا الكلام موجه إلى أهل البلدة جميعا.

وقالت خضرة : اسمع يا حسن ..إن كنت لا تستطيع قتله فأنت على صداقة بهؤلاء الرجال ...رجال الليل ..الذين يعملون كل قبيح مقابل المال، فرد حسن : أنا كنت أعرفهم من خلال رباح، واليوم رباح مع مصطفى، وقد سمعت أن أموال كثيرة قد دفعت لهم، ولا أظن أنكم ستدفعون هذه الأموال بل والآن مصطفى ممثل الوالى فى البلدة والجند يأترون بأمره.

وحمل اليوم الثانى أخبارا أكثر إثارة فى البلدة وهى أن مصطفى سيتزوج النداهة، وأن الزفاف على الأبواب، وأخذت الأحاديث تدور بين أهل البلدة عن قصة حب النداهة لمصطفى والتي منحتة كل هذا المال والملك، والكل يخضع بأمرها ويعمل لها ما تأمر به الآن نفرتال تغمرها فرحة عارمة، فقد أنجبت لها الدنيا زوجا، مال، أصدقاء، واسم عائلة وبلدة، ولكن كانت هناك حالة من

الخوف كانت تنتاب نفرتال منذ تحدث مصطفى مع جرس على إقامة تجارة كبيرة على أن يكون (سعيد) ابن مجاهد شريكا له وحاميا مقابل المال، فنفرتال أكثر الناس علما بمجاهد ذلك الوغد القاتل، و تعلم تماماً أن ذلك الدم لا يحمل إلا دما أفسد منه، وهى تخاف على مصطفى، وخاصة أن نفرتال قد انشغل عقلها على أن تأخذ بالثأر وتتقم من ذلك الوغد لما فعل بجدها وخيانتة لأهل المغارة، وكلما اختفى ذلك الاسم أصبحت أكثر هدوءا لتعيش حياتها وتتسى هذه الفكرة .

وكان يوميا يدخل ويخرج الخياط وزوجته ومساعدوه لعمل فساتين وملابس تليق بنفرتال، كما نالت رباح بعضا من الحظ أيضاً هى الأخرى، كما أخذت رباح تعلم نفرتال كيف تستخدم ما تمتلك من أنوثة، وتطوعها وتضفى عليها بعض الدلع والدلال، وما كاد يدخل مصطفى إلى البيت، فكانت نفرتال فى أوج زينتها، وكان الوقت مائلا إلى العصر، وكانت نفرتال قد أعدت لباس للخروج العباءة المعتادة السوداء .

- لقد علمت أنك مثلى تتوين أن تذهبى إلى ساحة المقبرة حتى تودعى أطيافك، وأنا الآخر بالأمس رأيت أمى فرحانة فى المنام و تلعب مع تراب، وما ورد بخاطرك هو ما بخاطرى يا روح القلب يا منية الأمانى، فلنذهب إلى المقبرة حتى نزور والدتك ووالدتى.

- الآن استطعنا أنا وأنت أن نصبح بالحب عقل واحد، قلب واحد، غاية واحدة ورغم أننا قد نختلف فى بعض الأمور ولكن ما زال كلا منه له كينونته وتجاربه، أتمنى من الله دوام هذه الحياة علينا ..



وإذا بالثلاثة نفرتال ومصطفى وتراب فى طريقهم إلى الباب حتى لحقت بهما نبوية هى الأخرى، كأنما ساحة الموت أصبحت قبلة الأحباء والتقاء بالأحياء والأموات، والغمرة عارمة، فأرادت هى الأخرى أن تزور قبر الحاجة فاطمة، وكان على رباح أن تنتظر بالبيت لتدير شئون النسوة الأخريات وخاصة أن العسكر ورجال الليل كانوا حول البيت للحماية.

وما إن مر الجمع فى طريقهم إلى المقبرة حتى انهالت التحيات والدعوات لشراب أو مأكّل، وكانت أرض مصطفى ممتدة ناحية الطريق المؤدى إلى المقبرة وكان رجاله يطلقون التحية بصوت عال للكبير وعائلته، داعين لهم بالتوفيق وكانت نبوية أكثر النساء فخرا وهى تمشى بين مصطفى ونفرتال حتى وصلوا إلى أرض المقبرة، واتجهوا حيث قبرى أم مصطفى وأم نفرتال، كأنهما اتفقا على دفنهما فى بقعة واحدة قبل أن يتراءوا، وزاد الكلام بين أهل البلدة أن النداهة تزور أهلها من الجن، ورغم أنهم تكلموا معها ووجدوا فيها حب ودفء إلا أنهم يهابون قوتها الخارقة .

وأشارت الحاجة نبوية إلى بيت قادم، بابه مفتوح وعلى جانبيه عدد من النسوة والأطفال، ده بيت الرجل المبارك اللى بيسخر الجن والعفاريت ليشفى ويرحم أولادنا، وهنا مالت نفرتال على مصطفى بعد أن أخبرها العفريت فى أذنيها أن المشعوذ سيخرج لهما إلى الطريق ليقدم لهما حجابين قد ملأنا بتراب المقبرة والدبابيس والأشواك، قد عملهما مخصوص بطلاسم تؤذى من يقتنيهما، وخرج المشعوذ ليقوم بما أخبرها به العفريت وتقديمهما

إليها بعد السلام عليهما، وأوصاها أن يعزموه على الفرح ليروا منه ما اعتاد أن يريه للناس فى الجمع من أعمال خارقة، فهو يدخل حامة الفرن من ناحية كلها نار مرتديا جلبابا أبيضاً ويخرج من الناحية الأخرى للفرن المقود ولم يدنس ملابسه البىضاء تراب أو يعلق به أى قذارة، كما اعتاد أهل البلدة التحدث عنه وعن خوارقه ، وقد أمرها العفريت أن تأخذهما حتى يصلا إلى المقبرة فتتركهما له سيتصرف فيهما، لأنه قد يكون من سوء الطالع أن يصيبهما ما أراد ذلك الوغد، إن كان الله لا يمانع، وكادت الحاجة نبوية تقبل يدي المشعوز الذى كانت عيناه على تراب الذى يعرف قوته أكثر من أى شىء آخر، وأصرت الحاجة نبوية على أن يبارك الزفاف الذى سيعقد فشكرها، وأخذوا طريقهم إلى المقبرة .

وعندما خرج الكل من البيت تاركين رباح لوحدها هناك، أتى الزائر الذى طرق الباب فى صحبة أحد العسكر الذين يحرسون البيت، ذلك الشخص الذى قد أرسلته خضرة إلى رباح محمل برسالة بعد أن وعدته أن تعطيه نصف أموال مصطفى إن أقنع رباح بقتله بأن تضع له السم فى طعامه، وعندما أدخلته من الباب وسمعت ما سمعت منه، فاستغربت رباح ذلك الطلب من الخسيس، وقالت له : أوليس ذلك صديقك القديم ؟ أمس تسرقه وتحرض عليه واليوم تغدر به وتريد قتله هو و زوجته ؟، أنت الخسة كلها، أخرج برة قبل أن أمر بالقبض عليك، قتلك أنت حلال ..أخرج برة يا حقير ...

ووصل الركب إلى المقبرة، ولم تصدق نبوية أن قبر أم نفرتال فى مواجهة قبر أم مصطفى، كأنهما تلاقتا قبل أن يتلاقى مصطفى

ونفرتال، ثم قالت متحدثة إلى القبر : يا حاجة .. افرحي يا حاجة ..  
ابنك أصبح رجلا وكبير البلدة وكمان عاوز يكون زوج وأب،  
ارتاحى فى قبرك لقد تعبتي كثيرا فى حياتك ومرضك وقلقك عليه  
...، ثم استدارت إلى نفرتال ومصطفى وقالت : على فكرة يا ولاد  
أنا عاوزة قبرى هنا فى مواجهة القبرين، أكيد الصحبة جميلة  
وخاصة الموت لزمان غير معلوم، محدود بحبابيه، ردت نفرتال :  
أنا عندي المغارة بتاعتي هنا وسط عالمى وحبابيى، ثم أخرجت  
من جيبها الحجابين الذين أعطاهما لها المشعوذ بقصد أذيتها، ثم  
قالت شوف شغلك يا عم العفريت، وفجأة رأيت الحاجة نبوية  
الورقتين الملفوفتين حجاب يجريان على الأرض حتى وصلتا  
وراء صخرة ثم اختفيتا، وأردفت فى ذهول : سبحان الله، ماذا  
يحدث هنا ؟، دول بركة لكما من الشيخ، فردت نفرتال : ذلك اسوأ  
إنسان فى هذه البلدة على الإطلاق، ولى معه شأن قريب، ثم  
أطلقت تراب فى أثر المغارة والمعبد حتى يتأكد أن الكنوز والنقود  
ما زالت هناك، ثم قالت لمصطفى بصوت منخفض : أنت محتاج  
فلوس علشان الوكالة والبيت الذى سوف تشتريهما فى مدينة  
العاص الأسبوع القادم،، فضحك مصطفى قائلا: ذلك معناه أنك  
موافقة على الوكالة التجارية وبيت هناك كمان ..

- فى الحقيقة أنا خايفة عليك يا مصطفى، طبيعة الشر سوف تمتد  
لابن ذلك الوغد، فما بالك كيف سيكون ذلك الوغد الصغير، لا  
صديق لهم ولا عهد ... فمال عليها قليلا : لا تخافى يا حبيبتي لا  
تخافى، سأعمل كل شىء فى حذر ومنتهى السرعة حتى تأتيني  
لتعيشى كالمكة فى البيت الجديد و نملاه أولاد و بنات كثير ..  
كثير يا نفرتال ...

وتم الزفاف، وكانت ليلة يتحدث بها وعنهما الكبير والصغير في البلدة، أقيمت الولائم لكل الناس والأهل والأحباب والفقراء والعابري السبيل، وعقد الشيخ قران النداهة ومصطفى وهو في سعادة وغبطة كبيرة.

وعاش الزوجان لمدة أسبوع بعد الزفاف حياة العشق والغرام للروح وممتعة الجسد، وقد أظهرت نفرتال كل ما تعلمته كأنتى وخاصة من رباح، كما نجح مصطفى بما يملكه من قوة جسد وشباب وحب وراحة بال في إخراج مكنون الأنثى من داخل نفرتال فهي تشعر بأنوثتها كاملة ورغبتها الجسدية بين يديه .

وسرعان ما مضى ذلك الأسبوع بسرعة عجيبة . وكان على مصطفى أن يبدأ الإعداد للخطوة التالية، وعليه الذهاب إلى جرس كما اتفقا منذ أسبوع، ولولا ذلك الموعد ومكانة جرس عنده لما فعل معه ، لأمضى مصطفى عمره هنا في هذا العسل وما كان هناك وقت ولا خطة ولا شيء إلا نفرتال .

إلا أنه عندما ينفرد مصطفى بنفسه ويحاول أن يراجع ما حدث له منذ أن تركا المقبرة أو ما هو قادم عليه، تتزاحم الأفكار في عقله ولا يعرف من أين هو قادم وإلى أين هو ذاهب، ولكنه عزم على الاستمرار، فما علينا إلا أن نمضى خطى فى خطى دون خوف، فخير أو شر ناتج قائم ومتواجد و لكن قد يضيع أحدهما ولكن ثباتاً

ومعرفة وإيماناً وثقة فى النجاح، ويختفى فيما يحدث فتذهب الآلام وتحقق الأحلام والآمال .

سافر مصطفى صباح اليوم، ولكنه تخير رجلين من رجال الليل ليبدأ بهما فى مصرنا نشاطه الجديد، وهما جاد الله وعبد الله، فقد قرر بعد أن سأل وأشارت رباح عليه بهذين الأخين التى تعرف قصة حياتهما وكيف دفع بهما دون إرادة إلى ذلك الطريق، وكانا دائماً رحيمين بها ويحمونها، فهما قويا البنية، شرفاء بينهم، وقد فقدوا أختاً لهما فكانت رباح لهما بمثابة الأخت، وحقيقة فإن مصطفى عليه أن يبنى حياته وتجارته وعليه أن يتخير من الناس من يتوسم فيهم الخير والعمل والإخلاص، بالرغم من كونهم أولاد ليل أو لصوص، فلا شك أن اللصوص الحقيقيين يعيشون بيننا عيشة سوية ونحترمهم ونقدرهم على سرقة أموالنا وأحلامنا، داعين لهم بالبقاء وطول العمر حتى يأخذوا كل ما نملك حتى مشاعرنا التى لا نستطيع أن نعبر عنها، فيصبح كل شىء مزيفاً ولكنه قائماً فيكون خراباً قائماً .

وقد تكلم معهما مصطفى وأفهمهما طبيعة البلدة الجديدة ..مدينة العاص ..وأنهما مثله فالمال للجميع، كما تعلم من نفرتال، فأصل الميراث لا وارث له ولكنه متعامل معه حتى ينتقل إلى آخر بوسيلة ما كتبت عليه أو له، وقد أقسما له بالولاء والعمل فى خدمته، وقد اغتتم كلاهما هذه الفرصة النادرة والتى نزلت من السماء عليهم .

وقد ترك مصطفى بقية الرجال يأتمرون بأمر رباح ونفرتال، لأن رباح تجيد إدارة هؤلاء الرجال، وحتى لو حاولوا أن يفعلوا شيئاً

فإنهم يخافون النداهة التي تجيد القراءة والكتابة من عمتها مارى، وهى صاحبة المال وكذلك تراب والعفريت، وقد تم دفع أموال شهرية للعسكر وقائد محل الشرطة بالبلدة لقاء الحماية، فالقانون فى خدمة من يملك المال والنفوذ، وخاصة قد شاع بين البلدة ورجالها أن مصطفى رجل الوالى بالبلدة، ومن تعدى عليه أو على ماله فقد تعدى على الوالى شخصيا، وكذلك مصطفى قرر ألا يغيب كثيرا عن البلدة فقد نوى ألا يطيل السفر فأصبح بين البلدة ومدينة العاص .

وكان الجميع على طاولة الأكل للطور مع مصطفى قبل السفر، وكانت نبوية تتوسط الطاولة بعد أن أعدت فطور تراب، فأصبحت تحبه وترى فى عينيه ما لا يستطيع آخرون أن يروه، كما أن عقلها قد ترجم بأنه قد يكون ملك من ملوك الجن متخفى ولكنه ليس شيطانا كما روى عنه، وهمتا رباح ونفرتال ذهابا وإيابا من المطبخ إلى الطاولة، وبدأت نبوية كلامها إلى مصطفى : احذر أن تقع فى نفس دائرة الفساد فى مصر كما كنت وخاصة أنك اليوم من كبار وعلية القوم، لك زوجة وأبناء قادمين إن شاء الله، حافظ على صلاتك فى الجامع....، ثم سكتت وأضافت : كيف يا مصطفى لا تذهب إلى جامع البلدة لتصلى هناك مع أهل البلدة والكبار ؟، فرد مصطفى : أنا بأصلى هنا وكفاية على.

فردت : لا..لا يصح ..الجامع للرجال وأنت الآن كبير فى البلدة وصاحب أرض وتجارة ولك كلمة، فلا بد أن تصلى فى الجامع ويكون لك رأى وموقف فيما يدور فى البلدة، وأتذكر رغم أن الحاج صالح كان رغم سوء خلقه، إلا أنه كان دائم الصلاة فى الجامع مع الناس،

- فردت نفرتال : طبعا يا مصطفى، حقيقة أنا شفت فى حياتى ناس كتير يهتمون بالصلاة فى الجامع والكنيسة أكثر مما يقومون به من خير أو عمل صالح، ولكن هذه هى طبيعة الناس .

- نبوية غضبانة قائلة : عيب عليك يا مصطفى، أنت كنت بتدرس الدين وتعرف أهمية الصلاة مع الناس.

- عارف يا حاجة نبوية رغم أننى كنت لا أمانع فى دراسة الدين والشريعة مهما كانت فكرة التجارة والإقامة هناك هى الأولى، ولكن فى يوم دعانا شيخنا حيث احتفال مقام بقصر الوالى لتكريم العلماء والأدباء والشعراء، وكان شيخنا قد تقدم بكتابه فى أحوال ومناقب السنة النبوية وقد عكف عليه لمدة خمس سنوات وهو يكسب القليل من دروس العلم لمن أراد أن يدفع أو عنده مقدرة، وكثيرا من الطلبة لهم القدرة ورغم ذلك لا يدفعوا. وكان نصيب شيخنا جائزة من الوالى بقدر مائة وخمسين معدود، بينما أخذ أحد الشعراء فى شعر ألقاه مادحاً لشخص مولانا جائزة وقدرها عشرون ألف معدود، فمن ذلك اليوم أدركت أن هؤلاء القوم لا قيمة عندهم للعلم ولكن حب الذات ومصانع الغرور، وهكذا تدار البلاد فلا قيمة للعلم ولا العلماء.

ومنذ ذلك اليوم عرفت أن الدفة فى هذه الأمة اقوال مأثورة وافعال مذمومة، والواحد يعيش مرة واحدة، وعليه أن يجد خير الطرق وأسهلها حتى يحصل على حياة لا يندم عليها، فأنا أرفض أن ألبس جلباب الأمة ولكن ألبس

جلباب مصطفى والنتيجة واضحة لكم ... مصطفى هنا مع حبايبه وماله وتراب .

- وتدخلت رباح فى الكلام : لا يا مصطفى رغم أنى شفت من الأهوال والمصائب ما لا يستطيع تحمله أحد، إلا أنى اتذكر كلام أبى وهو يقول ما تتدم أبدا على أنك بجوار ربك.

- فردت نبوية : طبعاً يا بنت هو الواحد ليه غير ربه ؟ وهى تمسح على ظهر رباح، وقد أمسكت رباح بيدها لتقبلها وهى وبعض الدمع يغطى باطن كف يد نبوية .. اصبرى يا رباح كل شىء خير، عندك عائلة الآن وببيت، وحق الله أنا فرحانة، عندى بنتين بعد رجوع ابنى لى، عاوزين عيال يا مصطفى، وضحك الجميع بعد أن قال: اسألى نفرتال .

- فجأة قالت رباح : نسيت أن أقول لكم عندما كنتم بالمقبرة قبل الزفاف حدث شىء مهم، أنا كنت مترددة أقول لك أن حسن عرض على عرضاً قذراً لما كنت فى المقبرة وأنا طردته بره، فضحك نفرتال ومصطفى : عارفين يا رباح ..

- الحاجة نبوية : عمل ايه الكلب الصايح ده؟

- مصطفى : لا شىء يا حاجة هو دايماً عبد المال ..

وفجأة طرق الباب و نبح تراب لوجود شيخ الجامع خارج الباب، فهو لا يحبه، ودخلت الحريم إلى الداخل بينما كان مع الشيخ



بعض رجال مصطفى وقد قل عدد العسكر الآن ، ففتح مصطفى ودخل شيخ الجامع بوجه فرح وقال : أنا عرفت أنك مسافر اليوم فجئت أسلم عليك وأطمئنك على أهل بيتك ومالك، نحن هنا رجالك واطمئن على بيتك وأهلك وأرضك.

وكان الأكل لا يزال زال على المنضدة، فعزم عليه فجلس كالعادة، ثم أردف قائلاً : أنت عارف أن حسن كان بدأ يعمل مع الحاج صالح ... قاطعه مصطفى : قصدك مع الحاجة خضرة، فضحك الشيخ وأكل : وبعد أن استلمت أرضك وطرد من طرد وعين من عين، وأنت تعلم أنه ابن اختي فأسألك كرمك في أن تجعله يستمر في عمله.

فوقف مصطفى ثم أدار ظهره إلى الشيخ ناحية النافذة، ووضع يده على طرف المنضدة : أنت لا تعلم ماذا حدث من حسن، ولكن لأسباب أخرى عندى عرض آخر .. لماذا لا تجعل حسن يعمل معك في الجامع ؟

- عندى ؟ فى الجامع !! أنا لست صاحب ملك ولا صاحب مال .. هو الجامع والبيت .. فماذا تقصد ؟؟

- دعه يعمل خادماً للجامع وشئونهم لمدة عدة شهور، واضغط عليه فى أن ينظف الجامع ويحفظ القرآن ويتعلم بعض الفقه والأحاديث، فإن وافق وانتظم وشهدت أنت له فى هذه المدة سأخذه ليعمل معى فى الوكالة بمصر إن كان يريد، وأنا أدفع له خلال هذه المدة راتبه من خلاك أنت ومن يدك أنت

- وكالة جديدة ؟ ماذا تعنى يا مصطفى؟

- نعم وكالة لتخزين وتوريد الخضراوات والحبوب على مستوى كبير جدا ..

- خير...خير ..ولكن لا أعتقد أنه سيرضى بالعمل عندي في الجامع..

- هذا شأنه .. لا أستطيع أن آمن على مالى ونفسى مع شخص اعتقدت أنه صديق طفولة حتى يتآمر على قتلى مع خضرة ..

- رمى الشيخ البيضة التى كانت فى يده أوسقطت منه فى الطبق : ماذا تقول ؟؟ .بقتلك ؟؟

- لا تفاصيل ولا حكايات يا عم الشيخ، أنت عارف زى أهل البلد أننى فى حماية النداهة كما يقال عليها، وعلى العموم اعرض عليه الأمر، إن قبل ونجح ..فلم لا ...سيكون له مكانة ومال ويعيش فى مدينة العاص كما أراد أو كان يحلم فى يوم ما ..

ونادى مصطفى الحاجة نبوية : تعالى يا حاجة ..ده شيخ الجامع عندنا هنا، وأنا أوصيكى أن كل جمعة ترسلى إلى بيته الطير واللحم فهو رجل بركة، وكمان نرجع عادة المرحومة أمى أن يأتى شيخنا لقراءة القرآن فى البيت إن شاء، ورحب كل من نبوية والشيخ بما قيل، ثم استأذن شيخ الجامع قائلا : سأفعل ما قلت لى و سنرى، وخرج، وكذلك مصطفى قد أخذ طريقه إلى مدينة العاص بعد أن أفضى إلى زوجته بحلو الحديث وطلب النفيس، ووصاها على نبوية ورباح وأوصته

أن يأخذ باله من نفسه وقالت له بأن العفريت سيكون عين  
عليه هناك، فلا يحاول أن يعبث مع نفرتال، فإن حارسها  
الأمين يبلغها ما تقوم به، وخصوصا مع نساء مدينة العاص.

استمرت الأحداث المعتادة تأخذ مجراها كالمعتاد داخل قصور الحكم والولاية فى عاصمة البلاد مدينة العاص، فقد مات الوزير العجوز زوج وعد منذ عدة أشهر وقد أحل محله فى المجلس ابنه

( رستم ) كما خططت وعد من قبل ذلك بمساعدة مجاهد، فبذلك ضمننت بقائها على اتصال بالعسكر وكواليس اللعبة السياسية، وأنها ما زالت تحرك بعض أجزاء الصورة.

وقد صادف وصول مصطفى ورجليه لمصر تعيين والى جديد ليجلس على كرسى الحكم، وقد امتلأت طرقات العاصمة، وانشغلت بموكب والى الجديد، فمن آن لآخر عندما يعين والى الجديد ليحكم مصر تحت اسم الدولة الإسلامية، يأتى والى الجديد فى موكبه مع زوجاته وقبيلته وعبيده، بل جميع أفراد قبيلته ليحكموا باسم الدولة الإسلامية وينهبون أموال مصر، بل وكل يوم يأتى أفراد القبيلة والأقارب ليقيموا فى مصر تحت رعاية والى وبأموال المصريين المنهوبة، ليصبحوا كسابقهم من رجال الدولة أو كبار التجار، ويرحل ذلك والى ويبقى ما أحضره هنا ويتكاثر كالفئران فى مصر .

وقد تشابه قدوم مصطفى وتعيين والى الجديد فى نفس توقيت كإنما هو أتى ليكون واليا جديدا فى السوق .. وكان جرس فى استقباله وقد صاحبه إلى الوكالة التى تكلم معه

عنها سابقا، وعندما وجدها مصطفى كبيرة المساحة ومتنوعة، كما اكتظت دروبها وأرففها ومخازنها بالخضراوات والحبوب فاستغرب قائلا : هذه وكالة يبدو أنها تعمل و تربح ..لماذا يريدون بيعها ؟؟، فرد جرس : لقد مات المقدس الكبير، و لم ينجب أولادا ذكور، وأزواج بناته اختلفوا على الميراث، فقرروا البيع واقتسام النصبة، أنها فرصة حقيقية لو أردت أن تعمل كتاجر هنا، لن تجد خير من ذلك المكان.

- نعم هذا العمل يناسبني فقد اكتسبت بعض الخبرة من خلال الحاج صالح ..

- لكن هناك شرط أو رجااء ..هوأن تبقى على العاملين هنا، فإنهم يعملون هنا لمدد تتراوح بين عشر إلى عشرين عام، ومعظمهم خبير فى عمله، وقد جمع المقدس مالا كثيرا من ورائهم، إلا أن العائلة قد اشترطت أو رجتتى إن كان نفس النشاط فى المتجر، أن يبقى المشتري على عمال الوكالة.

- فرد مصطفى : أنا لا أمانع فى وجودهم فهم مهمون بالنسبة للوكالة وبالنسبة لى طبعا، ولكن لا أستطيع سداد الثمن كله فأنا أريد شراء منزل محترم لى ولزوجتى هنا .

- لديك حظ غير عادى يا مصطفى، فالورثة يريدون بيع منزل المقدس أيضاً، وبثمن قليل لأنه يحتاج ترميمات وتجديد، إنهم يريدون المال وأنا أرى أن تشتري البيت والوكالة، هذا يعطيك فرصة نادرة لك فى المفاوضة على

السعر والتقسيت، فهز مصطفى رأسه، ونستطيع أن ندفع معظم المال الآن والباقي فى المستقبل .

- اسمع يا مصطفى ..اليوم أنت تحضر معى مراسيم الوالى الجديد وتتكلم مع (سعيد)، ونعرض عليه أن يكون له حصة مقابل ضمان توريد الحبوب والخضراوات للقصور الملكية والجيش والشرطة، بل من الوجه القبلى أيضاً، هذا مهم جدا فى تجارتنا، كل التجار الكبار يفعلون هذا، فوالده (مجاهد) ومشهور عنهما لعبتى السياسة و التجارة وأنت أعلم بصيت مجاهد، وحقيقة كل من عمل معه سمن، وإنه لشريف فى تعاملاته.

- فرد مصطفى : إذن سنرى البيت بعد أن نسمع رأى ( سعيد ) الليلة فى حفل تتصيب الوالى، وكمان إنها فرصة حتى نرى ونتعرف على علية القوم، فمعرفة المال وأصحابه مهمة لأصحاب المال .

واقتراد جرس مصطفى بعد أن تركا الرجلين مع باقى العمال، وتوجها إلى مكان الإفتتاح فى القصر بعد أن أعدا نفسيهما لليلة، وقد دهش مصطفى من مظاهر الغنى والثراء هنا وهناك خاصة فى الطريق إلى القصر، ولاحظ جرس وجه مصطفى فقال له : لا تتدهش، كل هؤلاء القوم قد تراهم فى السوق فى ملابس عادية، ولكن فى هذه الحفلات يظهرون هنا على حقيقتهم على موائد الحكام، ويتقنون فى إظهار ثرائهم فهى مباراة بين الأغنياء...، عارف يا مصطفى إن وافق (سعيد)

على موضوع تصريف شغل الوكالة ، وأظنه سيوافق، نصبح مثل هؤلاء الناس، كلهم بيشتغلوا مع بعض من بعض، وكل شغلهم على الجيش والشرطة والمساجد، فمكاسب أهل الحكومة وأهل الولاية كبيرة ومضمونة، على فكرة يا مصطفى كان لى طلب عندك ..أحب أكون شريك معك وأشارك فى رأس المال بجزء مالى وخصوصا لو تم الاتفاق الليلة ...، فرد مصطفى : طبعاً يا جرس أنا فى حاجة إليك ..إلى صديق وأخ وفى مثلك، ودون أن تسألنى ذلك كنت سأسألك أنا وأطلب منك ذلك .

وقد اقتربا من البوابة الرئيسية، فالعسكر فى كل مكان، وكان جرس عنده دعوة ومعروف للكثير هنا من خلال ( سعيد )، وفجأة قال : مصطفى ..مصطفى ..أنظر هناك ..وأشار بيده إلى رجل فى كامل زيه العسكرى وتبدو عليه الهيبة، فهو (مجاهد) أبو سعيد زعيم العسكر، له كلمة كبيرة وسطوة على البلد والتجارة والأمن . وما إن اقترب منه حتى هرول إليه جرس ليسلم عليه، فهو يعرفه وقد رد عليه السلام قائلاً : كلهم فى القصر يا جرس ...، وفتحت البوابة سريعاً لجرس ومصطفى، وسأله حارس البوابة أن يتجها يمين الطريق مع أحد العسكر، وما هى إلا دقيقة حتى كان جرس مع مصطفى يدخل القاعة ...قاعة الاحتفال فى القصر العالى.

وكان خلف بوابة الدخول أناس كثيرون جاءوا ليحضروا تنصيب الوالى الجديد، وشق صوتاً منادياً على جرس من وسط المدعوين، وكان الصوت لسعيد الذى كان يتوسط مجموعة من الشباب وكان فى مواجهة مصطفى حيث كان جرس مشغولاً بالنظر فى الجهة

الأخرى، وهنا أشار مصطفى إلى جرس حيث يقف صاحب الصوت، فهرع جرس ومصطفى ورائه إلى حيث كان يقف، فسلم عليهما، وأخذ الحديث والضحك يرسم ملامحه على وجه جرس وسعيد، وكان مصطفى ينظر إليهما، ولا يسمع شيئاً، وقد قدم مصطفى من قبل لسعيد فى الصفقة الأولى يوم أن استعان به لتسلم أمواله، واليوم يتقدم سعيد ليرحب بمصطفى وسأله عما حدث فى البلدة، وهل العسكر قام بكل ما يريد، فشكره مصطفى، وبادر بالقول : أنا كنت أريد أن أتحدث معك فى موضوع آخر، فرد : أنا أخبرت جرس، سيكون لنا لقاء آخر قريباً فاستمتع بالحفل والأصدقاء .

وقد قدم الوالى الجديد من الباب وسط تحية عارمة من الحاضرين، وتصدر المكان مجاهد، اليهودى والأب وليم وجميع رجال الدولة، وتم التعارف بين الجميع، وكانت الموائد قد رصت فى كافة أرجاء المكان، وبدأ التعارف ثم المديح والقيت الأشعار، وأخبر جرس مصطفى أن الموعد سيكون غدا فى قصر سعيد على أطراف النيل حيث يكون الحديث فى جوه المناسب .

ولقد استقر الأمر لمصطفى بعد عقد الصفقة مع سعيد التى تمت فى قصره، وأصبحت الأرض جاهزة لانطلاقه كما يريد، وخاصة أن جرس قد نال حظاً فى هذه الشراكة، وقد أبقى مصطفى على عماله المسيحيين والذين ردوا إليه الجميل بالعمل بإخلاص، وأنخرط معهما رجلى مصطفى من رجال الليل وأصبحا يعملان فى التجارة، بين طرفة عين وضحاها .

وقد استقر الأمر لمصطفى فى البلدة وأصبح الكل يعمل بأمره ونجح فى زرع رجاله ضمن أهل البلدة، وقد توج ذلك النجاح



بحب نفرتال ورباح والحاجة نبوية، اللاتى ساد بينهن روح التفاؤل والمودة، وملاً الحب أركان البيت .

وارتبط جرس ومصطفى بصداقة كبيرة، فأصبح ا قريبان فى كل شىء، وفعلاً بمساعدة ( سعيد ) اتسعت تجارة مصطفى مقابل حصته المالية لقاء تسهيلات، وأصبحت أرض البلد لا تكفى، وأخذ يتسع نشاطه إلى بر بحرى كله، فأصبح من كبار تجار ناحية بحرى فى شراء المحاصيل والفواكة والخضراوات، بل أن الحاج صالح قد مرض مرض الحسرة وضياع الهيبة والمال، وقد ابتعد عنه معظم أهل البلدة لعدم وجود مصلحة معه أو بغضا فى شخصيته، وقام مصطفى بمساعدة جرس بإعداد منزل المقدس على أحدث طراز وزينه، وقد أخذ وقتاً كبيراً، ومنذ أن استلمه مصطفى أقام به وجماعته، وأصبح ما بين البلدة ومدينة العاص .

وقد استتب الأمر له فى البلدة، بل أصبح يشارك فى صلاة الجامع ليرضى نبوية، وكذلك مكانته فى البلدة، وأدمن حب وتحيات الناس وخاصة لقب الحاج مصطفى، رغم أنه لم يحج، وأما حسن فبعد أن طردته خضرة لأنه لا نفع ولا منفعة منه، فقد وافق على العمل بالمسجد تحت إشراف خاله شيخ الجامع، وأخذ مصطفى فى دفع أجره كما وعد، وقد حاول حسن أن يمتثل نهاراً لأوامر خاله رغم أنفه فالأمر مجزى والوعد قائماً.

وكان مصطفى يفكر دائماً فى موضوعين هما شاغلى عقله وقلبه، هو أن نفرتال لم تحمل حتى الآن ، وجميع من حوله يسأله عن ولى العهد، وقد أشار بعض الرجال على مصطفى بأن يتزوج بأخرى وأخرى حتى يأتى الولد، فلا عيب فى رجل، فالموضوع موضوع امرأة دائماً، وخاصة وهو يرى فى عيني نفرتال نفس

السؤال، متى سيأتي الولد، وكذلك أشارت الحاجة نبوية على نفرتال والحاحها عليها أن تذهب إلى شيخنا المبارك.. ذلك الرجل المشعوذ.. فكم من امرأة حملت على يده المباركة !!

وأما الموضوع الذى لا يقل عن ذلك أهمية هو رباح، فرباح حب كاشف عن نفسه لمصطفى، ولكنه بذكائها تجسد فى حب نفرتال ونبوية والعودة إلى الحياة، ولكنه ممزوج بحب مصطفى ورغم أن نفرتال تعلم ذلك، فهو واضح من نظرات رباح لمصطفى، ولكنها تعلم أنها تكتم هذا الحب لإخلاصها لنفرتال فهي أحق بمصطفى، ولكن مصطفى يحب رباح بطريقة مختلفة فهو يريد أن تستقر فى بيت لها ويرى لها زوج وأسرة، ورغم أنه يعلم أن رباح وحسن كانا على صلة، فإنه أراد أن يصلح من أمره حتى يكون جديرا برباح كزوجة، ولذلك وضعه تحت إمارة شيخ الجامع لعله ينصلح حاله .

مصطفى قلبه ملئ بالحب منذ عرف نفرتال، التي تزداد هي الأخرى أنوثة وحلاوة كل يوم، وتحب مصطفى بكل ما أوتيت من مشاعر وعواطف، وقد تعلمت من نبوية كثيرا من فنون البيت والمطبخ فأضافتها إلى مهاراتها التي تعلمتها من ماري، وقد أصبحت محط حب أهل البلدة، فقد ساعدت في ولادة كثيرات من أهل البلدة وكذلك ضمدت بعض جراح أهلها، ذلك ميراثها من خالتها ماري.

وما إن دخل الليل كان مصطفى ونفرتال في حجرتهما يشربان من كأس الحب كالمعتاد، ولكن نفرتال قد عقدت العزم على أن تخاطب مصطفى في موضوع المولود بطريقة مختلفة، وقد ارتسمت على وجهها تساؤلات كثيرة لاحظها مصطفى، فسألها : يبدو أن في عقلك شيء ما، فأنت مختلفة اليوم، ماذا ورائك يا نفرتال ؟ سكنت نفرتال ثم ذرفت بعض الدمع قائلة : مصطفى أنا بحبك قوى وصعبان على أن تنتظر الولد وأنا لا أستطيع أن أحضره لك، لا أعرف ماذا بي .. هل أنا لست أنثى تستطيع أن تعطي الولد، أم بي لعنة ؟ فرفع مصطفى يده ووضعها على فمها : ماذا تقولين ؟ إن الولد رزق يأتي حينما يريد الله، فأجابت نفرتال : قد يأتي أيضاً من زوجة أخرى، فغضب مصطفى : لا تقولي ذلك مرة أخرى، أنا أحببت نفرتال و تزوجت نفرتال ولا شيء يضيع مني نفرتال..

فقاطعت نفرتال : لكن نبوية والناس كلهم يسألونني ويسألونك أين

الولد ؟ مصطفى لن أكون أبدا عقبة فى تحقيق أمنية غالية مثل  
الولد ..فأنت وحيد وكان ذلك وبالا عليك بالأمس، وأنت لا  
تستطيع أن تغطى كل هذا العمل وخاصة عندما تكبر فى السن ...

- كفاية كلام ...وتعالى إلى جانبى، ادفىء جسدى بجسدك  
والصق أنفاسى بأنفاسك دعى يدى تتشابك بيديك حتى  
نتحد ونكون جسدا وحبا واحد.. ليس مصطفى ونفرتال،  
فبكت نفرتال وأنت إلى فراشه وأمضيا ليلتهما بين العشق  
والدمع، ولكنه هو الحب يأتى بكل جميل تحت كل  
الظروف ولعل الغد عنده الحل..

وبعد متعة الغرام والحب الجميل والدموع والكلمات، قال  
مصطفى إلى نفرتال : هناك ما يشغلنى على رباح، أعتقد أننا  
لا يمكننا أن نتركها كذلك، علينا أن نجد لها حياة وزوج،  
فقامت نفرتال برفع الغطاء عنها : لقد تحدثت معها كثيرا فى  
هذا الأمر وخاصة أن كثير من أهل البلدة الآن يحاول أن  
يتقرب منها ولكنها رفضت كل من تقدم لطلب يدها، وقالت  
أنها لا تفكر فى هذا الموضوع وأنها راضية بالعيشة التى  
تعيشها فى كنفنا كعائلة، ولكنى أعتقد أن رباح فى قلبها حب  
لشخص ما ولكنها تحاول أن تدفنه .. وأنا أريد أن أشكرك يا  
مصطفى على رعايتك لها وحمائتها فى بيتك بين أهلك، فقال  
مصطفى : إن رباح عزيزة لدى ولها مكانة عندى وهى اللى  
طلبت أن تبقى معنا واحنا لبينا لها طلبها.

ومرت الأيام واتسعت التجارة والأموال، وأصبح جرس شريكا  
لمصطفى فى كثير من الأعمال من خلال ابن مجاهد الذى يجد

كثيراً من المكسب، إلا أنه كان يعكر صفو حياة ذلك التاجر ( صفوان ) وهو من كبار التجار في السوق وكان دائم الزيارة لمصطفى، إلا أنه كان يكدر عليه حياته وعيشتة، لأنه قد اعتاد أن يحاور مصطفى في موضوع لا يحبه مصطفى فهو دائم السؤال بسخافته المعهودة : لماذا مصطفى وهو مسلم يبقى على عماله من المسيحيين، وعليه أن يغيرهم ويبدلهم بأبناء دينه، فالمسلمين أولى بالعمل من المسيحيين ؟، ولقد ضاق قلب مصطفى من ذلك الرجل دائم الإلحاح عليه بأن يصلى معهم في المسجد، بل تعدى كل الحدود بحديثه أن عدوه هو عدو دينه، فكيف يجعل جرس شريكا له في الأعمال، وكانت زيارة ذلك الموتور لمصطفى تحمل دائماً بل تخلق جواً من الحزن والبؤس في نفس مصطفى .

وأخذ مصطفى يتذكر كيف أن معظم رجال الليل في البلدة أصبحوا اليوم رجالاً لهم عمل شريف، يحبون مصطفى ونفرتال ورباح ويعملون بإخلاص، وقد شرع بعضهم في اتخاذ زوجة وبناء بيت وأسرة، كأن النداهة كانت خير على الجميع، فلعل هذا العمل يذكر له، وكان ذلك الموضوع يعيد إلى نفسه التوازن فيبتسم عندما يتذكره.

وقد اعترت الحاجة نبوية بعض الوعكات الصحية والتي فشل في علاجها ذلك المشعوذ، ويبدو أن الشيخوخة قد دبت في جسدها بأمراضها، حتى أن مصطفى قد أرسل إليها طبيباً من مدينة العاص، إلا أنه لم يحدث تقدم في حالتها الصحية، وأصبحت رباح هي المسئولة الأولى عن رعاية الحاجة نبوية عن حب ورضا تام، وكانت الحاجة نبوية خالية البال ويملاًها الفرح بانصلاح حال مصطفى، وخاصة بعد أن عادت إلى مصطفى حياته وتزوج

ويعيش كما أرادت له الراحلة والدته، ولكن بالرغم من أنها لم يبق عندها ذرة أمل فى رجوع ابنها (علي)، الذى تركها منذ عشر سنوات وذهب مع بعض الأخوة لنصر دين الله والجهاد فى أراضى الشام وبيت المقدس، ولم يعد حتى الآن ، أصبح الآن يعاودها الأمل برجوعه إليها مرة أخرى ويعيش معها وتراه قبل أن تقابل وجه كريم، وقد قصت على رباح كثير من أحوال ابنها (علي) الغائب، وما مدى شوقها ولهفتها على رجوعه أو حتى سماع خبر منه .. وحتى اعتقادها أنه قد استشهد فى أحد الحروب.

وفى إحدى ليالى الرضا بين الزوجين الحبيين مصطفى ونفرتال، فاتح مصطفى نفرتال فى موضوع رباح وأوضح لها ما يفكر فيه وأعد له، فقد ألحق حسن بالعمل لديه كما وعده وبالرغم من أنه لا يثق به إلا أنه يعلم أنه على علاقة برباح، ويظن أن رباح قد ترفض ما ترفض من المتقدمين لزواجها، وقد تبسمت نفرتال من كلام مصطفى، ثم أدارت جسمها فى اتجاه حافة الفراش : رباح بتحب واحد تانى اسمه مصطفى ...، فانزعج مصطفى قائلاً : ماذا تقولين ؟ هى أخبرتك بذلك ؟ ولكن كيف ؟ ..

- يا مصطفى منذ أن قصت على حكايتك فى المقبرة وأنا أعلم أن رباح تحبك، لم أكن قد رأيتها، ولكن كان ذلك الحب واضحاً فيما سردت عنها، وكذلك موقفها ودفاعها الدائم عنك ضد أهل البلدة معناه أنها امرأة تحب، بل امرأة جميلة لها قلب مدفون تحت مظاهر وألوان غير واضحة، وزعت حبها على كل من حولها، وتذكر أن رباح قد ساعدتنا منذ البداية وهى أحد أسباب النجاح الذى نعيش

فيه، فلا أعتقد أنك صائب حتى تتكرر أنها تحبك..

- مصطفى باستغراب : و لكنها ساعدتنا حتى تذهب معنا من هنا وحتى تكون بجانبك يا نفرتال..

- هي الحقيقة يا مصطفى، ما إن وجدت رباح أنك في حب حقيقي معي وهي عاشقة لك، وجدت أن هذا سيجعلها قريبة منك وقد تكون لها فرصة في رؤيتك، فعشق المرأة يختلف عن عشق الرجل، رباح تحبني لأنني أحبك، فهي تحب مصطفى في... فهمت؟؟

- وتحرك مصطفى إلى ركن من الغرفة متأملا يداه .. أهذه المرأة البسيطة قد تصل مشاعرها في الرقى إلى هذا الحد ؟.. ثم قال : هل سألتها يا نفرتال أو لمحت لها ؟

- فردت : أنا أعلم من غير سؤال، فالإجابة واضحة ..

- على العموم هي لم تظهر لى إلا كل مودة وحب أخوى ..

- حقيقة وهي أخت لى وتخدم نبوية بإخلاص، فهي تمضى الليل والنهار بدون راحة في خدمتها كأنها أمها...

- عاود مصطفى الكلام : لقد مضينا وقتا طويلا بعيدا عن الفراش، فأنا مسافر غدا لانجاز المهمة الكبرى، دعينا ننجز بعض المشروعات الخاصة بنا على ذلك الفراش السعيد الذى سافته غدا...

- عمل جديد كالعادة ... حتوحشنى يا مصطفى ...

- كله لأولادنا يا نفرتال وكثير من الناس يعملون ويعيشون،  
والله لن يخذلنا طالما نرضيه...

ووضع يده على خصرها مقبلاً إياها، فقالت نفرتال : لن  
يخذلك لأنك عبد من عباده قد خلقه ورزقه وهو هناك دائماً  
لجميع خلقه، فلم يمنح أو يمنع رزقه لأن هناك من يحمل دينا  
أو عقيدة ما، ولكنه يحب من عرفه على حقيقته وأحبه لذاته  
.....



وتوالت الأحداث والأيام آخذه مجراها الطبيعي، وقد زادت ثروة مصطفى أضعاف ما كانت عليه، واتسع نشاطه التجارى، وكذلك أصبحت صداقة جرس ومصطفى أكثر صلابة وقوة وتقارب، ولا يؤثر فيها ولا يعكر صفوها إلا ما يتناثر حولهما من كلام وحكايات من جانب تجار السوق، وخاصة كبيرهم ( صفوان ) ذلك التاجر الذى اعتاد أن يقلب ويوقظ مواجع مصطفى .

وكعادة كل يوم، كرسيان على قارعة السوق أمام وكالة مصطفى، يجلس عليهما الحاج (صفوان) فى مواجهة مصطفى، وأخذ الحاج فى ثرثرته المعتادة محاولا حث مصطفى على الزواج بأخرى لإنجاب ورثة قائلا : أنا يا مصطفى بالرغم من أن زوجتى الأولى كانت تنجب فإننى تزوجت حتى الرابعة، وفى يوم طلقت إحداهن تزوجت بفتاة صغيرة بكر، وعندى من الأولاد والبنات ما شاء الله، وأنى مفاخر بما أنجبت يوم القيامة، فتكدر مصطفى وقال له : لقد قلت لك من قبل مراراً وتكراراً أنى أحب زوجتى ولا أطيق عليها أخرى، ثم أخذ نفساً عميقاً، إلا أن الحاج (صفوان) استمر قائلاً : إن الحب للنساء يا مصطفى، الرجال لهم قلوب قوية وإرادة، فنحن قوامون عليهم، ولنا فيهن كل ما اشتيناه، ما دام الرجل مننا قادراً على أن يبذل العطاء والمال يسد الحاجات والنفقات، فرشف مصطفى من كوبه الساخن رشفة واشحا بوجهه عن الحاج ناظراً إلى المتجر دون أن يعلق .

وكان جرس قد ظهر طيفه على رأس الطريق قادماً إلى المجلس،

وقد لمحہ الحاج صفوان فقال : أنت مازلت يا مصطفى لم تتخذ خطوة فى شراكة ذلك المسيحى ؟، فاغتاظ مصطفى قائلا : اسمع يا حاج، إن اردت أن تجلس معى وتحافظ على صداقتنا فلا تتدخل فى شئونى، مالك ومال بصديقى جرس ؟ ولا موضوع زواجى أو أن يكون لى ولد من عدمه ؟، فاحمر وجه الحاج (صفوان) غيظا وهب واقفا فى ذات اللحظة التى ألقى فيها جرس عليهما السلام ساحبا بيده طرف جلبابه ملتقاً بوجهه ومضى إلى حاله دون أن يرد السلام، فتعجب جرس من موقفه قائلا : ماذا يجرى هنا ؟ وما بال ذلك المثير للمشاكل، منذ كان تاجرا صغيرا فى السوق، وهو على نفس الوتيرة، لا يسلم أحد من لسانه، فقال مصطفى : والله يا جرس إنى أعتقد أن ذلك الرجل خلق ليثيرنى، فيوم يأتى إلى هنا أو ألقاه مصادفة إلا جر ويلات لسانه وكلامه عليه على صداقتنا وتجارتنا، لا أعلم ما به .

- جرس : حقد وحسد ... لا أكثر ولا أقل ..

- تخيل يا جرس، وصل به الكلام أن يسألنى أن أطرده عمالى لأنهم كتابيين وأن أفض تجارتى معنا لكونك مسيحى، كلام غير مسئول و ليس له منطق أو عقل ..

- طيب ... وأنا كمان جميع أقاربى وأصدقائى يقولون لى لما تشارك مسلم الديانة ؟، أولى بأموالك وتجارتك أبناء دينك ..دين الرب .... فضحك الاثنان ...

وبينما هما جالسان جاء رجل من البلدة إلى مصطفى فأخبرهم بصوت حزين أن رباح تسأله العودة حالا إلى البلدة لأن الحاجة

نبوية قد توفيت صباح اليوم، وأن الجميع فى انتظاره لحضور مراسم الجنازة وأخذ العزاء، فهرع مصطفى ولحق به جرس إلى البلدة على عجل .

وما إن وصلا إلى أطراف البلد أحس مصطفى بثقل الخبر على نفسه، حيث كان يخيم الحزن على أهل البلدة، وكذلك أهل بيته، وقد أعدت المقبرة لها...قبرا بين قبرى أم مصطفى وأم نفرتال، كما طلبت من قبل، وغسل الجثمان واختفى فى لفائف من القماش الأبيض الذى أحاط بذلك الجسد الممدد على فراش حجرة النوم، نفس حجرة المرحومة الحاجة والدة مصطفى .

وما إن ظهر مصطفى بين أهالى البلدة حتى فزع من صراخ النساء والبكاء كعادة أهل مصر، ورغم أن سواد الملابس الحاضرات للنساء هو لباس طبيعى، ولكن يكسبه صريخهم وبكائهم سواداً من نوع آخر له بريق ...، هو سواد الموت الذى يهدى إلى ظلمة القبر وفراق الغالى والحبيب.

وقد شارك فى تلك الجنازة معظم أهل البلدة و كبرائها بالرغم من قرب زوال الشمس، ولم يخافوا أن يدخلوا المقبرة كالعادة عندما يحل الظلام ، وكيف يخافون وهم يعلمون أن النداهة قد تركت ساحة المقبرة لتعيش معهم وأصبحت بينهم وبينها ألفة، ويزداد العجب أن ترى تراب قد شارك الحاضرين المسيرة وكان فى خطى مصطفى، بل عندما وصلوا إلى ساحة المقبرة تقدم المسيرة كأنه صاحب الساحة حتى وقف على رأس حفرة الدفن المعدة لها، فهذه مملكته، ولا أحد يعرف حتى نفرتال ما هى كنية ذلك المخلوق الذى اتخذ جسد كلب أسود اللون بشع الملامح.

وكان تراب يكن للراحلة حبا وخاصة أنها قد أغدقت عليه بالطعام، فحفظ جميل النعم .

وانتهت مراسم الدفن وعاد الجميع إلى البلدة، وقد أدركت نفرتال أن العفريت لم يشارك بوجوده اليوم، فاستأذنت مصطفى آخذا معها تراب إلى بيت الحاجة نبوية، فهي كان لديها إحساس بأن شيئا ما قد أحاط بالعفريت، وقد أجابها مصطفى إلى طلبها وسألها ألا تتأخر على المنزل.

ووصلت نفرتال إلى البيت ودفعت الباب ودخلت حيث وجدت العفريت قابعا بجانب العنزة التي اعتاد سكن جسدها .. يبكي .. في حالة من الحزن واليأس، فاقتربت منه نفرتال فأحس بها العفريت وقال : أعلم أنك الوحيدة التي تحس بى فى هذا العالم، لقد هرمت ولم أذكر شيئا من شبابى حتى يعيننى على شيخوختى، فقد ولدت جنى سيار لا يعبأ بالحياة ولا يألف الجماعة، ولم أتزوج حتى يكون لى عائلة فيقدموا لى العون على ما أنا فيه الآن ، وموت السيدة نبوية رغم أنى لم أكن على علاقة بها أثر فى بصورة جعلت الذكريات والأفكار تتداعى فى رأسى، واستمر فى البكاء.

نفرتال : كيف تدعى أيها العفريت أن ليس لك حبيب ولا رفيق ؟ وأين نفرتال التي أزالتم الشمع المقدس من حول قبر فاطمة وأخرجتكم من محبسكم ؟ أين نفرتال التي تشاركك و تشاركها الحياة والأحلام، عار على عفريت مثلك أن يبكي، لم تر أن البشر يطلقون على من يملك الحياة والحيلة بأنه عفريت، و لكن لما لا تحاول العودة إلى قومك وتألف حياتهم مرة أخرى، فمازلت حيا

وتملك الوقت، فرد العفريت : هذا غير ممكن، اسمعى يا نفرتال حتى لا نضيع الوقت، إنى أرى شيئاً ما، فبموت الحاجة نبوية، قد فتحت أبواب وأغلقت أبواب، و قد ظهر لى ألوان حولك وحول مصطفى، لو أخبرتك بها لزادت الأمور غموضاً عليك بما أرى، فلا جدوى من إخبارك بمعناها ولكنى أراها وأعلم ما تحمل، سر من أسرار الجان و لكنها تنذر بخطر قادم، فقلقت نفرتال وقالت: مش فاهمة ... وافترشت الأرض إلى جواره وجوار العنزة وأسندت ظهرها إلى الحائط الذى استند إليه العفريت ..

- أنت داخلة على مرحلة صعبة، محتاجة إلى أصدقاء أقوياء، عفريت قوى، فأحوال وعلامات كثيرة قد ظهرت تحمل الشر إليك وهذا سر حزنى إلى جانب موت نبوية، وقد عزمت أن أسألك أن تقومى بعمل لى يجعلنى قادراً على مساعدتك فى المستقبل القريب وأنت قادرة عليه .

- نفرتال : أوضح ما تريد أن تقول فإن الهم يغرقنى فيكفينى أنى شجرة جافة، لا تعطى الولد إلى مصطفى، كما أنى أملك تاريخاً كبيراً من الذكريات المؤلمة، فطالما طيف جدتى وخالتى وآخرين يسألوننى ثمناً لدمائهم التى أهدرت بفعل هؤلاء الأنجاس، فضلاً عن أنى فقدت اليوم أم حقيقية لى، الحاجة نبوية، يا عفريت إنك أعز من عرفت منذ خرجت من ساحة المقبرة إلى هذا العالم فاسألنى ما شئت وإن كان فى استطاعتى لن أتوانى عن تحقيق طلبك .

- فهم العفريت ووقف، ماسحاً على رقبة العنزة وهو يقول : إن أهل الجن عندهم علوم لا حدود لها ولا يمثل علم البشر شيئاً فى محيط علمهم، ولكن قد استطاع بعض البشر

التوصل إلى تسخير الجن والاستعانة بهم مقابل أنه يقدموا إليهم شيئاً ثميناً قد لا يعلموا سره ولكن أجدادك الفراعنة قد توصلوا إلى مادة زئبقية مائلة إلى الأحمرار قليلاً، قد قرأ عليها بمعرفة هؤلاء الأجداد و تدس في رقبة المومياء قبل غطاء التابوت، و بمرور آلاف السنين عليها تفرز المومياء المحنطة كيميا معينة فتصبح قادرة على طرد جميع الآفات والهوام فيظل الجسد محفوظاً، وكذلك الجن يطلب هذه القنينة الصغيرة لإعادة شباب من هرم منهم وركبه المرض، فتعيد الحيوية والقدرة له بعد أن يدهن جسده منها، فقاطعته نفرتال قائلة : و كيف لا يستطيع الجن أن يقتلها بنفسه من رقبة المومياء؟

- نفرتال ..ألم أخبرك من قبل أن الجن عبارة عن طاقة لا يمكن أن يحرك الماديات بمفرده، ولكن يستعمل جسد البشر حتى يتمكن من الماديات .

- و ما علاقتى بهذا ؟

- نفرتال ..أنت لا تعلمى قوتك الروحية التى تملكها، فروح الكاهن الأعظم قد سكنت بدنك منذ قديم الزمن، ولن أطيل عليك ولكن بقدرتك على الاتصال بالكاهن الأعظم قد تستطيعين أن تدخلى المعبد الفرعونى الذى خلف ساحة المقبرة، فإن وصلتى إلى هناك، وركزتى عقلك و تفكيرك فى الجزء المتهم منه يظهر لكى مكان مومياء الأميرة الفرعونية المدفونة هناك، وما عليك إلا أن تنزعى هذه القنينة من رقبتها ثم تأتى بها إلى فتساعدنى على دهن ظهرى بها فأستعيد شبابى وقوتى، وصدقينى إن شيئاً ما

قادم وأكون حينئذ وقتا قادرا على حمايتك، أنا لا أعلم الغيب ولكن كل علم له ملامح ودلالات، هي طريقة لقراءة الحقائق..

- أتعنى المعبد الفرعونى ؟ ملعبى القديم الذى يقع خلف ساحة المقبرة ؟

- ....نعم، ولكن إن فعلتى هذا لا تخبرى مصطفى، فقد يخاف ويبتعد عنك .

- إن كان حقا ما قلته يا عفريت وبهذه السهولة، سأفعل .

- وهنا ابتسم العفريت وقال : لن تتدمى

- على الآن أن أتحرك فالعزاء فى البيت ومصطفى فى انتظارى، ثم تحركت إلى باب البيت إلا أنها تذكرت أنها قد أتت إلى العفريت لتسأله هل بعد موت الحاجة نبوية سيعيش هنا ؟

- أتمنى ولكن صاحب البيت آت ..

واستغربت نفرتال من الإجابة ولكنها لم تعلق ومضت إلى باب البيت، وقد تراحمت الأفكار فى رأسها فى طريق العودة إلى البيت، وخاصة ثمة كلمات خرجت من فم العفريت لا تفهم منها شيئا، ولكن قد عازمت على أن تجيب العفريت إلى طلبه .

خيم على بيت مصطفى الحزن لوفاة الحاجة نبوية، فمئذ وفاتها الأسبوع الماضى، قد تغير فى البيت كل شىء، حتى أهله أصبح أكثر صمتاً، وضاعت ملامح البسمة

وفى صباح اليوم اجتمع نفرتال ومصطفى ورباح على مائدة الإفطار، وكان الصمت سائداً حتى بدأ مصطفى الكلام قائلاً : على الرجوع إلى الوكالة بمصر فلا أستطيع الغياب عنها أكثر من ذلك، وأنتما عليكما أن تعدا أنفسكما للإقامة هناك، فلا محل ولا معنى لبقائكما هنا بعد رحيل الحاجة نبوية، وخاصة أن رجالي هنا يديرون العمل فى الأرض على خير وجه من الأمانة وأنا أتابعهم دائماً، ولم تبديا نفرتال ولا رباح أى تعليق .

ثم نظر مصطفى إلى رباح وهو يمضغ طعامه : رباح ...لقد ماتت الحاجة نبوية موتة أمنة، وشكرا لك على ما قمتى به من مراعاة ومداواة لها فى مرضها، فانفجرت رباح باكية: لقد عوضتني عن أمى، والآن ذهبت أخذه معها حبها وحنانها على، فردت نفرتال : يا رباح، إن منوال هذه الحياة أن نأتى ونذهب، وبينهما بقاء لحين، لكن يشغلنى حالك، أنت رفضت كثيراً ممن تقدم للزواج منك من شباب أهل البلدة، وكنت دائماً تقولين لن أترك الحاجة فى مرضها، وأعتقد أنه أن الوقت لتختارى من يتزوجك حتى تصبحى صاحبة عائلة، وزوج يرعاكى ...، رباح ..نحن نحبك ونريد لكى الخير، فتدخل مصطفى : نعم يا نفرتال لقد أحسنت اختيار الموضوع الذى نتكلم فيه، فكنت أظن أن حسن هو مرادك، وكنت



أعتقد أنك تحبينه، حتى ذلك رفضتيه، ولم نكن نعلم لماذا..

وأكملت نفرتال : يا رباح كنت متوسمة فيكى العقل وحسن الاختيار وفرحت كثيرا لرفضك حسن، وأنت أقدر واحدة على الاختيار، فقال مصطفى : لو كانت أخبرتتى من قبل بأنها لا تريد حسن زوجا، لما أبقيت عليه، يسرقنى ولكنى كنت أعلم وأبقيت عليه لأجل خاطرك وصبرت عليه ..

وهنا قطع حديث المائدة بنباح تراب الذى كان فى خلفية البيت، مع المقيمة الجديدة معزة الحاجة نبوية، وقد علت بعض الأصوات خارج باب البيت، وإن استمرار نباح تراب بشراسة جعل نفرتال تفهم أن القادم لا يحمل قدم خير على أهل البيت، فقام مصطفى بفتح الباب، فإذا أمامه رجل فى زمام الشباب وحوله بعض أهل البلدة، إلا أنه يبدو على ملامحه القسوة والشراسة، يرتدى ملابس غير مألوفة لأهل البلدة، وعلى رأسه عمامة بيضاء كالتى يضعها الأعراب القادمون مع كل والى جديد قادم من أرض الخلافة لحكم مصر، ولكنه مخالف لهم فى اطلاق لحيته التى وصلت لمنتصف صدره، محاكيا لحية اليهود والأقباط من رجال الدين .

وما إن ظهر مصطفى أمام الجمع، حتى بادر أحد الواقفين من أهل البلدة : ذلك الطارق الغريب يسأل عن الحاجة نبوية ويقول أنه ابنها، فصاح مصطفى : علي ؟.. علي ؟..

فرد عليه بغلاظة : نعم ..، ولكن مصطفى تهلل فرحا، وأكمل حديثه : ادخل أهلا بك، البيت بيتك..، وأنصرف الرجال، وتحركت نفرتال ورباح بسرعة إلى الداخل، فدخل الضيف إلى البيت،

وأجلسه مصطفى فى صحن الدار، وقد ارتبك مصطفى كيف سيخبره بموت والدته، وتمنى أنه لو كان قد جاء قبل وفاة والدته، ولم يكن أمامه مفر إلا أن يخبره بموت الحاجة نبوية، فقال : أنا أسف يا على أن أخبرك أن الوالدة قد توفيت الأسبوع الماضى، وكانت فى اشتياق لرؤيتك، فرد عليه بوجه عبوس وبغلاظة أكبر : الكل يموت ... هذه هى الحياة ..فانية ..لا قيمة لها عند الله، المهم الآخرة دار الفلاح والنجاح، فتراجع مصطفى إلى الخلف، قد دار فى نفسه سؤال : ما هذه القسوة ؟ وكيف اكتسبها ذلك الرجل ؟ ..

وأكمل الحديث : إنك قد تركت البلدة منذ مدة طويلة، ولقد تغيرت وتغيرت هيئتك وشكلك، وكم كانت المرحومة تشفق إلى عودتك وخاصة فى مرضها، فأراح علي ظهره إلى الأريكة وفى صوت يملأه عزة وفخار : لقد كنت فى الجهاد، خير أنواع العمل، فأما أنها ترحم.. فأمرها إلى الله، فزاد تعجب مصطفى من قتامة قلب وفضاظة لسان ذلك الوغد .

وساد صمت قليل، فاستأذن مصطفى فى الدخول إلى أهله، فهو يقول : سنعد المائدة حالا، فلم يرد الضيف اللفظ .

وما إن أعدت نفرتال ورباح صينية الطعام التى حوت خيرا كثيرا، والتى حملت بمعرفة مصطفى آخذه طريقها إلى حيث يجلس الضيف الذى أنفجرت شفتيه وارتخت عضلات وجهه باسماء قائل : نعم كثيرة، دائماً ذلك البيت فيه نعم منذ زمن بعيد..، وأوجس مصطفى خيفة من قوله فتعوذ فى نفسه كما يفعل أهل البلدة، وكسر الصمت صوت مضغ الطعام حتى أتى على الصينية كلها، قائلاً : الحمد لله .

وكان يبدو على مصطفى أنه قلق من تواجد ذلك الشخص الذى اتكأ بظهره على المقعد وكاد يغلبه النعاس، فعجل مصطفى قائلاً : أخبرنى يا علي عن حياتك فأنا لا أعلم كثيراً عنك، وأعتقد أن المرحومة لم يكن لديها الكثير لتخبر عنك، ولا أعلم إن كنت قد عدت لتبدأ حياتك هنا مرة أخرى أم هى زيارة عابرة، ثم تذكر فجأة أن مفتاح بيت والدته فى درج الطاولة، فاستأذنه ليحضر إليه مفتاح البيت مشيراً إليه بيديه أن ينتظر، وما إن أعطاه لعل [فوضعه فى جيبه من فوره، ثم اعتدل علي فى المقعد سائلاً مصطفى : ألم تترك أمى ذهباً أو أشياء ثمينة فهى كانت تملك أرضاً تؤجرها، وقد عملت فى هذا البيت سنين طويلة، فاستعجب مصطفى واغتاظ وقال: لا علم لى بما كانت تدخر أو تملك، ارجع إلى أرضك وفتش عليها وعندك البيت فتش فيه، قد تجد ما تبحث عنه وتصل إلى ما تريد ، فمكان أرضها وبيتها فأنت تعلمه أكثر منى، وكما تعلم أن الحمد لله قد أكرمنا بكثير من المال والنعم ولا ننظر إلى مال أحد، فقال الضيف : سنرى ما يكون فأنا لا أملك أى مال، فالجهاد لا يدر ما لا فى الدنيا ..

فسكت مصطفى برهة ثم نظر إليه قائلاً : إن الراحلة كانت غالية علينا وكانت أم لى وأنت ابنها وجزء غال منها وأنا فى كل الأحوال فى خدمتك، فهرع الضيف واقفاً فى صوت حاد : أنا لا أسألك ما لا من عندك، ولكنى أعلم كما يعلم الكل أن أمى كان عندها ما لا وذهباً كثيراً، وعند ذلك أخذ تراب ينبج بصوت عال فقال الضيف : ألا تعلم أنك تأوى شيطاناً فى منزلك، فذلك الكلب الأسود الذى تأويه شيطان أسود يجب قتله، وفى قتله صدقة، ألسنت مسلمة يا رجل ؟، فازداد مصطفى غضباً : هذا بيتى وأقتنى فيه ما

أشياء، فلا شأن لك بما عندي، فهم على بالقول : كيف تتحدث بهذه الطريقة إلى مجاهد في سبيل الله، وعالم بأمور الدين، فأنا منذ عشر سنين أجاهد من مكان إلى آخر لنشر دين الله الأحد، ولا تهاون عندي مع أى كائن فى تعاليم ديني، لاحظت منذ وصلت إلى مصر من الشام أن فعلا ما سمعت وما قيل لى وأنا فى الشام من الشيخ هلال المصرى الساطع وآخرين أن الجهاد واجب الآن فى البلاد الإسلامية، وليس فقط فى أرض الغرب، ويجب أن ينقل إلى داخل جميع تلك البلاد وخاصة مصر، بعدما حصل فيها ذلك الفساد والانفلات الدينى والعقلى، فقد رأيت النصارى أصحاب مال ونفوذ والنساء متبرجات فى كل مكان، والآن مسلم يربى شيطانا فى بيته بدلا من قتله، أخرجنى من هذا البيت فوراً...، فقاده مصطفى إلى الباب وخرج الضيف غير ملقى سلاما أو حتى أى شكرا على الضيافة !...

وكان مصطفى فى قمة غضبه من ذلك الوغد المتحجر العقل، سليط اللسان الذى يعتقد نفسه هو المسلم الحق الأوحد و من دونه كافرا شيطانا ..، وحينئذ دخلت نفرتال ورباح على مصطفى متسائلين عما حدث حيث كان وجه مصطفى فى احمرار ويتمتم بكلمات تتم عن غضب فأجاب: ذلك الوغد يحمل شرا كبيرا، أهذا ابن المرحومة نبوية ؟ أعاد المفقود ؟..، يا ليتته ما عاد والحمد لله أن أمه لم تره على هذا الحال...، فصاحت كلا منهما فى نفس واحد : أهذا علي ؟ ابن المرحومة نبوية التى كانت تعتقد أنه مات وكان قلبها ينفطر عليه ؟ ..، وهنا همست نفرتال فى نفسها : لقد صدق العفريت، أن البيت سيسكنه صاحبه وكذلك صدق تراب فى نباحه،

فهو أعلم بعلامات الشر، فسمعها مصطفى رادا عليها : أحس أنا أيضاً أنه شر، فكيف يكون سلوك مجاهد يزينه القسوة وإنكار الجميل واتهام الجميع بالزندقة، واتهامي أنا بسرقة مال أمي، ونعت الكل بالكفر ؟ يا الله ...حتى أمه لا يطلب لها الرحمة ؟؟ ..، لا بد أن القتل وسفك الدماء والغرور هو الذى جعله لعبة فى أيدي الشياطين، وقالت رباح: إذا كان هذا المخلوق كما وصفت يا مصطفى فأكيد سيكون هناك عواقب وخيمة على البلدة وخاصة أن الناس يعتبروا المجاهدين ذوى مكانة خاصة، فإن كان ذلك المفقود قد هبط على البلدة بفظاظته وسوء خلقه، فإن الشباب سوف يتأثر به، وخاصة أنه ما أكثر الشباب الذى يريد أن يذهب إلى الجنة بأسرع الطرق.

-المهم أنا مسافر اليوم وسأرسل لكم العربدة غدا لتأخذكم، ولا تنسوا أن تحضروا تراب معكم، فقد أعددت له مكانا فى حديقة البيت الجديد الكبير الذى اشتريته مع الوكالة وأعددتة خصيصا .

-نفرتال : هل من الممكن أن نتحرك الأسبوع القادم ؟ فعندى أشياء مهمة لا بد من عملها، كما أن لى مع رباح كلاما خاصا، وقد فاتحت نفرتال الفترة الماضية مصطفى عدة مرات ليتزوج رباح حتى تعطيه الولد، وقد نهىها عدة مرات على ذلك الأمر، إلا أنها كانت دائما مصرة على هذه الفكرة، وقد قررت أن تضع حلا لهذا الموضوع، وأخبرته الليلة الماضية بما عازمت عليه لأنها لن تدع مصطفى يذهب إلى أخرى، فرباح أحب إليها من أى امرأة أخرى لأنها تحبه من أعماق قلبها، وأن القدر شاء ذلك، وإلا ستكون فى حياتهما القادمة بعض الصعوبات.

ولقد كان على نفرتال أن تذهب إلى المعبد خلف المقبرة لتقى بما

وعدت به العفريت الذى صاحبها وترابا للحصول على قنينة اكسير الحياة، وتصادف وجود ذلك المشعوذ الملعون بالمقبرة، حيث اعتاد أن يجمع من تراب المقبرة وعظامها حتى تكتمل أسحاره مع عفريته المتمرد الملعون أيضاً، وقد رأى نفرتال تتحرك فى اتجاه المعبد، وأخذ يمشى خلفها من على بعد، ليرى ماذا ستفعل، ولكن نفرتال أبقت على تراب قابعا على حدود ساحة المعبد حتى لا يقترب ذلك الملعون أكثر، إذ أخبرها العفريت أنه فى أثرها، وقد قرر العفريت إذا حصل على ما يريد ليكون أول ما ينكل به ذلك الملعون المتمرد وتابعه .

وما إن رجعت نفرتال خارجة من المعبد، عجل إليها العفريت الذى كان بجانب تراب وسألها متهللاً : هل حصلتى عليها ؟، فرفعت نفرتال بها يدها باسمة، فسألها أن تصبر حتى يدهن جسده بها فيبرأ من أمراض الشيخوخة ويعود لشبابه، فلا يحتاج إلى جسد عنزة ليستريح، أو يصبر على تلك المخلوقات الملعونة التى تحيط به أكثر من ذلك، و ما إن أنهى من دهن جسده حتى صاح العفريت : الحمد لله عاد إلى شبابى وعادت إلى صحتى وقوتى، ثم طار فى اتجاه المشعوذ وتابعه فأمسك بالتابع، ذلك المخلوق الشر الذى يسخره المشعوذ، وقتله، مما جعل المشعوذ يجرى فاراً فى اتجاه البلدة .

وعاد العفريت صائحا : لقد وفيت بوعدى وخلصت البلدة وأهلها من شرور ذلك الوغد الشيطان الملعون، أما أنت يا نفرتال فعليك بالمشعوذ ..، ورجعى العنزة لابن الحاجة نبوية، خلاص أنا راجع إلى الحرية والصحة يا نفرتالى، ولو أردتبنى فى أى وقت قولى يا عفريت ..يا عفريت .. فأنا عندى الكثير من العمل الآن ،

فضحكت نفرتال، وطار العفريت قائلا : جميلك كبير يا نفرتال يا جميلة ..

وما إن عادت نفرتال إلى البيت سألت أحد الرجال أن يأخذ عنزة المرحومة الحاجة نبوية إلى بيتها و يعطيها إلى ابنها، وانطلق الرجل إلى حيث بيت المرحومة نبوية وطرق الباب ففتح له حسن وقال له : ماذا تريد يا عبدالعال ؟ فأجابه : ليس من شأنك، وكان يعرفه جيدا من أيام رباح ولكنه منذ طرده مصطفى أصبح غير مرغوب فيه من جميع رجال مصطفى، ثم قال : أريد التحدث إلى علي، فخرج إليه بفضاضة : ما تريد ؟ .. فقال له : إن زوجة الحاج مصطفى قد أرسلت معى عنزة الحاجة المرحومة، فرد حسن : عنزة !! وأين الفلوس والذهب ومدخرات المرحومة طول هذه السنوات من الخدمة الشاقة ؟؟، فرد عبدالعال : اخرس ... فرد على : اخرس أنت وكادت أن تحدث مشاجرة ، فترك عبدالعال العنزة وعاد إلى نفرتال ليخبرها بما حدث، وعن وجود حسن مع علي، مما جعلها تتكدر، إلا أنها قد اتفقت مع رباح على الخروج حيث عقدت العزم على المرور على أملاك مصطفى قبل أن يتحركوا إلى مدينة العاص .

وهما فى العربة التى تمر وتتحرك على أرض مصطفى التى ورثها، وكذلك ما أضافه إليها قالت نفرتال: ..إن أموال مصطفى وأموالى لابد لها من ولد يرثها، وأنا لم استطع أن أمنح مصطفى ولدا، وفى كل الأحوال مصطفى رجل مصرى سيتزوج بأخرى وأنا أعرف ذلك، ولكن أن عارفة أنك بتحبنى مصطفى ..

- رباح : أنت بتقولى ايه ؟..
- نفرتال : لا وقت للجدال أو الكلام من غير معنى ...حكمل كلامى ..يعنى ينفع مصطفى يروح بماله ومالى لواحدة زى خضرة دى تأنى ؟ أو حتى غيرها ؟ .. يارباح أنا بحب مصطفى، وبحب نفسى ومالى وبحبك، وأنت بتحبى مصطفى وبتحبينى، ومصطفى نفسه فى الحب كله معانا احنا الاثنين..
- أنا مش عاوزة أتكلم فى حاجة زى الموضوع ده، أنا لا أريد أن أجرحك فأنا أحبك ...
- على فكرة مصطفى عارف أنى حكلك فى موضوع الزواج ده ..
- فوقفت رباح ناظرة إلى الأرض : عارف ؟ ..
- نفرتال : أيوة عارف ...واستعدى للزواج عندما نصل إلى مصر، وعاوزين أولاد كثير علشان أربى و أكبر فى أولادنا، ويكونوا سند وعون لنا لما نكبر احنا الثلاثة ..، يا رباح احنا بنينا مملكة كبيرة، ولا بد أن تستمر، ومملكتنا من غير أولاد سيتكبد عليها الفناء عاجلا أم آجلا..
- فنظرت رباح إلى نفرتال بعد أن اغرورقت عيناها بالدموع واحتضنت كل منهما الأخرى، ورجعتا إلى البيت، فقد ارتاح بال كلتاهما بعد هذا الكلام....



وانتهى الأمر إلى زواج مصطفى ورباح فى حفل عائلى، ذلك الزواج الذى عملت نفرتال بجهد وإصرار من أجل أن يتم، بهدف إسعاد مصطفى بأن يكون له ولد، وكأنها قد علمت أن السماء أرادت أن تعطى رباح وتعطيها جزءاً من مصطفى، فباركت إرادة السماء كما كانت تترجم ما يحدث حولها .

وكان كلا من رباح ومustفى فى حرج من ذلك الزواج الذى فرض عليهما لأنه الحل الوحيد لاستمرار هذه العائلة، ورغم أن كلاهما كان حريصاً على شعور نفرتال كأنهما يخفيان ذلك الزواج عن حولهم، إلا أن نفرتال كانت أكثر منهما حرصاً على عدم إحراجهما أو جرح شعور أحد منهما.

واخذ بيت مصطفى لمسة ثراء، فالיום أصبح بالبيت خدم وجواري وكذلك بستاني وعربة فاخرة تجرها جياد قوية تتم عن عز صاحبها، وأصبحت نفرتال ورباح من سيدات المجتمع الراقى الثرى، إلا أنهما كانتا تميلان إلى البقاء بالبيت وعدم الاختلاط، أما السيد تراب فقد أصبح له مكاناً خاصاً به بحديقة البيت، وكان عاداته الكسل والأكل والراحة، وكثيراً ما كان أهل البيت فى زيارته و مداعبته، إلا أنه فقد صاحبتة نفرتال منذ زواجهما، فقد أصبح مصطفى شريكاً أساسياً، وازدادت هذه الفرقة أكثر منذ الانتقال إلى ذلك البيت المريح فى مدينة العاص.

وأما مصطفى فكان يمنى نفسه بالولد الذى يأتى ويحمل اسمه ويسد وحدته، ويقطع لسان ذلك التاجر الغبى (صفوان) الذى اعتاد

أن يؤرق عليه حياته ويذكره بأنه ليس له ولد .

وقد تداخلت مشاعره، فهو يكن حبا لا نهاية له ولا يقارن لنفرتال التى أعطته الأمل والحب والمال، واليوم قد ضحت بمكانتها كزوجة وحيدة وسيدة للبيت، لتقدم له رباح بكل حب وإنكار للذات، حتى يرزق منها بالولد، ويبقى الجميع جنبا إلى جنب، ولم يغفل حب رباح الذى أحسه منذ يوم أن عرفها، وأنها عاشت معه أصعب أيام حياته ومحنته، وما قدمت له من عون فى استرداد أوراق أملاكه مرة أخرى، وكيف باركت نفرتال فى حياته ووجودها معه بدون حسد أو حقد على حياتهما، وكان يشعر بأنه أسعد رجل فى هذا العالم، فكيف يجمع بين امرأتين بهذا الجمال والفتنة والقلب الحنون الذى يحمل جميع جوانب الحب بمعناه الفعلى والمضحى على أرض الواقع وليس كلاما مرسلا أو خيالا متوهما .

وكان الخبر بأن رباح تحمل فى أحشائها وليا للعهد قد جعل عقل وقلب مصطفى يمتلئان بالشوق لذلك الضيف القادم، وعم الفرح فى البيت، و كأن كل الفريق قد نجح فى اتمام عمله، وأصبح المولود على الأبواب .

وأصبح مصطفى يجلس الآن فى مواجهة ذلك التاجر أمام متجره الذى اعتاد أن يؤرق عليه حياته بالنبش الدائم فى حديث حث مصطفى على الزواج، فالآن مصطفى كله ثقة، فقد تزوج برباح وهو فى انتظار ابنا فى الطريق، ولكن مازال ذلك التاجر ينبش فى موضوعات أخرى.

وكان مصرا على تكدير مصطفى خاصة فى الكلام عن طرد جميع النصارى العاملين بالوكالة وفض التجارة مع جرس، إلا أن

مصطفى لم يعد يصغى إلى ما كل ما يقوله، بل يتركه أحيانا يتكلم، ثم يقوم إلى عمل شيئاً ما .

وقد أخذت حياة مصطفى بعد زواجه والإقامة بمدينة العاص معظم الوقت حياة أهل الثراء نسبياً، وكانت صداقته مع جرس أصبحت أكثر متانة وقوة، وأخذت تجارته تزدهر يوماً بعد يوم.

وكان مصطفى يتردد على البلدة من حين إلى آخر ليراعى تجارته ورجاله، إلا أنه قد لمس في بعض رجاله التغيير الذى طال بعض شباب وأهل البلدة، فأصبح حديث جديد يدور على أبواب بيوت البلدة، ألا وهو الجهاد فى سبيل الله وثوابه، ليس بالمعنى المعتاد، ولكن معنى وشكل آخر.

و كان سر هذا اللون الجهادى الجديد هو تواجد (علي) المجاهد وعودته إلى البلدة، فقد استطاع احتلال منبر الجامع، بما له من قوة الخطابة وربط الحديث الدينى بلحن الكلام ظاهره حلو وباطنه عنف وتأليب أهل البلدة بعضهم على بعض، وكذلك حمل خطابه التلميح بتكفير مصطفى وحرمانية ماله، فعلى يكن لمصطفى عداً داخلى غريب منذ الصغر، ولكنه كان دفين حتى أخرج علي سمومه معلناً أنه مجاهد لا يلام فى منطق أو كلام.

وقد أصبح على وحسن والمشعوذ وعائلة الحاج صالح وخاصة خضرة فى رباط الصداقة وإطار المحبة، وقد توحدت إرادات هؤلاء الأئمة على إنهاء أسطورة مصطفى، وتكفير كل من يعارض واعتباره من أهل الدنيا والنار، مما أصاب أهل البلدة المسيحيين بحالة من الخوف وكذلك غيرهم من المسلمين البسطاء الذين هم مصابون بالفقر والجهل والمرض، ولا تحتل أجسادهم

المزيد من الرعب والخوف من الخالق، حتى تكتمل منظومة الضياع .

وقد وجدت عصابة الشيطان التي تكره مصطفى والنداهة وتمقتهم الثوب الجديد لمحاربة مصطفى، فبثت الكثير من الأكاذيب عن ماله و تجارته وفجوره، بل تجاوز الحديث والكذب إلى الاستعانة بخضرة فى اطلاق الإشاعات أن مصطفى قد عاش مع رباح مدة طويلة دون زواج فى نفس بيت الزوجية، وأن النداهة الفاجرة التى ليس عندها فضيلة ولا أخلاق ولا دين قد ساعدت الغازية الفاجرة لتقدم جسدها إلى مصطفى تحت سقف البيت وتحت علم وبصر أهل البلدة جميعا،الذين وصفهم بأنهم جميعا قوادين ويأكلون المال الحرام، المال الذى قد غصب وسرق بمعرفة ذلك الفاجر من خضرة والحاج صالح المسكين الذى أصابه المرض من مرارة الظلم وأنه على وشك الموت من آثار تلك المذبحة التى حدثت له ولابنته خضرة .

واختفى تدريجيا دور شيخ الجامع فى تعبئة أهل البلدة، وقد استسلم للأمر، و كان عليه أن يبدأ رحلة جديدة حتى يستمر عيشه فى هذه البلدة، فأخذ فى تمجيد علي المجاهد الذى ترك البلدة منذ أكثر من عشرة أعوام حبا فى الله ورسوله، وكان شابا متدينا ملازما للمسجد، وما إن نال فرصة ورحمة من الله فخرج للجهاد مع آخرين متطوعين إلى أطراف آسيا عبر فلسطين وبلاد الشام ليعزروا جيوش الإسلام فى فتوحاتها لنشر دين الله ومحاربة الخارجين عنه .

وقد استطاع علي الإقدام على تنفيذ خطته مع أهل البلدة بأعلى درجات النجاح، والتي استقاها من هلال المجاهد، وهى خلق نوع جديد من الجهاد الداخلى لكساد سوق الجهاد الخارجى ومزاياه من أموال وسبايا وانتقال من أرض إلى أخرى، فحان الآن الوقت أن يأخذ الجهاد معناه الجديد ويأتى بثماره الجديدة على الأرض مصر لهؤلاء الرجال ذوى الأفكار والأراء القبيحة.

وذاع صيت المجاهد علي حتى وصل إلى القرى التى تقع حول البلدة فأصبح صاحب الدعوة الدائمة، والخطيب المرموق فى منابر مساجد القرى الأخرى، فزادت الحكايات والخرافات التى اعتاد أن يعتنقها خيال المصريين المريض، لإضفاء صفة القداسة والألوهية على أشخاص، ذلك المرض القديم فى حياة المصريين سواء من المسيحيين أو المسلمين، فهو عادة موروثه، فقد غزا هذا الفكر أرضية خيال المصريين الفاسدة، من تقخيم أشخاص واعتبارهم ممثلى الخالق على الأرض حتى فسدت العقول والبلاد.

وامتد صيت المجاهد علي إلى خضرة، خضرة التى ملأ قلبها الحقد والغل على مصطفى ومن معه، ورغم أن لها كثيرا من المعجبين والمتقدمين لطلب يدها، إلا أنها كانت ترفض لأنه لا مكان فى قلبها وعقلها إلا دمار مصطفى والنداهة وإعادة ما خسرت من الأرض والمال والعز، وقد علمت من المشعوذ أن حسن قد أصبح من أحياء ومريدى المجاهد علي، ففهمت بذكائها أن علي يملك لونا آخر من الجهاد، فإن حسن لا يصادق إلا لمصلحة، وإن حسن ليس له فى الجهاد أو الدين، بل هو شخص له فلسفة خاصة به لا تخرج عن المصلحة والمنفعة والكسب السريع، فعزمت على إقامة جسر مع حسن مرة أخرى، حتى تعبر إلى

علي الذي يصب غضبه على مصطفى فقد يكون ضالتها المنشودة هنا عند علي المجاهد .

وكان علي على اتصال بهلال من خلال مراسلات الأخوة، وكانت الأخبار مرضية، فهلال قد ذاع صيت جماعته، وأخذت في العدو واختراق جميع مستويات المسلمين الذين يبحثون عن الجنة بأسرع وأسهل الطرق وهو الجهاد، وقد أخذ مفهوم الجهاد القتال، وسقط مفهوم الجهاد بكافة صورته الواردة في كتابهم وفقهم، بل قام هلال بزيارة علي في البلدة ليطلع على الأخبار بنفسه، بل وقدمه علي إلى أهل البلدة بأنه المناضل والفقير الكبير الشيخ هلال، وبدوره المحوري كضيف من ضيوف الرحمن الذي نزل على أهل البلدة، فقد نالهم الحظ والرحمة بأن تطأ أقدام أهل الدين أرض هذه البلدة لتصبح منارة العلم والجهاد.

ويبدو أن هلال قد أوغل صدره مكانة علي في أهل البلدة، ويبدو أنه فطن متأخراً إلى خطورة علي ونفوذه في هذه الجماعة الجديدة، وخاصة أنه رأى أن شباباً كثيراً حوله قد فتنوا به وبجهاده المزعوم وما روى من قصص وأساطير، وقد أيقن هلال أنه إن ترك علي أو أطلق يده لأصبح صاحب كلمة في الجماعة، بل قد تمتد يد ذلك الشاب ليكون له ذراع جماعته الخاصة به وهو أكثر شباباً من هلال وأطلق لساناً، وتمنى لو أن له تلك المكانة في بلده مسقط رأسه بل معروف عنه هناك بأنه مجرم صاحب تاريخ قديم في القتل والسلب والنهب.

بينما هلال في طريقه إلى مدينة العاص، أخذت الأفكار تمتازج في رأسه، فما رأى من بوادر الزعامة على (علي) وعلامات الأمانة والتفاف الجميع حواه، فعقد العزم على أنه لابد من التخلص من

علي وإلا سيكون مصدر خطر على زعامته في هذه الجماعة ومستقبلها، ولكنه أرجأ تنفيذ حكم الإعدام حتى حينه.

وقد أخذت الجماعة مكانتها في مدينة العاص وذاع صيتها وأنضم إليها الكثير من الشباب المصرى الذين يعانون في بلادهم مصر الفقر والجهل والمرض، بينما الأجانب يحكمونهم ويقطعوا كل خير قد يصل إلى أيديهم، فأصبح الزواج شىء مكلف، ومع ضيق الأرزاق و كثرة الأولاد أصبحت الحياة صعبة على سكان مصر الغلابة، فهربوا إلى الدين، وأماتوا حياتهم في الجوامع والكنائس هربا من جحيم الدنيا وعلقوا آمالهم على الآخرة، ففقدوا حياتهم صابرين على بلائهم، ونسوا أن لأجسادهم وعقولهم عليهم حقاً، فما خلق الخالق هذه الأجساد والحياة لتدفن في الدنيا طلبا للآخرة كما يزعم رجال الدين، فالدنيا أول مراتب الآخرة، فإن كانت الدنيا ضيق وضنك فلا مجال للآخرة، لأن عندما تختنق النفس البشرية ويزداد الضغط عليها نجد قليلا من هؤلاء البشر من قد يفلح في قتل احتياجاته اليومية من مأكّل ومشرب وسكن وزوج، فيعم الفساد بكل صورة طبعاً تحت جلباب الفضيلة والدين الخارجى من شعارات وطريقة كلام وتزييف للحقائق.

وقد أثمرت الجماعة في هذه البيئة خاصة أن أهل مصر قد شربوا الفساد الذى نشرته الدولة الفاطمية من رشوة ومحسوبية واستغلال نفوذ وجباية ضرائب وفساد وإدارة، وأخذ الدين فلسفة أخرى من خلال هؤلاء الأئمة الذين انتشروا في جسد هذه الأمة، فيكون ظاهر الأمر دين وصبر على الوالى وطلب الصفح من الخالق ولكن باطنه النساء والرشوة والتعطش للسلطة والنفوذ..

كما أن الجماعة قد استقطبت كثيرا من المجاهدين العائدين من

الأراضى المقدسة وسوريا وغيرها، بعد أن سقطت مزايا الجهاد بتغيير مزاج الأمة الإسلامية، فأصبح الجهاد الداخلى أكثر مكسبا ورخاءا لهولاء المخربون.

وفى وسط تلك الأحداث المتعاقبة رزق مصطفى بمولوده الأول مالك، وغمر أهل البيت سعادة وفرح، وأما مصطفى فلم يدخر وسعا فى إقامة احتفال يليق بذلك المولود الذى طال انتظاره منذ زمن، وكان فى مثل فرحته صديقه جرس الذى ضرب جميع أمثلة وصور الصداقة الحقيقية مشاركاً فى الفرح أو السند فى مأزق أو معزىا فى مأتم، لم يفارق مصطفى، وقد أثر مصطفى منذ ولادة مالك أن يكون بجانبه، فأصبح لا يفارقه ويقضى معظم وقته أمامه.

ودارت الأيام وسرعان ما رزق مصطفى بابنه الثانى (فارس) وكان لا يصدق نفسه فإن له الآن من الولد اثنين، وكان فى غاية السعادة لأن مالك أصبح له اخاً فى هذه الدنيا، فلن يصبح وحيدا كما عاش أبوه وحيدا.



نفرتال فى حجرة نومها أمامها العفريت الذى جاء كالعادة بأخبار البلدة، وقد أخبرها أن مصطفى فى خطر، فقد أصبحت البلدة وأهلها الآن فى جانب على الأفاق، وأنه قد أوغر صدور أهل البلدة على مصطفى وقد انضم إليه عصابة حسن وخضرة، وقد أخبرت نفرتال مصطفى عدة مرات بما يحدث فى البلدة كلما زارها العفريت، وأفضت إليه بما يدور هناك من أحاديث، وقد طلبت من مصطفى أن يكون حذرا ويقلل من سفره إلى البلدة، بل أن استطاع أن يتخلص من تجارته هناك، وأن عليه بهذا الاختيار لأنه الطريق الصحيح له ولأهله وخاصة أن مالك وفارس مازالا صغيرين .

وكان مصطفى قلقا على أولاده وماله وأرضه، فقد وقعت حوادث سرقة وتعدى على أرضه ومخازنه، وقد لاحظ كثير من الغش من الرجال الذى كان يثق فيهم، وسبق وأعطاهم حياة كريمة، وقد أفضى إلى نفرتال بما يدور فى صدره من قلق مما يحدث هناك، وأنه لا يعلم كيف يتصرف فى هذا الأمر .

وقد زاد الأمر سوءاً، وكان على مصطفى أن يأخذ خطوة فى طريق الإصلاح لما يدور فى البلدة وكذلك أحوال السوق فى مصر، وقد سألت نفرتال عما يدور حوله، فأجابها أن أحوال السوق ليست على ما يرام وأن حوادث سرقة ومشاجرات كثيرة تحدث يوميا، وأن تلك الجماعة التى انتشرت فى مدينة العاص أصبحت أكثر خطورة على الناس والتجار ..

- فقالت نفرتال : أتعنى جماعة الدين مثل التى ظهرت هى الأخرى فى البلدة على يد ( علي ) ؟،
- نفس النوع من الفكر، والواضح أنهم فى انشقاق مستمر، فكل يوم نسمع عن جماعة جديدة وكلها وليدة هذه الجماعة، منها من يدعو إلى إقامة الدين بالقوة، ومنهم من يطالب بالحكم، ومنهم من يهاجم المسيحيين بل والمسلمين الكفار على حد قولهم .
- رباح : ربنا يستر على مصر، احنا كنا فين والناس دى جت منين ؟..ربنا يستر على مالك وفارس.
- مصطفى : اليوم حصلت حاجة غريبة فى الوكالة، كنت أنا وجرس على ناصية الوكالة نتجاذب أطراف الحديث، وفجأة سمعنا أصوات تتعالى فى الوكالة كأنها مشاجرة بين العمال فى الداخل، فجريا إلى الداخل على عجل ولأول مرة أسمع صوت عبدالله وأخيه يقول : نحن لسنا مسلمين ساذجين مثل مصطفى، أنتم نصارى لا تفهموا شيئا، وسنجعل مصطفى يطردكم ، فأولى بعملكم المسلمين، ورد أحد عمال الوكالة قائلا أنتم مسلمين أجلاف، نحن نعمل بإخلاص ما كان لكم مكان هنا .
- نفرتال : مسلمين ..مسيحيين ..كفار .. لقد انتقلت العدوى وانفلت اللسان ليأخذ مكانه فى الوكالة، خذ بالك يا مصطفى، علامات الفرقة والشيطان على الطريق.
- مصطفى : حقيقة أنها المرة الأولى منذ بدأت تجارتي واشتريت الوكالة أن أسمع ما سمعت اليوم وكذلك جرس

قد احمر وجهه عندما حاولنا أن نقف التراشق بين العمال،  
ولولا تدخلنا لتحول الكلام إلى قتال .

- فقالت رباح : حمداً لله أن كنتم موجودين هناك، ولكن ما  
سبب هذه المشاجرة ؟

- لا أعلم ..ولا أحد يستطيع أن يشرح كيف بدأ هذا  
التراشق، ولكن أعتقد أن البداية لهذه الفرقة لم تبدأ اليوم  
وكان ما يدور في مدينة العاص هو نفس الصورة التي  
تدور في الوكالة، وحقيقة أصبحت أنا وجرس في مشكلة،  
فكان كل عامل في الوكالة يسأل صاحب نفس دينه أن  
يأخذ خطوة لصالحه ضد الآخر، ولكننا رغم أننا سيطرنا  
على الوضع، وحاولنا المصالحة بينهما، إلا أن هناك  
ما زال شيئاً.

حتى أن جرس قال لهم لو أصبحت مشاكلنا اليومية الطبيعية  
تتحول إلى معارك ذات خلفية دينية لأصبحت أرض مصر  
خراب، علينا أن نصفي قلوبنا مما حملت بأقوال الجهلاء  
وأصحاب النفوذ الشيطاني، وأن نحل مشاكلنا في إطار العقل  
والعمل على خلق حلول للمشاكل .

- رباح : كلام زين ، حقيقة جرس رجل عاقل لا يغوص في  
بحر الجهالة والانخراط في أهواء أصحاب الفتنة والكلام  
الذي يؤدي إلى الخراب .

- مصطفى : أنا ذاهب غدا إلى البلدة فقد وصلت لي أخبار  
أن العمل لا يسير على ما يرام.

- فقاطعته نفرتال ورباح فى صوت واحد : لا تذهب إلى البلدة الآن فطالما ذلك الشر (علي) وأعوانه هناك فلن نكون فى أمان .
- مصطفى : ولكن أَرْضَى ومالى وبيتى هناك، وعلى أن أكون متواجدا هناك،
- نفرتال : سأتى معك وكذلك تراب والعفريت معنا دائماً حتى تحميك من أى خطر، فيبدو أن أهل البلدة قد نسوا النداهة، ولا بد أن يتذكروا .
- مصطفى : إنهم قد نسوا وأغفلوا النداهة المعروفة ، ولكن النداهة الحقيقة هو صوت الشر والخراب (علي)، فالناس يخضعوا للنداهة التى تثير الدمار والخراب وتلقى الرعب فى قلوبهم، وليست النداهة التى تكمن فى الأساطير، ولكن هذه النداهة تهاجم بلداً بأكملها ولا يخافون منها .
- قالت رباح : اسمع يا مصطفى ... نعم يا نفرتال ... مصطفى أنت تملك المال والقوة، فإن حاولت أن تدخل بيوت الفقراء وتعين المحتاجين فى البلدة تكون انقصت عدد الأعداء، وعليك بشيخ القرية، حتى تجدد الجامع وما حوله فتكون الدعوات من نصيبك، واطعم العسكر، واضرب بهم على أيدي من سرقك ونهبك حتى يقعوا فى عرضك، فتغفو عنهم، وبذلك تضمن ولائهم، ولا تنس أن بين يديك شيطان وملاك، خادم وسيد، هو حسن، وديته أن تستميله ببعض المال والعمل، وأكملت نفرتال : وأنا ومن

معى نساعدك فى نقل الأخبار وترتيب الأمر.

- قال مصطفى وهو يسمع نباح تراب كأنه يوافق بعض الشئ على هذا الكلام : أنا لا أعلم ماذا أفعل، فالأمر قد اختلط على ورغم ما قلنا فإنى أشم رائحة الخطر .

- نفرتال : حقا ما قلتى يا رباح بشأن حسن، ألم أخبرك يا مصطفى أنه قد أحس بالعلاقة الجديدة التى تبدأ بين على وخضرة ؟ كما أخبرنى العفريت، وبذلك يكون قد تحطم كل أمل لحسن فى الحصول على خضرة أقصد مال خضرة، كما أنه لا يخفى على أحد أنه أصبح لا مكان له ولا مكسب من وراء على بعد هذه المجهودات التى قدمها إليها نكاية فيك، فالوقت الآن يخدمنا، فيمكن استخدامه بسهولة ولكن احذرى أن يتعدى فكره ما تحاولى صنعه يا رباح .

- فرد مصطفى : على العموم غدا بعد اجتماع التجار والعسكر سأذهب إلى البلدة، ولكن إن كنت جادة يا نفرتال سوف تأتى معى لتقضى بعض الوقت هناك لترتيب الأمر ولكن لى عند العفريت طلب، هو أن يعرف ما يدور فى الوكالة وما سبب ما يحدث هناك .

- نفرتال : لا تقلق ولكن لا تنس طلب العون من صديقنا (سعيد) ابن مجاهد، حتى يرسل بعض العسكر فى أثرنا، وكذلك يحرك الموجودين هناك ليكونوا تحت أمرك فنحن الآن فى جانبه مرة أخرى.

- مصطفى : سوف أفعل ولكن أشعر الآن أنى فى حاجة إلى أن أذهب إلى تراب وأجلس معه، فقد انشغلت عنه تلك الأيام الماضية.

لم يدخر مصطفى ولا نفرتال وفريقهما جهدا لينفذوا ما اتفق عليه من عمل قد دبر ودرس وفي طور التنفيذ، فتم دفع الصدقات ووزعت الأموال على الفقراء لسد حاجاتهم، فأصبح مصطفى ذلك الرجل الكريم الذى يساعد الفقراء، فعلت أسهمه فى هذه الفئة، وأكمل فكان شيخ الجامع هو ذراعه الجديد الذى أغدق عليه فتعالت الصيحات بولى النعمة الجديد الذى يدفع تكاليف بناء جامع البلدة ليأخذ شكله الجديد، فكل من مر على الجامع أو صلى فيه يدعو لمصطفى بالثواب والخير له ولأهله .

وكان العسكر فى طوع أمر مصطفى، فقد استطاع أن يتحرى من سرق ونهب ماله، وألقى العسكر القبض عليهم، ثم عفا عنهم مرة أخرى على أن يتعهدوا لزعيم العسكر ومصطفى بألا يعودوا إلى ذلك مرة أخرى، و أن يدفعوا ثمن ما سرق، وأصبحوا طوع أمره، بعد أن استوقع وبصم كل سارق على ورقة بمبلغ مالى بقيمة ما سرق، وبذلك يكون الأمر قد استتب فى العمل.

وقد مارس العفريت أعمال الرعب، وأكثر من حيله حتى يتذكر الناس أن النداهة ما زالت نداهة، أنها تمتلك القوة، فأذعنوا لها عن ضعف وخوف، وأكمل تراب بقية الرواية، فأكثر من النباح ليلا ونهارا، وأخذ يكشر عن أنيابه إلى كل من يكون حول البيت، وكان خلف مصطفى دائما .

وأما نفرتال، فقد التزمت الصمت فى وجه النسوة الزائرات، وأخذ

وجهها ملامح الموت القاتل، وقد أثمرت الخطه، مما جعل أغنياء البلده وأعيانها فى صف مصطفى دائماً، فهو الملاذ لهم حتى يوقف موجة المجاهد على وجماعته التى بدأت تجر الولايات على أهل البلده، وقد ظهرت الفرقة والمناوشات فى كل بيت على أقوال حلال وحرام وأهل الجنة وأهل النار، حتى انقسمت البيوت على أهلها .

وقد أحس علي بأن وجود مصطفى سيؤثر على خطته بعد أن نجح نجاحاً كبيراً، ورغم أنه حاول إثارة أعوانه مرة أخرى، حتى يستمروا فى خلق ذلك الجو المعتاد الذى يجعل الالتفاف حوله وحول أساطيره الدينية، فيتملك عقولهم وقلوبهم، كما أحس أنه يجب عليه إعادة حسن مرة أخرى إلى مرتبته الأولى، حتى يساعده فى مواجهة مصطفى، إلا أن حسن قد توقع ذلك، وأدرك أنه الخاسر فى جميع الأحوال، وخاصة قد توطدت العلاقة بين خضرة وعلي، وأصبحوا على وشك علاقة امرأة برجل .

وقد تمنى حسن أكثر من مرة العودة للعمل مع مصطفى مرة أخرى، فهو يعلم أنه هو الوحيد المنقذ له من هذا الضياع، وكان خلاصه فى هذا أن يتكلم مع خاله شيخ الجامع الذى استعاد مكانته مرة أخرى بمعرفة مصطفى، على أن يأخذه معه إلى مصطفى ليتحدث معه .

وحان الوقت لىأتى حسن مع خاله إلى بيت مصطفى، الذى أذن له من خلال شيخ الجامع أن يأتى لمقابلته، وما إن طرق الباب حتى كان تراب فى أوج شراسته، وعلى بنباحه كأنه يعلن عن ذلك



الشر القادم، وما إن أدخله مصطفى حتى طلب من شيخ الجامع أن يتركهما معاً، لأنه يريد أن يكلمه على انفراد، فاستأذن الشيخ ومضى إلى حال سبيله قائلاً : كن حكيماً ومؤدباً يا حسن مع الحاج مصطفى ، فهو كبيرنا الآن ، ودخل حسن وجلس، فخاطبه مصطفى قائلاً : حسن ...ألم يحن الوقت حتى تعرف أين مصلحتك ؟ .. إنك تخون نفسك دائماً، وكذلك هذه المرة، وتضحى بها هباءً، إن علي ليس مثل مصطفى، إن علي يكره نفسه كما يكره الجميع، وقد ملأ عقله الشيطان واتخذ منه لعبة، تارة باسم الدين وتارة باسم الجماعة وتارة باسم المال والنفوذ...، لا أنكر أنك فى حاجة إلى المال، ولكن أنكر عليك عقلك الذى يكاد يهلكك فى سبيل المال السهل، اعلم أنى سامحتك على ما فعلته عندما استغللت صداقتنا يوم عدت إلى هذه البلدة، وكيف أنك ضربت القداح عن عمد، واخطأت مرة أخرى عندما لجأت إلى خضرة لتحصل على المال ..بسهولة أيضاً ...فخضرة بنت صالح وأمها ... أنت تعرفهم أكثر منى، فهم لا يفرطون فى أموالهم إلا لزيادة أموالهم، فكيف ضللك عقلك فى هذه السكة ؟، ومرة أخرى حاولت أن تحت رباح الشريعة أن تقتلنى، اعلم أنى قد سامحتك أيضاً من أجل خاطرها لأننى ظننت أنها تحبك، واغمضت عيني عن سرقتك لما انتمنت عليه، ولما علمت منها حقيقة شعورها تجاهك ..أغلقت صفحتك تماماً بعد أن فشلت أن أجعل منك رجلاً صديقاً لى.

يا حسن ..إن حقدك وضحالة تفكيرك قد أعموك، فاستمررت فى هذا الطريق الأعوج، وسرعان ما دخلت تحت عباءة ذلك الشيطان اللعين علي، وأنت تعلم أنه كاذب وشيطان، إنى أعرف كل شىء

عنه وعنك، لماذا تشارك في خراب البلدة وإفساد أهلها وشحنهم ضدى ؟ والآن ذلك الوغد وتلك العقربة اللعوب خضرة قد جعلوا منك لعبة فى أيديهم .. بل أضحوة ..

حسن : اسكت يا مصطفى .. يكفينى ما أشعر به من مهانة وحقارة، حاولت أن أتجاهلها شهور وشهور، وأنت اليوم تفتح الجرح بكل قوة وتكشف العورات، وأنت السبب ... نعم ... يوم طردتني لم أجد مأوى ولا ملاذاً أذهب إليه، فظهر علي وتقرّب إلى وأغدق على بالمال .

مصطفى : المال ؟ من أين لعلى هذا بالمال ؟؟

حسن : كنت أسأل نفسى هذا السؤال حتى زارنا أكثر من مرة مجاهداً آخر اسمه (هلال) من مدينة العاص، وذات يوم بالمصادفة رأيته يدس فى يده كومة كبيرة من المال، فأدركت أن علي يحصل على المال من آخرين، مقابل أن يقوم بتجميع الضالين حوله . لقد علمت أن ذلك الرجل له مكانة كبيرة ونفوذ فى جماعة مركزها مدينة العاص، كما علمت من علي أنه قد انضم إليه رجلان من تلك المدينة وهما يعملان عندك فى الوكالة، وهما الرجلين الذين أثرتهم على ليعملوا عندك فى مدينة العاص، أما أنا فأكنس وأمسح المسجد ..

مصطفى : أتعنى عبد الله واخيه ؟

حسن : نعم ..

مصطفى : الآن فهمت من أين بدأت الحكاية فى الوكالة عندي، من ذلك الوغد الذى ملأ رأسهما بالهراء وقلبهما على عمالى، حتى ينال منى ويخرب تجارتى وحياتى.

اسمع يا حسن ..الآن أنا أمد يدي إليك مرة أخيرة لتخرج مما أنت فيه، وأجعلك تعمل تحت إمارتي في هذه البلدة، ولكن عليك أن تكون عينا لي هنا، وأرجو هذه المرة أن تفهم أنها قد تكون الفرصة الأخيرة، وستأتي معي غدا لأقدمك إلى زعيم العسكر في البلدة كممثل لي حتى يأتذر بأمرك...، فكر بالأمر يا حسن، فإنني أقدم لك هدية غالية على طبق من ذهب .

حسن : أنا لن اشكر هذه المرة بلساني كما فعلت من قبل، ولكن سأكون شاكرا لك بعمل ما اتفقنا عليه .

وما إن خرج حسن حتى سارع مصطفى إلى نفرتال ليخبرها بما سمع، كما أخبرها بأن عليه العودة إلى وكالته حتى يستطيع أن يراقب ما يحدث هناك عن كثب .

استقر الوضع فى البلدة نسبياً، إلا أن علي لم يقف مكتوف الأيدى أمام ما فعله مصطفى فى سبيل وقف سيل ذلك الإرهاب فى البلدة، وخاصة بعد ما فقد حسن ودوره فى عملية بناء ذلك التنظيم، وقد نأى حسن بنفسه عن هذه اللعبة، وكان جاداً هذه المرة فى العمل مع مصطفى بأمانة، واغتنم هذه الفرصة ليؤكد ويرسى ويثبت مركزه فى إدارة أعمال مصطفى فى البلدة، مما رجع عليه بالمال والمكانة بين أهل البلدة، وكانت عين مصطفى على الجماعة، وكان دائم التردد على مصطفى فى مدينة العاص ليخبره بما يدور فى البلدة.

ووجدت خضرة ضالتها فى الآن تقام من مصطفى فى شخصية علي الذى تعاهدت معه على أنها له كما يريد، بل ومالها ومال مصطفى إن كان جاداً وقادراً على قتل مصطفى والنداهة.

وقد تردد علي على مدينة العاص لمقابلة هلال وكان له الحظ فى لقاء عبد الله وأخوه ضمن جماعة هلال التى قويت شوكتها فى مدينة العاص، واستقى منهما بعض المعلومات والأموال التى يتاجر بها مصطفى وأيضاً عن شريكه المسيحى، وكان مصطفى قد وضع عيناه على عبد الله وأخيه وأصبح أكثر حزمًا معهما، مما كان عليه قبل ذلك، مما أوغر صدرهما أكثر وأكثر.

وأخذ أفراد الجماعة فى مدينة العاص يمرون على الأهل والتجمعات بدعوى دعوتهم إلى الذهاب إلى المساجد والصلاة فى

جماعة، وطلب الآخرة وترك الدنيا وغيرها من هذه الأقوال، وكان لمصطفى حظاً من هذه الزيارات فى الوكالة، ولكن كان مصطفى على حذر من هؤلاء الأفراد، وكان يحاول أن ينأى بنفسه بعيداً عنهم، إلا أنهم كانوا كالجراد المنتشر، لدرجة أنه احتدم النقاش فى إحدى المرات ووصل إلى أنه تصدى لأحدهم قائلاً أنه يعرف دينه ويدوم على إقامة شعائره كما يرى .

وقد تطور الحديث مع بعض هؤلاء الأشخاص الكارهين لأنفسهم فى التطرق إلى نعت مصطفى بأنه ليس مسلماً، وأنه معروف عنه أنه يشارك ويعامل النصارى ويطلق أيديهم فى أمواله، وقد فهم مصطفى ذلك الوقت أن عبد الله وأخيه وراء هذه الزيارات، فانتقض لكرامته وكرامة شريكه و طردهم وأمرهم بعدم العودة إلى متجره مرة أخرى، إلا أنهم هددوه وتوعدوه بالرد عليه، وأنه سوف يندم على فعلته هذا قريباً.

صباح اليوم التالى لم يتوقف تراب عن النباح بطريقة غريبة وذلك منذ بزوغ الفجر، مما أثار القلق والريبة فى قلب نفرتال، و كان مصطفى معها فى حجرتها فى تلك الليلة، وقد انقضى النعاس من عينيه سائلاً نفرتال : ماذا حدث لتراب اليوم ؟ لم أسمع نباحه هكذا منذ زمن بعيد ؟ لا يوجد أشرار ولا أعداء لنا داخل البيت، فلماذا كل هذه الضجة ؟

نفرتال : إن لكل مخلوق طريقة لترجمة ما يحس به، وأن الخالق لم يضمن على أحد بنعمه التى وزعها على مخلوقاته، وأنا الأخرى أشعر بشيء ما قادم ولا أدرى ما هو، فتراب يرى بإخلاصه و حبه ووفائه ويترجم ما يدور حوله من خلالهم، وأشعر أنه يدعوك ليفضى إليك بشيء ما .

ووضع مصطفى ملابسه ثم اتجه إلى تراب خلف حديقة المنزل ليرى ماذا به، وما إن رآه تراب حتى قفز في الهواء حوله، و ما إن جلس مصطفى على الأرض الخضراء ..افترش تراب الأرض بين يديه باسطاً رجليه هو الآخر ودس رأسه في جسم مصطفى مصدرا أنيناً لم يسمعه مصطفى من قبل، فنظر مصطفى في عيني تراب قائلاً : عندي إحساس أنك تريد أن تقول شيئاً، ليت لك لسان مثلنا يمكنك من الكلام لأسمعك وأتحدث إليك، فأنت نعم المخلوق وأوفى صديق رأيته في حياتي، أسود اللون، كثيف الشعر، شرس الوجه، ولكنك تراعى الصداقة إلى أبعد ما يتصور الإنسان ، وإن لم تكن كلبا لاتخذتك صديقا وأخا وحليفا ...ماذا بك يا تراب ؟ أعتقد أنك تريد أن تعود إلى أرضك، أرض المقبرة، فهي خالية من هؤلاء الأوغاد الذين حولنا، الذين يتلاعبون بالألفاظ ويحطمون النفوس ويذبحون الأجساد، وحتى وإن وجدوا هؤلاء الأشرار في المقبرة فإنهم يكونون تحت التراب بشرهم الذى كان يؤذى الجميع، وكان تراب يستمع إليه ويصادقه على أقواله، واستمر الحديث بين الصديقين لفترة من الزمان حتى تذكر مصطفى أن عليه الاستعداد لمقابلة اليوم، فإن جرس سيمر عليه فى الوكالة ومعه ابن زعيم العسكر ( سعيد ) ليتحدثا فى مشروع جديد، وإن جميع العاملين اليوم جاهزين من حيث المظهر والعمل الجاد، فانسحب تاركا تراب وراءه بعد أن ودعه، ووعدته بالعودة إليه حتى يؤنس وحدته كما تفعل نفرتال معه.

وما إن دخل مصطفى البيت حتى رأى رباح التى ذهبت إليه فقبلها وسألها عن ولديه مالك وفارس، فأخبرته بأنهما مازالا نائمين، وأنها فى طريقها لإعداد طعام الإفطار مع نفرتال، وذهب مصطفى إلى حجرة نوم رباح حيث كان الطفلان راقيدين فى سلام

وكل منهما يحتضن الآخر، فقام بتقبيلهما وقال فى نفسه أود أن تكونا كذلك طوال حياتكما ولا تتفرقا ولا يدخل بينكما أحد، وكان يدعو الله أن يصبحا شابين يافعين أمام عينه فى تلك اللحظة، وقال لهما : كم أنتما محظوظان بأن لكما من الأم اثنتين لا مثيل لهما على وجه الأرض، وانسحب راجعا إلى حجرة الطعام حيث كانتا الزوجتان الرائعتان تتجاذبان أطراف الحديث، وقد علت البسمة وجه كلا منهما فى انتظاره، لا يمكن لأحد أن يتخيل رغم أنهما زوجتان لذات الرجل، إلا أن الحب الذى نشأ بينهما هو حب من أسمى أنواع الحب، فكل واحدة تحب حب مصطفى فى الآخري، وشعر مصطفى كم هو محظوظ أن تمنحه السماء هاتين النعمتين.. نفرتال ورباح .

وجلس على المائدة قائلا : الحمد لله الذى أنعم على بكما، لا أظن أن رجلاً فى هذا العالم يكون له قلبين مثل قلبيكما ولا جمال مثل جمالكما ، فضحكنا فى وقت واحد : ماذا بك اليوم يا مصطفى ؟ تقيض حبا وحناناً..

فرد مصطفى : أوصيكما أن تبقيا هكذا طوال حياتكما ولا تفترقا أبداً، فإنكما قوة كبيرة معا، عمادكما الحب وزرعكما الأمل والحياة، وما إن انتهى الجميع من مائدة الطعام حتى كان مصطفى فى طريقه إلى الوكالة ليكون فى استقبال سعيد و جرس.

وبينما كان مصطفى وسط العمال فى الوكالة يجعل كل شىء على ما يرام لزيارة الضيف، سمع صوتاً يلقي السلام عليه، وكان جرس ومعه سعيد وبعض العسكر على مقربة من العربية، فهم مصطفى بالذهاب إليه مرحبا بهما، وأخذوا يتبادلون الحديث .

وكان قد انتشر أفراد من الجماعة المضللة حول منطقة الوكالة كما نظم لهم من قبل علي وكان عددهم كثير، وبينما كان الثلاثة في حديث إذ انطلق صوت صياح وتعالّت الأصوات في الوكالة بين العمال، فكانما حدثت مشاجرة بينهم، فانتفض مصطفى وجرس ومن وراءه الضيف واثنين من العسكر إلى داخل الوكالة، فإذا ينقض عليهم من الخلف أفراد الجماعة، وكان عبدالله وجادالله قد بدءا باستعمال بعض السكاكين والأسلحة البيضاء في ضرب الآخرين، و تعالت الأصوات، وانهاالت أفراد الجماعة إلى داخل الوكالة على صوت الاستغاثة من عبد الله وأخيه ..الله أكبر ..الله أكبر ..و يمسون في أيديهم قطع الحديد والسكاكين، ودارت معركة سريعة قد خطط لها علي وعبدالله وأخيه مع باقى الجماعة، كان الغرض منها قتل وضرب كل من تواجد فى هذه المقابلة التى اخبر بها عبد الله وأخوه ذلك الشيطان ( علي )، وقد وجدوا فى هذه المقابلة فرصة لقتل ذلك المسلم الكافر الزنديق مصطفى ليكون عبرة لكل من تسول له نفسه أن يفضل المسيحيين على المسلمين، وكل من يرفض الصلاة فى جماعتهم، كما أوغلت صدور الأخوة بهذه الحكايات من قبل، قاصدين أن تكون أول ضربة قوية للجماعة، حتى يعلم الكافة بمولد هذه الجماعة وكذلك لقتل مصطفى فيخلو الجو لعلي فى البلدة .

وبالفعل طعن كلا من مصطفى وسعيد طعنات قاتلة أدت إلى مصرعهما، وقد تجمع خارج الوكالة كل مسلم ومسيحي عابر للطريق ليكون طرفاً فى هذه المعركة، التى كانت الأصوات بها عبارة عن دعوة من طرفى المشاجرة المفتعلة ليدخل كل صاحب مذهب فى المذبحة، وانسحب معظم أفراد الجماعة فى سرعة ملحوظة، إلا أن عبد الله وأخوه قد أصيبا بجروح فى هذه



المعركة، واختلطت دماؤهم بدماء العاملين بالوكالة، وكان دور العسكر كالعادة أن يأتوا بعد أن انتهت المعركة حتى يكون لهم دور فى المسرحية، وانتشر العسكر فأوقفوا المعركة بعد انتهائها.

ولم يصدق جرس ما حدث، وأخذ يحرك و يهز مصطفى ويناديه :...مصطفى...مصطفى...، بل أصبح أكثر ذهولا عندما نظر فى الجهة الأخرى ليجد سعيد قد مات هو الآخر، وقد أصابه الرعب لموت سعيد ابن زعيم العسكر فى وكالته التجارية وأن الأمر لا يطاق فمجاهد سوف ينكل بالكل لمقتل ابنه سعيد هنا ..

ووصل الخبر لنفرتال كصاعقة فى حضور رباح، وقد أخذتهما الصدمة من هول الخبر، و كان العفريت قد أخبر نفرتال وهو يبكي، وصاحت نفرتال : ألم تعدنى أن تحمي مصطفى؟؟..لماذا...كيف حدث ذلك؟؟، فرد العفريت أنه كان هناك وعمل كل ما أمكن أن يفعل، ولكن إرادة العفريت لا تقف أمام إرادة الله، فلأن كان مواعده لا يستأخر ساعة ولا يستقدم، فلا راد لقضاء الله، وكان جرس فى أثر العفريت يطرق الباب حاملا مصطفى بين يديه مع بعض العسكر وحولهم جمع غفير من الناس، بعد أن نقل جثمان مصطفى إلى قصره، كل ذلك ورباح صامتة تماماً فى ذهول، وأمامها مالك وفارس يلعبان أمامها، فجرت عليهما وأخذتهما فى أحضانها وأخذت الدموع تنهال من عينيها .

وما إن سمعت نفرتال هذه الأصوات خارج البيت ونباح تراب، فتماسكت وطلبت من رباح الذهاب مع الطفلين إلى داخل حجرتها، حتى لا يصدما بجثمان مصطفى المذبوح المطعون

الغارق فى دمانه وهو يدخل بيته محمولا على الأكتاف بدلا من أن كان يدخله بالبهجة والعزة فى حال حياته.

ودخل جرس مع جثمان مصطفى محمولا على الأكتاف، لقد نجح الإرهاب والفكر الأعمى أن يغتال مصطفى كما اغتال غيره، وكان جرس يردد : أنا كان قلبى حاسس بأننا لن ننجو من أيدى هؤلاء الظالمين، كل ذلك ونفرتال ثابتة بل إنها أكثر ثباتا عما كانت عليه من قبل، فوضعوا الجثمان فى حجرتها حتى يتم نقله إلى البلدة.

وأصبح جثمان مصطفى اليوم فى منزله راقداً بعد أن كان صوته يملأ أركان البيت والوكالة، وأرسلت نفرتال إلى البلدة وحسن وشيخ الجامع ليكونوا على استعداد لتشييع مصطفى إلى ساحة المقبرة، ليرقد فى سلام بجانب من سبقه فى الدور، كأنه على موعد ليجتمع مع كل من غابوا عنه منذ فترة .

وتحركت العربة التى كانت تحمل جثمان مصطفى ومعه جرس ونفرتال، وكان فى العربة الأخرى رباح والطفلين و بعض الخدم، وأمامهم وخلفهم عربة من العسكر، وكان الصمت صاحب اليد العليا، وتحدثت الدموع عما يجول فى القلوب وما تفكر به العقول، إلا أن تراب أبى إلا يكون إلا رفيق لجثمان مصطفى، وكانت نفرتال ناظرة إلى جسد مصطفى كأنها ترى وجهه من خلال الملاءة التى وضعت على وجهه، وعادت إليها ذكراها من لحظة اللقاء الأولى بينهما حتى تلك اللحظة، وكانت لا تصدق أن مصطفى قد ضاع فى لحظة ورحل من عالمنا إلى عالم الأموات وأطيافهم .

ووصلت العربة إلى بيت مصطفى بالبلدة، وكعادة المصريين عندما يرون الجثة حاضرة والواقع الجميل قد ذبح وأغتيل، فإنهم سيكون بحرقه، ويتذكرون ما فعل صاحب الجثمان من أفعال خيرية وصالحة للجميع، فأهل البلدة لا يخرجون عن كونهم مصريين، سواء مسيحيين أو مسلمين أو مجاهدين أو منافقين، فالأقنعة تسقط أمام الحقيقة ، وقد وصل الحزن إلى السماء، وارتد عاندا في لحظة لحل المعضلة التي تسقط أمام الآراء والأفكار، حتى أن بعض أهل الجماعة قد انقلب على فكره، الذي هو ضرب من ضروب الوهم، أن الدين بتجاوزاته وأسلحته الفكرية والمادية هو الطريق إلى الخالق، والحقيقة أن الطريق إلى الخالق طريق يسلكه الفرد بما يأخذ من وعاء فكرة الدين وتجربته الشخصية التي يرتقى بها في هذه العلاقة، وليس وعاء جماعي كطريق يسلكه القطيع وراء فكرة أو فرد، فالإيديولوجية الشخصية قد قتلت الإيديولوجية العامة وفهم المجتمع للتقدم والرقى، فعندما تسقط الإيديولوجية الشخصية بموت صاحبها لا يتأثر المجتمع ولا الدين، فالمجتمع لا يسقط ولكنه يعرج ويعرج حتى يصبح بالفعل أعرج من تحميله موت أشخاص لا قيمة لهم ولا لأفكارهم إلا استعبادهم للمجتمع، و يأتي آخر ليقوم بنفس الدور... وهكذا ..

وقد خرجت البلدة بأكملها عن بكرة أبيها في انتظار جثمان مصطفى، وكان حسن قد حدد موقفه، فأخذ في إعداد المقبرة، وحشد الأهالي ليشارك في إعطاء مصطفى مهابة الموت اللائقة له، فإن ما فعله مصطفى لأهل البلدة من فتح أبواب الرزق والمشاركة الفعلية والعملية لمشاكلهم كان كثيرا، بالرغم من أنه كان أحقرهم في نظرهم يوماً ما، إلا أن الوضع اختلف تماما لعلّي وجماعته الذين اختفوا من المشهد أو من غضب الأهالي، وكذلك

كان بيت خضرة فى فرح وسعادة، وقد هنأت نفسها وأهلها بما حدث لمصطفى .

وقد أفاقت نفرتال من شرودها ودموعها المتحجرة فى قلبها وعلى خدودها عند دخول الجثمان البلدة، وعلى أصوات نواح النساء وصياح الرجال، فمصطفى فى نظرهم شهيد يدعون له بالجنة ونعيمها، وما إن وقفت عربة الجثمان أمام بيت مصطفى زاد النواح وهبطت النساء من كل حدب وصوب على الباب ليساعدوا نفرتال فى فتح الأبواب، وهم الرجال مع جرس أن يرفعوا الجثمان لإعداده إلى الرحلة الأخيرة داخل بيته، حيث سجد الجثمان على فراشه، وعزلت نفرتال ورباح والأولاد مع الحريم، إلا أن تراب أبى أن يتخلى عن موقعه قرب صاحبه، وحاول الرجال طرده خارج البيت فأبى وأصر على وجوده، فخافت نفرتال عليه وحدثته بأن ينتظر بالخارج ليودع مصطفى مع الجميع إلى مثواه الأخير حيث موطنه الذى نشأ فيه وتربى فيه ويعرف أسرار ه .

وما إن خرجت الجنازة من البيت فى اتجاه ساحة المقبرة حتى كانت نفرتال وبجوارها جرس وحسن ورجال أهل البلدة وكبير العسكر هناك، وكان تراب سابقاً الجنازة يمشى إلى أرضه ساحة المقبرة.

ودفن مصطفى إلى جانب أحبائه نبوية وأمه وأم نفرتال، وانسحب الجميع بعد أداء الواجب إلى البلدة، وأصرت نفرتال على البقاء إلى جانب حبيبها مع صديقها تراب والعفريت، وعاد جرس إلى مدينة العاص، وأوكلت إليه نفرتال الوكالة كاملة تحت إدارته عندما كانوا فى العربة ليوصلوا الجثمان فى طريقهم إلى البلدة،

لأنه أكثر الأشخاص أمانة، وأحب رجل إلى قلب مصطفى وأقرب الناس إلى قلبه، فلا دين أو مذهب فى الحب والصداقة، كما عاد كلا من رباح وحسن إلى البلدة ليأخذا واجب العزاء ويكونا إلى جانب الطفلين مالك وفارس اللذين كانا أمل مصطفى وحياته وسبب رابطة الزواج التى توجت حب رباح لمصطفى .

وتمر الأيام على رباح التى كانت فى شغل دائم مع الطفلين فكانت لا تغادرهم أبدا سواء عاشوا فى المنزل أو خرجوا لزيارة الأرض أو الوكالة، أما حسن فقد أخذ مقاليد الأمور فى يده ولكن تحت بصر نفرتال ورباح وحليفيهما تراب والعفريت.

وكان بقاء نفرتال بالمقبرة ليلا شىء غير عادى لأهل البلدة، الذين كانوا ما يزالوا يخافون من هذه المقبرة ويخافون حتى الاقتراب منها بعد زوال الشمس، ولكنهم تذكروا أنها النداهة وأنها لا تخاف من الأشباح ولا الأرواح السيارة .

وقد أصبحت عادة لنفرتال أن تقضى معظم لياليها فى هذه المقبرة، إلى جانب حبيبها.. مصطفى ..

عاد جرس إلى مدينة العاص يحمل جرحا كبيرا بوفاة صديقه المخلص مصطفى ويد العون سعيد، وكان عليه ترتيب عقله ووكالته مرة أخرى، وخاصة أنه لا يزال شريكا لمصطفى بما سلمت إليه نفرتال من قول في إدارة شئون الوكالة ونصيب مصطفى وأولاده فيها، وكان أول قرار لجرس هو أن يكون جميع العمال في الوكالة من المسيحيين، فهو لن يتحمل نكسة أخرى في حياته .

وقد ذهب جرس إلى مجاهد ليؤدي مراسم العزاء في صديق عمره الراحل سعيد أيضاً، الذي كان من حظه العاثر أن يكون اغتياله أمام عينيه وفي داخل وكالته.

وكانت واقعة الاغتيال هي الصفعة إلى لطمت الصديق والعدو والآخر، واهتز لهذه الحادثة مجاهد رئيس العسكر الذى لم يفجع من قبل، فقد فقد فلذة كبده و أحد دعامتيه، فقد ذهب سعيد رجل المال و الأعمال، وبقي اسعد ابنه الآخر رجل السياسة والسلطة .

وقد بذل مجاهد من قبل مجهودا كبيرا لتتبع هذه العصابة ذات القناع الدينى، التى تهاجم المجتمع وتدمره لأغراض دنيئة، ولكنه بعد أن فقد العزيز الغالى جن جنونه وأصبح شاهرا سلاحه وانتشرت قوات العسكر فى كل مكان وكل اتجاه، تحصد كل من يتأكد أو يشك أنه ينتمى إلى تلك العصابة أو يشهد و يصمت عن أفعالها المشينة، فهى سياسة الآن تقام وليست سياسة لقهر مخطط، كعادة الولاة والعسكر، فالمجتمع آخر ما ينظر إليه فى تلك

المذبحة، فقد أصبح سلعة فى سوق السياسة .

إن أرض المعركة كانت خفية وأصبحت الآن ظاهرة بشكل أو آخر، بعدما تحولت المشاجرة بين مسلم ومسيحى إلى اغتيال سياسى، فكانت واقعة الاغتيال ملاذاً لكل فكر قد قمع أو حتى يريد أن يولد .

وثارت ثائرة مسيحى الوكالة والسوق لمن قتل منهم أو جرح، وكان جرس موضوع اللوم لأنه لم يسمع كلام أبناء دينه من قبل فى التخلص من الشراكة مع مصطفى، وتشغيل أبناء دينه فى تجارته، وخاصة أن الموسيقى التصويرية لمعركة الاغتيالات فى الوكالة كانت الله أكبر ... الله أكبر ..

وقد توصل مجاهد من خلال القبض على أحد الأخوين اللذان ساهما بقدر كبير فى إنجاح عملية الاغتيال حيث قتل الأخ الثانى، أن رأس الأفعى فى هذه العصاةة أو الجماعة هو ( هلال ) المجاهد العائد من أرض الشام وفلسطين، وقد اتضحت له الصورة وخاصة أنه تمكن من قتل بعض أفراد هذه الجماعة .

أما عن هلال هذا فقد فوجئ مثل الآخرين بما تم، وعلم أن وراء عملية الاغتيال هذه ( علي )، وكاد أن يفقد صوابه بما فعل هذا المنشق عن الجماعة، فجماعة هلال لم يكن لها جناح عسكرى للمواجهات وإراقة الدماء، ولكن علي هذا كان قائد التنظيم العسكرى السرى الذى انشق عن جماعة هلال، والذى عجل بخطوة متقدمة لم تكن قد أعلنت بعد وهى هدف الجماعة الحقيقى وهو تعطشها الدموى للسلطة والنفوذ وإدارة البلاد .

وكانت استراتيجية جماعة هلال أن تضمن الدعم المالى والفكرى

لاختراق المجتمع ثم اختراق السلطة من خلال ارتداء عباءة الدين الذى بالفهم الخاطيء له يزيد الشعوب جهلا وفقرا و مرضا ويقوض إرادتهم، ولكن ما فعله (علي) هو الكشف المبكر عم وجه الجماعة القبيح فى مهده فى أول خطوات بنائها فى مصر.

وقد أدرك هلال أن علي قد عاد إلى البلدة حيث هرب هو وآخرون، حتى يهدأ البحث عنهم من قبل العسكر وأهل الضحايا من المسيحيين، وغيرهم من عمال والوكالة والسوق فى مدينة العاص، وقام هلال بالتنقل متخفيا مع بعض أعوانه ليصلوا إلى مكان علي ليقتله لتسترد جماعته مكانتها وتستقيم أمورها.

أما علي فقد عقد العزم وخطط مع أفراد الجماعة على قتل نفرتال، وخاصة أنه علم بأنها دائمة الذهاب إلى قبر مصطفى و تقضى معظم وقتها هناك، فعلي يريد أن يقضى على أسطورة النداهة لأنها هى القوة التى رفعت مصطفى، كما أنها هى النداهة بالمعنى التقليدى المعروف فى نظر جميع أفراد البلدة، فأراد أن يقضى عليها ويقتلها خلصة وهى فى المقبرة حتى يستتب له الأمر ويضع يده على أرض ومال مصطفى، وخضرة بالطبع ..

وكان علي فى طريقه إلى مقابلة الرجال أو الأخوة قرب ساحة المقبرة لقتل نفرتال، إلا أن هلال قد كان قد وصل إلى البلدة ومعه بعض الرجال فى الخفاء، وطرق هلال الباب ... وكانت المفاجأة لعلي...فأنزعج عندما رآه، وقد أبقى هلال رجاله بالخارج حتى يقتل علي ويتخلص من هذا البلاء الجديد عليه وعلى جماعته ويدفن سره معه .

وبدت على علي ملامح الخوف لرؤية هلال فى بيته، وكان لا مفر



له من أن يدخله، وبادر هلال قائلاً بعد أن أغلق الباب : لماذا ؟.. لماذا ؟.. أيها الحشرة ؟.. من أقر لك أن تقوم بمذبحة فى السوق ؟ أنت أخللت باتفاقنا بعد أن أقررت، فرد على : ألم تكن هذه الجماعة للنيل من هؤلاء الكفرة .. مسلميهم ومسيحييهم، فرد هلال : ليس الآن يا حشرة .. لقد قتلت يا غبى ابن زعيم العسكر مجاهد .. أتعرف من هو زعيم العسكر فى نظر السلطة ؟ .. لقد كان الاتفاق بحسب الميثاق هو الانتشار وتجميع الأفراد ثم الفتنة ثم الاغتيالات، لقد قلبت كل شىء رأساً على عقب ...، أخبرنى أيضاً .. كيف تكون جناحاً عسكرياً للجماعة دون أن تخبرنى، إننى أنا صاحب هذه الجماعة ومؤسسها، ودورك فقط كان تجميع الشباب من أهل البلدة حولك .. فقط ولا شىء غير ذلك ..

فرد على : لا.. إن ما فعلت هو عين الصواب، فالآن أفراد الجماعة يعرفون أن لهم قيمة وخطة، وكان قتل ابن مجاهد فى صالحنا ومن حسن حظنا، فالفقراء والمطحونين من أهل السوق علموا الآن أنهم لهم صوت قوى يستطيع أن يرفض و يقول لا

....

إلا أن هلال قد أعد العدة لقتل علي، حيث كان فى طيات ملابسه خنجر حاد، و ما إن أدرك علي ذلك، أدار وجهه تجاه النافذة، فأخرج هلال خنجره ورشقه فى ظهر علي الذى كان يجيد الكر والفر فأفلت من الضربة وقفز من الشباك على غير هدى .

فصاح هلال على رجاله : أمسكوا به لقد قفز من الشباك، أمسكوه، ولكنه أفلت فى الظلام قاصداً بيت خضرة فى سرعة البرق.

وكاد هلال أن يموت غيظاً لأن علي أفلت منه، ولن يستطيع أن

يمسك به، كما أنه أصبح أكثر خطرا على الكل، فأيقن أن عليه أن يخلص نفسه وأن يخبر مجاهد زعيم العسكر أنه برىء مما حدث، وأن علي هو المجرم والجانى الحقيقى، حتى يخرج من هذه الورطة، فأخذ جماعته عائدا إلى مدينة العاص مرة أخرى.

وما إن طرق علي باب خضرة حتى فتحت له، وأصابتها الصدمة، فهي تعلم أن عليها أن تقى بوعدها لعلي عندما يقتل مصطفى ....، وكانت عيناها تدور فى رأسها من المفاجأة، وقالت : كيف علمت أنى لوحدى الآن ؟ وأن أهل البيت قد ذهبوا إلى أختى التى وضعت طفلا فى القرية المجاورة ؟ ...أصبت يا علي أن تأتى إلى هنا ...كنت سأتى إليك لوحدى، ثم سألت : هل ورائك أحد أو رآك أى من أهل البلدة ؟ ..

فقال علي : لا ...، فأخبرته بأن عليه أن يذهب الآن ، وبعد منتصف الليل ستأتى إلى بيته، بشرط أن يكون وحده حتى ينال منها ما يريد كما وعدته، ولكن علي كان لا يستطيع أن يرد، كما كان عليه أن يذهب إلى الرجال فقد تأخر عليهم، وعليه أن ينهى هذه المؤامرة، ثم عليه أن يفكر كيف سيغتال هلال ويتخلص من أمره حتى تستقيم له الأمور وحده، فهو لن يستطيع التراجع الآن عما قد بدأه .

وترك علي خضرة على وعد أن يكون فى انتظارها فى الموعد المتفق عليه، وأخبرها بأنه الآن فى طريقه لقتل نفرتال، وإنهاء أسطورة نفرتال النداهة، وانطلق إلى جماعته التى كانوا قد قلقوا من تأخره على مواعده معهم .

أما نفرتال فكانت جالسة على صخرتها المعتادة، وبجوارها تراب،

وكان أمامها العفريت يخبرها : الآن قد استعد الشياطين وأنهم كما يرى فى طريقهم إلينا ... إنهم هنا ليسلبوكى جسدك ويزهقوا روحك و يبددوا أسطورة النداهة، إن عددهم يا نفرتال ليس بالقليل، ولكن عليك أن تصغى إلى حتى أوفى بوعدى الذى قطعتة من قبل، فإن هذه العصاية لن تستطيع أن يملكوا مال وأرض مصطفى وتكون لهم القيادة طالما أنت موجودة، فالنداهة تعنى الكثير لأهل البلدة، وكذلك لهذه العصاية الكثير والكثير من الخوف والدماء والآلام، وأنت يا تراب عليك أن تمزق هذه الأجسام انتقاماً لمصطفى صديقك، وهنا تعالى صوت تراب فى النباح، ولكنه هذه المرة نباح مخيف ويرد عليه صدى الصوت من كل مكان من أنحاء المقبرة كأنها دعوة إلى مائدة.

كل ذلك ونفرتال صامته ...تستجمع قواها حتى تستطيع أن تحمى رباح وولديها، فقال العفريت : يا نفرتال إنهم يريدونك ويعلمون أنك هنا، فما عليكِ إلا أن تكونى هنا على صخرتك بوضوح حتى يروكى، وأنهم لن يستطيعوا الوصول إليكِ إلا من خلال ذلك الطريق حول الجبل، فإن وصلوا هنا ودخلوا الطريق، فأسلمى إلى عقلك وقلبك، وأنظرى فى عيني حتى أدخل فى جسدك، حتى إذا ما دخلت فى جسدك فما عليكِ إلا أن تلقى بحجر صغير فى اتجاههم، وأكملى نظرك بتركيز على جانب الجبل ودكيه بعقلك وسوف ينهار عليهم، ولا تتراجعى عن ذلك إذا سمعتى صراخ أو استغاثة، بل ركزى أكثر وأكثر حتى يدفنوا أحياء .

وتذكرى أنى لا أستطيع تحريك الأشياء إلا إذا دخلت جسدك دون مقاومة منك، فدعيني أنا وتراب نعاونك على القضاء على هذه العصابة التى سلبت روح حبيبك وزوجك وصديقنا مصطفى.

وصاح العفريت : لقد وصلوا إلى ساحة المقبرة .. إن عددهم كبير، ولكن معظمهم خائف أن يأتى إلى هذا المكان وهذه الأرض، ولكن كل واحد منهم يخفى خوفه، ويحاول أن يشجع نفسه .. وذلك الوغد (علي) فى وسطهم ... نفرتال... غنى الآن أنشودتك بصوت عال حتى يسمعوكى و يروكى، ولا تنسى ما أخبرتك به ..

وبدأت نفرتال تنشد الآن شودة المعتادة ولكن بصوت عال جدا، فهى تغنى لجميع أحبائها الذين فقدتهم والذين تتمنى عودتهم وكذلك الذين تتمنى سلامتهم من كل شر،.... وهنا ظهرت الشياطين فى أرض المقبرة قائلين: إنها هناك نسمعها ونراها، لا سبيل إلينا إلا أن نصعد من هذا الطريق حول الجبل لنذكرها، وهنا تعالت الصيحات ... الله أكبر ... الله أكبر ...

وأجاب تراب بنباح عجيب وعواء يصدره لأول مرة فى أرض المقبرة، والأعجب أنه قد ظهرت الاستجابات والنداءات صدى الصوت بل أيضاً من جميع كلاب المقبرة وعواء الذئاب والثعالب كأنها دعوة على الوليمة الموعودة، مما أخاف الشياطين فتباطأت الأرجل، إلا أن علي صاح فيهم : ماذا بكم ؟ أتخافون كلابا ضالة وأنتم فى هذا الجمع ؟... هيا دعونا نقضى عليها ... إنها هناك ...، فأخذ الجميع فى التحرك مرة أخرى، وما إن أصبحوا عند أول الطريق المؤدى إلى الجبل، زاد العواء والنباح وارتفع صوت الصدى الذى شاركت به جميع كلاب المقبرة والجبل حتى امتد إلى كلاب أهل البلدة، فأيقظت من ينام، وأفأقت من يضيع وأقلقت جميع من كان فردا أو فى جمع، فأحس الجميع أن هناك شىء غير عادى سوف يحدث ...

أما نفرتال فكانت تستعد للمواجهة حيث قال العفريت لها : الآن يا

نفرتال اسمحى لى بالدخول فى جسدك، ولا تقاومى، وركزى كل وجدانك والنقطى حجر فى يدك ....، ونفذت نفرتال....

وهنا تحولت نفرتال إلى كتلة بين إنسان وجان ناظرة إلى الجبل بقوة، وما إن وصلوا إلى منتصف الطريق فقذفت الحجر... فانشق الجبل ساقطا على تلك الأجساد القذرة، فدفنت تحت أنقاضها، وهرب البعض وبينهم علي مجروحين تسيل منهم الدماء النجسة، وكان تراب وأصدقائه فى انتظارهم، فكانوا طعاما لهم، وأخذ تراب ينهش جسد ذلك الشيطان علي وهو حى لىسمع صراخه وأنينه وتوسلاته، وانقضت أيضاً جميع ضواري المقبرة على تلك الأجساد نبشا فى الصخور وتحت الأنقاض لتمزق كل من كان به بعضا من الروح أو به علامة من حياة ...

وفجأة... وبعد هذه المعركة الضارية ودك الجبل وأصوات العويل والاستغااثات وصراخ الشياطين... ساد صمت غريب... وعادت المقبرة إلى حالتها الطبيعية فى صمت وسكوت ....

وهنا خرج العفريت من جسد نفرتال... وأفاقت... وصعقت عندما رأت الجبل متهدما، ولا يبقى من الأجساد إلا أشلاء وعظاماً متناثرة غير واضحة المعالم من تحت الحجارة، تنهشها الكلاب والضواري بمنتهى التوحش والانتقام، وقال العفريت : لقد فعلتنيها يا صغيرتى، لقد أوفيت بوعدى لكى، وطار فى الهواء صائحا بضحكة مدوية، وعاد تراب إلى نفرتال وهو ينظر إلى العفريت ويقفز فرحا معه بالثأر ...

وقال العفريت : علينا الآن أن نذهب إلى خضرة حتى نقضى على الشر هنا، فقصة خضرة طويلة ولا بد أن تنتهى الآن ،

فردت نفرتال : دعها يا عفريت فإنها الآن لا تستطيع أن تفعل شيئاً بعد زوال هؤلاء الشياطين،

فرد العفريت : أنا لست معك في هذا يا نفرتال، فالنفس الخبيثة التي تحملها هذه المرأة فاقت كل حد، إنها أصبحت لا تمارس الشر فقط، بل إنها تعرض عليه الآخرين... بل إنها تتتجه ... العفو معها خطير، فإن سلمنا منها ... فلن يسلم منها رباح والأطفال ... أبنائكم جميعاً أنت ورباح ومصطفى الحبيب، دعينا يا نفرتال ... دعينا نذهب إليها لنطوى صفحتها ...

فقامت نفرتال مع العفريت وتراب في طريقهم من المقبرة إلى بيت خضرة، هذه المرأة التي قد تمكن الشر منها وملأها وسكن داخلها، كانت هذه اللعوب الخائنة تترين وتعد نفسها لمنح جسدها إلى ذلك الشيطان علي كما وعدته، احتقلاً بمقتل مصطفى والنداهة ..

ووصلت نفرتال، وطرقت الباب، وفتحت خضرة، وكانت تسخن الماء على الموقد استعداداً لليلة الساخنة، وما إن رأت خضرة نفرتال حتى حاولت أن تغلق الباب بسرعة في وجهها، و لكن نفرتال بقوتها الداخلية دفعته بيدها فسقطت خضرة، ثم قامت بسرعة لتلتقط سكيناً تدافع به عن نفسها ...

فضحكت نفرتال : أعتقدين أن هذه السكين تخيفني ؟... لقد جئت لكي لأزف اليك نبأ مقتل حبيبك علي، مات شر موتة وقتل شر قتلة، ونهش صديقي تراب ما تبقى من لحمه ومص عظامه أيضاً .... أما الآن فهو دورك وإنى عازمة على الخلاص منك أنت الأخرى، فقالت خضرة : أنت كاذبة ... يا ندهة يا كاذبة ... إن

علي له روح لا تموت ... علي مجاهد في سبيل الله ... حي  
وسيقضى عليك وعلى أمثالك جميعكم ...

وتقدمت نفرتال تجاهها، فرجعت خضرة إلى الخلف فارتطمت  
بالموقد فسكبت المياة الساخنة، ووقعت على جانبها إلى الموقد  
الذى سقط عليها، وأمسكت النار بها وأمتدت لتغطيها في ثوان  
معدودة ...

فقال نفرتال وهي تنتظر إلى خضرة : لقد احترقتى نفسك بنارك  
... نار خيانتك، فأنت محترقة منذ زمن بعيد، محترقة بطمعك  
وغرورك وحقدك وغلاك .... وخرجت نفرتال من بيت خضرة  
.. وتركتها تصرخ وتتخبط في الحوائط وتسقط وتتمرغ في  
الأرض، وسرعان ما امتدت النار إلى جميع أثاث المنزل، وأصبح  
المنزل كتلة من النار من على بعد، ونفرتال ناظرة إليه نظرة  
أخيرة وهي في طريقها إلى بيتها حيث رباح والطفلين، وما هي  
إلا دقائق معدودة حتى أصبحت خضرة ومنزلها رماداً ... أثراً بعد  
عين .. وأيقن أهل القرية أن عواء ونباح الكلاب لم يكن من فراغ

..

وكانت نفرتال في حالة من الحزن والكآبة، فرغم ما حل بها من  
منتهى الظلم وما ألم بأحبائها من منتهى الغدر، فإنها لم تحاول  
تأخذ بالثأر الدامى أو تقتل أحداً، ولكن هذه الليلة كان كل شيء  
سريعاً ...، ولاحظ العفريت ذلك فقال لها : لا تحزنى يا نفرتال،  
لا بد من محاربة الشر بأى وبكل صورة، فمن يقدر يفعل، ويفعل،  
والآن حان الوقت ...

وكانت رباح لاتزال مستيقظة كباقي أهل البلدة من الأصوات

والضحيج ....وقد أدركت أن حدثا جلا قد حدث ...، فأول ما رأت نفرتال أخذتها فى أحضانها بقوة وبكيता الاثنتان معا ...

أما هلال..فما إن وصل إلى مدينة العاص حتى اتصل بأخته وعد، سائلا إياها أن تقابله على وجه السرعة، لأنه يريد أن يقابل مجاهد ليخبره عن قتل ابنه فى السوق، واستجابت وعد وأعدت له المقابلة التى تمت على الفور . وكاد مجاهد أن يفتك بهلال عندما رآه، ولكن هلال قص عليه القصة كاملة، وأنه لم يكن طرفا فى القتل أو حتى محرضا على العملية التى قام بها علي، وقتل فيها مصطفى وسعيد فى السوق، بل إنه لم يكن على علم بها، وأنه قد حاول الإمساك بعلي لقتله عقابا على فعلته هذه، ولكنه أفلت منه .

وظل هلال يستعطفه حتى يبقى على حياته ويظهر ولائه له وللوالى والسلطان مادام حيا، فتماسك وهذا مجاهد ظاهريا فقط، فلديه خطة أخرى أعدةا بعد مقتل ابنه الغالى سعيد، وتظاهر أنه يفكر، وظل هلال يستجديه، فقال مجاهد :إن أردت أن تثبت ولائك لى فعليك أن تقتل ابن وعد، فقال : أنقصد ( رستم ) بن الوزير وقائم مقامه ؟ ...، فقال مجاهد : نعم ..وتكنتم هذا الأمر وإلا قتلناك ولو كنت فى باطن الأرض ...كما أن عليك أن تسلمنى قائمة بجميع أفراد جماعتك، وجميع الوافدين إليها، وجميع من تضعوهم فى خطتكم لاختراقهم وأن تستمر فى عملك بصفة طبيعية، كل ذلك حتى أرى رأى آخر فيك، فقال هلال : ابن وعد ! ولكن ...، فرد مجاهد : لا وقت لدى لهذا الهراء...أحياتك أم حياته ؟ ...، فقال هلال: طبعاً حياتى ...، وأمهله مجاهد مدة قصيرة لتنفيذ ما طلب، وأفهمه أنه تحت عينيه، ولن تشفع له وعد ولا أى أحد على



وجه الأرض فى أى شىء يطلبه منه، وخرج هلال مهنئاً نفسه بالإفلات من أن يفتك به على يد مجاهد عازماً على أداء دوره كما أمره مجاهد.

وكان مجاهد يريد أن يزيح ابن وعد من مكانه ليحل محله ابنه الآخر (أسعد) حتى يضمن له البقاء فى الحكم، وأرسل مجاهد كتائب العسكر إلى البلدة ليقبض ويفتك بعلي قاتل ابنه سعيد، واكتشف أهل البلدة صباح اليوم التالى أن الجبل قد إنهار جزء منه على هؤلاء الرجال، فقاموا برفع الأحجار، وجمع الأشلاء المتبقية منهم قائلين أن ذلك جزء من يحارب النداة، أو يأتى إلى أرض الموت بعد غروب الشمس، وأنتشر الخبر فى البلدة، وعلم حسن أن ذلك من تدبير نفرتال النداة .

واستمر كل أهل البلدة فى ولائهم لنفرتال ورباح، وتولى جرس رعاية وإدارة الوكالة وجميع الأعمال، وتعليم الطفلين وتربيتهم والعناية بهم وجعلهم يزورون الوكالة، ويتعاملون مع العمال ويزاولون بعض من أنشطة الوكالة فى السوق، حتى تعلموا منذ نعومة أظافرهم من جرس كيف يراعى الرجال أرضهم وتجارته، حتى بلغ مالك وفارس أشدهم بفضلهم وفضل أمهاتهم، رباح الأم الحنون ونفرتال التى علمتهم أنشودتها التى تتوارثها الأجيال، وأوصتهم بتعليمها لأبنائهم وأحفادهم، وبدأ الشبان أبناء مصطفى فى إدارة أموالهم بصفة رسمية فى الأرض والوكالة فى سوق مدينة العاص مع أباهم الروحى جرس الذى كان خير الأصدقاء وأوفاهم وعدا لمصطفى .

أما نفرتال ففضت معظم وقتها بين البلدة والمقبرة، حتى كان ذلك اليوم الذى اختفت فيه نفرتال ولم تعد، ولم يعرف إذا كانت قد

ماتت أو قتلت، واختفى كذلك تراب والعفريت .. وبالطبع تكاثرت الأقوال، ولكن أهل البلدة لا يصدقون أن النداهة تموت، فهي دائماً هنا وهناك، نعم نفرتال هنا وهناك ... دائماً في كل مكان ... لا تموت كمصرنا ... عاش على أرضها الفراعنة والقدماء، والبطالمة والرومان والمسيحيون والمسلمون، ولكنها هي مصر لم تكن يوماً من الأيام أحد هؤلاء الذين عاشوا على أرضها بما حملوا من معتقدات أو ممارسات ... كلهم كانوا على أرض مصر ..

وأما مدينة العاص فكانت كالعادة في احتفالات وزينة لاستقبال الوالى الجديد من أولياء الخلافة المزعومة؛ ليجمع الضرائب والجزية ويملاً بطون قبيلته ليزيد أهل مصر فقراً وجهلاً ومرضاً.

تمت

## الكاتب فى سطور

### أبو بكر أبو الفتوح محمد الشعراوى

- بكر الشعراوى من مواليد الزمالك ١ أبريل ١٩٦٠ .
- تخرج فى جامعة القاهرة كلية الحقوق ١٩٨٣ .
- عمل بالمحاماة، وبالسینما المصرية فى مجال الافلام الروائية.
- درس فن الرسم التشکلی فى استراليا.
- شارك فى أعمال رسم الجدران لمحطة مترو الانفاق فى نیویورک.
- عمل فى مجال تدريس الرسم والألوان للأطفال فى استراليا.
- شارك فى العديد من معارض الرسم حول استراليا.
- له أعمال روائية وأدبية.